تفسير ابن كمال باشا

تأليف الإمام
شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي الحنفي
المتوفى سنة ٩٤٠ هـ في القسطنطينية
رحمه الله تعالى

يُطبع لأوّل مرّة مُحقّقاً على ستّ نُسخ خطّيّة

تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبّوش

المجلّد الثامن

مكتبة الإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

ابن كمال باشا

(٨)

حُقوق الطّبع محفُوظَة

الطبعَة الأولى

١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

9 786056 774829

الدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي مسبق من الناشر

حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصة شرعاً وقانوناً، وطبقاً لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإن حقوق التأليف والاختراع مصونة شرعاً، ولأصحابها حق التصرف فيها فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any from or by any means without written permission from the publisher.

مكتبة الإرشاد

للطباعة والنشر والتوزيع - إسطنبول

لصاحبها

محمد محفوظ أزدمير

İRSAD KİTABEVİ

SADECE ARAPÇA

تركيا - إسطنبول

هاتف: 0850 480 47 73

İskenderpaşa Mah. Feyzullah Efendi Sok. No 8 Dük:1 Fatih/İSTANBUL

www.irsad.com.tr info@irsad.com.tr fb.com /irsadkitabevi @irsadkitabevi

+90 (0) 531 285 3525

قامت بعمليات التنضيد والإخراج الفني والتنفيذ الطباعي

دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كرتاش - مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com

سُورَةُ الْقَصَصِ

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أَبانَ لازمٌ ومُتعدٍّ؛ أي: مُبينٌ خيرَه وبركتَه، أو: مُبينٌ لِمَا أُبهم[1] بيانُه.

والبيانُ: إظهارُ المعنى للنفس بما يميِّزه عن غيرِه، مشتقٌّ مِن: أَبَنْتُ كذا، إذا فصلتَه منه.

* * *

(٣) ـ ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿نَتْلُواْ﴾: نقرأ ﴿عَلَيْكَ﴾؛ أي: يَقرأ جبريلُ عليه السلام بأمرنا، ومفعول ﴿نَتْلُواْ﴾:

﴿مِن نَّبَإِ﴾ النَّبأُ: الخبرُ عمَّا هو عظيمُ الشأن.

﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾؛ أي: نتلو عليكَ بعضَ خبرِهما ﴿بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهم هم المنتفِعونَ به[2].

---

(١) في (ي): «بما يُهِمُّ»، وفي (ع): «انمايهم».

(٢) في هامش (ف) و(م): «قد مرَّ في السورة السابقة أنه لا حاجة إلى التأويل في مثل هذا بحمل المؤمن على من يؤمن في علمه تعالى، كما زعم صاحب الكشاف ومن تبعه. منه».

(٤) - ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لذلك البعض.

﴿عَلَا﴾: تعاظَمَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: مصرَ، وإنَّما عبَّر عنه بما هو اسمٌ لجهة السُّفْل؛ إشعاراً بأنَّه أَظهرَ ضدَّ ما يليقُ بشأنه.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾[1]: فِرَقاً، بأنْ أغرى بينهم العداوةَ؛ كيلا يتَّفقوا، فهو كالتمهيد لِـمَا استأنف بإخباره في قوله:

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً﴾ هم بَنُو إسرائيل ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الشِّيَع المذكورة؛ فإنَّهم لو كانوا متَّفقين لَمَا تيسَّر له ذلك.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ﴾ بدلٌ مِن الاستئناف السابق، وقد تقدَّم تفسيره في سورة الأعراف.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: مِن زمرة المعروفينَ بالفساد، فلذلك اجْتَرَأَ على قَتْل خَلْقٍ كثيرٍ لتخيُّلٍ فاسد.

* * *

(٥) - ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾.

﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ معطوفة على ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ من حيث

(١) في هامش (ف) و(م): «جمع شيعة، وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب، من شاعه: إذا تبعه، من تفسير سورة الحجر. منه».

إنَّهما واقعان تفسيراً للنبأ، أو حالٌ مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، ويجوز أن يتحقَّق تعلُّق الإرادة بتكوين في زمانٍ مترقَّب، وهذا لتكون نعمةُ المنَّة أوقعَ، وسلطانُ التقدير على التدبير أظهرَ.

﴿أَن نَّمُنَّ﴾: نتفضَّل عليهم بإنقاذهم من بأسه.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وإنَّما قال: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع عدم الحاجةِ إليه هاهنا ليتمشَّى جعلُ التعريف في ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ عِوَضاً عن الإضافة إليها[1].

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: مقدَّمين في أمرِ الدنيا والدِّين.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ أي: يرثون الأرضَ المعهودةَ، لمَّا كانت الوراثةُ أقوى سببٍ في الاستحقاق والتملك حيث لا يُعقَب بفسخٍ ولا استرجاعٍ، ولا يُبطَل بِرَدٍّ وإسقاطٍ، استُعيرت لاستحقاقهم بمنِّ الله تعالى.

* * *

(٦) ـ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يَقعد عليه ويَرقد فيه، ثم استُعير للتسليط وإطلاقِ الأمر.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أظهر في مقامِ الإضمار؛ تفخيماً لشأن تلك الأرض.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ كان هامانُ وزيرَ فرعون ومدبِّرَ ملكه، فلذلك شَرَّكهُ في إضافةِ الجنود إليهما.

---

(١) «إليها» من (م) و(ي).

﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾: من بني إسرائيل، ويتعلَّق بـ ﴿وَنُرِيَ﴾ دون: ﴿يَحْذَرُونَ﴾؛ لأن الصلة لا تتقدَّم على الموصول.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من ظهورِ موسى عليه السلام، وأمَّا ذهابُ ملكهم وهلاكُهم فليسا ممَّا أُرُوْا هم[1].

الحَذَرُ: التوقِّي من الضرورة، وزيادة ﴿كان﴾ لبيان استمرارهم مدَّة مديدة على ذلك الحذر.

***

(٧) - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ قد تقدَّم تفسيره في سورة طه.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ أي: أَلقِمي ثديَكِ فَمَهُ، و﴿أَنْ﴾ تفسيريَّة أو مصدريَّة.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ مِن القَتْل، بأنْ يَسمع الجيرانُ صوتَه فينمُّوا عليه.

﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قد مرَّ تفصيله في سورة طه.

﴿وَلَا تَخَافِى﴾ مِن الغَرق والضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ بفراقِه، والإخطارِ به، الخوفُ: هَمٌّ يلحقُ لمتوقَّع، والحزنُ: هَمٌّ يلحقُ لواقعٍ.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بوجهٍ لطيف لتربِّيه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في هذه الآية أمرانِ ونهيانِ وخبرا بشارة.

***

(١) في النسخ: «رأوهم» والصواب المثبت. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٦٤). والمراد أن ذلك مما رآه بنو إسرائيل، ولم يروه هم؛ أي: قوم فرعون.

(٨) - ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ﴾ الفاء فصيحةٌ تُفصِح عن محذوف تقديره: فأَرضَعَتْه إلى أنْ خافت عليه فألقته في اليمِّ فالتقطه ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: أَخذوه، وقد وجدوهُ من غير طلبٍ، وهو معنى الالتقاط، ومنه: اللَّقيط واللُّقَطة.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: ليصيرَ الأمر إلى ذلك، لا أنَّهم أَخذوه له، كقولهم: للموتِ ما تَلِدُ الوالدةُ، وعن هذا سَمَّوا هذه اللامَ لامَ العاقبة والصيرورة، وهي في الحقيقة لامُ التعليل، وذلك أن كونه لهم ﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لمَّا كان نتيجةَ التقاطهم له وثمرتَه، شبَّهه بالداعي الذي يفعل الفاعل لأجله، وبعد اعتبار هذا التشبيه على طريق الاستعارة الـمَكْنيَّة لم يبق حاجةٌ إلى التجوُّز في اللام كما سبق إلى بعض الأوهام[1].

﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقرئ[2]: ﴿وحُزْناً﴾[3]، وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ كان هامانُ مدبِّرَ ملكِ فرعونَ وسائسَ جنده، فلذلك أضافهم إليهما.

﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾: مُذنِبين، فعاقبهم اللهُ تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم ومَن هو سبب هلاكهم على أيديهم.

أو: كانوا خاطئين في كلِّ شيءٍ، فليس خَطؤهم في تربية عدوِّهم ببِدْعٍ منهم.

---

(١) من قوله: «وهي في الحقيقة.....» إلى هنا، سقط من (ع) و(ي).

(٢) «وقرئ» من (ف).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٧١).

وقرئ: ﴿خاطِين﴾ [١] بتخفيف: خاطئين، أو: خاطين الصوابَ إلى الخطأ[٢].

* * *

(٩) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: لفرعونَ حين أُخرِج من التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾[٣] قد مرَّ تفسيره في سورة الفرقان.

﴿لِّي وَلَكَ﴾ أي: هو قرَّة عينٍ لنا؛ لأنَّه لمَّا رَأَياهُ حين أُخرج من التابوت أحبَّاه، وفي الحديث أنَّه قال: هو لكِ لا لي، ولو قال: لي كما هو لكِ، لهداهُ الله تعالى كما هداها[٤].

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ الخطاب بلفظ الجمع للتعظيم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمْنِ ودلائلَ النفع، وذلك لمَّا رَأَت بُرْءَ البرصاءِ[٥] بريقه.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أو نتبنَّاه فإنَّه أهلٌ له.

---

(١) قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (١/ ٣٩٧).

(٢) فهو من خطا يخطو.

(٣) بعدها في (ف) و(م): «لي ولك».

(٤) ورد بنحوه ضمن خبر طويل جدًّا رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨).

(٥) في (ف) و(ك) و(م): «البرصاء برئت»، بدل: «برء البرصاء». وكلاهما صواب، والبرصاء هي بنت لفرعون لما أخرج موسى عليه السلام من التابوت عمدت إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت من ساعتها. كذا جاء في خبر طويل رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٢٠ ـ ٢٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ، وذو حالها ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ وتقدير الكلام: فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدوًّا وحَزَناً، وقالت امرأة فرعون كذا وكذا، وهم لا يشعرون أنَّهم على خَطَرٍ عظيمٍ في التقاطِه ورجاءِ النفع في تبنِّيه، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، جملة اعتراضية واقعةٌ بين المعطوفين مؤكِّدة لمعنى خَطَائهم.

وقيل: هو تمامُ كلامِ امرأةِ فرعونَ؛ أي: نتَّخذه ولداً والناسُ لا يشعرون أنه مُلتقَط، بل يظنُّون أنَّه وَلَدُنا.

***

(١٠) - ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ معطوفٌ على محذوفٍ دلَّ عليه سياقُ الكلام.

﴿فَارِغًا﴾: صُفْراً مِن العقل لِمَا دَهَمها من الخوف والحَيْرةِ حين سمعت وقوعَه في يَدِ آلِ فرعون.

وقيل: مِن الهَمِّ؛ لفرط وثوقها بوعد الله تعالى، ولسماعها أنَّ فرعونَ عَطَف عليه وتبنَّاه. ويأباه قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويردُّه على الثاني قوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾.

﴿إِن﴾ مخفَّفةٌ من الثقيلة؛ أي: إنَّها ﴿كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾: لتُظهِر به، والضمير لموسى، والمراد: أمره، والباء صلة.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ الربط على القلب: تقويته بإلهامِ الصبر والثبات.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: من المصدِّقين بوعدنا، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف؛ أي: لأَبدَتْه.

(١١) ـ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾؛ أي: اتَّبِعي أَثَره؛ أي: أَثَرَ الملتقطِينَ له وتتبَّعي خبرَه.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾؛ أي: رَأَتـهُ، والفـاء فصيحـة ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عـن بُعُـدٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: آلُ فرعـونَ لا يَعلمـون أنَّهـا أختـه.

***

(١٢) ـ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ تحريمَ منعٍ لا تحريمَ شرعٍ؛ أي: مَنَعنا أن يرضعَ ثدياً، والمراضع: جمع مُرْضِع، وهي المرأةُ التي تُرضِع، أو جمع مَرْضَع، وهو موضعُ الرَّضاع بمعنى الثدي، وقيل: أو الرَّضاع، ولا يلائمه الجمع.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أنْ رأته أخته.

﴿فَقَالَتْ﴾ أختُه وقد دخلت دارَ فرعون بين المراضع ورَأَته لا يَقبلُ ثدياً:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: أُرشدكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ احترز بذلك[١] عن الرِّقِّ ودناءَة الأصل؛ فإنَّهما مَّما يُحترَز عنه في أمرِ الرضاع.

﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بالإرضاع وغيره ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ والنصح: إخلاصُ العمل من شائبِ الفساد، وهو نقيض الغِشِّ.

روي: أنَّ هامان لمَّا سمعها[٢] قال: إنَّها لتعرفُه وأهلَه، خذوها حتى تُخبرَ بحاله.

---

(١) في (ك): «أخبرته بذلك احترازاً».

(٢) في النسخ: «سمعه»، والصواب المثبت.

فقالت: إنَّما أردتُ: وهم للمَلِك ناصحونَ، فأمرها فرعونُ بأن تأتيَ بمَن يكفله، فأَتَت بأمِّها وموسى على يدِ فرعونَ يبكي وهو يعلِّله، فلمَّا وجد ريحَ أمِّه استأنسَ والتَقَمَ ثديَها، فقال لها: مَن أنتِ منه، فقد أَبَى كلَّ ثديٍ إلَّا ثديك. قالت: إنِّي امرأةٌ طيِّبةُ الرِّيح طيِّبةُ اللَّبنِ، ما أُوتَى بصبيٍّ إلَّا قبِلني. فدفعه إليها وأَجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها مِن يومها وهو قوله:

(١٣) ـ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمُقام معه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ عِلْمَ مشاهدةٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ موعدَه حقٌّ فيرتابون فيه، فيشبه التعريضَ بما فرَط منها حين سمعت بخبرِ موسى.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: مبلغَه الذي لا يزيد عليه نشؤه، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأقاليم.

﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: واعتدلَ وتمَّ استحكامُه.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾: حكمةً ﴿وَعِلْمًا﴾: فقهاً في الدين قبل أن يُبعَث نبيًّا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الذي فعلنا بموسى وأمِّه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

* * *

(١٥) ـ ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾: مدينةَ فرعون ـ وهي منف[1] ـ بعد أن غاب عنها[2] مدة.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وقتُ القائلةِ، وقيل: ما بين العِشاءَين، ويأباه قوله: ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾.

وإنما قال: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ لأنَّ الغفلةَ هي المقصودةُ، فصار هذا كما تقول: جئتُ على غفلةٍ، وإن شئتَ قلتَ: جئتُ على حينِ غفلةٍ، بخلاف ما إذا أضفتَ إلى ما ليس بمقصود، كما إذا قلت: جئتُ حينَ غروب الشمس.

قيل: لمَّا أُوتيَ موسى عليه السلام حكماً وعلماً، عابَ ما عليه قومُ فرعون، وفَشَا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلَّا خائفاً مستخفياً.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أحدهما سِبْطيٌّ والآخر قِبْطيٌّ، والإشارة إلى الحكاية، وفي عبارة العدوِّ نوع إشارة إلى ما نقلناه آنفاً.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾: فسأله أنْ يُغيثه بالإعانة، ولذلك عُدِّيَ بـ (على).

﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؛ أي: دَفَع صدرَه بجُمْع كفِّه

---

(١) بفتح الميم وسكون العين، كذا قال ياقوت، وقال الشهاب الخفاجي في «الحاشية» (٧/ ٦٧): بضم الميم، وفتحُها وإن ذكره بعضهم لا يوثق به، والنون ساكنة، وهي ممنوعة من الصرف والمعروف فيها منوف. اهـ. وقال ياقوت: بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢١٣).

(٢) في النسخ: «عنه»، والصواب المثبت.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: فقتلَه، أصله: أنهى حياتَه، من قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إشارةٌ إلى القتل الحاصل بغيرِ قصدٍ، وإنَّما جعل قتل الكافر مِن عمل الشيطانِ وسمَّاه ظُلْماً لنفسه واستغفر منه؛ لأنَّه لم يُؤذَن له في القتل، وعن [ابن] جريج: ليس لنبيٍّ أنْ يَقتُلَ ما لم يُؤمَر(١). ولا يَقدح ذلك في عصمته عليه السلام؛ لكونه خطأ.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر الإضلال، ويلزمه ظهور العداوة بدون العكس.

* * *

(١٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتْله ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ باستغفاره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبِ المستغفرين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

* * *

(١٧) ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ قَسَمٌ جوابه محذوف تقديره: أُقسِم بإنعامِك عليَّ من المغفرة وغيره لأتوبنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ إنْ عصمتني ﴿ظَهِيرًا﴾: معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: الكافرين.

أو استعطاف، كأنه قال: ربِّ اعصِمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة، فلن أَكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين.

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ١٦٨)، وما بين معكوفتين منه.

وأراد بمظاهرة المجرمين: صحبتُه فرعونَ وانتظامُه في جملته وتكثيرُ سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد.

وقيل: أراد: أن لا أُعِينَ بعد هذا سِبطيًّا، وكان يومئذ السِّبط كفَّاراً، ومعنى ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾: مِن فرقته المتعصِّبة له نَسَباً لا دِيناً، قال ابنُ عباس: فلم يَستثن - أي: لم يقل: إن شاء الله - فابتلي ثانياً(١).

* * *

(١٨) - ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ مِن قتل القبطيِّ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: ينتظر ما يَحدث بعده.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ (إذا) للمفاجأة، وما بعده مبتدأ ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يصيحه مِن بعيد مستغيثاً من قبطيٍّ آخَرَ.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: لذلك السِّبطيِّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الغواية؛ لأنَّك تُشارُّ مَن لا تطيقه.

وقيل: لأنك تسبَّبت لقَتْل رجلٍ وتقاتلُ آخَرَ.

* * *

(١٩) - ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

ولا يناسبه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ لأنَّ تذكُّر موسى عليه السلام تسبُّبه

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٩٨).

لذلك المحظورِ باعث الإحجام لا باعث الإقدام، وإنَّما زيد (أنْ) للتأكيد والتقوية لمعنى الإرادة، والمقام يقتضيها؛ وذلك أنَّ إرادةَ البطشِ ليست على حقيقتها، لأنَّها لا تصلُح[1] لأنْ تكون سبباً للخوف، بل كناية عن بَسْط اليدِ نحو المقصود بالبطش، والتي يَتبعها الفعلُ ويرادفها إنَّما هي الإرادة البالغة إلى حدِّ العزم لا مطلق الإرادة.

﴿بِٱلَّذِى﴾؛ أي: بذلك القبطيِّ الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾: لموسى والسِّبطيِّ.

﴿قَالَ﴾ السِّبطيُّ لموسى عليه السلام وقد توهَّم أنه أراد أخذَه لا أخذَ القبطيِّ؛ حيث أَغلظ له في القول:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ﴾؛ أي: ما تريد.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ الجبَّار فعَّال، مِن جَبَرَهُ على الأمرِ بمعنى: أَجبره، وهو الذي يُجبِر الناسَ على ما يريده.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرض مصر.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بينَ الناس فتدفعَ التخاصُمَ بالذي هي أحسن، وكان قَتْل القبطيِّ بالأمسِ قد شاعَ ولكن خَفِيَ قاتلُه، فلمَّا أفشى على موسى عليه السلام عَلِم القبطيُّ أنَّ قاتلَه موسى، فأَخبر مَلَأَ فرعونَ، فهمُّوا بقتله، فخرج مؤمنٌ مِن آلِ فرعونَ وهو ابن عمِّه ليخبره كما قال:

(٢٠) - ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

---

(١) في (ف): «لا يصح».

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾: يُسرِع، صفة لـ ﴿رَجُلٌ﴾، أو حالٌ منه إذا جعل من ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ صفةً له لا صلةً لـ (جاء)؛ لأنَّ تخصيصه بها يُلحِقه بالمعارف.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾: يتشاورونَ بسببِك، وإنَّما سُمي التشاورُ ائتماراً؛ لأنَّ كلًّا من المتشاوِرَيْن يأمرُ الآخرَ ويَأتمرُ.

﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ اللام للبيان، وليس بصلة لـ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ لأنَّ معمولَ الصلة لا يتقدَّم على الموصول.

* * *

(٢١) ـ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾: من المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرُّضَ له في الطرق[1]، أو أنْ يَلحقه مَن يَطلبه.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خلِّصني منهم، واحفظني مِن لحوقهم.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ التوجُّه: الإقبالُ على الشيء ﴿تِلْقَآءَ﴾: قبالةَ ﴿مَدْيَنَ﴾ قرية شعيب عليه السلام، سُمِّيت باسم مدين بنِ إبراهيم عليه السلام، ولم تكن في سلطان فرعونَ، وكان بينها وبين مصرَ ثمانيةُ أيام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج ولم يكن له علمٌ بالطريق إلَّا حسن ظنِّه بربِّه[2].

---

(١) قوله: «في الطرق» سقط من (ي).

(٢) رواه الطبريُّ في «التفسير» (١٨/ ٢٠٣).

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وَسَطَه ومُعظَمَ نهجه، فجاءَه ملكٌ فانطلق معه إلى مدين.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾: وصل ﴿مَآءَ مَدۡيَنَ﴾: ماءَهم الذي يستقون منه، وكان بئراً.

﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ﴾ فوق شفيرها ﴿أُمَّةٗ﴾: جماعةً كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إنَّما قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع أنَّ السقي لا يكون إلَّا منهم؛ تنزيلاً لشأنهم، كأنَّه قيل: كانوا لئاماً لا يستحقُّون إلَّا التعبير باسم الجنس، بل هم في ذلك في درجةٍ احتاجوا إلى بيانِ كونهم من جنسِ الإنس.

﴿يَسۡقُونَ﴾ مواشيَهم.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾: في مكانٍ أسفلَ مِن مكانهم.

﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِ﴾: تُطرَدان غنمهما[1] عن الماء؛ لعَجْزهما عن المزاحمة مع تلك الأمَّة، تركَ المفعول في ﴿يَسۡقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِۖ﴾؛ لأنَّ الغرضَ هو الفعلُ لا المفعولُ، إذ هو يكفي في البَعث على سؤال موسى عليه السلام، وما زاد على المقصود يُعدُّ لُكْنةً وفضولاً، وأمَّا البعث على المرحمة، فليس هذا موضعه، فإنَّ له قولهما: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾.

---

(١) تحرفت في النسخ إلى: «عنهما»، والصواب المثبت. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٥٧)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٦٣٦) والكلام منه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؛ أي: ما شأنُكما تذودانِ؟ سَأَلهما عن سبب الذَّود، فأَجابا بما مرجعه إلى العَجْز عن المزاحمة، أو الاجتناب عن المخالطة.

ولمَّا اتَّجه أنْ يُقال: خِدمةُ السقي كانت للرجال، فما بالُكم تباشرونها؟ تداركتا الاعتذار عنه بما تقديره: ليس لنا راعٍ وأبونا شيخٌ كبيرٌ، فحذف صدر الكلام الاستئنافي؛ لدلالة الواو الفصيحة في أوَّل الباقي عليه.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ غنَمَنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ﴾: يَصرف الرِّعاءُ مواشيَهم عن الماء.

وقرئ: ﴿يَصْدُرَ﴾[1]؛ أي: يَنصَرف.

و﴿الرِّعَآءُ﴾: جمع راعٍ، وقرئ: ﴿الرُّعاء﴾ بضمِّ الراء[2]، وهو اسمُ جمعٍ كالرُّخال[3].

﴿وَأَبُونَا﴾ عطف على محذوف بيَّنَّاه آنفاً ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ في السِّنِّ لا يَقدِرُ على السَّقْي والرَّعْي.

* * *

(١) قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٧١).

(٢) انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢)، ونسبها لبعضهم.

(٣) في (ف) و(ك) و(م): «كالرضاء»، والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٥). والرخال بضم الراء المهملة والخاء المعجمة وفي آخره لام: جمع رَخِلة ورِخلة بكسر الراء، وهي الأنثى من أولاد الضأن. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٦٩).

(٢٤) ـ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾: فسقى غنمهما لأجلهما رغبةً في المعروف وإغاثةً للملهوف، روي أنه كانت هناك بئرٌ أخرى عليها صخرة، فأَقَلَّها وحدَهُ واستقى منها.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾: إلى ظلِّ الشجرة.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ يحتاج إلى الطعام.

قيل: كان لم يَذُق طعاماً سبعةَ أيام، وقد لَصقَ ظهرُه ببطنه، قد كان يكفيه: ربِّ إنِّي فقيرٌ، إلَّا أنه قدَّم بيانَ سبب حاجته؛ تمهيداً للاعتذار عمَّا ارتكبه من مخالفة المعتادِ بالخروج إلى السفرِ البعيد بلا زاد، ومراده مِن النازلة المذكورة ما ابتلاهُ اللهُ مِن قَتْله القبطيَّ، فإنه كان سبباً لهربه مِن مصرَ بلا تدارُكٍ لعُدَدِ السفر، وإنَّما بيَّنه بقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ دَفْعاً لِمَا يتراءى؛ مِن ظاهره التشكِّي، وإنَّما جزم بكونه خيراً لعِلمه بأنَّ الخيرَ ما اختاره الله تعالى.

* * *

(٢٥) ـ ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، روي أنَّهما لمَّا رجعا إلى أبيهما قبل الناس، قال لهما: ما أَعجَلَكما؟! قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رَحِمَنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادْعِيهِ لي.

﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾؛ أي: مستحيةً.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ ﴾: ليُكافِئك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾: جزاءَ سَقْيِك

لنا، روي أنَّها لما قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ كَرِهَ ذلك، وإنَّما أجابها لئلَّا يخيِّب قصدها؛ لأنَّ للقاصد حرمةً.

ولمَّا وضع شعيبٌ عليه السلام الطعامَ بين يديه امتنع، فقال شعيب عليه السلام: ألستَ جائعاً؟ فقال: بلى، ولكن أخاف أن يكون عِوَضاً ممَّا سقيتُ لهما، وإنَّا أهل بيتٍ لا نبيعُ ديننا بالدنيا، ولا نأخذُ على المعروف ثمناً، فقال شعيب: هذه عادَتنا مع كلِّ مَن ينزل بنا، فأَكَلَ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: أجابها موسى عليه السلام، فلمَّا جاءَ أباهما ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ القصصُ مصدرٌ كالعَلَل[1] سُمِّي به المقصوص.

﴿قَالَ﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ لا سلطانَ لفرعونَ بأرضنا.

* * *

(٢٦) ـ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني: التي استدعته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لرَعْي الغنم ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾: تعليلٌ جامع يَجري مجرى الدليل على أنَّه حقيقٌ بالاستئجار، وللمبالغة فيه جُعل ﴿خَيْرَ﴾ اسماً لـ ﴿إِنَّ﴾، وذُكر الفعلُ بلفظ الماضي؛ للدلالة على أنَّه مجرَّب معروفٌ.

روي أنَّ شعيباً عليه السلام قال لها: وما عِلْمك بقوَّته وأمانته؟ فذكَرَت إقلالَ الحَجَرِ، وأنَّه صوَّب رأسَه حتى بلغته، وأمرها بالمشي خَلْفه[2].

---

(١) مصدر علَّ، وهو يأتي بمعنى: الشرب ثانياً، أو الشرب بعد الشرب تباعاً. انظر: «القاموس» (مادة: علل).

(٢) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: (... وأما =

(٢٧) ـ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾: أُزوِّجك ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ لا دلالَة فيه على أنه كانت له غيرهما، إذ يكفي في الحاجة إلى الإشارة عدمُ علم المخاطَب بأنه كانت له غيرهما.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾: تكون أجيراً لي، من أَجَرْتُه: إذا كنت له أجيراً.

﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ظرف، والحِجَّة: السَّنَة؛ لأنَّ في كلِّ سَنَةٍ حِجَّةً، فسَمَّوا بها لتضمُّنها إيَّاها تعظيماً لها، والمعنى: على أن تجعل أجري إيَّاك على تزويجِ ابنتي رعيَ ماشيتي ثماني سنين، والتزويج على رعي الغنم جائزٌ في شريعتنا أيضاً.

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾؛ أي: عَمَلَ عشرِ حججٍ[1] ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾؛ أي: فذلك تفضُّلٌ منكَ ليس بواجبٍ عليك، أو: فإتمامه مِن عندك، ولا أحتِّمه عليك، ولكن[2] إنْ فعلتَهُ فهو منك تفضُّل وتبرُّع.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بإلزام أتمِّ الأجلَيْن، أو المناقشة في مراعاة الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمال، وحقيقةُ: شقَّ عليه الأمرُ: أنَّه إذا تعاظمك فكأنَّه[3] شقَّ عليكَ ظنَّك باثنين، تقول تارةً: أطيقه، وطَوراً: لا أطيقه.

= أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوَّب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إلي حتى بلَّغته رسالتك...)

(١) في (ف): «سنين».

(٢) في (ك) و(م): «ولكنه».

(٣) في (م): «فإنه».

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسْن المعاملة والوفاء بالعهد، ويجوز أن يُراد الصلاح على العموم، ويدخل تحت حُسْن المعاملة، والمراد باشتراط مشيئةِ الله تعالى فيما وعد مِن الصلاح: الاتِّكالُ على توفيقه تعالى فيه ومعونته.

* * *

(٢٨) ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وهو إشارةٌ إلى ما عاهده عليه شعيبٌ عليه السلام، والخبر: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، يعني: ذلك الذي قلتَه وعاهَدْتني فيه وشارَطْتني عليه قائمٌ بيننا جميعاً لا يَخرُج كلانا عنه؛ لا أنا عمَّا شرطتُ، ولا أنتَ عمَّا شرطتَ على نفسك، ثم قال:

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾، (أيَّ): نصب بـ﴿قَضَيۡتُ﴾، و(ما) زائدة مؤكِّدة لإبهام (أيَّ) وهي شرطيَّة، وجوابها:

﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾؛ أي: لا تعتدي عليَّ في طلب الزيادة، قال المُبرِّد: قد علم أنه لا عدوانَ عليه في أَتمِّهما، ولكن جَمَعهما ليجعل الأقلَّ كالأتمِّ في الوفاء، كما أنَّ طلب الزيادة على الأتمِّ عدوان، فكذا طلب الزيادة على الأقلِّ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة ﴿وَكِيلٞ﴾ هو مَن وَكَل إليه الأمرَ، وعُدِّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لأنه استعمل في موضع الشاهد والرقيب.

* * *

(٢٩) ـ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قال عليه السلام: قضى أوفاهما، وتزوَّج صغراهما[1].

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: بامرأته نحو مصرَ ﴿ءَانَسَ﴾ مرَّ تفسيره.

﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: من الجهة التي تلي الطور ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾: الْبَثُوا مكانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ مرَّ تفسيره.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ بفتح الجيم وكسرها وضمها: قطعةٌ غليظةٌ من الحطب كانت رأسُه ناراً أو لم تكن، ولذلك بيَّنه بقوله:

﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ مرَّ تفسيره.

***

(٣٠) ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أتاهُ النداءُ من الشاطئِ الأيمنِ لموسى عليه السلام ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ بتكليم اللهِ تعالى فيها، متَّصل بالشاطئ، أو صلة لـ ﴿نُودِيَ﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٠٧). قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٦): أخرجه الطبراني [في «الأوسط» (٥٤٣٠)] والبزار [في «مسنده» (٣٩٦٤)] من طريق عويد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أن النبي ﷺ سئل: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما»، قال: وسئل: أيَّ المرأتين تزوج؟ قال: «الصغرى منهما»، وعويد ضعيف. ثم ذكر عن ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة رفعه وقال: وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف.

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من الشاطئ بدل الاشتمال؛ لأنها كانت نابتةً على الشاطئ.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ (أنْ) مفسِّرة أو مخفَّفة من الثقيلة.

﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا يوافق ما في سورة طه والنمل في المقصود، وإن خالفه في اللفظ، لمَّا دَنَا من النار شملته أنوارُ القُدس وأحاطت به جلابيبُ الأُنس، فخاطب بألطفِ خطابٍ، واستدعى منه أحسنَ جواب، فصار بذلك مكلَّماً شريفاً أُعطيَ ما سأل، وأَمِنَ ممَّا خاف منه(١).

* * *

(٣١) ـ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾: ونُودي أنْ ألقِ عصاك، فألقاها فقلبها اللهُ تعالى ثعباناً.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ الفاء فصيحة ﴿تَهْتَزُّ﴾ الاهتزازُ: شدَّة الاضطراب في الحركة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ مرَّ تفسيره.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ عن المخاوف.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ قال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [الآية: ١٢] عطفاً على قوله: ﴿أَلْقِ﴾، وترك العطف هنا؛ كيلا يذهب الوهم إلى عطفه على ﴿أَقْبِلْ﴾.

---

(١) «منه» من (ي).

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ مرَّ تفسيره.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أريدَ بضمِّ الجناح إليه تجلُّدُه وضبطه نفسَه عند خروج يده بيضاءَ حتى لا يتحرَّز ولا يضطرب من الخوف، استعارةً من هيئة الطائر؛ فإنه إذا خاف نَشَرَ جناحيه وأَرخاهما، وإلَّا فجناحاه مضمومان إليه مشمَّران، فهذا القول هنا بمنزلة قوله: ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] فيما تقدَّم.

﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: مِن أجل الرَّهب، جُعل الرَّهْبُ الذي كان يصيبه سبباً وعلَّة فيما أُمر به من ضمِّ جناحه إليه، والرهب: الخوف مع تحرُّز واضطراب.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ مخفَّفاً مثنَّى (ذاك)، ومشدَّداً مثنَّى (ذلك) [1]، وإحدى النونين عوضٌ من اللام المحذوفة، والمراد: اليد والعصا.

﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾: حجَّتان نيِّرتان، وبُرْهانٌ فُعْلانٌ؛ لقولهم: أَبْرَهَ الرجلُ، إذا جاء بالبُرهان، أو: مِن قولهم: بَرِهَ الرجلُ: إذا ابيضَّ، وقيل: فُعْلالٌ، من قولهم: بَرهَنَ.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مرسلاً بهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ فكانوا أحقَّاء بأنْ يرسَل إليهم.

* * *

(٣٣) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بها.

* * *

---

(١) بالتشديد قراءة أبي عمرو وابن كثير، وباقي السبعة بالتخفيف. انظر: «التيسير» (ص: ١٧١).

(٣٤) ـ ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ الرِّدْءُ: العَونُ الذي يَدفع الشَّرَّ عن صاحبه ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾؛ أي: رِدْءاً مصدِّقاً[1]، وقرئ بالجزم[2] جواباً لـ (أرسِلْه).

ومعنى تصديقِه موسى عليه السلام: إعانتُه إيَّاه بزيادةِ البيان في مظانِّ الجدال إن احتاج ليُثبِت دعواه.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ تعليلٌ يقوم مقام الجواب المحذوف على قراءة ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بالرفع.

* * *

(٣٥) ـ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾: سنقوِّيك بأخيك، إذ اليد تشتدُّ بشدَّة العَضُد؛ لأنه قِوامُ اليد، والجملةُ تَقْوَى بشدَّة اليد على مزاولة الأمور.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا ﴾: غلبةً وتسلُّطاً أو حجَّة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ﴾ باستيلاءٍ أو حِجاجٍ.

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ متعلِّق بـ ﴿يَصِلُونَ﴾؛ أي: لا يصلونَ إليكما بسبب آياتنا، وتمَّ الكلام، أو بـ ﴿نجعل لكما سلطاناً﴾؛ أي: تسليطاً بآياتنا، أو بمحذوف؛ أي: اذهبا

---

(١) في (م) زيادة: «بها».

(٢) قرأ بالرفع عاصم وحمزة، وباقي السبعة بالجزم. انظر: «التيسير» (ص: ١٧١).

بآياتنـا، أو قَسَـمٌ جوابـه محـذوف، وهـو: لا يصلـون، حُـذف لدلالة ما قبلـه عليه.

أو هو بيانٌ لـ ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ في قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ لا صلةٌ له، بل للَّذي بيَّنه وهو الغالبون المقدَّر، أو صلةٌ له على أنَّ اللام فيه للتعريف لا بمعنى (الذي)؛ لامتناع تقدُّم الصلة على الموصول، ومعمولُ[1] الصلة في حكمها.

* * *

(٣٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾: واضحـات ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ تَختلقُـه لـم يُفعَـل مِـن قَبْـلُ مثلُـه، أو: سـحرٌ تعملـه ثـم تفتريـه علـى الله، أو: سـحرٌ موصـوفٌ بالافتـراء كسـائر أنـواع السـحر.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ يعنون السحرَ، أو ادِّعاء النبوَّة.

﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حالٌ منصوبة عن (هذا)؛ أي: كائناً[2] في زمانهم، يعني: ما حُدِّثنا بكونه فيهم.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾: فيَعلم أنَّه محقٌّ وأنتم مبطِلون،

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «وموضعه معمول». ولم أجد وجها لإقحام كلمة «موضعه».

(٢) في (ف): «كائنان».

وقرئ بغير واو[1]؛ لأنه قال جواباً لمقالهم، ووجهُ العطف: أنَّ المرادَ حكايةُ القولين؛ ليوازن الناظر بينهما، فيختبرَ صحيحَهما من الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: العاقبةُ المحمودةُ، فإنَّ المراد بالدار الدنيا، وعاقبتُها الأصليَّة هي الجنة؛ لأنها خُلقت مجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها بالذات هو الثواب، والعقاب وإنَّما قصد بالعرض.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحُسنِ العاقبة في العُقبى، والإتيان بصيغة الجمع للإيذان بأنَّ جمعَهم لا يُغني.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ نفى علمَه بإلهٍ غيرِه دون وجوده، إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم به.

ولمَّا كان الظاهرُ مِن نفي العلم في مقامٍ يقتضي نفيَ الوجود على تقدير ثبوته عند اشتباه الحال، فرَّع عليه الأمرَ ببنائه الصرحَ ليَصعد عليه ويطَّلعَ على حقيقة الحال بقوله:

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ قيل: أوَّل مَن اتَّخذ الآجُرَّ فرعونُ، ولذلك أمر باتِّخاذه على وجهٍ يتضمَّن تعليم الصنعة مع ما فيه مِن تعظُّم، ولذلك نادى هامان باسمه بـ ﴿يا﴾ في وسط الكلام بما يُؤمَر به السُّوقة.

---

(١) قرأ بها ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ١٧١).

﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ الصَّـرْح: البنـاءُ العالـي الظاهـر، ومنه: التصريح؛ لشـدَّة ظهـور المعنى.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ﴾ الطُّلُـوع والاطِّـلاع: الصعـود، وتعديتُـه بـ(إلى)، وأمَّـا تعديته بـ(على) فباعتبار تضمُّنه معنى الإشراف.

﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ حَسِبَ أنَّه في مكانٍ كما كان هو فيه.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فـي دعـواهُ أنَّ لـه إلهـاً، وأنَّه أرسـله إلينا رسـولاً، والظَّـنُّ هنـا ليس بمعنـاهُ المتعـارَف المصطَلح، وهـو الاعتقاد الراجح، بـل بمعناه اللغـويِّ؛ وهـو ما لا يكـون جازماً، سـواءٌ كان راجحـاً أو مرجوحاً أو مسـاوياً.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ أي: تعاظموا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أرضِ مصرَ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: بالباطل؛ لأنه كان بغيرِ استحقاقٍ، فإنَّ الاستكبار بالحقِّ لله تعالى.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ عبَّر عن اعتقادهم وإن كان جازماً بالظَّنِّ تحقيراً له.

﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا﴾: إلى حسابنا وجزائنا ﴿لَا يُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة، وليس هذا بعذرٍ لهم، بل ذمٌّ لهم بالجهل وتركِ التأمُّل في الآيات حتى يعلموا.

* * *

(٤٠) ـ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أَخْذَ عقوبة ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام الفخم[1] الذي دلَّ به على عِظَمِ شأنِه، شبَّههم استقلالاً بعددهم وإن كانوا الجَمَّ الغفير بحصَيَات أخَذهنَّ آخِذٌ[2] بكفِّه فطرحهنَّ في البحر.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحذِّر قومَك عن مثلها.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: قدوةً للضلال بالحَمْل على الإضلال.

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: إلى مُوجِبها من الكفر والمعاصي.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدَفْع العذاب عنهم.

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾: طَرداً عن الرحمة، أو لعنَ اللاعنين، تلعنُهم الملائكةُ والمؤمنون.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: المطرودين، أو ممَّن قُبِّحَ بسوادِ الوجوه وزُرْقة العيون، و(يوم) ظرفٌ لـ ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

* * *

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «المفحم».

(٢) في (ك): «أحد».

(٤٣) ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: التوراةَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قومَ نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾: حالٌ من الكتاب، والبصيرة: نورُ القلب الذي يُبصِر به الرشدَ، كما أنَّ البصرَ نورُ العين الذي يُبصر به، يريد: آتيناهُ التوراةَ أنواراً للقلوب؛ لأنَّها كانت عمياءَ لا تستبصِرُ ولا تَعرف حقًّا مِن باطلٍ.

﴿وَهُدًى﴾ وإرشاداً إلى الشرائع التي هي على سبيل الحقِّ ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنَّهم لو عملوا بها نالوا رحمةَ الله تعالى ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾: ليكونوا على حالٍ يُرجى منهم التذكُّر.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمَّدُ ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وهو الذي وقع فيه ميقاتُ موسى عليه السلام، فإنَّه كان في شقِّ الغرب مِن مقامه، أو: الجانب الغربي منه على أنه مِن قَبيل إضافةِ الشيءِ إلى صفتِه، كقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾: أَوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ الذي أَردنا تعريفَه.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ للوحي إليه، أو: على الوحي عليه، وهم نقباؤه السبعونَ المختارونَ للميقاتِ، والمراد: الدلالة على أنَّ إخباره عن ذلك مِن قَبيل الإخبار عن المغيَّبات التي لا تُعرَف إلَّا بالوحي، ولذلك استدرك عنه بقوله:

(٤٥) ـ ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ﴾؛ أي: ولكنَّا أَوحينا إليكَ لأنَّا أَنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى، فتطاول الأَمَدُ، فحُرِّفت الأخبار، وتغيَّرت الشرائع، واندرست العلوم، فحُذف المستدرَك وأُقيم سببُه مقامه متضمِّناً لدَفْع ما عسى أنْ يَخطُر بالبالِ مِن احتمالِ أنْ يكون إخبارُه عليه السلام عن ذلك بطريق الأَخْذ من أفواهِ الرجال.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾: مُقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: شعيبٍ عليه السلام والمؤمنين معه.

﴿تَتْلُوا۟﴾: تَقرأُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تعلُّماً منهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ التي فيها قصَّة شعيبٍ عليه السلام وقومِه، و﴿تَتْلُوا۟﴾ في موضع نصبٍ، خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن الضمير في ﴿ثَاوِيًا﴾.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيَّاك، ومُخبِرين لك بها.

* * *

(٤٦) ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أنْ خُذ الكتابَ بقوَّة.

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن﴾؛ أي: ولكنْ عرَّفناك ذلك رحمةً منَّا إظهاراً لنبوَّتك، وقرئت بالرفع(١)، على: هذه رحمةٌ.

---

(١) نسبت لأبي حيوة. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٣).

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: لوقوعِهم في فترةٍ بينك وبين خالد ابنِ سِنان القيسيِّ عليه السلام[1] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتَّعظون.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾: عقوبةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، ولمَّا كان أكثرُ الأعمال تزاوَلُ بالأيدي، نُسبت الأعمالُ إليها وإن كان من أعمال القلوب؛ تغليباً للأكثر على الأقلِّ.

﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند العذاب: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

(لولا) الأولى امتناعيَّة، وجوابها محذوف، والثانية تحضيضيَّة، والفاء الأولى

---

(١) كذا جزم المؤلف به، وفيه نظر، فقد ورد ذكره نبوته في حديث ضعيف رواه البزار (٢٣٦١ ـ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١٢٢٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو مع ضعفه مخالف لما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال في عيسى: «ليس بيني وبينه نبي»، رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥). وقال الآلوسي في «روح المعاني» (٢١/ ١٢٨): وأما العرب غير المعاصرين للنبي ﷺ فلم يأتهم من عهد إسماعيل عليه السلام نبي منهم، بل لم يرسل إليهم نبي مطلقاً، وموسى وعيسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا إليهم على الأظهر، وخالد بن سنان العبسي عند الأكثرين ليس بنبي، وخبر ورود بنت له عجوز على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لها: «مرحبا بابنة نبي ضيعه قومه» ونحوُه من الأخبار مما للحفاظ فيه مقال لا يصلح معه للاستدلال، وفي شروح «الشفاء» و«الإصابة» للحافظ ابن حجر بعض الكلام في ذلك). قلت: والحديث الذي ذكره من مجيء ابنته إلى النبي ﷺ قد قدمنا في أول التعليق تخريجه وتضعيفه.

للعطف، والثانية جوابُ (لولا)؛ لكونها في حكم الأمر، إذ الأمرُ باعثٌ على الفعل، والباعث والمخصِّص من وادٍ واحدٍ، والفاء تدخل في جواب الأمرِ، والمعنى: لولا قولُهم إذا أَصابَتْهم عقوبتُهم[1] بسبب كفرِهم ومعاصيهم: ربَّنا هلَّا أَرسلت إلينا رسولاً يبلِّغنا آياتِكَ فنتَّبعَها ونكونَ مِن المصدقين، ما أرسلناك؛ أي: إنَّما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحُجَّة عليهم.

فإن قلتَ: كيف استقامَ هذا المعنى، وقد جعلت العقوبةُ هي السببَ في الإرسالِ لا القولُ لدخول[2] (لولا) الامتناعيَّة عليها دونه؟

قلت: القول هو المقصود بأنْ يكونَ سبباً للإرسال، والعقوبة لمَّا كانت سبباً للقول وكان وجودُه بوجودها، جُعلت العقوبةُ كأنَّها سببُ الإرسال، فأُدخلت عليها (لولا)، وجِيءَ بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطيةِ معنى السببية المنبِّهةِ على أنَّ القولَ هو المقصودُ بأنْ يكون سبباً بانتفاء ما يُجاب به، وأنَّه لا يَصدُر عنهم حتى تُلجئهم العقوبة.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ أراد بالآياتِ: المعجزاتِ، وباتِّباعها: العملَ بموجَبِ دلالتها، فقوله:

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مِن المصدِّقين برسلك كالتفصيل له.

***

(٤٨) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) في (م): «عقوبة».

(٢) في (ك): «بدخول».

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾؛ أي: القرآنُ، أو الرسولُ المصدَّق بالكتاب المُعجِز ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾: هلَّا أُعطيَ ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ من الكتاب المنزل جملةً واحدةً، أو من الآيات كاليد والعصا.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ يعني: أبناءَ جنسِهم ومَن مذهبُهم مذهبَهم، وعنادُهم عنادَهم، وهم الكَفَرةُ في زمن موسى عليه السلام ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾: مِن قَبل هذا القول.

﴿قَالُوا سَاحِرانِ﴾ يعني: موسى ومحمَّداً عليهما السلام ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا بإظهار تلك الخوارق، أو بتوافق الكتابين، وقرئ: ﴿سِحۡرَانِ﴾[1]؛ أي: التوراةُ والقرآن، وإسناد تظاهرهما إليهما دلالةٌ على سبب الإعجاز.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: بكلٍّ منهما، أو: بكلِّ الأنبياء عليهم السلام.

* * *

(٤٩) - ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فإذا كذَّبتم يا معشرَ العرب بهذين الكتابَيْن، فَأْتوا بكتابٍ مِن عند الله ﴿هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ ممَّا أُنزل على موسى وعليٍّ[2]، وإضمارهما لدلالة المعنى.

﴿أَتَّبِعۡهُ﴾ جواب ﴿فَأۡتُواْ﴾.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّهما سحران مختلَقان لا هدايةَ فيهما، وهذا من الشروط التي يُراد بها الإلزامُ والتبكيتُ، وفي مجيء حرف الشَّكِّ نوعُ تهكُّم بهم.

---

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي، وباقي السبعة: ﴿ساحران﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٢).

(٢) في (ف): «على موسى ومحمد عليهما السلام».

(٥٠) ـ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دعاءَك؛ أي: الإتيانَ بالكتاب الأهدى، فحذف المفعول للعلم به، وهذا الحذف شائعٌ عند ذِكْر الداعي، وتعديتُه إليه باللام، وإلى الدعاء بنفسه، وأمَّا قولُ الشاعر:

فَلَـمْ يَسْـتَجِبْهُ عنـدَ ذاكَ مُجِيْـبُ[1]

فمعناه: فَلَم يَستجب دعاءَهُ، على حذف المضاف، فلا تعديةَ فيه إلى الداعي.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لو اتَّبعوا حُجَّةً لأَتَوا بها.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي.

﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في موضع الحالِ؛ للتأكيد أو للتقييد؛ لأنَّ هوى النفس قد يوافق الحقَّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسَهم.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ التوصيل: تكثيرُ الوصل وتكرُّره، يعني أنَّ القرآن أتاهم متتابعاً في الإنزال ليتَّصل التذكُّر، أو في النظم لتتقرَّر الدَّعوةُ بالحجَّة والمواعظُ بالمواعيد والنصائحُ بالعِبَر.

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٦٧ و١١٢ و٢٤٥ و٣٢٦) و(٢/ ١٠٧)، و«الحماسة البصرية» (١/ ٢٣٤)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ٤٣٦)، وصدره:

وداعٍ دعـا يـا مَـن يُجيـبُ إلـى النَّـدى

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيفلحوا.

* * *

(٥٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾: مِن قَبْل القرآن، وخبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾: ﴿هُم بِهِۦ﴾: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في مؤمني أهلِ الكتاب.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ أي: بأنَّه كلام الله تعالى ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾: استئنافٌ لبيانِ ما أوجبنا إيمانهم به.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾: مِن قَبْل نزولِ القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾: كائنين على دينِ الإسلام، مؤمنينَ بمحمَّد عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعليلٌ للإيمان به، لأنَّ كونه حقًّا مِن الله، حقيقٌ بأنْ يُؤمَن به، وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بيانٌ لقوله: آمنَّا؛ لأنَّه يَحتمل أن يكون إيماناً قريبَ العهد وبعيدَهُ، فأَخبروا أنَّ إيمانَهم به متقادِمٌ.

* * *

(٥٤) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرَّةً على إيمانهم بكتابهم، ومرَّةً على إيمانهم بالقرآن.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بصبرِهم على الإيمان بالقرآن قَبْلَ نزولِه وبعد نزولِه، أو بصبرِهم على أذى المشركين وأهلِ الكتاب.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالطاعة المعصيةَ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَتْبِع الحسنةَ السَّيِّئة تَمْحُها»[1].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

***

(٥٥) ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ تكرُّماً ﴿وَقَالُواْ﴾ للَّاغين: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركةً لهم وتوديعاً، ودعاءً لهم بالسلامة عمّا هم فيه.

﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: لا نطلب صُحبتهم ولا نريدها.

***

(٥٦) ـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: لا تَقدِرُ على أنْ تنوِّر قلبَ مَن أحببتَ بنور الهداية، فإنَّك شفيعُ الجناية لا شريكُ الهداية.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ لقد أصاب كلٌّ مِن عبارتي الحبِّ والمشيئةِ محزَّها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٩٨٨)، من حديث معاذ رضي الله عنه.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾: بالمستعدِّين لذلك، قال الزجَّاج: أجمعَ المفسِّرون على أنَّها نزلت في أبي طالب وإن كانت الصيغةُ عامَّةً[1].

* * *

(٥٧) - ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾؛ أي: وقالوا: يا محمَّد، إنْ نتَّبعِ الهدى فنكونَ معك، أو نتَّبعِ الهدى الذي معك، وهو القرآن.

﴿نُتَخَطَّفْ﴾ التخطُّف: الاستلابُ بسرعة.

﴿مِنْ أَرْضِنَآ﴾؛ أي: نُخرَج منها في الحال.

وهو تعلُّلٌ فاسدٌ منهم تعلَّقوا به عند عجزهم عن معارضته، فردَّ اللهُ عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾؛ أي: أَلَم ندفعْ عنهم شَرَّ العرب ولم نُمكِّن لهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: أَلَم نَجعل مكانَهم في حرمٍ ذا أمنٍ لا يُسبَونَ فيه ولا يُغار عليهم، ولا يُتعرَّض لهم بمكروهٍ.

ثمَّ هذا الحرمُ في موضعٍ لا ضرعَ فيه ولا زرعَ ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: يُجمَع ويُجلَب إليه مِن كلِّ شيء أَرفعُه وأَنفعه، كما يقال: ثمرة الكلام، ومعنى الكليَّةِ: الكثرةُ، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٤٩)، وحديث نزولها في أبي طالب رواه مسلم (٢٥/ ٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿رِزْقًا﴾ مصدرٌ؛ لأنَّ معنى ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾: يُرزَق، أو مفعولٌ له، أو حالٌ من الثمرات إن كان بمعنى: مرزوقاً؛ لتخصيصها بالإضافة، كما ينتصب عن النكرة المتخصِّصة بالصفة.

﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: تفضُّلاً منَّا، فإذا كان حالُهم وهم عبدةُ الأصنام هكذا، فكيف يعرِّضهم للتخوُّف والتخطُّف إذا ضمُّوا إلى حرمةِ البيت حرمةَ التوحيد؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: جَهَلةٌ لا يتفطَّنون له ولا يتفكَّرون ليعلموا، وقيل: متعلِّق بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: قليلٌ منهم يُقرُّون بأنَّ ذلك رزقٌ مِن عند الله، إذ لو علموا أنَّه مِن عند الله لعلموا أنَّ الخوفَ والأمنَ أيضاً مِن عند الله.

ثم بيَّن أنَّ الأمر بالعكس بأنَّهم أحقَّاءُ بأن يخافوا مِن بأس ما هم عليه بقوله:

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: وكم مِن أهلِ قريةٍ كانت حالُهم كحالِهم في الأمن وخَفْضِ العيش حتى أَشِروا، فدمَّر اللهُ عليهم، وخرَّب ديارهم.

و(كم) نصبٌ بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بحذف الجارِّ وإيصالِ الفعل، أو بجعلها ظرفاً بنفسه، كقولك[1]: زيدٌ ظنِّي مقيمٌ، أو بتقدير ظرفِ الزمان المضاف، أصله: بَطِرَت أيَّامَ معيشتِها، أو: مفعولٌ على تضمين ﴿بَطِرَتْ﴾ معنى: كَفَرت.

والبَطَر: سوءُ احتمال الغنى، وهو أنْ لا يحفظ حقَّ الله فيه.

---

(١) كتب تحتها في (ك): «أي: في ظني».

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾: منازلهم باقيةَ الآثار تُشاهدونها في الأسفار.

﴿تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ حالٌ، والعامل فيه الإشارة.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِن السُّكنى؛ أي: لم يَسكنها إلَّا المسافر ومارُّ الطريق يوماً أو ساعة.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لتلك المساكن مِن ساكنيها؛ أي: لا يملك التصرُّف فيها غيرُنا.

* * *

(٥٩) ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: ليس في عادته أنْ يُهلك القرى ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾: في أصلها وقصبتها[1] التي هي أعمالُها؛ لأن أهلها تكون أفطنَ[2] وأنبلَ ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لإلزام الحجَّة وقَطْع المعذرة.

أو: ما كان في حكم الله وسابِقِ قضائه أنْ يُهلِك قرى الأرض حتى يَبعث في أمِّ القرى ـ يعني: مكَّة ـ رسولاً، وهو محمَّد عليه الصلاة والسلام.

والظاهر المناسب لعبارة ﴿ما كان ربك﴾ هو الأول.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتوِّ في الكفر.

* * *

---

(١) في (ك): «قصبها». وفي (م): «وقضاياها».

(٢) في (ف): «أفضل».

(٦٠) ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في محلِّ النصب على الحال، وذو الحال الضميرُ العائد من الصلة إلى الموصول؛ أي: وما أُوتيتموه كائناً من شيء ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾؛ أي: وأيَّ شيء أَصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلَّا تمتُّعٌ وزينةٌ أياماً قلائلَ وهي مدَّة الحياة الفانية.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه مِن ذلك؛ لأنه لذَّة خالصةٌ وبهجة كاملة ﴿وَأَبْقَىٰٓۚ﴾ لأنه دائمٌ لا ينقطع.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ الباقيَ خيرٌ مِن الفاني فتستبدلونه به، وقرئ بالياء التحتانية[1]، وهو أبلغ في الوعظ[2].

***

(٦١) ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾: وعداً بالجنة؛ فإنَّ حُسْنَ الوعد بحُسْن الموعود.

﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾: مُدرِكه لا محالةَ؛ لعدم الخُلْف في وعده.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلام، مكدَّر بالمتاعب، مستعقِبٌ للتحسُّر على الانقطاع.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب.

---

(١) قرأ بها أبو عمرو. انظر: «التيسير» (١٧٢).

(٢) لإشعاره بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب. انظر: «حاشية الشهاب». (٧/ ٨١).

والفاء الأولى لترتيب الإنكار المستفاد مِن الاستفهام، المعنى: أنَّه لمَّا ذكر التفاوت بين متاعِ الحياة الدنيا وما عنده، عقَّبه بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾؛ أي: أَبعدَ هذا التفاوتِ الجَليِّ يسوَّى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟

والفاء الثانية للتسبيب؛ لأنَّ لقاءَ الموعود مسبَّب مِن الوعد.

و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع.

وقرئ: ﴿ثُمَّ هْوَ﴾، بسكون الهاء[1]؛ تشبيهاً للمنفصل بالمتَّصل.

* * *

(٦٢) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ نداءَ توبيخٍ، وهو[2] عطفٌ على يوم القيامة، أو منصوب بـ: اذكُر.

﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: تزعمونهم شركائي، فحُذف المفعولان لدلالة الكلام، ويجوز حذفهما في باب: ظننت، وإنْ لم يَجز الاقتصارُ على أحدهما.

* * *

(٦٣) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وغيره مِن آياتِ الوعيد:

---

(١) قرأ بها الكسائيُّ وقالون. انظر: «التيسير» (ص: ٧٢).

(٢) في (م): «وهذا».

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةٌ له، و﴿أَغْوَيْنَآ﴾ صلة لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والعائد محذوف تقديره: أغويناهم.

و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ خبرٌ المبتدأ، وتقيَّد بقوله: ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾[1] فاستفيد مِن الخبر ما لم يُستفد مِن الصلة، والكاف في ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: أغويناهم فغوَوا غيًّا مثل ما غَوَينا، يَعنُون: أنَّا لم نَغْوَ إلا باختيارِنا، فهؤلاء كذلك غَوَوا باختيارهم؛ لأنَّ إغواءَنا لهم لم يكن إلَّا وسوسَة وتسويلاً، فلا فرقَ إذاً بين غيِّنا وغيِّهم، فإنَّ تسويلنا وإنْ كان داعياً إلى الكفر، فقد كان في مقابَلته دعاء اللهِ لهم إلى الإيمان؛ بما وضع فيهم مِن أدلَّة العقل، وما بعثَ إليهم مِن الرسل، وأنزل عليهم من الكتب، فهو كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويجوز أن يكون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأً، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ خبر المبتدأ، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ استئنافُ إخبار مقيَّداً بقوله: ﴿غَوَيْنَا﴾.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ممَّا اختاروا مِن الكفر ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل يعبدون أهواءَهم ويُطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين مِن العاطف لكونهما مقدَّرتين بمعنى الجملة الأولى.

* * *

(٦٤)- ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ للمشركين: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: آلهتكم لتخلِّصكم مِن العذاب.

---

(١) في النسخ: «كما أغوينا»، والصواب المثبت. وكلمة: «وتقيد» سقطت من (ف) و(ك) و(م)، ووقعت في (ع) و(ي): «ويقيد»، والمثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لا لفرط الحيرة، بل لضرورة الامتثال.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لا لعجزهم عن الإجابة، إذ يومئذٍ يَنطقُ كلُّ شيء؛ بل لعجزِهم عن الاستجابة[1].

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الضمير للتابع والمتبوع ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي: لَـمَا رأوا العذاب.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على الأول، فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به، ثم عن تكذيبهم الأنبياءَ عليهم السلام.

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أُرسلوا إليكم.

* * *

(٦٦) ـ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: خَفِيَ عليهم الأخبار والأعذار خفاءً لا يُرجى زوالـه، فلم يستطيعوا أنْ يُجيبوا بما فيه نجاةٌ لهم، وأتى بلفظ الماضي لتحقُّق وقوعه.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾: لا يَسأل بعضُهم بعضاً عن العذرِ[2] والجوابِ؛ رجاءَ أنْ

---

(١) في هامش (ف): «من هنا ظهر وجه حسن الاستعارة المذكورة، ومن خفي عليه هذا زعم أنه من قبيل عكس الكل للمبالغة».

(٢) في (ف): «العذاب».

يكون عنده ما ليسَ عند نفسِه؛ لأنَّهم يتساوون في العَجْز عن ذلك بالسبب المذكور ـ على ما أفصح عنه الفاءُ التفريعيَّة ـ لا لفَرْط[1] الدَّهْشة كما تُوهِّم.

* * *

(٦٧) ـ ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك، و(أمَّا) هذه للإشعار بزيادة اعتناء بشأن ما دخلت عليه فيما سيقَ له الكلامُ، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧] وتصديره بالفاء؛ لتفريعه على ما أُقيم مقام قَسيمه.

﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾: وجمعَ بين الإيمان والعمل الصالح.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ يومئذٍ، و(عسى) مِن الكرام تحقيقٌ، لا ترجٍّ مِن التائب بمعنى: فلْيتوقَّع أنْ يفلح.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ ﴾: المشيئة تُجامِع الإيجابَ بالذات دون الاختيار، ففيه تنصيص للرَّدِّ على الفلاسفة، كما أنَّ في إثبات المشيئة تنصيصاً للرَّدِّ على مَن زعم أنَّه تعالى يقتضي العالَم اقتضاءَ النار للإحراق[2].

---

(١) في النسخ عدا (ك): «بفرط»، والمثبت من (ك). انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير أبي السعود» (٧/ ٨٢).

(٢) انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٨٣)، وفيه: «مقتضٍ للعالم» بدل: «يقتضي العالم».

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ترك العاطف لأنَّه تقريرٌ لِـمَا قبله، فإنَّ معنى ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ أي: يدخل تحت تكوينه كلُّ ما تعلَّق به اختياره، ويلزمه أن لا يكون لاختيارِ الغيرِ تأثيرٌ، وإلَّا لجاز أنْ لا يدخُل بعضُ ما اختاره اللهُ تعالى تحت تكوينه.

والخيَرة: مِن التخيُّر، يُستعمل بمعنى المصدر، كالطِّيَرة بمعنى التَّطيُّر؛ أي: ليس لأحدٍ مِن خلقه أنْ يختارَ عليه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: تنزيهاً له أن يُزاحِم اختيارُ أحدٍ اختيارَه.

﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي[1]: الله تعالى بريءٌ من إشراكهم.

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يقال: أكننتُ الشيءَ في صدري[2]؛ أي: أَخفيتُه، أسند الإخفاء إلى الصدور مبالغةً.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم ما أَضمروه؛ كعداوةِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام وحسدِه، وما أظهروه كمطاعنهم فيه.

* * *

(٧٠) ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾: الذات المستحقُّ للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبودَ يستحقُّها إلَّا هو، ترك العاطف لأنه تقريرٌ لِـمَا قبله.

---

(١) في (م): «إن».

(٢) قوله: «في صدري» ليس في (ف) و(م).

﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ الاختصاص المستفاد مِن تقديم الظرف باعتبار المجموع؛ فإنَّ الحمدَ في الدنيا وإن شاركه ـ تعالى ـ فيه غيرُه، فإنَّ المستحِقَّ للحمد لا يَلزم أن يكون مُولياً للنِّعم، لكن الحمد في الآخرة لا يكون إلَّا له.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ بالقضاء النافذ في كلِّ شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والنشور.

* * *

(٧١) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ﴾ إنَّما قال: ﴿عَلَيْكُمُ﴾ لأنَّ النفعَ إنَّما هو في تقلُّب[1] المَلَوَيْن، فأيٌّ منهما استمرَّ يَنقلب نفعُه ضرًّا.

﴿ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾؛ أي: دائماً، مِن السَّرد وهو المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحُرُم: ثلاثةٌ سردٌ وواحدٌ فردٌ، والميم مزيدة، ووزنه: فَعْلٌ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالكسوف، أو بإسكان الشمسِ تحت الأرض.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾ كان حقُّه: هل إلهٌ؟ فذكر ﴿مَنْ﴾ على زعمهم أنَّ غيرَه آلهةٌ.

﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفةُ ﴿إِلَٰهٌ﴾.

﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ إنَّما قال: ﴿بِضِيَآءٍ﴾ ولم يقل: بنهار، كما قال في قرينِه الآتي: ﴿بِلَيْلٍ﴾ لأنَّ النهارَ لا يَلزمه الضياءُ، على ما نبَّهت عليه آنفاً، والنَّفعُ إنَّما هو بوجود الضياء فيه، فإنه لو خَلَا عنه لانقلبَ نفعُه ضرراً، حتى قالوا: إنَّ الكسوفَ ساعةً يكون سبباً لبعض الآفاتِ مِن الزلازل وغيرها، بخلاف الليل؛ فإنَّه لا يَخلو عن النفع المذكور، مُظلماً كان أو مستنيراً.

---

(١) في (ف): «لتقلب».

ولمَّـا كان مبنـى مـا ذكـر ممَّـا لا يقـف عليـه عـوامُّ الأنـامِ إلَّا بالسـماع عـن الخـواصِّ، قـال هنـا: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ومَن ذَكَر أنَّ ذِكْرَ السـماع هنـا لكثرة منفعة الضيـاء، فقـد أَبْعَدَ.

***

(٧٢) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أخَّر أمر النهار عن أمر الليل لأنَّه أصلٌ والنهارَ عارضٌ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس فوق الأُفُق، أو بتحريك كُرَةِ الأرض على وَفْقِ حركتها، وإنَّما كان الفساد في إدامة النهار في دار التكليف ولم يكن في دار النعيم؛ لأنَّ دار التكليف لا بُدَّ فيها مِن التَّعب والنَّصب الذي يُحتاج معه إلى الجَمَام والراحة، وليس كذلك دار النعيم.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾: استراحةً عن متاعب الأشغال، وإنَّما تعرَّض لوصف الليل دون الضياء؛ لأنَّه نعمةٌ في ذاته مقصودةٌ بنفسه، ولا كذلك الليل.

ولمَّا كان ما ذُكر ممَّا يقف[1] عليه كلُّ مَن له بَصَرٌ، ولا يتوقَّف على أمرٍ آخَرَ، قال هنا: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

***

---

(١) في (ك): «يتوقف».

(٧٣) ـ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

و(مِن) في قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ للسبب.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: خَلَقهما لأجْلكم ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: في الليل، وللتنبيهِ على انفرادِ كلٍّ مِن المنفعتين في علِّيَّة كلٍّ[1] واحد منهما على التوزيع، أُعيد اللامُ في قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإنَّما حذف اكتفاءً بما ذكر في قرينِه، فيكون مِن باب اللَّفِّ والنَّشْرِ على الترتيب.

وفي التعبير بالابتغاء عن كسب العبدِ إشارةٌ إلى أنَّه لا مزيدَ له على معنى الطلب، ففيه نفيٌ للتأثير مِن جهته، كما أنَّ في قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ نفياً للإيجاب منه تعالى والوجوبِ عليه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ولكي تعرفوا نعمةَ اللهِ في ذلك فتَشكروه عليها، تعليلٌ آخرُ للجعل المذكور، ولذلك صدَّره بأداة العطف.

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرَّر التوبيخ باتخاذ الشركاء لِيُؤْذِن بأنَّه لا شيءَ لغضب الله تعالى أَجلبُ مِن الإشراك به، كما لا شيءَ أَدخلُ في مرضاته من توحيده.

* * *

(١) «كل» من (ك) و(م)، وليست في باقي النسخ.

(٧٥) ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾: أخرجنا وأحضرنا، يقال: فلانٌ نَزَعَ إلى وطنه؛ أي: يَحِنُّ إليه حنيناً يُطالبه بالخروج إليه.

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم الضالَّة؛ بدليل سياق الكلام ولَحاقه.

﴿شَهِيدًا﴾: شاهداً عليهم بما أَجابوا به رسلَهم، كما قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] وقال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩] وهذا صريحٌ في أنَّهم غيرُ الأنبياء.

﴿فَقُلْنَا﴾ لتلك الأمم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حُجَّتكم على صحَّة ما كنتم تدينونَ به.

﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهيَّة لا يُشاركه فيها أحدٌ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وغاب عنهُمْ غيبةَ الشيءِ الضائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِن أُلوهيَّة غيرِ الله تعالى والشفاعةِ لهم.

* * *

(٧٦) ـ ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ﴾: لا ينصرف للعَلَمية والعُجْمة، ولو كان (فاعولاً) مِن قرنتُ الشيءَ لانْصرفَ.

﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: كان ابنَ عمِّ موسى عليه السلام.

﴿فَبَغَىٰ﴾: تفريعٌ على مقدَّرٍ يدلُّ إجمالاً على غناهُ المفرِطِ، على ما يُفصِح عنه التفصيلُ الآتي ذِكْرُه، فالفاءُ فصيحةٌ، والبَغْي: طَلَب العلوِّ بغير حقٍّ، ومنه قيل لوُلاةِ الجَورِ: بغاةٌ.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: روي أنَّه قال لموسى عليه السلام: لكَ الرسالةُ ولهارونَ الحبورةُ[1]، وأنا في غير شيء، إلى متى أصبر؟!

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾: مِن الأموال المدَّخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ ﴿مَآ﴾ بمعنى (الذي) في موضع نصبٍ بـ ﴿آتينا﴾، و﴿إِنَّ﴾ واسمُها وخبرُها صلةُ ﴿ٱلَّذِى﴾، ولهذا كُسرت ﴿إِنَّ﴾.

والمفاتح: جمع مِفْتَح ـ بالكسر ـ وهو ما يُفتَح به بيتُ المال أو الصندوقُ.

﴿لَتَنُوٓأُ﴾ يقال: ناءَ يَنوءُ نَوءاً؛ أي: حملَ على ثقلٍ ونهضَ به على مشقَّة حتى مالَ تحتَهُ، وهو لازمٌ، وصار هنا متعدِّياً بالباء الذي في قوله:

﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾: وهي الجماعة الكثيرة ﴿أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾: الشِّدَّة.

وقرئ: لينوء بالياء[2]، على إعطاءِ المضاف حكمَ المضاف إليه.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوب بـ (بغى)، وما بينهما اعتراضٌ في مَعرض التعليل لبَغْيه، لا بـ (تنوء)، إذ لا وجهَ لتخصيصه بذلك الوقت:

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أُريد بالفرح هنا: المرح الذي يُخرِج إلى الأَشَرِ وهو البَطَر، ولذلك قال:

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الحروب». والحبورة بضم الحاء المهملة والباء الموحدة: مصدر حبر الرجل: إذا صار حبراً؛ أي: إماما مقتدى. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٨٥).

(٢) نسبت لبديل بن ميسرة. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ لأنه إذا أطلق صفة الفَرَح فهو الخارج بالمرح إلى البَطَر، فأمَّا قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠] فحَسُن بهذا التقييد[١].

***

(٧٧) ـ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغنى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بصَرْفه فيما يوجبُها لك.

﴿وَلَا تَنسَ﴾: ولا تترك تَرْك المنسيِّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: خُذْ مع هذا مِن دنياك ما لا بُدَّ لك منه في معاشِك فإنك غيرُ مَلوم على ذلك، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله تعالى ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما وسَّع عليك وبَسَط لك.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالبغي والظلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يُبغِضهم، والاكتفاء بنفي حبِّه تعالى منهم للتنبيه على أنَّ هذا القَدْر يكفي في انزجارِ العاقل عن الفساد.

***

(٧٨) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

---

(١) في (ك): «القيد».

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾؛ أي: المالَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾؛ أي: على استحقاقٍ لِمَا فيَّ مِن العلم الذي فَضَلتُ به الناس؛ وهو علم التوراة، أو علم الكيمياء، أو العلمُ بوجوهِ المكاسب؛ مِن التجارة والزراعة.

و﴿عِندِيٓ﴾ صفةٌ لـ ﴿عِلْمٍ﴾، وزيادتُه لإفادته معنى الاختصاص له.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمالِ، أو: أكثر جماعةً وعدداً، تعجُّب[1] وتوبيخ على اغتراره بقوَّته وكثرةِ ماله مع علمه بذلك[2]؛ لأنَّه قَرأه في التوراة، أو سمعه مِن حفَّاظ التواريخ، والواو للعطف على مقدَّر؛ أي: أَلَم يَقرأ في التوراة، أو: أَلَم يَسمع مِن الحفَّاظ، ولم يعلم.... إلخ، أو: ردٌّ لادِّعائه العلم وتعظُّمه [به][3] بنفي العلمِ المهمِّ عنه؛ أي: أَعنده مثلُ ذلك العلمِ الذي ادَّعى ولم يعلم هذا حتى يقيَ نفسَه مصارعَ الهالكين؟!

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلامٍ، فإنَّه تعالى مطَّلع عليها، أو معاتبةٍ؛ فإنَّهم يُعذَّبون بها بغتةً، كأنَّه لمَّا هَدَّدَ بذِكْر إهلاكِ مَن قبله ممَّن كانوا أقوى منه وأعتى، أكَّد ذلك بأنْ بيَّن أنَّه لم يكن مما[4] يخصُّهم، بل اللهُ مطَّلعٌ على ذنوب المجرمين كلِّهم يُعاقبهم عليها لا محالة.

***

---

(١) كذا في النسخ، والأولى أن يقال: (تعجيب). انظر: «تفسير البيضاوي» مع حاشية القونوي (١٤/ ٥٧٤). والمعنى: تعجيب للسامعين، فإن التعجب لا ينسب لله سبحانه وتعالى.

(٢) أي: بالإهلاك. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٨٧).

(٣) من «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٨٥)، ووقع في النسخ: «وتعظيمه»، والمثبت من المصدر المذكور.

(٤) في النسخ: «ما»، والصواب المثبت. انظر: «حاشية القونوي على البيضاوي» (١٤/ ٥٧٥).

(٧٩) ـ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ معطوفٌ على محذوفٍ دلَّ عليه مساقُ الكلام مِن عدم تنصُّحه لِـمَا قيل له، وإظهارِ أسباب البطَر، فالفاء فصيحة.

﴿فِى زِينَتِهِۦ ﴾ حالٌ مِن فاعل: (خرج)؛ أي: متزِّيناً.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ على سبيل الرغبة في اليسار: ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ غِبْطةً، والغابط: هو الذي يتمنَّى مثلَ نِعَمِ صاحبه مِن غيرِ أنْ يزولَ عنه ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ الحظُّ: الجدُّ وهو البَخْت والدولة.

* * *

(٨٠) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ ﴾ لهم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ بأحوال الآخرة:

﴿وَيْلَكُمْ ﴾ أصلُ: ويلك، دعاءٌ بالهلاك، ثم استُعمل في الزجر والرَّدع والبعث على ترك ما لا يُرتضى.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ممَّا أوتي قارونُ، بل مِن الدُّنيا وما فيها، وفي حذف المفضَّل عليه تعظيمٌ للمفضَّل، كما في قوله: اللهُ أكبرُ.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾؛ أي: لا يلقَّى هذه الكلمةَ، وهي: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ على الطاعات وعن المعاصي.

* * *

(٨١) ـ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بقارون؛ أي: ساخت به الأرضُ وأذهبت في جهة السُّفْل ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

روي أنَّه كان يؤذي موسى عليه السلام كلَّ وقتٍ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما، حتى نزلت الزكاةُ فصالَحه عن[1] كلِّ ألفٍ على واحد، فحَسَبه فاستكثره فشحَّت به نفسُه، فعمد إلى أنْ يفضحَ موسى عليه السلام بين بني إسرائيل ليرفضوه، فبَرْطَلَ بغيَّةً لترميَهُ بنفسها، فلمَّا كان يوم العيد قال موسى عليه السلام في خطبته: مَن سرقَ قطَعناه، ومَن زنَى غير محصَن جلدناه، ومَن زنى محصَناً رجمناه. فقال قارون: ولو كنتَ. قال: ولو كنتُ. قال: إنَّ بني إسرائيل يزعمون أنَّك فَجَرتَ بفلانةَ، فأُحضرت، فناشدها موسى عليه السلام بالله أنْ تَصدُقَ، فقالت: جعل لي قارونُ جُعْلاً على أنْ أرميَكَ بنفسي، فخرَّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي، قال: يا ربِّ، إنْ كنتُ رسولَكَ فاغْضَب لي، فأوحى إليه أنْ مُرِ الأرضَ بما شئت، فقال: يا أرضُ خُذِيه، فأخذته الأرضُ إلى ركبته، ثم قال: خُذِيه، فأخذته إلى وَسطه، ثم قال: خُذِيه، فأَخذته إلى عنقه، وكان قارونُ يتضرَّع إليه في هذه الأحوال وموسى لا يلتفتُ إليه؛ لشدَّة غضبه، ثم قال: خُذِيه، فانطَبقَت عليه، فقال الله تعالى لموسى عليه السلام: استغاثَ بك مراراً فَلَم ترحمه، فَوَعزَّتي لو استَرحمني مرَّةً[2] لرحمته، ثم قال بعض بني إسرائيل: إنَّما أَهلكه ليرث مالَهُ! فدعا اللهَ تعالى حتى خسفَ بداره وأمواله[3].

---

(١) في (ك): «على».

(٢) سقط من (ك).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠١٨)، والحاكم =

﴿فَمَا كَانَ﴾، فالفاءُ فصيحةٌ؛ للعطف والتفريع على محذوفٍ دلَّ على مفهومه الإجماليِّ مساقُ الكلام.

﴿لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾: أعوانٍ، مرَّ تفسيره على وجه التفصيل في سورة البقرة.

﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ إنَّما ذكر امتناعَ نصره برفع عذابِ الله مع أنَّه معلومٌ؛ لأنَّ المرادَ بيانُ أنَّه لم يكن الأمر على ما قدَّره مِن امتناعه بحاشيته وجندِه، فإنَّ ذلك الذي غرَّه حتى تمرَّد في طغيانه، ثم أخبر أنَّه كما لم يكن له مَن يَنصُره، لم يكن هو أيضاً ممَّن ينتصر بنفسه؛ لضعفه عن ذلك.

***

(٨٢) - ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾: منزلته، لم يقل: مثلَ مكانه؛ اكتفاءً بما ذكره قبل هذا ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ استُعير لزمانٍ قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ﴾؛ أي: صاروا يقول بعضُهم لبعضٍ: أَلَم تعلموا أنَّ اللهَ.

﴿وَيْكَأَنَّ﴾ كلمةُ تقريرٍ معناها: أَمَا ترى، أَمَا تعلم، قاله الفراء[1].

وروي أنَّ أعرابيَّةً قالت لزوجها: أينَ ابنُكَ؟ قال: ويكأنه وراء البيت؛ أي: أَمَا تَرَيْنَهُ؟

وقال قطرب: هما كلمتان؛ (ويك) بمعنى: ويلك، محذوف اللام، قال عنترة:

= في «المستدرك» (٣٥٣٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٢).

ولقد شَفَى نفسِي وأَبْرَأَ سُقْمَها قولُ الفوارسِ وَيْكَ عنتر أَقْدِمِ[(١)]

وهذا الحذف للتخفيف لكثرة الاستعمال.

وأمَّا ما قيل: إنَّ (وي) للتعجُّب، و(كأنَّ) للتشبيه، ففيه: أنَّ التشبيه لا يناسب المقام.

﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ بمقتضى مشيئته؛ لا لكرامة تقتضي البَسْط، ولا لهوانٍ يوجب القبض.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصَرْف ما كنَّا تمنَّيناه بالأمسِ ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ لتولِيده فينا ما ولَّده فيه[(٢)].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله، أو: المكذِّبون برسله وبما وَعَدوا لهم مِن ثواب الآخرة.

* * *

(٨٣) ـ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: ﴿تِلْكَ﴾ تعظيمٌ لها وتفخيمٌ لشأنها، كأنَّه قال: تلك التي سمعتَ خبرها وبلغك وصفُها، والدار صفة، والخبر:

﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: غلبةً وقهراً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: ظُلْماً على الناس، لم يعلِّق الموعود بترك العلوِّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميلِ القلوب

---

(١) البيت في «شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص: ١٥٢)، و«شرح القصائد العشر» للتبريزي (ص: ٢٤٩).

(٢) قوله: «لتوليده»، الضمير لقوله: «ما كنا تمنيناه». انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٥٧٥).

إليهما، كما قال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [هود: ١١٣] فعلّق الوعيد بالركون.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله تعالى.

* * *

(٨٤) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾ مرَّ في النمل.

﴿جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معناه: فلا يُجزون، فوضع ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ موضع الضمير؛ لأنَّ في إسناد عمل السيئة إليهم مكرَّراً فضلَ تهجينٍ بحالهم، وزيادةَ تبغيضٍ للسيئة إلى[1] قلوب السامعين.

﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: إلَّا مثلَ ما كانوا يعملون، وحذف المثْل وأُقيم مقامه ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مبالغةً في المماثلة.

* * *

(٨٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أوجب عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ يعني: مكَّة، أريد ردُّه عليه السلام إليها يومَ الفتح، وإنَّما نكّر لأنَّها كانت في ذلك اليومِ مَعاداً له شأنٌ، ومرجعاً له اعتدادٌ؛ لغلبة الرسول عليه

(١) في (ك): «في».

الصلاة والسلام وقهرِه لأهله، ولظهور عِزِّ الإسلام وأهلِه، وذُلِّ الكفر وحزبِه.

والسورة مكية، ولكن هذه الآية نزلت بالجُحْفَة لا بمكَّة ولا بالمدينة، حين اشتاقَ عليه الصلاة والسلام إلى مولدِه ومولدِ آبائه.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وما يستحقُّه مِن الثواب والنصر، و﴿مَن﴾ منتصبٌ بفعلٍ يفسِّره ﴿أَعۡلَمُ﴾ ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: وما استحقَّه مِن العذاب والإذلال، يعني به نفسَه والمشركين[1]، فهو تقرير للوعد السابق.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ مرَّ تفسير الرجاء في سورة الفرقان.

﴿أَن يُلۡقَىٰٓ﴾: يوحى ﴿إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ أي: سيردُّك إلى معادِك كما ألقى إليكَ الكتابَ وما كنت ترجوه ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ هذا محمولٌ على المعنى؛ أي: وما ألقى عليك الكتاب إلَّا رحمةً؛ لأجل أنْ تُرحَم، أو ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) للاستدراك؛ أي: ولكنْ لرحمةٍ مِن ربك ألقى إليك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾: عوناً ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

---

(١) «نفسَه»: من جاء بالهدى، و«المشركين»: من هو في ضلال مبين. ففي الكلام لف ونشر. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٨٩).

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: عـن قراءتهـا والعمـلِ بهـا ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾؛ أي: بعـد وقـتِ إنزاله.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾: إلى عبادته وتوحيده ﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم.

***

(٨٨) ـ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبله تهييجٌ وقطعُ أطماع المشركين عن مساعدته لهم، على أنَّ العصمة لا تمنع النهيَ.

والوقـف علـى ﴿ءَاخَرَ﴾ لازمٌ؛ لأنَّـه لو وُصِـل لصـار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفةً لـ ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وفيـه مِن الفســاد مـا فيه.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾: إلَّا ذاتـه، والوجـه يُعبَّـر به عن الـذات، وإنَّما قال: ﴿هَالِكٌ﴾ لأنَّ المـراد كونُـه كذلـك فـي حدِّ نفسـه، وذلـك ليـس بمجرَّد، فـإنَّ كلَّ ممكنٍ فـي حدِّ نفسـه ليـس بموجودٍ.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: القضاءُ النافذُ في الخَلْق.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بالحقِّ.

***

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿الٓمٓ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ مَرَّ فيه ذِكْرُ الأقاويلِ[١]، وسبَقَ التَّفصيل، وهنا دليلُ الاستقلال بنفسِه أو بما يُضمر معه، وهو وقوع الاستفهام بعده.

***

(٢) ـ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحُسبانُ: قوَّةُ أحدِ النَّقيضَيْن على الآخر، كالظَّنِّ، ولا يصحُّ تعليقُهما بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل، فإذا أردْتَ الإخبار عن مضمونٍ ثابتٍ عندَك على وجهِ الظَّنِّ لا اليقين أدخلت على شرطَي الجملة فعلَ الحسبان حتى يتمَّ[٢] غرضُك.

والكلامُ الدَّال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان هنا:

﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ فإنَّه سدَّ مَسَدَّ المفعولَيْن، كما في قوله: ﴿أَن يَسۡبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] ونظائره؛ لأنَّ المعنى: أَحَسِبَ النَّاسُ أنفسَهم متروكين.

---

(١) في (ف): «أقاويل».

(٢) في (ف): «حتى يقع».

والتَّركُ: رفضُ الشَّيء قصداً واختياراً، أوقهراً واضطراراً، ومن الأخير قولُهم: تركَةُ[١] فلانٍ: لِمَا يخلِّفُه بعدَ موته.

وثاني مفعولَي ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ متروكٌ بدلالة الحال؛ أي: كما هم، أو: على ما هم عليه.

و[٢] ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ بمعنى: لقولهم، متعلِّقٌ بـ ﴿يُتْرَكُوٓاْ﴾ على أنَّه غيرُ مستقِرٍّ.

﴿ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾: غيرَ مختبَرِين بما يتبيَّن به حقيقةُ إيمانهم.

نزلَ في جماعةٍ آمنوا وآذاهم المشركون[٣].

والمراد مِن الفتنةِ: الامتحانُ بشدائدِ التَّكليفِ؛ مِن مفارقةِ الأوطانِ، ومجاهدةِ الأعداءِ، وسائرِ الطَّاعاتِ الشَّاقةِ، وهجرِ الشَّهواتِ، وبالفقرِ والقَحطِ، وأنواعِ المصائب في الأنفسِ[٤] والأموالِ، ومصابرةِ الكفَّار على أذاهم وكيدهم.

وقيل: معناه: أَحَسِبوا تركَهم[٥] غيرَ مفتونين لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، فالتَّرْكُ أحدُ مفعولَيْن و(غير مفتونين) مِن تمامِه، و(لقولهم) هو الثَّاني كقولك: حسبْتُ ضربَه للتَّأديبِ.

وفيه الفصلُ بينَ ﴿يُتْرَكُوٓاْ﴾[٦] ومعموله.

---

(١) في (ع): «تركه»، وفي (ف) و(ك) و(م): «ترك»، والمثبت من (ي).

(٢) «و» سقط من (م).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٠٥) عن مجاهد.

(٤) في (ف) و(ك): «النفس».

(٥) في (ك) و(م): «نتركهم»، وفي (ف): «أنتركهم».

(٦) في النسخ: «تركوا»، والصواب المثبت.

وما يحسِّنه مِن الاهتمام بشأن الخبر؛ لكونه مَصَبَّ الإنكار، مُعارَضٌ بما يقبِّحه مِن إيهام أن يتركوا غير مختبرين لعلَّةٍ أخرى.

***

(٣) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾: اختبرْنا، وهو موصولٌ بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم بأنواعِ الفِتَنِ، والمعنى: إنَّ ذلك سُنَّةٌ قديمةٌ، جاريةٌ في الأزمانِ السَّالفةِ، فلا ينبغي أنْ يُتوقَّعَ خلافُها.

ويجوز أن يكون كقولِكَ: ألَا يُمْتَحنُ فلانٌ وقد[1] امتُحِنَ مَن هو خيرٌ منه؛ يعني: أنَّ بعضَ الأنبياء كزكريَّا ويحيى وجرجيس عليهم السلام قد[2] امتُحنوا وصَبروا.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحانِ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الإيمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه.

وعلْمُ الله تعالى بالكائناتِ منزَّهٌ عن النِّسبةِ إلى الزَّمانِ وعمَّا يترتَّبُ عليها مِن التَّبدُّل والتَّغيُّر، فهو هنا كناية عن تحقُّقِ المعلوم قطعاً وظهورِه على وجهٍ أبلغ، فالمعنى: ولَيتميَّزَنَّ[3] الصَّادقُ منهم مِن الكاذبِ.

قال ابن عطاء: يتبيَّنُ صدقُ العبد مِن كذبه في أوقاتِ الرَّخاءِ والبلاءِ، فمَن شكرَ في أيَّامِ الرَّخاءِ وصبرَ في أيَّام البلاء فهو مِن الصَّادقين، ومَن بطرَ في أيَّام الرَّخاء وجزعَ في أيَّام البلاء فهو من الكاذبين[4].

---

(١) في (م): «قد».

(٢) في (ك): «وقد».

(٣) في (ك): «وليتميز»، وفي (ف) و(م): «وليتميز من».

(٤) انظر: «تفسير السلمي» (٢/ ١١٣).

ويعضده قراءةُ: (فليُعْلِمَنَّ اللهُ) مِن الإعلام[١]؛ أي: ليعرِفَهم النَّاسُ مَن هم، فحذف المفعولَ الأوَّل.

ويجوز أن يكون مِن قولهم: فارس مُعْلَم؛ أي: أَعْلَمَ نفسَه في الحرب بثوبٍ أو غيره، فيكون من العلامة، فالمعنى: فليَسِمنَّهم[٢] بسِمَةٍ يُعْرَفون بها يومَ القيامةِ كبياضِ الوجهِ وسوادِه.

* * *

(٤) - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعةٌ؛ لفَقدِ شرط الاتِّصال، وهو أنْ لا يكون بعدَها جملة، ومعناه: (بل) للإضراب بمعنى الانتقال مِن قصَّة إلى قصَّة، لا بمعنى الإبطال والإضراب فيها؛ لأنَّ هذا الحسبانَ[٣] أبطلُ من الأوَّل؛ لأنَّ ذلك يُقدِّرُ أنَّه لا يُمتَحنُ لإيمانه، وهذا يظنُّ أنَّه لا يجازى بمساوئه، ولهذا عقَّبَه بالذَّمِّ.

﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ مِن المعاصي، وأمَّا الكُفْرَ فليس مِن جنسِ العملِ؛ لأنَّه لا يُقالُ إلَّا فيما كان عن فكرٍ ورويَّةٍ، نصَّ عليه الرَّاغبُ[٤]، فحالُ الكفرِ يُعلَم ممَّا ذُكِرَ دلالةً.

﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾: أن[٥] يفوتونا فلا نَقدِر على أنْ نجازيَهم على مساوئِهم؛ يعني:

---

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤).

(٢) في (ك): «فلنسمنهم».

(٣) في (ك) و(م): «الحساب».

(٤) لم أقف عليه.

(٥) في (ي): «أي يفوتونا».

أنَّ الجزاءَ يلحقُهم لا محالَة، واشتمال صلة ﴿أن﴾ على مسنَدٍ ومسندٍ إليه سدَّ مَسدَّ المفعولَيْن.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ﴿مَا﴾ في موضِع رفعٍ على معنى: ساءَ الحكمُ حكمُهم، أو نصبٍ على معنى: ساءَ حكماً يحكمون، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ؛ أي: بئسَ حُكماً يحكمونه حكمُهم هذا.

* * *

(٥) ـ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾: يترقَّبُ ثوابَه، أو: يخافُ عقابَه، فالرَّجاء يحتمِلُهما.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المضروبَ للثَّوابِ والعقاب ﴿لَأٓتٖۚ﴾ لا محالةَ، تعليلٌ لجوابِ الشَّرطِ المحذوفِ، تقديرُه: فليبادِرِ العملَ الصَّالح الذي يصدِّقُ رجاءَه ويحقِّقُه.

وإتيانُ الوقتِ المضروبِ لهما كنايةٌ عن إتيانهما، والتَّعبيرُ عنهما بلقاءِ اللهِ تعميمٌ[١] للتَّفخيم والتَّهويل، وإضافتُه إلى اللهِ في الموضعَيْن للتَّعظيم.

ويجوز أن يكون على تمثيل حالِه بحالِ عبدٍ قدِمَ على سيِّدِه بعدَ زمانٍ مديدٍ وقد اطَّلعَ السَّيِّد على أحوالِه، فإمَّا أن بلقاه ببِشْرٍ بما رضيَ مِن أفعالِه، أو بسخطِه لِـمَا سخطَ منها[٢].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِما يقولُ عبادُه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يفعلونه، فلا يفوتُه شيءٌ.

* * *

(١) «تعميم» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٢) في (ك): «أو بسخط أي سخط منها»، وفي (ف): «أو سخطه أي سخط منها».

(٦) ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسَه بالصَّبر على مخالفتِها في طاعة الله تعالى.

﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ لأنَّ منفعةَ ذلك ترجعُ إليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا نفعَ له في طاعتِهم ومجاهدتِهم، وإنَّما كلَّفهم رحمةً عليهم ومراعاةً لمصالحهم.

* * *

(٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التَّكفيرُ: إذهابُ السَّيئةِ بالحسنةِ كإذهابِ الكُفْرِ بالإيمان، والمعصيةِ بالتَّوبة.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنَّما قالَ: ﴿أَحْسَنَ﴾ لأنَّ المباح حسنٌ، ولا جزاءَ له.

* * *

(٨) ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾: بإيتائهما[1] فعلاً ذا حُسْنٍ، أو ما هو في ذاته حَسَنٌ لفَرْطِ حُسْنِهِ، ووصَّى حُكمُه[2] حُكمُ أَمَر في معناه وتصرُّفه، ومعنى وصَّيْتُ زيداً بعمروٍ: أمرتُهُ بتعهُّدِه ومراعاته.

---

(١) في النسخ: «بإتيانهما»، والصواب المثبت. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٤٢)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٨٩)، و«تفسير النسفي» (/ ٦٦٥).

(٢) في (ع): «حكم».

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾؛ أي: وقلنا: وإنْ جاهدَاكَ ﴿لِتُشْرِكَ بِي[١] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني: بإلهيَّته، عبَّر عن نفيها بنفي العلم إشعاراً بأنَّ ما لا يُعْلَمُ صحَّتُه لا يجوز اتِّباعُه وإنْ لم يُعلَمْ بطلانُه، فضلاً عمَّا عُلِمَ بُطلانُه.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية[٢] الخالق.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: مرجعُ المطيعِ والعاصي منكم.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاءِ عليه.

وفي ذكر المرجع والوعيد تحذيرٌ مِن متابَعَتْهما على العصيان، وحَثٌّ على الثَّباتِ والاستقامة في الطَّاعة، روي أنَّ سعدَ بنَ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه لَمَّا أسلم نذرَتْ أمُّه أنْ لا تأكلَ ولا تشربَ ولا تنتقل من الضِّحِّ[٣] حتى يرتدَّ، ولبثَتْ ثلاثةَ أيَّام كذلك، فشكى سعدٌ رضي الله عنه إلى النَّبيِّ عليه السلام، فنزلَتْ هذه الآية، والتي في سورة لقمان، والتي في الأحقاف[٤].

* * *

(٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ﴾: في الأنبياء والأولياء بأنْ نحشرَهم معهم.

---

(١) في (ك) و(م) زيادة: «شيئا».

(٢) في (ف) و(ي): «معصيته».

(٣) الضِّحُّ: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض. انظر: «النهاية» (مادة: ضحح).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٤١)، و«الكشاف» (٣/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣) دون سند عندهم. وروى نحوه مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢)، والترمذي (٣١٨٩). والتي في لقمان الآيتان (١٤ ـ ١٥)، والتي في الأحقاف الآية (١٥).

(١٠) ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ في الإخبار عنهم بأنَّهم مِن النَّاس تحقيرٌ لشأنهم.

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته، و﴿فِى﴾ للسَّببية كما في ﴿لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢].

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أذاهم له للصَّرْفِ عن طاعة الله تعالى.

﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الخوفِ منه[١] فيطيعهم.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي[٢]: فتحٌ وغنيمةٌ.

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أي: مشايعين لكم في دينِكم، فأعطُونا نصيبنا[٣] مِن المغنَمِ.

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾ صيغة أَفعلَ هنا لمطلق الزِّيادة وإثباتِ العلم على الوجه الأبلغ، و(أو)[٤] للعطف على محذوفٍ تقديرُه: أليس الله بأشدَّ عذاباً[٥] من النَّاس.

﴿بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاص والنِّفاق، فكيف يَتوهَّم هذا المنافقُ أنْ يَخفَى حالُه على المسلمين ولا يخبرُهم اللهُ به وهو عالمٌ، فهذا تهديدٌ دنيويٌّ له، كما أنَّ قولَه:

---

(١) في (ك) و(م): «منهم».

(٢) «أي» من (م).

(٣) في (ك): «نصيباً».

(٤) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (والواو)، والصواب المثبت.

(٥) في (م): «علما».

(١١) ـ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ تهديدٌ أخرويٌّ، كَنى بالعلمِ عن أثرِه، وهو الجزاء على المعلوم، وعبَّر عن الإخلاص بالإيمان؛ إخراجاً للإقرار باللِّسان الخالي عن التَّصديق بالجَنان عن حدِّ الإيمان.

وفي اختلافِ الصِّيغتَيْنِ إشعارٌ بثبات المنافقِ على النِّفاق ومزيَّته على الكفر بزيادة التَّقرُّر في محلِّه.

* * *

(١٢) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ أمرُوهم باتِّباعِ سبيلِهم، وهي طريقتُهم التي كانوا عليها في دينِهم، وأَمروا أنفسَهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمرَ على الأمرِ، وأرادوا: ليَجتمعْ هذان الأمران في الحصول، والمعنى: تعليق الثَّاني على الأوَّل على وجهِ المبالغةِ، والوعدِ بتخفيف الأوزار عنهم ـ إنْ كانت[1] ـ تشجيعاً لهم على الاتِّباع، ولهذا رَدَّ عليهم وكذَّبهم بقوله:

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في ذلك، ﴿مِنْ﴾ الأُولى للتَّبيين، والثَّانية مزيدة لتأكيد الاستغراق.

* * *

(١) قوله: «إن كانت»؛ أي: إن وجدت، فهي تامة، وضمير الفاعل يعود على «الأوزار». انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٩٤).

(١٣) ـ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾: أوزارَ أنفسِهم بضلالِهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: وأوزارَ الضَّالِّين[1] بإضلالهم، وهو كما قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون على اللهِ، سؤالَ توبيخٍ.

واللَّام في الفعلَيْن للقَسَم، وحذف فاعلُهما ـ الواوُ ـ ونونُ[2] الرَّفع.

***

(١٤) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بعدَ المبعَثِ إلى حدوثِ الطُّوفان، واختيار هذه العبارة لِمَا في ذكرِ الألْف مِن تخييل طول المدَّة إلى السَّامع؛ فإنَّ المقصودَ تسليةُ رسولِ اللهِ عليه السلام، وتثبيتُه على ما يكابدُ مِن الكفرة.

وجِيءَ بالمميِّز أوَّلاً بالسَّنة ثمَّ بالعامِّ لأنَّ تكرارَ لفظٍ واحدٍ في كلامٍ واحدٍ حقيقٌ بالاجتناب في البلاغة.

﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ هو ما أطافَ وأحاطَ بكثرةٍ وغلبةٍ، مِن سيلٍ أو ظلامِ ليلٍ[3] أو نحوهما، والواقعُ طُوفان الماءِ.

---

(١) في (ي): «وأوزاراً للضالين».

(٢) في (ف) و(ك): «والواو والنون».

(٣) «ليل» سقط من (ك).

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أنفسَهم بالكفْرِ.

* * *

(١٥) ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾؛ أي: نوحاً ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ أي: والذين حملَهم نوحٌ عليه السلام في السَّفينةِ.

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ أي: السَّفينةَ؛ لأنَّها[1] بقيَتْ أعواماً حتى مرَّ عليها النَّاسُ ورأَوْها، فحصل لهم العلمُ بها، أو: الحادثةَ.

﴿ءَايَةً﴾: علامةً أو عبرةً ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعتبرون بها.

* * *

(١٦) ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف على ﴿نُوحًا﴾، وقرئ بالرَّفع[2] على تقدير: ومِن المرسلين إبراهيمُ.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ظرفٌ لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ففيه دلالةٌ على أنَّه لم يتهاونْ في أمرِ الرِّسالةِ حيث بلَّغ الدَّعوةَ كما أُمِرَ.

﴿وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممَّا أنتم عليه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنْ كنتم مِن أهل العلمِ.

---

(١) في (ك) و(م): «لا لأنها»، وفي هامش (م): «لعل لفظ (لا) زائد».

(٢) نسبت لأبي جعفر في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥).

(١٧) - ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ الوثَنُ: ما يُعمَل من حجر أو طين.

﴿وَتَخْلُقُونَ﴾؛ أي: تكذِبون، أو: تصنعون[١]، وقرئ: (تُخلِّقونَ)[٢] مِن خَلَّق بمعنى التَّكثير في خَلَق.

﴿إِفْكًا﴾ وقرئ: (أَفِكاً)[٣]، وهو مصدر نحو كَذِب ولَعِب، والإفْكُ مخفَّفٌ عنه كالكِذْبِ واللِّعْبِ من أصلهما، واختلاقهم الإفْكَ بتسميتِهم الأوثانَ آلهةً وشركاءَ للهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ استدلَّ أوَّلاً على شرارةِ ما هم عليه مِن حيثُ إنَّه زورٌ وباطلٌ، ثمَّ استدلَّ عليه مِن حيثُ إنَّه لا يجدي بطائلٍ.

و﴿رِزْقًا﴾ يَحتمِل النَّصب على المصدر؛ أي: لا يستطيعون أنْ يرزقُوكم، وأنْ يُرادَ المرزوق، وتنكيرُه للتَّعميم.

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ﴾ لا عندَ الأسبابِ ﴿الرِّزْقَ﴾ كلَّه، إنَّما لم يقلْ: مِن اللهِ؛ لعدمِ الدِّلالةِ[٤] فيه على الأمرِ بترك الاعتماد على الأسباب العاديَّة.

ثمَّ بيَّنَ طريقَ الطَّلبِ فقال: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: في كلِّ حالٍ ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ لِمَا مَضى[٥] مِن الإفضالِ، مستعدِّين للقائِه بها، فإنَّه:

---

(١) في (ي): «وتصنعون».

(٢) نسبت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والسلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥).

(٣) نسبت لابن الزبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥).

(٤) في (ف) و(ك) و(م): «دلالة».

(٥) في (ف): «لما ما من»، وفي (م): «بما مضى».

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم بما عملْتُم مِن الشُّكر والكُفْران، والعبادة والطُّغيان، وهو وعدٌ ووعيدٌ.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ كقومِ نوح وهود وصالح ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: وإنْ تكذِّبوني فلا تضرُّونني[1] بتكذيبِكم؛ فإنَّ الرُّسلَ قبلي قدْ كذَّبهم أمَمُهم، وما ضرُّوهم وإنَّما ضرُّوا أنفسَهم؛ حيثُ حلَّ بهم العذابُ بسببِ تكذيبِهم، وأمَّا الرَّسول فقد تمَّ أمرُه حينَ بلَّغَ البلاغَ المبين الذي زال معه الشَّكُّ، وهو اقترانُه بآياتِ اللهِ ومعجزاتِه.

أو: وإنْ كنْتَ مُكَذَّباً فيما بينكم فلي في سائرِ الأنبياء أُسوةٌ حيث كُذِّبوا، وعلى الرَّسول أنْ يبلِّغَ[2]، وما عليه أنْ يُصدَّقَ ولا يُكذَّبَ، فالآية وما[3] بعدَها مِن جُملَة قصَّة إبراهيمَ عليه السلام.

* * *

(١٩) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ وقرئ بالتَّاء[4] على تقدير القولِ.

﴿كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ أي: قد رأوا ذلك وعلموه. وقوله:

---

(١) في (ك): «تضروني».

(٢) في (ف): «وما على الرسول إلا أن يبلغ».

(٣) في (ك): «جامعة» بدل «وما».

(٤) وهي قراءة أبي بكر وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٣).

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يُبْدِئُ﴾، وليسَتِ الرُّؤيةُ واقعةً عليه، وإنَّما هو إخبارٌ على حِيالِه[1] بالإعادة بعدَ الموت، كما وقع النَّظرُ في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] على البدء دون الإنشاء، بل هو معطوف على جملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الإعادةَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: سهلٌ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿قُلْ﴾ حكاية كلام الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ على كثرتِهم واختلافِ أحوالِهم؛ لتعرفوا عجائبَ فِطرةِ اللهِ تعالى في المشاهدَةِ، وبدأَ وأبدأَ بمعنى.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾ بعدَ النَّشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنَّه والإعادةَ نشأتان من حيثُ إنَّ كلًّا اختراعٌ وإخراجٌ مِن العدمِ.

ولَمَّا كانَ المقصودُ مِن السِّياق الاستدلالُ مِن الابتداء على الإعادة، والدَّليلُ النَّفسي أقربُ وأوضحُ من الآفاقي، ذكرَ الرُّؤيةَ في الأوَّلِ والنَّظرَ في الثَّاني، وكانَ القياسُ أنْ يُقالَ: كيفَ بدأ الله الخلقَ، ثم ينشئ النَّشأة الآخرة، وإنَّما قيل: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ لأنَّ الكلامَ معهم وقعَ[2] في الإعادة،

---

(١) في (ك): «مثاله». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٦٧٠).

(٢) «وقع» مكررة في (ك).

فلمَّـا قرَّرهـم فـي الإبـداء بأنَّـه مِـن اللهِ تعالى، احتـجَّ عليهم بـأنَّ الإعـادة إنشـاءٌ مثلُ الإبـداءِ، فـإذا لـم يُعجِزْهُ الإبـداءُ وجـبَ أنْ لا يعجـزَه الإعـادةُ، فكأنَّه قال: ثـمَّ ذلك الـذي أنشـأَ النَّشـأةَ الأولى هو الذي ينشـئُ النَّشـأة الآخـرة، فللتَّنبيه على هـذا المعنى أبرزَ اسـمَه وأوقعَـه مبتدأً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومِن جملة الأشياء ما يُعاد، فهو قادرٌ على الإعادةِ.

* * *

(٢١) ـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبَه ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمتَه ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: تردُّون.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربَّكم؛ أي: لا تفوتونه إنْ هربتم مِن حُكمِه وقضائِه.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفسـيحةِ ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ التـي هي أفسـحُ منها وأبسـطُ لو كنتُم فيها.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولَّـى أمورَكـم فيحرُسَـكم عـن بلائي ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنـعُ عذابـي ويدفَعُـه عنكم.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: بدلائلِه على وحدانيَّته، أو بكتبه ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالبعث.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ في الدُّنيا لإنكار البعث والجزاء.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ بكفرِهم.

* * *

(٢٤) ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: قومِ إبراهيمَ عليه السلام، وقرئ بالرَّفع[1] على أنَّه الاسم، والخبر:

﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ أي: قال بعضُهم لبعضٍ، أو: قال واحدٌ منهم وكانَ الباقون راضين، ثم اتَّفقوا على تحريقِه.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء فصيحة؛ أي: قذفوه فيها، فأنجاه اللهُ مِن النَّار بجعلِها عليه برداً وسلاماً.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: في إنجائه منها ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ هي عدمُ تأثيرها فيه مع شدَّةِ توقُّدِها، وكونُها باردةً عليه، وحارَّةً على ما هي[2] عليه.

رُوي: أنَّها لم تحرِقْ إلَّا الحبل الذي أوثقوهُ به[3].

---

(١) نسبت للحسن وسالم الأفطس. انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٢)، و«البحر المحيط» (١٧/ ١٢٠).

(٢) «هي» سقط من (ك) و(ي) و(ع) و(م).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٣).

ورُوي: أنَّه لم يُنتفع ذلك اليوم بالنَّار لذهابِ حرِّها(١).

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنَّهم المنتفِعون بها.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ أي: لِتَتوادُّوا بينكم وتتواصلوا؛ لاجتماعكم على عبادتها، واتِّفاقكم عليها كما يتَّفق النَّاسُ على مذهبٍ فيكون ذلك سببَ تحابِّهم.

وثاني مفعولي ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿مَّوَدَّةَ﴾ المفعولَ الثَّانيَ بتقدير مضاف أو بتأويلها بالمودودة؛ أي: اتخذتم أوثاناً سببَ(٢) المودَّة بينكم.

وقرئَتْ منوَّنةً ناصبةً ﴿بينكم﴾، والوجهُ ما سبَق، وقرئَتْ مرفوعةً مضافةً على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوفٍ(٣)؛ أي: هي مودَّةُ، أو: سببُ مودَّةِ بينِكم، والجملةُ صفةُ ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ أو خبر (إنَّ) على أنَّ (ما) موصولة أو مصدريَّة، والعائد محذوف، وهو المفعول الأوَّل.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٤٥٠).

(٢) في النسخ: «بسبب». والمثبت من «الكشاف» (٣/ ٤٥٠)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٩٢)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٦٧٢).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿مودَّةُ﴾ بالرَّفع من غير تنوين ﴿بينِكم﴾ بالخفض، وحفص وحمزة: ﴿مودةَ﴾ بالنَّصب من غير تنوين ﴿بينِكم﴾ بالخفض، والباقون: ﴿مودةً﴾ بالنَّصب والتَّنوين و﴿بينَكم﴾ بالفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٣).

وقرئت مرفوعةً منوَّنةً ومضافةً بفتح (بينكم)، كما قرئ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤][1].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يتبرَّأُ القادة من الأتباع.

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يلعَنُ الأتباعُ القادةَ.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾: مصيرُكم جميعاً ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونكم منها.

* * *

(٢٦) - ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾؛ أي: صدَّقَه فيما قاله واتَّبع له، لا أنَّه أحدثَ الإيمانَ في ذلك الوقت؛ لأنَّ الكفرَ لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ من كُوْثَى؛ وهي[2] من سواد الكوفة.

﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ إلى حيثُ أمر ربِّي[3].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المنيعُ الذي مَن لجأ إليه منعَه مِن[4] أعدائِه.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرُ إلَّا بما فيه خيرٌ.

---

(١) انظر القراءتين في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥)، و«الكشاف» (٣/ ٤٥٠)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٩٢)، وعنه نقل المؤلف كل ما سبق.

(٢) «وهي» من (ي) و(ع).

(٣) في (م): «أمرني ربي»، وفي (ف) و(ك): «أمرني».

(٤) في (ف): «أمن من»، وسقطت من (ك).

رُويَ أنَّه هاجرَ مع لوطٍ ابنِ أخيه وسارةَ بنتِ عمِّه إلى حَرَّان، ثمَّ منها إلى الشَّام، ونزلَ فلسطينَ، ونزل لوطٌ سَدُومَ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلةً، قيل: حين أيس من الولادة مِن عجوز عاقر، ولذلك لم يُذكر إسماعيل عليه السلام، ويردُّه قوله: ﴿وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فإنَّه شجرة الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يريدُ به الجنس، فيتناول الكُتُبَ الأربعةَ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرتِه إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: الثَّناءَ الحَسَنَ، والصَّلاةَ عليه إلى آخرِ الدَّهر، ومحبَّةَ أهلِ المِلَلِ له، وأمَّا ما[1] تقدَّمَ ذكرُه فالعطف عليه يأبى عن دخوله في الأجر.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم الدَّرجاتُ العُلَى.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ عطف على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، أو على ما عُطِفَ عليه.

(١) في (ف) و(ك) و(م) زيادة: «قيل».

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: الفِعلَةَ البالغةَ في القُبْحِ.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لفحاشة تلك الفِعلَةِ، كأنَّ قائلاً قالَ: لِمَ كانت فاحشةً؟ فقيل: لأنَّ[1] أحداً قبلَهم لم يُقْدِمْ عليها.

* * *

(٢٩) ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ طريقَ المارَّةِ بفعلكم الفاحشةَ بمَن يمُرُّ بكم، فتركَ النَّاسُ الممرَّ بكم.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾: مجلسِكُم الذي تجتمعون فيه، ولا يُسمَّى نادياً إلَّا ما دام فيه أهلُه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالمضارَطةِ، والمجامعةِ، والسِّبابِ، والفُحْشِ في المِزاحِ، والخذفِ بالحصا، ومَضغِ العِلكِ، والفرقعةِ والسِّواك بين النَّاس[2].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قد سبقَ في سورة الأعراف.

* * *

(٣٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزالِ العذابِ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداعِ الفاحشةِ،

---

(١) في (ك): «إن».

(٢) ذكره الزمخشري عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٥٠).

وسنِّها فيمَن بعدَهم، وصفَهم بذلك مبالغةً في استنزالِ العذابِ، وإشعاراً بأنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يُعجَّلَ لهم العذاب.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: بالبِشارةِ بالولدِ لقوله: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾: قريةِ سَدُومَ، و﴿هَٰذِهِ﴾ تُشْعِرُ بأنَّها قريبةٌ مِن موضِعِ إبراهيم عليه السلام، والإضافةُ لفظيَّةٌ؛ لأنَّ المعنى على الاستقبال.

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهم؛ أي: الظُّلْمُ قد استمرَّ فيهم في الأيَّام السَّالفة، وهم عليه مصرُّون، وإنَّما قال: ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا﴾ ولم يقلْ: (إنهم) تضميناً للتَّعليل الإشعارَ بمنشأ خُبْثِ طبيعتِهم، وهو خبث طينتهم.

ففيه إشارةٌ خفيَّة إلى أنَّ المرادَ مِن أهل القرية: مَن نشأَ فيها، فلا يتناولُ لوطاً، ومَن لم يتنبَّه لهذا زعم أنَّ في قولهم الآتي تخصيصاً للأهل بمَن عداه.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ معارضةٌ للموجِب بالمانع، وهو كونُ النَّبي بين أظهُرِهم.

وأمَّا الاعتراضُ عليهم بأنَّ فيها مَن لم يظلِم[1]، فلا يناسبُ حالَ المعترض؛ لأنَّ مَبناه الغفولُ عن الإشارة التي قدَّمنا بيانها.

﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ وليس هنا خطابٌ بمعنى حكمٍ شرعيٍّ، فلا وجهَ لِما قيل: فيه تأخيرُ البيانِ عن الخطابِ.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقين في العذاب، قال في سورة الحجر: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ﴾ [الحجر: ٥٨ ـ ٦٠].

والتَّوفيقُ بينَ القولَين بأنْ يُقالَ: إنَّ الحكايةَ قد تكون على وجهِ التَّفصيلِ والنَّقلُ بالعبارة أو بمرادفها، وقد يكون على وجهِ الإجمالِ والنَّقلُ بحاصل المعنى، والمذكور ثَمَّةَ مِن قَبيلِ الثَّاني، والمذكور هاهنا مِن قَبيل الأوَّل.

ثمَّ أخبر عن مصير الملائكة إلى لوطٍ عليه السلام بعدَ مفارَقتِهم إبراهيمَ عليه السلام بقوله:

(٣٣) ـ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾: ساءَه مجيئُهم، و﴿أَن﴾ صلةٌ أَكَّدَتْ وجودَ الفعلينَ مرتَّباً أحدُهما على الآخر، كأنَّهما وُجِدا في جزءٍ واحدٍ مِن الزَّمانِ، كأنَّه قيل: كما أحسَّ بمجيئهم فاجأته المساءة مِن غير رَيْثٍ خيفةً عليهم مِن قومِه أنْ يتناولُوهم بالفُجور.

---

(١) رد على البيضاوي القائل: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهم بأن فيها مَن لم يظلم. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٩٣).

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: وضاقَ بشأنِهم وبتدبيرِ أمرِهم ذَرْعُهُ؛ أي: طاقته، وقد جعلوا ضيقَ الذَّرع والذِّراع عبارةً عن فقدِ الطَّاقة، كما قالوا: رَحْبُ الذِّراعِ، إذا كان مطيقاً له.

والأصل فيه: أن الرَّجلَ إذا طالَتْ ذراعُه نالَ ما لا ينالُه القصير الذِّراع، وصارَ ذلك مَثلاً في العَجْزِ والقُدْرةِ، وهو منصوبٌ على التَّمييزِ.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطفٌ على محذوفٍ متفرِّعٍ على ما تقدَّمَ، تقديرُه: فكشفوا الحالَ وقالوا ذلك لِمَا رأوا فيه أثرَ الضجرة، فالواوُ فصيحة.

﴿لَا تَخَفْ﴾ الخوفُ: انزجاعُ النَّفسِ بتوقُّعِ الضَّررِ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ لا على تمكُّنِهم منَّا لاندفاع الخوف والحزن مِن تلك الجهة بإعلامهم أنَّهم رسلُ الله، بل على نفسِه وأهلِه لـمَّا عَلِمَ أنَّ نزولهم لحادثة عظيمة، فقولُهم[1]:

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ تعليلٌ لنفي الخوف والحزن.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ نصبٌ بإضمارِ فعلٍ؛ لأنَّ موضع الكاف جَرٌّ على المختار، أو بالعطف على محلِّها باعتبار الأصل.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ﴾؛ أي: في أمرِ اللهِ ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: مِن الباقين في الهلاك.

* * *

(٣٤) ـ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: عذاباً منها، سُمِّيَ

---

(١) في (ك): «بقولهم».

بذلـك لأنَّـه يُقْلِـقُ المعـذَّب، مِـن قولهـم: ارتجـزَ: إذا ارتجـسَ؛ أي: اضطـرَبَ، فاسـتُعْمِلَ لِمَـا تضطـربُ منـه النَّفـسُ.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ﴾: بسببِ استمرارِهم على تجديدِ الفسقِ في كلِّ حينٍ.

***

(٣٥) ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةࣰ لِّقَوۡمࣲ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ﴾: مِن القريةِ ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةࣰ﴾: هي آثارُ منازِلِهم الخَرِبةِ.

وقيل: الحجارةُ الممطورة.

وقيل: الماءُ الأسودُ على وجهِ الأرضِ.

﴿لِّقَوۡمࣲ يَعۡقِلُونَ﴾: يَستعملون عقولَهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلِّق بـ ﴿تَّرَكۡنَا﴾ أو ﴿بَيِّنَةࣰ﴾.

***

(٣٦) ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبࣰا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرۡجُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡا۟ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾: وأرسـلنا إلـى مديـنَ ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبࣰا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرۡجُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ الأمـرُ بالرَّجـاءِ أمـرٌ بسـببِه اقتضـاءً، ولا تجـوُّز فيـه.

ويجوز أن يكون الرَّجاء بمعنى الخوف، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مجازٌ عمَّا فيه مِن الثَّوابِ أو العقاب.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡا۟ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ قد سبقَ تفسيرُه.

***

(٣٧) ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾: هي زعزعةُ الأرضِ تحتَ القدمِ، وفي سورة الحجر: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [الحجر: ٧٣]؛ أي: صيحةُ جبريل عليه السلام، وهي سببُ الرَّجفةِ.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾: في ديارهم، على ما ذُكِرَ في سورة هود عليه السلام، فاكتفى هنا بالواحد لِأَمْنِ اللَّبْسِ.

﴿جَٰثِمِينَ ﴾ الجاثِمُ: البارك[1] على ركبتيه مستقبِلاً بوجهِهِ الأرضَ؛ أي: ميِّتين على هذا الحال.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾.

﴿وَعَاداً وَثَمُوداً﴾ منصوبان بفعلٍ دلَّ عليه ما قبله مثلَ: أهلكنا. وقرئ: ﴿وَثَمُودَا۟﴾ غير منصرِّف على تأويل القبيلةِ[2].

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ ذلك، يعني: ما وصفَه مِن إهلاكِهم.

﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ مِن جهةِ مساكِنهم إذا نظرتم إليها عند مرورِكم بها، وكانَ أهلُ مكَّة يمرُّون عليها في بعض أسفارِهم فيبصرونها.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ مِن الكفْرِ والمعاصي.

---

(١) في (ك): «النازل».

(٢) قرأ حفص وحمزة بفتح الدَّال من غير تنوين ووقفاً بغير ألف، والباقون بالتنوين ووقفوا بالألف. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الصَّدُّ: الصَّرْفُ عن الخير، ولا يقال: صدَّه عن الشَّرِّ، ولكن يقال: صرَفَه عن الشَّرِّ ومنعَه منه[1].

﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: الصِّراط المستقيم الذي هداهُم إليه الرُّسُلُ.

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾: متمكِّنين مِن النَّظر والاستبصارِ لكنَّهم لم يفعلوا، أو: متبيِّنين أنَّ العذابَ لاحقٌ بهم بإخبارِ الرُّسلِ لهم، ولكنَّهم لَجُّوا حتى هلكوا.

* * *

(٣٩)- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوفٌ على ﴿وَعَادًا﴾، وتقديم ﴿وَقَٰرُونَ﴾ لشرف نسبه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾: فائتين، بل أدركَهم أمرُ اللهِ، مِن سبقَ طالبَه: إذا فاتَه.

* * *

(٤٠) - ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿فَكُلًّا﴾ مِن المذكورين ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾: عاقبنا بسببٍ مِن جهتِه.

---

(١) في (م): «عنه».

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ الحاصبُ: ريحٌ تأتي بالحصباء، وهي[١] الحصا الصِّغار كقومِ لوطٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمدين وثمود.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وقومه، وأمَّا قومُ نوح عليه السلام فليسوا[٢] مِن المذكورين.

الغرقُ لا يكون إلَّا في الماء بخلاف الخسف، ولذلك زاد فيه قوله: ﴿بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ليعاملهم معاملةَ الظالم فيعاقبَهم بغير جُرْمٍ، وزيادة ﴿كَانَ﴾ لبيان أنَّه ليس مِن عادته ذلك.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتَّعريض للعذاب.

* * *

(٤١) ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: مَثَلُ مَن أشرَكَ بالله الأوثانَ.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ التَّاءُ فيه كتاء (طاغوت)، تقع على الواحد والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث.

---

(١) في (ك): «وهو».

(٢) في (ك): «ليسوا»، وفي (ي) و(ع): «ليس».

﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾؛ أي: كمَثَل العنكبوت فيما تتَّخذُه لنفسِها مِن بيتٍ؛ فإنَّ ذلك البيت لا يدفعُ عنها الحرَّ والبرد، ولا يقي ما تقي البيوتُ، فكذلك الأوثان لا تنفعُهم في الدُّنيا والآخرة.

ولا وجهَ لِـمَا قيل في تفضيل(١) بيتها: بل ذلك أوهن، فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً مَّا(٢)؛ لأنَّ قضية التَّشبيه عكس هذا.

﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾ مِن هنا ظهر أنَّ الغرضَ تشبيهُ ما اتَّخذوه مُتَّكَلاً ومعتمَداً في دينهم بما هو مَثَلٌ عند النَّاسِ في الوهن والضَّعف، لا تشبيهُ ذواتِهم بالعنكبوت.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾: يرجعون إلى علمٍ لعَلِموا أنَّ هذا مَثَلُهم، أو أنَّ دينَهم أوهنُ مِن ذلك، ويجوز أنْ يُخرجَ الكلامُ بعد تشبيهِ دينهم ببيت العنكبوت مخرَجَ الاستعارة؛ فيُرادَ ببيتِ العنكبوتِ دينَ المشركين وعبادةَ الأوثان، فيكون استعارةً مصرِّحة تمثيليَّةً.

* * *

(٤٢) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على إضمار القول؛ أي: قل للكفرة: إنَّ الله يعلم.

---

(١) في هامش (ع) و(ف) و(ي): «موجب التفضيل أن يكون سائر البيوت دونه في الوهن فلا يجدي ما قيل في تفسيره: لا بيت أوهن منه. منه».

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٩٥).

وقرئ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء[١]، حملاً على ما قبله.

و﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ منصوبة بـ ﴿يَدْعُونَ﴾، و﴿يَعْلَمُ﴾ معلَّقةٌ عنها، و﴿مِن﴾ للتَّبيين.

أو نافيةٌ و﴿مِن﴾ مزيدة، و﴿شَيْءٍ﴾ مفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾.

أو مصدريةٌ و﴿شَيْءٍ﴾ مصدر[٢].

أو موصولةٌ مفعولٌ لـ ﴿يَعْلَمُ﴾، ومفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ عائدُه المحذوف.

والكلام على الأوَّلَيْنِ تجهيلٌ لهم وتوكيدٌ للمَثَلِ، وعلى الآخرَيْنِ وعيدٌ لهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليلٌ على المعنيَيْنِ، فإنَّ مِن فَرْط الغباوة إشراكُ ما لا يُعدُّ شيئاً بمن[٣] هذا شأنه، وأنَّ الجمادَ بالإضافة إلى القادر القاهر على كلِّ شيءٍ، البالغ في العلم وإتقان الفعل الغايةَ، كالمعدوم، وأنَّ مَن هذا صفتُه قَادِرٌ[٤] على مجازاتهم.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ يعني: المثلُ المذكور وأشباهُه.

﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لِمَا بَعُدَ مِن أفهامِهم.

---

(١) قراءة عاصم وأبي عمرو، وباقي السبعة بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٤).

(٢) «شيء مصدر» سقط من (ك)، و«مصدر» سقط من (ف).

(٣) في (ف) و(م) و(ي) و(ع): «لمن».

(٤) في النسخ: «قدر»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٩٥).

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾: وما يعقلُ حسنَها وفائدتَها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾: الواقفون على أنَّ الأمثال والتَّشبيهات إنَّما هي الطُّرق إلى المعاني[1] المستورة حتى تبرزَها وتصوِّرَها للأفهام.

* * *

(٤٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ مُحقًّا؛ يعني: لم يخلقهما باطلاً، بل لحكمةٍ، وهي أنْ تكونا[2] مساكنَ عبادِه، وعبرةً للمعتبِرين منهم، ودلائلَ على[3] عظم قدرته، كما أشار إليه بقوله:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّهم بالذِّكرِ لأنَّهم المنتفِعون بها.

* * *

(٤٥) ـ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرُّباً إلى الله بقراءته، وتحفُّظاً لألفاظه، واستكشافاً لمعانيه؛ فإنَّ القارئ المتأمِّل قد ينكشِفُ له بالتَّكرارِ ما لم ينكشفْ له أوَّل ما قرعَ سَمْعَه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾؛ أي: دُمْ على إقامَتِها.

---

(١) في (ك): «للمعاني».

(٢) في (ف) و(ك) و(ي): «تكون».

(٣) «على» سقط من (م).

﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ قد مرَّ تفسيرُهما، والنَّهيُ مجازٌ عن المنعِ.

رُويَ: أنَّ فتًى مِن الأنصار كان يصلِّي معَ رسول الله عليه الصلاة والسلام ولا يَدَعُ شيئاً من الفواحش إلَّا ركبَه، فوُصِفَ له عليه السلام فقال: «إنَّ صلاتَه ستنهاهُ»، فلم يلبَثْ أنْ تابَ[1].

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: والصلاةُ أكبرُ مِن غيرِها مِن الطَّاعات، وإنَّما عبَّرَ عنها به لتستقلَّ بالتَّعليل، كأنَّه قالَ: والصَّلاةُ أكبرُ لأنَّها ذِكرُ اللهِ.

أو: لذكرُ اللهِ[2] إيَّاكم برحمته أكبرُ مِن ذكرِكم إيَّاه بطاعتِه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومِن سائر الطَّاعاتِ، فيجازيكم بها أحسنَ المجازاة.

* * *

(٤٦) - ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أصلُ الجدالِ: شِدَّة الفَتْلِ[3].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٨١)، و«الكشاف» (٣/ ٤٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٢٠)، وعزاه الثعلبي وابن عطية لرواية أنس رضي الله عنه، لكن قال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ١٢٨): (لم أجده). قلت: روى الإمام أحمد في «المسند» (٩٧٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٠)، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إنَّ فلاناً يصلِّي باللَّيل، فإذا أصبحَ سرقَ، قال: «سينهاهُ ما تقولُ». ورجاله رجال الصحيح كما في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨).

(٢) «ولذكر الله» زيادة من (ي).

(٣) قال الخازن في «تفسيره» (١/ ٥٩٥): «لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عما هو عليه».

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾: إلَّا بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ كمعارضة الخشونةِ باللِّين، والغضب بالكَظْم، والمشامَتة بالنُّصح.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعِناد، فلم ينفعْ فيهم الرِّفقُ.

وقيل: معناه: ولا تجادلوا الدَّاخلين في الذِّمَّة إلَّا بالتي هي أحسنُ، إلَّا الذين ظلموا فنبذوا الذِّمَّة ومنعوا الجزية، ومجادلتُهم بالسَّيف.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِن جِنس المجادلة بالأحسن، وعن النَّبيِّ عليه السلام: «لا تصدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنَّا باللهِ وكتبِه ورسلِه، فإن كان باطلاً لم تصدِّقوهم، وإنْ كان حقًّا لم تكذِّبوهم»(١).

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: مطيعون له خاصَّة، وفيه تعريضٌ باتِّخاذهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً مِن دونِ اللهِ.

* * *

(٤٧) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومِثْلَ ذلك الإنزالِ ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مصدِّقاً لكتبهم بأنْ نزلَ على ما وُصِفَ فيها.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه، تفريعٌ على نزول القرآن على ما وُصِفَ في كتابهم، وإنَّما قالَ:

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ دون: آمنوا به؛ لأنَّ منهم مَن لم يؤمن بعدُ.

---

(١) روى نحوه أبو داود (٣٦٤٤) من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه، وأصل الحديث عند البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الإشارةُ إلى أهل مكَّة، أو إلى عامَّة العربِ، لا إلى مَن في عهد الرَّسولِ عليه السلام مِن أهل الكتاب؛ لأنَّهم داخلون فيما تقدَّم، ولا مجال لتخصيصه بمَن تقدَّم عهدَه عليه السلام لأنَّ التَّفريع يأباه[1].

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورِها وقيامِ الحجَّة عليها، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾؛ فإنَّ الجَحْدَ ليسَ مطلقَ الإنكارِ، بل الإنكارُ بعدَ المعرفةِ.

﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: إلا السَّاترون للحقِّ بعدَ وضوحِه عندهم عناداً[2].

* * *

(٤٨)ـ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: مِن قبلِ نزولِ القرآن عليك، فيُفهَم منه أنَّه عليه السلام كان قادراً على التِّلاوة والخطِّ بعدَه.

﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ عربيًّا كان أو عبريًّا أو سريانيًّا أو فارسيًّا.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ﴾ فإنَّ ظهورَ هذا الكتاب الجامعِ لأنواع العلوم الشَّريفة على مَن لا يقدرُ على القراءة والخطِّ[3] خارقٌ للعادة.

وذِكرُ اليمين زيادةُ تصويرٍ للمنفيِّ، ونفيٌ للتَّجوُّز في الإسناد، وما فيه من الإطناب المعنوي لإفادة أنَّ الكتابة من أشرف الصِّناعات، فحقُّها أن تكون باليمين

(١) في هامش (ي): «رد للكشاف»، وهو كما قال.

(٢) في هامش (ف) و(ي) و(ع): «ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلواً عن الفائدة. منه».

(٣) في هامش (ي): «من بدل الخط بالتعلم فكأنه استلال [أو: استدراك، أو: استدلال]، ولا يخفى ما فيه. منه».

دون اليسار المخصوصةِ بخسائس الأمور، على ما أشار إليه النَّبيُّ عليه السلام بقوله: «اليمين للوضوء واليسار للاستنجاء»(١).

﴿إِذًا﴾ تقديره: ولو كنْتَ تتلو الكتابَ وتخطُّه إذاً ﴿لَّٱرْتَابَ﴾: لشكَّ ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ مِن أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجده في كُتبنا أميٌّ لا يقرأُ ولا يكتبُ، وليس به.

وإنَّما سمَّاهم مبطلين لأنَّهم وجدوه في كتبهم كذلك فغيَّروه(٢).

قيل: أي: لو كنْتَ ممَّنْ يخطُّ(٣) ويقرأ لقالوا: لعلَّه تعلَّمَ أو التقطه مِن كتبِ الأقدمين.

وفيه: أنَّ ذلك الارتياب لا يندفع بكونه عليه السلام أُمِّيًّا؛ فإنَّ التَّعلُّم مِن الغير لا يتوقَّفُ على القراءة والكتابة.

***

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ويوجد أحاديث كثيرة لاستحباب استخدام اليمين في الوضوء وما يستحسن، والنهي عن استخدامها في الاستنجاء، منها ما رواه البخاري (١٥٣) ومسلم (٢٦٧) عن أبي قتادة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره بيمينه، ولا يتمسح بيمينه».

وروى أبو داود (٣٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه، وما كان من أذى».

(٢) في هامش (ع) و(ي): «لـمَّا عرفت أن الارتياب مخصوص بهم بين أهل الكتاب فقد ظهر عندك وجه التعبير بالمبطلين دون الكافرين، ومن لم يتنبه لذلك زعم أن المراد منهم الكافرين. منه».

(٣) في (ف) و(ي): «تخطه».

(٤٩) ـ ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿ بَلْ هُوَ ﴾: بل القرآنُ ﴿ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ هما مِن خصائص القرآن: كونه آياتٍ بيِّناتٍ للإعجاز، وكونه محفوظاً في الصُّدور، بخلافِ سائر الكتُبِ السَّماويَّة؛ فإنَّها لم تكن معجزات في حدود أنفسها[1]، وما كانت[2] تقرأ إلَّا مِن المصاحفِ.

وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ تشريفٌ للحفَّاظِ، وتنبيهٌ على أنَّ حفظه حقيقةً إنَّما يكون بالوقوف على معانيه.

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾: إلَّا المتوغِّلون في الظُّلم بالمكابرة بعدَ وضوح دلائل الإعجاز.

* * *

(٥٠) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عطف على اللَّازم ممَّا تقدَّم؛ أي: لم يَعتدُّوا[3] بتلك الآيات وقالوا:

---

(١) في هامش (ي) و(ع): «ولا ينافي هذا كون بعضها معجزة من جهة أخرى، كالتوراة فإنها نزلت من السماء مكتوبة. منه».

(٢) «كانت» سقطت من (ع).

(٣) في (ع): «لا تعبدوا»، وفي (ف): «لا تعدوا»، وفي (ك): «لا تعتدوا»، وفي (م): «لا يقتدوا»، وفي (ي): «لا يعتدوا»، والصواب المثبت.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلَ ناقةِ صالح، وعصا موسى، ومائدةِ عيسى، عليهم السلام.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاءُ، وأمَّا ما قيل: لسْتُ أهلَها فآتيَكم بما تقترحونه، فلا يناسبُ المقامَ؛ لأنَّ الاقتراح كان من الله تعالى لا منه عليه السلام

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليسَ مِن شأني إلَّا تبليغُ ما أُمِرْتُ به مِن الإنذار والإبانةِ ممَّا أُعْطِيْتُ مِن الآيات، والاقتصارُ على ذِكْرِ الإنذارِ لزيادةِ التَّهديد لهم والوعيدِ في حقِّهم، وإلَّا فشأنه عليه السلام غير مقصور على ما ذُكِرَ، بل التَّبشيرُ أيضاً من شأنه.

***

(٥١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آيةٌ مغنية عمَّا اقترحوه.

﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكاملَ في جنسِه.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: تدومُ تلاوتُه عليهم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، فلا يزال معهم آيةً ثابتةً لا تزولُ كما تزول كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: إنَّ في مثل هذه الآية الموجودة في كلِّ مكانٍ وزمانٍ إلى آخرِ الدَّهر.

﴿لَرَحْمَةً﴾: لنعمةً عظيمةً ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: وتذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن همُّه الإيمانُ دونَ التَّعنُّت.

***

(٥٢) ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ بِصِدْقي[1]، وقد صدَّقني بالمعجزات، أو: بتبليغي ما أُرْسِلْتُ به إليكم ونصحي ومقابلتِكم إيَّايَ بالتَّكذيبِ والتَّعنُّتِ.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فهو مُطَّلِعٌ على أمري وأمرِكم، وعالمٌ بحقِّي وباطِلكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو الذي يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ منكم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفرَ بالإيمانِ.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ بقولهم: أمطِرْ علينا حجارةً مِن السَّماء.

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على مقتضى الحكمة لكلِّ عذابٍ أو قومٍ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذابُ في الأجل المسمَّى ﴿بَغْتَةً﴾: فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقتِ مجيئِه، فليس وقعة بدر منه[2].

---

(١) في (م): «يصدقني».

(٢) في (ك): «فليس وقت بدر منه»، وفي (ف): «فليس وقت بدل منه»، وفي (م): «فليس وقت يدرأ منه». والمثبت من (ع) و(ي)، وهو الصواب، حيث ذكره رداً على البيضاوي (٤/ ١٩٧) في قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فجأة في الدنيا كوقعة بدر.

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أعاده لربط قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ﴾ أُرِيدَ بـ﴿جَهَنَّمَ﴾ ما يوجبُها، أو نزَّل الإحاطة المقدَّرة منزلةَ المحقَّقة للقَطْع بوقوعِها، وهذا بحسب النَّظر الجليل.

وأمَّا الذي يقتضيه النَّظر الدَّقيق: فهو أنَّه تعالى مُنزَّه عن النِّسَبِ الزَّمانيَّة، فالكائناتُ كلُّها واقعةٌ في أوقاتِها[١] المعيَّنة بالنَّظر إليه تعالى، فلا تجوُّزَ في أحدِ جُزْأي الكلام.

﴿بِالْكَافِرِينَ﴾ اللام للعهد على وضع الظَّاهر موضعَ المضمَرِ؛ للدَّلالة على موجِب الإحاطة، أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمِهم.

ولا وقف على ﴿بِالْكَافِرِينَ﴾ لأنَّ: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفُ إحاطةِ النَّار بهم.

﴿يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

وذكر[٢] ﴿أَرْجُلِهِمْ﴾ للدَّلالة على أنَّ تلك التَّغشية في حال انتصابهم.

﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ، أو بعضُ الملائكةِ بأمرِه؛ لقراءة: ﴿ونقول﴾ بالنُّونِ[٣]: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاءَه.

* * *

---

(١) في (ف) و(ك): «إفادتها».

(٢) في (ك): «ذكر».

(٣) قرأ الكوفيون ونافع بالياء، وباقي السبعة بالنون. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٤).

(٥٦) ـ ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾؛ أي: إذا لم تتسهَّل العبادةُ في بلدةٍ، ولم يتيسَّرْ لكم إظهارُ دينِكُم، فهاجروا إلى حيثُ يتمشَّى لكم ذلك، والفاء في قوله:

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٌ؛ إذ المعنى: إنَّ أرضي واسعةٌ؛ إنْ لم تخلِصوا العبادةَ في أرضٍ فأخلِصوها في غيرها، ثمَّ حذفَ الشَّرطَ وعوَّضَ مِن حذفه تقديمَ المفعولِ، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص، ثمَّ شجَّع المهاجِرَ بقوله:

(٥٧) ـ ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾؛ أي: واجدةٌ مرارَته، كما يجدُ الذَّائق طعمَ المذوقِ؛ لأنَّها إذا تيقَّنَتْ[1] بالموت سهلَ عليها مفارقةُ وطنِها.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ بعدَ الموتِ للثَّوابِ والعقاب، ومَن هذا عاقبتُه ينبغي أنْ يجتهدَ في الاستعداد له.

***

(٥٨ ـ ٥٩) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾: لننزلنَّهم ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾: علاليَ. وقرئ: ﴿لَنُثْوِيَنَّهم﴾ مِن الثَّواء[2]، وهو النُّزولُ للإقامة، وثَوَى غيرُ متعدٍّ، فإذا

---

(١) في (م): «تيقن».

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٤).

تعدَّى بزيادة الهمزة لم يتجاوز مفعولاً واحداً، والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤُه مجرى لننزلنَّهم ولنبوِّئنَّهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل، أو تشبيهُ الظَّرفِ المؤقَّتِ بالمبهم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقرئ: (فنعم)[1]، والمخصوص بالمدح محذوف دلَّ عليه ما قبلَه.

ويُوقف على ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ على أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هم الذين صبروا على أذيَّة المشركين، والهجرةِ للدِّين، إلى غير ذلك مِن المحنِ والمشاقِّ.

والوصل أجود؛ ليكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتاً لـ ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: ولا يتوكَّلون في جميع ذلك إلَّا على اللهِ.

***

(٦٠) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾: وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: لا تطيقُ حملَه لضعفِها، ولا تدَّخره، وإنَّما تصبح ولا معيشةَ عندَها.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثمَّ إنَّها مع ضعفِها وتوكُّلِها، وإيَّاكم مع قوَّتِكم واجتهادِكم في الكسْبِ، سواءٌ في أنَّه[2] لا يرزُقها وإيَّاكم إلَّا الله، فإنَّه لو لم يقدِّركم ولم يقدِّرْ لكم أسبابَ الكسب لكنتُم أعجزَ مِن أضعفِ الدَّوابِّ، فلا تخافوا على معاشِكم بالهجرةِ.

---

(١) نسبت ليحيى بن وثاب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥).

(٢) في (ك): «أنها».

رُويَ أنَّهم لَمَّا أُمِروا بالهجرة قال بعضُهم: كيف نَقْدمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشة، فنزلَتْ[١].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكم: نخشى الفقرَ والضَّيعةَ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائرِكم.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ المسؤول أهل مكَّة.

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هم مُقرُّون بذلك، ولا يخفى ضعفُ التَّمسُّكِ بوجوب انتهاء الممكنات إلى واحدٍ واجبِ الوجود في هذا المطلبِ.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: فكيفَ يُصرَفون عن[٢] توحيده مع إقرارِهم بهذا كلِّه.

* * *

(٦٢) ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: يوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يُقالُ: قَدَرَ الرِّزقَ وقتَرَهُ: إذا ضيَّقه.

﴿لَهُۥٓ﴾؛ أي: لِمَن يشاءُ، فوضعَ الضَّميرَ مَوْضِعَ (من يشاء) لأنَّه مُبْهَمٌ غيرُ معيَّنٌ، فكان الضَّميرُ مُبْهماً مثلَه.

وليس المراد مِن الموسَّع له والمضيَّق عليه واحداً باعتبار الوَقْتَين؛ إذ حينئذٍ حقُّ قوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أنْ يُصدَّرَ بأداة التَّعاقبِ.

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٩٨).

(٢) في (م): «على».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ ما يُصلِحُ العبادَ وما يفسدُهم.

* * *

(٦٣) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترِفين بذلك، فكيف يشركون به ما لا يقدِرُ على شيءٍ أصلاً.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هذه النِّعمةِ العُظمى، فإنَّ الماءَ مادَّةُ حياةِ كلِّ شيءٍ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلا يعلمون ما يقولون، وما فيه مِن الدِّلالة على بطلانِ الشِّركِ وصحَّة التَّوحيد.

وكلمة ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ عن جهلِهم الخاصِّ في الإتيان بما هو حجَّة عليهم، يعني: أنهم مسلوبو[1] العقولِ، فلا يَبعدُ عنهم مثلُه.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معترِض، ويأتي في سورة لقمان تفسيرُ هذه الآيةِ بوجهٍ آخر.

* * *

(٦٤) ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تحقيرٍ، كيف وهي لا تزنُ[2] عند الله جناحَ بعوضة.

---

(١) في (ف): «مسلوبون».

(٢) في (ف) و(ك): «تسوى»، وفي (م): «وهي لا تزن عند الله ولا تسوى عند الله».

﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾؛ أي: ما هي لسرعةِ زوالِها وعدمِ النَّفعِ في مآلها إلَّا كما يَلْهى ويَلعبُ به الصِّبيان، ويجتمعون إليه، ويبتهجون به ساعةً، ثمَّ يتفرَّقون.

واللَّهْوُ: ما يتلذَّذُ به الإنسانُ فيلهيه ساعةً ثمَّ ينقضي.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾؛ أي: هي دارُ الحياةِ الحقيقيَّة؛ لعدمِ طَريان الموت عليها، أو كأنَّها في ذاتها حياةٌ؛ إذ ليس فيها إلَّا حياة مستمرَّة دائمة.

و﴿الْحَيَوَانُ﴾: مصدرُ حَيِيَ، وقياسُه: حَيَيَان، فقُلِبَتِ الياء الثَّانية واواً، ولم يقل: لهي الحياة؛ لِمَا في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياةُ حركةٌ والموتُ سكونٌ، فمجيئه على بناءٍ دالٍّ على معنى الحركة مبالغةٌ في معنى الحياةِ.

ويوقف على ﴿الْحَيَوَانُ﴾ لأنَّ التَّقدير: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقةَ الدَّارَيْن لَمَا اختاروا اللَّهو الفانيَ على الحيوان الباقي، ولو وُصِلَ لصار وصفُ الحيوان معلَّقاً بشرطِ علمِهم ذلك، وليس كذلك.

* * *

(٦٥) ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ مُتَّصلٌ بما دلَّ عليه ما قبلَه مِن شرح حالِهم بطريق الإشارة، وليس هنا محذوفٌ؛ أي: هم على ما وُصِفوا به مِن الشِّرك والعناد، فإذا ركبوا في البحر ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ في تلك الحالة.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ حقيقةً، حيث لا يَدْعون معه غيرَه؛ لعلمِهم بأنَّه لا يكشف الشَّدائدَ إلَّا هو، وهذا ـ أي: التَّوافق بين العلم والعمل ـ حقيقةُ الإخلاصِ، لا

صورتُه[١]، وأيضاً مساقُ الكلام في تقبيح حالِهم وكمالِ القبح في انقلابهم عن الإخلاص إلى الشِّرك بغتةً.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾: فاجَؤوا المعاوَدَةَ إلى الشِّرك.

* * *

(٦٦) - ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللّام فيه لام (كي)، وكذا في:

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ على قراءة الكسر؛ أي: يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعَود إليه كافرين بنعمة النَّجاة، متمتِّعين باجتماعهم على عبادة الأصنام، وتوادِّهم[٢] عليها والتَّلذُّذِ لا غير، على خلاف عادة المخلصين من المؤمنين، فإنَّهم يشكرون نعمة الله تعالى إذ أنجاهم، ويجعلون نعمة النَّجاة ذريعةً إلى زيادة الطَّاعة، لا إلى التَّمتُّع والتَّلذُّذ[٣].

وعلى هذا لا وقفَ على ﴿يُشْرِكُونَ﴾، ومَن جعلَه لام الأمر متشبِّثاً بقراءة السُّكون[٤] على وجه التَّهديد كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] يقفُ عليه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ تدبيرِهم عندَ تدميرِهم.

* * *

---

(١) في (ف): «صورة».

(٢) في (ك): «وتواددهم».

(٣) في (م): «التلذذ والتمتع».

(٤) قراءة ابن كثير وقالون وحمزة والكسائي، وباقي السبعة بكسر اللام. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٤).

(٦٧) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾؛ أي: أهل مكَّة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدَهم ﴿حَرَمًا﴾: ممنوعاً مصوناً عن النَّهب والتَّعدي ﴿ءَامِنًا﴾: يأمنُ داخلوه سواءٌ كان مِن أهلِه أو مِن غيرِهم مِن القتلِ والسَّبي.

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يُختلسون قَتْلاً وسَبْياً؛ إذ كانَتِ العربُ حولَه في تغاورٍ وتناهبٍ.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ ﴾: أبعدَ هذه النِّعمةِ المكشوفةِ وغيرِها ممَّا لا يَقدرُ عليه إلا الله، بالصَّنم أو الشَّيطانِ ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشركوا به غيرَه، وتقديم الصِّلَتَيْن لمحافظةِ الفاصلةِ والاختصاصِ على طريق المبالغةِ.

***

(٦٨) ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأنْ جعلَ له شريكٌ، قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا القولُ منهم باعتبار أنَّ التَّقرُّبَ لا يكون إلَّا بالطَّاعة في معنى القول بأنَّ تلك العبادةَ طاعةٌ أمروا بها، وهذا افتراءٌ منهم على الله تعالى.

ثمَّ إنَّ الافتراءَ نفسَه وإن كان لا يخلو عن كذبٍ لكنَّ المفتَرى قد يكون صادقاً، والمفتَرى هاهنا ـ وهو كون عبادة الأصنام طاعةً ـ لَمَّا كان كذباً زادَ قولَه: ﴿كَذِبًا﴾ زيادةً[1] في تقبيحِ شأنِهم.

(١) «زيادة» سقط من (ك).

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: الرَّسول أو الكتاب.

وفي: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ تسفيهٌ لهم حيثُ لم يتوقَّفوا ولم يتأمَّلوا قطُّ حين جاءهم، بل سارعوا إلى التَّكذيبِ أوَّلَ ما سمعوه.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تقريرٌ لثوائهم فيها؛ أي: ألا[1] يَثْوون فيها، وقد افتروا مثل هذا الافتراء على الله، وكذَّبوا بالحقِّ هذا التَّكذيب؛ أو: ألم يصحَّ عندهم أنَّ في جهنَّم مثوًى للكافرين، حتى اجترؤوا مثلَ هذه الجرأة.

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾ أطلقَ المجاهدة ليتناولَ كلَّ ما تجب مجاهدته من الأعادي الظَّاهرة والباطنة بأنواعها.

﴿فِينَا﴾: في حقِّنا ومِن أجلِنا ولوجهنا خالصاً.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: لنزيدنَّهم هدايةً إلى سُبُلِ الخير وتوفيقاً لسلوكها، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنُّصرةِ والمعونةِ في الدُّنيا، وبالثَّوابِ والمغفرة في العُقبى.

* * *

---

(١) في النسخ عدا (ف): «لا»، والمثبت من (ف)، وهو الصواب.

سُورَةُ الرُّومِ

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾.

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾: ﴿غُلِبَتِ﴾ في القراءة المشهورة على البناء للمفعول، و﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ على البناء للفاعل، وقرئ على العكس[1]، وإضافةُ غَلَبتهم[2] في الأولى إلى المفعول، وفي الثانية إلى الفاعل.

* * *

(٣ ـ ٥) ـ ﴿فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ العربِ؛ لأنَّها الأرض المعهودة عندهم؛ أي: في أدنى أرضِ العرب منهم، أو: أرضِهم؛ أي: أدنى أرضِهم مِن العرب، واللامُ بدلٌ مِن الإضافة.

---

(١) نسبت لعليّ وابن عمر وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهم ـ ومعاوية بن قرة وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٩)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«الكشاف» (٣/ ٤٦٧)، و«البحر» (١٧/ ١٥٤).

(٢) في (م): «غلبهم».

وقيل: أدنى أرضهم إلى عدوِّهم[1]؛ أمَّا الدلالة على الإضافة فظاهرةٌ مِن ذِكْرهم، وأمَّا النهاية فلحديث المغلوبيَّة.

وعن مجاهد: هي أرضُ الجزيرة، وهي أدنى أرضِ الروم إلى فارس[2].

وقيل: أَذْرعاتَ وبُصْرى، وهي أدنى أرضِ الشام مِن العرب.

﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ وقرئ بسكون اللام[3]، فالغَلَب والغَلْب مصدران، كالحَلَب والحَلْب.

﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ البِضْعُ: ما بين الثلاثةِ إلى العَشَرة، وفي «المجمل»: ما بين الواحد إلى التسعة[4].

روي أنَّه لمَّا بلغ مكةَ خبرُ غلبةِ فارسَ الرومَ، فرحَ المشركون وشَمتوا بالمسلمين، وقالوا: أنتم ونصارى أهلُ الكتاب، ونحن وفارسُ أُمِّيُّون، فقد ظهر إخوانُنا على إخوانكم، ولنَظهرنَّ عليكم، فنزلت[5].

وظهرت الرومُ على فارسَ يومَ الحديبية، وذلك عند رأسِ سبعِ سنين.

وقيل: كان النصر يومَ بدر للفريقين.

والمعنى على القراءة الثانية؛ أنَّ الرومَ غلبوا على ريفِ الشام، وسيَغلبهم المؤمنون في بِضْعِ سنين، وقد غَلَبهم المسلمون في السنة التاسعة وفتحوا بعضَ بلادهم.

---

(١) أي: الفرس.

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٦٦).

(٣) نسبت لعليٍّ رضي الله عنه. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦).

(٤) انظر: «المجمل» لابن فارس (١/ ١٢٧).

(٥) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٦٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٠) عن عكرمة.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: مِن قَبْلِ كونهم غالبين؛ وهو وقتُ كونهم مغلوبين، ومِن بعد كونهم مغلوبين؛ وهو وقتُ كونهم غالبين؛ أي: ليس الأمر في الحالين إلَّا لله.

وقرئ: (من قبلٍ ومن بعدٍ) على الجرِّ مِن غير تقدير مضاف[١]، كأنَّه قيل: قَبْلاً وبَعْداً؛ أي: أوَّلاً وآخراً.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾: ظرفٌ معمول لـ ﴿يَفْرَحُ﴾، والتنوين فيه للعوض مِن الجملة المحذوفة؛ أي: ويوم إذ يَغلبُ الرومُ فارسَ.

﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبِه مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له؛ لِمَا فيه مِن انقلابِ التفاؤل وغيظِ مَن شمتَ بهم مِن كفار مكة، أو لِمَا ظهر مِن صدقِ المؤمنين فيما أَخبروا به المشركين.

وقيل: وافق ذلك يومَ بدر، وفي هذا اليوم نُصِرَ المؤمنون[٢].

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فينصرُ هؤلاء تارةً وهؤلاء أخرى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ينتقمُ تارةً مِن عباده بالنصر عليهم، ويتفضَّل عليهم أخرى بنصره إيَّاهم[٣].

* * *

---

(١) نسبت لأبي السمال، والجحدري، وعون عن العقيلي. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٦٧)، و«البحر المحيط» (١٧/ ١٥٦).

(٢) في هامش (ع) و(ف) و(ي): «وأما النصر بمعنى تولية بعض أعدائهم بعضاً حتى تعاونوا فلا اختصاص له بيوم غلبة الروم فارس بل يوجد في يوم غلبة فارس الروم أيضاً. منه».

(٣) في النسخ: «بنصرهم إياهم»، والصواب المثبت. ولو قيل كما في البيضاوي: «بنصرهم أخرى» لكان صواباً أيضاً.

(٦) ـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدرٌ مؤكِّد لنفسه؛ لأنَّ ما تقدَّمه في معنى وَعَدَ، كقولك: عليَّ ألفُ درهمٍ عرفاً؛ لأنَّ معناه: أَعترفُ لكَ بها اعترافاً.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ اعتراض.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعْدَه، أو: صحَّةَ وعدِه؛ لبلوغهم في الجهل غايَته حتى يستحقُّوا أنْ يقال فيهم: لا يعلمون مطلقاً.

* * *

(٧) ـ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدلٌ مِن ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا الإبدال ـ مع أنَّه مِن لطائف علمِ البديع ـ إشعارٌ بأنَّ سَلْب العلمِ ـ الذي هو الجهل ـ لا ينافي وجودَ العلم بظاهر أمورِ الدنيا، بل هو هو لا فرقَ بينهما.

﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: فيه إشارةٌ إلى أنَّ للحياة الدنيا ظاهراً؛ وهو ما يَعرفه الجهَّال مِن التمتُّع بزخارفها، والتنعُّم بملاذِّها، وجمعِ أسبابها وضبطها، وباطناً وهو ما يعرفه العقلاء مِن الاعتبار بهم، وبسرعة انقضائها، وكون محلِّها متجرَ[1] الأولياء ومجازَ الآخرة، يجب التَّزوُّد منها بالتقوى والطاعة.

وتنكيرُ ﴿ظَٰهِرًا﴾ يفيد أنَّهم لا يعلمون إلَّا ظاهراً واحداً من ظواهرها؛ وهو التمتُّع منها بالأكل والشرب كالبهائم، لا جملتَها؛ فإنَّ مِن ظواهرها معرفةَ خواصِّها، والاستدلالَ بها على صانعها، وكيفيَّة الانتفاع بها لصلاحِ الدارين، ففيه ذمٌّ لهم بالجهلِ بليغٌ.

---

(١) في (ع): «متحرك»، وفي (ك): «معجز».

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي غايتُها والمقصودةُ منها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطر ببالِهم، و﴿هُمْ﴾ الثانية تكريرٌ للأولى، أو مبتدأ و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبرُ الأولى، وعلى كِلَا الوجهين في توسطيه وتكريرِ ﴿هُمْ﴾ إشعارٌ بأنَّهم معدنُ الغفلة عن الآخرة ومنبعُها، متمادونَ فيها بالسكون إليها، كأنَّه لا غافلَ غيرُهم.

* * *

(٨) ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾: كلمةُ استبطاءٍ، ومعناها: هلَّا يتفكَّرون[١] لِمَ أخَّروا التفكُّر، والواو للعطف على محذوفٍ تقديره: أَلَم يلتفتوا ولم يتفكَّروا، وقوله:

﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون صلةً للتفكُّر.

ومعنى تقييد[٢] التفكُّر به على الأول مع أنَّه لا يكون [إلا][٣] في النفس: زيادةُ تصويرٍ لحال المتفكِّرين وتقريرٌ، كقولك: كتبتهُ بيميني، كأنَّه قيل: أَوَلم يُحْدِثوا التفكُّر في أنفسهم العاطلةِ الفارغة عن التفكُّر والتأمُّل.

وعلى الثاني معناه: أَوَلم يتفكَّروا في أنفسِهم التي هي أقربُ الأشياء وما فيها مِن عجائبِ الصنع وبدائعِ الحكَم التي أَودعها اللهُ تعالى فيها، وفي انتقالاتها في السِّنِّ إلى الشيخوخة والضَّعْف وضرورة فنائها.

---

(١) في النسخ: «يتفكروا»، والصواب المثبت.

(٢) في (ف) و(ك): «تعيين».

(٣) من «البحر المحيط» (١٧/ ١٦٠)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤١٤).

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ متعلِّق بـعِلْمٍ أو قولٍ محذوفٍ دلَّ الكلامُ عليه؛ أي: فيَعلموا أو يقولوا هذا القول.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ حـالٌ؛ أي: إلَّا مُلْتبسـةً بالحـق؛ أي: بالحكمـة البالغـة والعـدل والصواب.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وبتقديرِ أجلٍ مسمًّى يَنتهي إليه، وهو قيامُ الساعة ووقتُ الحسابِ والثوابِ والعقابِ.

أو: إلَّا وهي ملتبسةٌ بالحقِّ وتقديرِ أجلٍ مسمًّى، يعني: ما خَلَقهما باطلاً، ولا لتبقى خالدةً.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لقـاءِ جزائـه عنـد الأَجَـلِ المسـمَّى والبعـث.

﴿لَكَٰفِرُونَ﴾: منكِرون[1].

***

(٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾: تقريرٌ لسيرهم في البلاد، ونَظَرِهم إلى آثار المدمَّرين ـ مِن عادٍ وثمودَ وغيرِهم مِن الأُمم العاتية ـ المترتِّبِ على ذلك السير، ثم وصف حالهم فقال:

---

(١) في هامش (ي): «لم يقل: جاحدون؛ لأن الجحد مشروط بالعلم. منه».

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾: وقلَّبوا وجهَها لزرعِ البُزُور واستنباطِ المياه واستخراجِ المعادن وغيرها.

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ بالاهتمام في أمرِ البناءِ والغرسِ ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: مِن عمارة أهلِ مكَّة إيَّاها، وفيه تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا عمارةَ لهم ولا حرثَ، وهم مغترُّون بالدنيا مفتخرونَ بها، مع أنَّهم أضعفُ حالاً فيها، إذ مدارُ أمرِها على التبسُّط في البلاد، والتسلُّط على العباد، والتصرُّف في الأقطار بإظهارِ أنواعِ الآثار.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: بالمعجزاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾: فما صحَّ لهم أنْ يَظلمهم اللهُ؛ لأنَّ حاله تعالى يُنافي الظلم، كناية عن عدمِ كون تدميرِهم واستئصالِهم ظلماً.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: حيث أصرُّوا على ما أَوجب تدميرَهم مِن الكفر والتكذيب والمعاصي.

* * *

(١٠)- ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾؛ أي: عُوقبوا في الدنيا بالتدمير، ثم كانت عاقبتهم التي هي أَسوأ العقوبات، وهي جهنَّم التي أعدَّت للكافرين، فوضع الظاهر موضعَ المضمر للدلالة على أنَّ الموجبَ للعقوبة السوأى إساءتُهم المفرطة.

و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيثُ: الأَسْوَأ وهو الأقبحُ، كما أنَّ الحُسْنى تأنيث الأحسنِ، أو مصدرٌ كالبُشْرى نعت بها للمبالغة.

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ علةٌ؛ أي: لِأَنْ كذَّبوا، أو بدلٌ مِن ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أو عطفُ بيانٍ له، أو خبر ﴿كَانَ﴾ و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مصدرُ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، أو مفعولُه؛ أي: [ثم كان عاقبةَ الذين] اقترفوا الخطيئةَ [أن طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ حتى كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها.

ويجوز أن تكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ صلةَ الفعل و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ تابعَها، والخبرُ محذوف للإبهام][١] والتهويل، وأن تكون ﴿أَن﴾ مفسِّرةً[٢] بمعنى: أي؛ لأنَّ الإساءة إذا كانت مفسَّرة بالتكذيب والاستهزاء، كانت في معنى القول، نحو: نادى، وكتب وما أشبههما.

ويجوز أن يكون معنى ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: اقترفوا الخطيئةَ التي هي أسوأُ الخطايا، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ عطف بيانٍ لها، وخبر ﴿كَانَ﴾ محذوف كما يُحذف جوابُ (لو) و(لمَّا) لإرادة الإبهام؛ أي: ما لا يدخل تحت الوصف.

وقرئ: ﴿عَٰقِبَةَ﴾ بالنصب[٣]، على أنَّ الاسم ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ على الوجوه المذكورة.

﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عدل عن صيغةِ الماضي، وزاد عبارة (كان)؛ للدلالة على الاستمرار التجدُّدِيِّ في أمرِ الاستهزاء المتضمِّن للتكذيب، والمحافظةِ على رؤوس الفاصلة[٤].

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٠٣).

(٢) اضطربت النسخ وغمض معناها في هذا الموضع، فجاء في (ف) و(ك): «والتهويل في أن كذبوا تفسير أو أن هي المفسرة»، وفي (م): «والتهويل في أن يكون كذبوا في أن كذبوا تفسيرا وأن هي المفسرة»، وفي (ي): «والتهويل في أن يكون كذبوا تفسيرا وأن هي المفسرة»، وفي (ع): «والتهويل في أن يكون كذبوا وأن هي المفسرة»، والمثبت من المصدر السابق.

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٤).

(٤) في (ف): «الآي».

(١١) - ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ﴾: يُنشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يَبعثهم ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ للجزاء، والالتفاتُ للاستحضار والتنبيهِ على أنه المقصود، وقرئ بالياء على الأصل[1].

* * *

(١٢) - ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾.

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾: يسكتون متحيِّرين آيسينَ، يقال: ناظَرْتُه فَأَبْلَسَ، إذا سكتَ ويئس مِن أنْ يَحْتَجَّ، ومنه: ناقةٌ مِبْلاسٌ، إذا لم يكن لها رُغاء.

وقرئ: بفتح اللام[2]؛ مِن: أَبْلَسَهُ، إذا أَسكتَهُ.

* * *

(١٣) - ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾: مِن الذين أشركوهم بالله وعَبَدوهم مِن دونه ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يُجيرونهم مِن عذاب الله.

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾: يكفرونَ بآلهتهم حين يئسوا منهم. وإنَّما جِيءَ بـ (لم يكن) و(كانوا) على لفظ الماضي لتحقُّق وقوعِه.

وقيل: كانوا في الدنيا بسببهم كافرين، وزيادة (كان) للمحافظة على الفاصلة[3].

---

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة عن عاصم: ﴿يُرجَعون﴾ بضم الياء، وقرأ روح: ﴿يَرجِعون﴾ بفتحها، وباقي السبعة بالتاء المضمومة. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٥)، و«النشر» (٢/ ٢٠٨و٣٤٤).

(٢) نسبت لعليٍّ رضي الله عنه والسلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦).

(٣) كذا قال، ووهمه الشهاب في «الحاشية» (٧/ ١١٥) متعقباً بقوله: (وذكرها للدلالة على الاستمرار لا المحافظةِ على رؤوس الفواصل كما تُوهِّم... فلو قيل: وهم بشركائهم كافرون، كان هو المناسبَ للفاصلة الواوية).

(١٤) ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ في الأحوالِ والمحالِّ على ما فسَّره بعدها، والضمير لـ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ أو ضمير ﴿يُرجعون﴾، وإعادة (يوم تقوم الساعة)؛ للتهويل.

***

(١٥) ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾: الفاء للتفصيل، والروضةُ: البستانُ، وكلُّ مكانٍ ذا نباتٍ وماءٍ يُسمَّى روضةً، وتنكيرها للتفخيم بالإبهام؛ أي: في روضةٍ لا يُعرَف قَدْرُها في علوِّ شأنها.

﴿يُحْبَرُونَ ﴾: يُسَرُّون، مِن: حَبَرَهُ، إذا سَرَّهُ سروراً تهلَّل له وجهُه.

***

(١٦) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾: مقيمونَ لا يغيبونَ عنه، وفي بناء الإحضار دلالةٌ على الكُرْهِ، وأنَّهم مُجبَرون في العذاب، وأمَّا ﴿يُحْبَرُونَ ﴾ فللدلالة على أنَّه سرورٌ فوق ما بالطبعِ والعادةِ، فلا بُدَّ مِن سارٍّ يَسرُّهم بأنواع المسارِّ التي لم يكن للإنسان مثلُها في الدنيا.

***

(١٧) ـ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾.

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾: لمَّا ذكر الوعدَ والوعيدَ، أتبعه

بما يتعيَّن طريقاً للخلاص عن الدَّرَكات إلى الوصول إلى الدَّرَجات، كأنَّه قيل: إذا صحَّ ووَضحَ عاقبةُ المُعرِضين عن عبادته وطاعته، والمقبلين إليها، فسبِّح اللهَ تسبيحاً دائماً[١].

وقرئ: (حيناً تُمسون وحيناً تُصبحون)[٢]؛ أي: تُمسون فيه، وتُصبحون فيه.

***

(١٨) ـ ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾.

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للشواهد الناطقة فيهما باستحقاقِه الحمدَ ممَّن له تمييزٌ مِن أهلهما، ووجوبِه عليهم.

﴿وَعَشِيًّا﴾: إنَّما عدل هنا عن سَنَنِ نظائرها؛ لأنَّه لم يُصرَف مِن العشيِّ فِعْلٌ، لا يقال: أعشى، كما يقال: أَمسى وأَصبح وأَظهر.

﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: أمرٌ في صورة الإخبار؛ لكونه أكَّد بتنزيه اللهِ[٣] تعالى والثناءِ عليه في هذه الأوقات التي تَظهر فيها آياتُ قدرته، ويتجدَّد فيها نِعَمه، وإنَّما خصَّص التسبيح بطرفَي النهار لأنَّ آثارَ القدرة فيهما أظهرُ، والحمدَ بالعشيِّ والإظهارِ لأنَّ تجدُّد النِّعم فيها أظهرُ وأكثرُ وأبينُ، والعشيُّ: آخرُ النهار، مِن: عَشى العينِ، إذا نقصَ نورُها، والظهيرة وَسَطه.

ويجوز أن يكون ﴿وَعَشِيًّا﴾ معطوفاً على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ.

---

(١) في (ف): «ذاتياً».

(٢) نسبت لعكرمة. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦).

(٣) في (ف): «تنزيهاً لله».

وقيل: المراد بالتسبيح والتحميد في الأوقاتِ المعيَّنةِ الصلاةُ.

وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ الآيةَ جامعةٌ للصلواتِ الخمسِ: ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، و﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر[1].

ولا يلزم منه أن تكونَ مدنيَّة؛ لأنَّ الخمسَ فُرِضت بمكَّة، يدلُّ عليه حديثُ المعراج[2] دلالةً بيِّنةً.

* * *

(١٩) ـ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الطائرَ مِن البيضةِ، والحيوانَ مِن النُّطفةِ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ بالعكس.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾: بإخراج النبات منها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يُبْسها.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مِن القبور للبعث، فإنَّه تعقيبُ الموتِ بالحياة، وإخراجُ الحيِّ مِن الميت، والمراد أنَّ الإبداءَ والإعادةَ متساويان بالنسبة إلى قُدرة القادر، وفي الإخراج والإحياء المذكورين دليلٌ قاطعٌ على البعث.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأنَّ أصلهم منه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم فاجأتُم وقتَ كونكم بَشَراً منتشرين في الأرض.

---

(١) رواه عنه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٧٢)، والطبري في «التفسير» (١٨/ ٤٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢١) - ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ لأنَّ حوَّاءَ خُلِقت مِن ضِلَعِ آدمَ عليه السلام، وسائرَ النساءِ خُلِقنَ مِن نُطَفِ الرجالِ، أو لأنَّهنَّ مِن جنسهم لا مِن جنسٍ آخر.

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾: لتميلوا إليها، يقال: سَكَنَ إليهِ، إذا مالَ إليه، ومنه: السَّكَن، وهو الأُلْفُ المسكونُ إليه، وذلك لأنَّ الأُلْفَ إنَّما يكون بين المتجانسَيْن؛ لأنَّ الجنسيَّةَ علَّةُ الضَّمِّ، والاختلافَ سببُ التنافر.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾: بين الرجال والنساء ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: التوادَّ والتراحُمَ بعصمة الزواج بعد أنْ لم يكن بينهما سابقةُ معرفةٍ ولا قرابةٍ تُوجِب ذلك؛ لينتظِم أمرُ النسبِ والتربية والإرث، أو بين أفراد الجنس؛ لابتناءِ أمرِ المعاش على التعاون المحوِج إلى التوادِّ والتراحم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلَمونَ ما في ذلك مِن الحِكَم والمصالح.

* * *

(٢٢) - ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾: لغاتِكم؛ مِن العربيَّة والعجميَّة وغيرِ ذلك مِن لغاتِ كلِّ صنفٍ وأهلِ كلِّ إقليم ولهجاتهم.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: أشكالِكم وهيئاتكم؛ مِن تخاطيطِ الأعضاء والصُّور، فإنَّه لا يكاد يتَّفق اثنان في الشكل والهيئة، وعليه يبتني التعارُف المحتاج إليه في ضبط النظام.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ حيث ولدوا مِن أبٍ واحدٍ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلَّا اللهُ متفاوتون ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لكلِّ مَن له عقلٌ مِن أهل العالَم.

وقرئ: بالكسر(١)، ويرجِّحها قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

***

(٢٣) ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّ المنامَ في الليل والنهار وابتغاءَ الفضل فيهما، وهو معنًى صحيحٌ، فإنَّ المنامَ في النهارِ الصيفيَّة الطويلةِ هو القيلولةُ المستحبَّةُ في السُّنَّة لاستراحة القوى النفسانيَّة وانتعاشِ القوى الطبيعيَّة، وكذلك ابتغاءُ الفضلِ في الليالي الشتويَّة مِن المباحات لِقِصَرِ النهار، وقصورها عن حاجات الناس.

ويجوز أن يكون ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِن بابِ اللَّفِّ، وترتيبُه: منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار؛ أي: منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، حصراً بين المتعاطفَين بالزمانين، إشعاراً بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الزمانين وإن اختصَّ بأحدهما، فهو صالحٌ للآخر عند الحاجة، ويؤيد هذا الاختصاصَ تكريرُ هذا المعنى في القرآن.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: يدركون المحسوس، لمَّا كان المشارُ إليه مِن جنسِ ما يُدرَك بالمشاهدة وبالسماع مِن الغير كما في حقِّ الأعمى،

---

(١) قرأ بها حفصٌ وحده، في حين قرأ الباقون بالفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٥).

والثاني أضعف الطريقين، عبَّر به عن إدراكه إعمالاً للدِّلالة، وهذا من جنس لطائف الاعتبار الذي قلمَّا يَتنبَّه له إلَّا مَن له الاختبار.

* * *

(٢٤) - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: مِن آياته ما يُذكَر، أو: ما يُتلى عليكم، ثم قيل: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ إمَّا بيانٌ لذلك، أو: ﴿يُرِيكُمُ﴾ مبتدأ على حذف (أنْ) ورفعِ الفعلِ، كقوله:

أَلَا أَيُّهذا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوَغَى(١)

أو: تنزيلِ الفعلِ منزلةَ المصدر المرفوع؛ أي: ومِن آياته إراءتكم البرق، كقوله: تَسمعُ بالمُعيديِّ خيرٌ مِن أنْ تراهُ، أو: صفة لمحذوف تقديره: آيةٌ يريكُم بها البرقَ، كقوله:

فَمَا الدَّهرُ إلَّا تارتان فمنهما ... أَموتُ وأُخرى أَبتغي العيشَ أَكدَحُ(٢)

أي: تارةً أموت فيها.

﴿خَوْفًا﴾ مِن الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث.

---

(١) صدر بيت لطرفة، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، وعجزه:

وأنْ أشهدَ اللَّذاتِ هل أنتَ مُخلِدي

وقوله: «الزاجري» كتب فوقها في (ي): «مضافة إلى ياء المتكلم». قلت: لأن (أل) فيه موصولية، فساغت الإضافة المذكورة.

(٢) البيت لتميم بن أُبي بن مُقبِل، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٤).

وقيل: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر.

ونصبُهما على المفعولِ له، وإنَّما جاز مع أنَّهما ليسا بفعلِ فاعلِ الفعلِ المعلَّل؛ لأنَّ الإراءَة متضمِّنة للرؤية، أو على حذف المضاف، وإقامةِ المضاف إليه مقامه؛ أي: إراءةَ خوفٍ وطمعٍ، أو: تأويلِ الخوف والطمع بالإخافة والإطماع، كقولك: فعلتُه رغماً للشياطين، أو: على الحال؛ أي: خائفين وطامعين.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبسها، وقد سبق وجهُ الفاءِ التعقيبية بين الإنزال والإحياء في تفسير سورة النحل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يستعملون عقولَهم في استنباط أسبابها وكيفيَّة تكوُّنها؛ ليظهر لهم كمالُ قدرةِ الصانع وحكمته.

* * *

(٢٥) - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بقوله: كونا قائمتَيْن، والمراد به تعلُّقُ إرادته بقيامِهما في حيِّزهما المعيَّنين مِن غير مقيمٍ محسوسٍ، شُبِّهتا في قيامِهما على وَفْقِ إرادته بمأمورٍ مطيعٍ امتثلَ أمرَ آمرٍ مطاعٍ بلا توانٍ وتقصيرٍ؛ للمبالغة في كمالِ قدرته ونفاذِ أمره، وعدمِ تخلُّف المراد عن إرادته، وكذا في قوله:

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ شبَّه الموتى بالمأمورِ المطيع؛ لتصوير ترتُّب خروجهم على دعائه مِن غير توقُّفٍ، عطفٌ على ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ على تأويلِ مفردٍ، كأنَّه قال: ومِن آياته قيامُهما، ثم خروجُكم مِن الأرض بسرعة إذا دعاكُم دعوةً، فيقول: أيُّها الموتى اخْرُجوا.

و﴿ثُمَّ﴾ مستعارٌ لبُعد هذه الحالة مِن قيام السماوات والأرض بأمره، وهي خروج الموتى كلُّهم من الأرض دفعةً عند قوله: قوموا.

و(إذا) الأولى شرطيَّة، والثانيةُ للمفاجأة، وهي تقومُ مقامَ الفاء في جواب الشرط، و﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلِّق بـ ﴿دَعَاكُمۡ﴾ لا بـ ﴿تَخۡرُجُونَ﴾ لأنَّ ما بعد (إذا) لا يعمل فيما قبله.

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ قد سبق ما يتعلَّق بـ ﴿مَن﴾ في مثل هذا المقام.

﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يَمتنعون عليه.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد هلاكهم.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الإعادةُ، وتذكيرُه لمطابقةِ ﴿أَهۡوَنُ﴾، أو على تأويل: أنْ يعيده.

﴿عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: أَسهلُ عليه مِن الإنشاء بالنسبة إلى عقولكم، والقياسِ على أصولكم[1]، وإلَّا فجميع الممكناتِ بالنسبة إلى قدرته سواءٌ، والإعادةُ في نفسها عظيمةٌ، ولكنَّها هوِّنت بالقياس إلى الإنشاء، وإنَّما قدِّمت الصلة في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩]؛ لقصد الاختصاص، ولا وجهَ له ها هنا، فلذلك أخِّرت.

---

(١) في (ك) و(م): «أموركم».

وقيل: الضمير في ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ للخَلْق؛ أي: الإعادةُ أهونُ على الخَلْق؛ لأنَّه وجودٌ وقع[1] على التمام، وأمَّا الإنشاءُ فهو وجودٌ متدرِّجٌ مِن النقصان إلى الكمال، فعليه فيه شدَّةٌ ومشقَّةٌ.

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: الوصفُ العجيبُ الشأنِ الذي ليس لغيرِه ما يُساويه أو يُدانيه، كالقدرة الكاملة، والحكمة البالغة، يَصفُهُ به ما في السماوات والأرض دلالةً ونطقاً.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: القويُّ القادرُ المُطلَق على إبداءِ كلِّ ممكنٍ وإعادته، ولا يُعجِزه شيءٌ ولا يمتنع عليه.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يجري شؤونه وأفعاله على مقتضى الحكمة.

* * *

(٢٨) ـ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا﴾ في التوحيد ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ أي: مُنتزَعاً مِن أقرب شيءٍ إليكم وهي أنفسُكم.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ مِن مماليكِكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ في أموالكم التي رزقناكموها؛ أي: هل ترضونَ لأنفسِكم أنْ يُشارككم عبيدُكم فيما رزقناكم مِن الأموال، وهم بشرٌ مثلكُم وأنتم عبيدٌ مثلُهم.

---

(١) في (ك): «لأنه وجودي» وفي (ع) و(ف) و(م): «لأنه وجود دفعي»، والمثبت من (ي)، وهو الصواب.

﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فتكونونَ أنتم وهم سواءٌ في التصرُّف فيها مِن غير فرقٍ.

و(مِن) الأولى للابتداء، والثانية للتبعيض، والثالثة مزيدةٌ لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي؛ لأنَّه[1] الإنكاري.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: [أن] يستبدُّوا[2] بالتصرُّف فيها ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما يخاف بعضُ الأحرار بعضاً إذا شاركه في ميراثٍ في مالٍ مُشتَرِكٍ أنْ يَحوزَهُ دونه، أو يَستقلَّ بتدبيره والتصرُّف فيه.

أو: تخافون أنْ تستبدُّوا بتصرُّفٍ دونَهم؛ مخافةَ بعضِ الأحرار بعضاً.

فإذا لم تَرضوا بذلك لأنفسِكم، وأنتم وعبيدُكم سواءٌ في البشريَّة، فكيف تَرضونَ لرَبِّ الأربابِ ومالكِ العبيدِ والأحرارِ أن يكون بعضُ عبيده له شركاءَ؟!.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: نبيِّنها، فإنَّ التمثيلَ ممَّا يكشف المعاني ويوضِّحها تصويراً وتشكيكاً.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يستعملون عقولَهم في تدبُّر الأمثال.

* * *

(٢٩) ـ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

---

(١) «لأنه» ليست في (ف).

(٢) في (ك): «تستبدون»، وفي باقي النسخ: «تستبدوا»، وما بين معكوفتين من «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٠٦)، وقال القونوي في «الحاشية» (١٥/ ١٣٤): أي: تخافون أن يستقلوا بالتصرف فيه بدون رأيكم.

﴿بَلِ﴾: إضرابٌ عن تبصُّر المشركين وهدايتهم، وإثبات أنَّ هداهُم لا يُجدي عليهم شيئاً ﴿ٱتَّبَعَ﴾: التفاتٌ مِن الخطاب إلى الغَيبة للإعراض والمتاركة.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ، إنَّما قيَّدهم به لأنَّ العالِمَ إذا ركبَ الهوى فربَّما يَردعه عِلْمه، وأمَّا الجاهل فهو كالبهيمة[1] لا يردُّه شيء.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: فمَن يَقدِرُ أنْ يهديَ مَن أضلَّ اللهُ وخَذَلَهُ، والفاء في ﴿فَمَن﴾ للسببية، والاستفهام للإنكار؛ أي: إذا اتَّبعَ الظالمون أهواءَهم جاهلينَ لا وازعَ لهم، فلا يقدر أحدٌ أنْ يهديَهم.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ينقذونهم مِن ضلالتهم، ويمنعونهم تَبِعاتِهم.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ موضوعانِ موضعَ الضمير، والأول للتسجيل عليهم بالظلم والتعليلِ لاتِّباع الهوى، والثاني للتعليل لامتناعِ قَبولِ الهدى.

***

(٣٠) - ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: تمثيلٌ للإقبال عليه والاستقامةِ إليه بحالِ مَن قَصدَ شيئاً غيرَ ملتفِتٍ عن سمتِهِ يميناً وشمالاً؛ أي: قَوِّم وجهَك أو عَدِّله إليه غيرَ منحرفٍ عنه أصلاً، وكنايةٌ عن كمالِ الاهتمام؛ فإنَّ مَن اهتمَّ بالشيء غايةَ الاهتمام، عَقَدَ طرفَه

---

(١) في (ف) و(م): «كالبهمة».

عليه وسدَّد نَظَره إليه وقوَّم وجهَه مُقبِلاً عليه بكُلِّيَّته، والفاء للسببية؛ أي: إذا لم تَنجَع[1] هدايتُك فيه، فأَقِم وجهَك للدِّين واترُكْهم.

﴿حَنِيفًاۚ﴾ حالٌ مِن ضمير (أقم) أو مِن (الدِّين).

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ نصبٌ على الإغراء؛ أي: الزموا فطرةَ اللهِ، أو: عليكم فطرةَ اللهِ، والإضمارُ على خطاب الجماعة؛ لقوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ فإنَّه حالٌ مِن ضمير العامل المقدَّر، وقولِه: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ فإنَّه عطفٌ على المقدَّر.

وإضافةُ الفطرة إلى اللهِ وتوصيفُها بقوله: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ للاختصاص والتعظيم، وأنَّه لا ينبغي أنْ تبدَّل وتغيَّر، ولا يَقدرُ أحدٌ أنْ يغيِّرها؛ حسماً لأطماع المشركين، وحتماً بأنَّ توحيدَه ذاتيٌّ لا يُمكن تغييرُه، وبيَّنه للتأكيد والتقرير بقوله:

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ ففيه دلالةٌ على أنَّ المرادَ مِن الفطرةِ الخِلْقةُ؛ وهي: الحالةُ التي جُبِلوا عليها مِن قَبولهم للتوحيد ودينِ الإسلام، وتمكُّنهم مِن إدراكه، بحيث لو خُلُّوا وما جُبِلوا عليه لَمَا اختاروا عليه[2] ديناً آخَرَ، وشهدت عقولُهم الفطريَّة به، ومَن غوى منهم فبإغواء شياطينِ الإنس والجنِّ، وقد أَفصحَ عن هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «كلُّ عبادي خَلقتُ حنفاءَ، فاجتالتهم الشياطينُ عن دينِهم وأَمروهم أنْ يُشركوا بي غيري»[3]، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة حتى يكون أبواهُ هما اللَّذان يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه»[4].

---

(١) في (ف): «تبخع»، وفي (م): «بنجع».

(٢) «عليه» ليست في (ف).

(٣) قطعة من حديث رواه باختلاف يسير مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويجوز أن يُراد بالفطرة دينُ ملَّةِ الإسلام، فيكون معنى: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾: لا ينبغي أُن يُبدَّل، وإنَّما وحَّد الخطابُ أولاً ثم جُمعَ؛ لأنَّ خطابَ الرسول خطابٌ لأمَّته، فأُفرد تعظيماً للاهتمام، ثم جُمعَ لأنَّ الخطابَ للبيان، وأنَّ الدِّين له بالأصالة ولهم بالتبعيَّة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين المأمورِ بإقامة الوجهِ له ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستوي الذي لا عِوَجَ فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامتَه؛ لعدم تدبُّرهم.

***

(٣١) ـ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعينَ إلى الله بآمالكم، مُقبِلين عليه بأعمالكم، مِن أناب: إذا رجع مرَّة بعد أخرى، والمرادُ مِن التكرار المبالغةُ في الرجوع إلى الرضا والانقطاع عن الهوى، أو تضمين التنبيه على قَبول التوبة كرَّةً بعد أُولى.

وقيل: الإنابةُ: الانقطاعُ إلى الله بالطاعة، وأصله على هذا القطعُ، ومنه: النائب؛ لأنَّه قاطعٌ.

﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خصَّهما بالذِّكْر لأنَّهما عمادُ الدين.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: ممَّن يُشرِك به غيرَه في العبادة، وفيه نهيٌ عن الرِّياء في الصلاة؛ فإنَّه شركٌ خفيٌّ.

***

(٣٢) ـ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ تركوا دينَ الإسلامِ،

وإنَّما عَّبر عن دينِه بالمفارقة لِمَا عرفتَ أنَّهم جُبِلوا على قَبوله، فنزِّل قَبولُه منزلةَ فعلِه مبالغةً في قوَّة قبولِهم إيَّاه.

وقرئ: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾[1]؛ أي: جعلوه أدياناً مختلفة؛ لاختلاف أهوائهم.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: يُشايع كلُّ فرقة إمامَها الذي أضلَّها، والشِّيَعُ: الفِرَقُ التي يَجتمع كلُّ فريقٍ منها على مذهبٍ خلافَ مذهبِ الفريق الآخَرِ.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾: مسرورونَ يَحسبونَ أنَّه الحقُّ، والجملة في محلِّ النصب صفةُ ﴿شِيَعًا﴾، أو: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ مبتدأ، خبرُه ﴿من الذين فارقوا﴾ منقطعاً عمَّا قبله، و﴿فَرِحُونَ﴾ صفة ﴿كُلُّ﴾.

* * *

(٣٣) - ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾: شدَّةٌ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعينَ إليه مِن دعاء غيره.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ﴾: مِن ذلك الضُّرِّ ﴿رَحْمَةً﴾: خلاصاً.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأَ فريقٌ منهم بالإشراك بربِّهم الذي عافاهم.

وفي عبارة ﴿ثُمَّ﴾ ولفظ ﴿أَذَاقَهُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم مع امتدادِ شدَّتهم وتأثُّرهم منها في الغاية يشركون كما يظهر طليعة الخلاص منها.

* * *

---

(١) قرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾، وقرأ الباقون: ﴿فَرَّقُواْ﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٠٨).

(٣٤) ـ ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ ﴾ اللامُ مجازٌ عن العاقبة، وقيل: هي بمعنى التهديد.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على الأول أمرٌ للتهديد، كقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، والفاءُ للسببيَّة على تقدير شرط محذوف؛ أي: إذا أَصررتم على الشرك وتمادَيتم في الكفر فتمتعوا، وعلى الثاني عطفٌ على ﴿ لِيَكْفُرُواْ﴾، والالتفات مِن الغيبة إلى الخطاب؛ للمبالغة في التهديد.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبالَ تمتُّعكم.

* * *

(٣٥) ـ ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى (بل) والهمزةِ للإضراب عن الكلام السابق، والهمزة للاستفهام عن الحُجَّة استفهامَ إنكارٍ وتوبيخٍ.

﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ التنكير للتعظيم، وفائدتُه الدلالة على أنَّ ما يَنزل في مثلِ هذا الأمرِ حقُّه أن يكون برهاناً عظيمَ الشأن واضحَ الدلالة، ولهذا عبَّر عن دلالته الواضحة بالنطق في قوله تعالى:

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وأتى بالتفريعِ دون التوصيفِ.

﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾: بالأمرِ الذي بسببه يُشركون به تعالى في ألوهيَّته.

* * *

(٣٦) ـ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً ﴾: نعمةً مِن صحةٍ وسَعةٍ ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾: بَطِروا بسببها.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾: شدَّة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: بشؤم معاصيهم.

﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾: قَنطُوا مِن الرحمة بالكلِّيَّة، وإنَّما جِيء بصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية؛ استحضاراً لها، واستفظاعاً للقنوط، وتنبيهاً على أنَّ ذلك دَيْدَنُهم ماضياً ومستقبلاً.

و﴿إِذَا﴾ المفاجأة جوابُ الشرط، نائبٌ عن الفاء، لتآخيها في التعقيب.

ثم أَنكر عليهم بَطَرهم وقُنوطَهم؛ بأنَّهم قد علموا أنَّ الله هو الباسطُ القابضُ، فما لهم لا يشكرونه على نعمته، ولا يرجعون إليه تائبين[1] عن معصيته كالمؤمنين، حتى يعيدَ عليهم رحمتَه ويبسطَ عليهم نعمتَه.

***

(٣٧) ـ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

وهذا ما أراد بقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ عبارةً وإشارةً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيستدلُّون به على كمالِ القُدرة والحكمة.

لمَّا وبَّخهم على البَطَر والقُنوط، وعلَّق السيئةَ بارتكاب المعاصي والذنوب، حثَّهم على ما يجب عليهم، وأَوعد على ارتكاب ما حرَّم، وحرَّضهم على ما يجب أن يُفعَل في حال السَّعَة، ولذلك جاء بالفاء السببية، وقال:

(٣٨) ـ ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

---

(١) في (ع) و(ك) و(م) و(ي): «تائبون»، والمثبت من (ف).

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إذا فسِّر حقُّ الأخيرين بالنُّصيب المسمَّى لهما مِن الزكاة، وجب أنْ يفسَّر حقُّ الأول بالنفقة الواجبة؛ لئلا يلزم استعمال لفظ[1] الأمر للوجوب والندب معاً في استعمالٍ واحد.

ولهذا احتجَّ أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقةِ للمحارم إذا كانوا محتاجينَ عاجزينَ عن الكَسْب، وخصَّ الشافعيُّ في وجوبها بالوالدين والأولاد، وقاسَ سائرَ القرابات على ابنِ العمِّ؛ إذ لا وِلادَ بينهم.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يقصدون بمعروفهم إيَّاه خالصاً.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ حيث حصَّلوا بما بُسط[2] لهم مِن زخارف الدنيا النَّعيمَ المقيمَ في العقبى.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾: زيادةٍ محرَّمةٍ في المعاملة، وقرئ بالقصر[3]؛ أي: ما جئتم به مِن إعطاءِ رباً ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: ليزيدَ ويزكوَ في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ فلا يزكو، أو: لا يبارك فيه.

وقرئ: ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾[4]؛ أي: لتزيدوا، أو: لتصيروا ذا رباً.

---

(١) سقط من (ف).

(٢) في (ف) و(م): «يبسط».

(٣) أي: ﴿أتيتم﴾، وقرأ بها ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ٨١).

(٤) قرأ بها نافع. انظر: «التيسير» (ص: ٨١).

وقيل: هو مِن الربا الحلال؛ [أي][(١)]: وما تُعْطونه مِن الهدية[(٢)] لتأخذوا أكثرَ منها، ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّكم لم تريدوا بذلك وجهَ الله تعالى.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: تبتغونَ به وجهَه خالصاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ المُضعِف: ذو الضِّعْف، كالمُقوِي والمُوسِر بمعنى: ذي القوة وذي اليسار.

وقرئ بفتح العين[(٣)].

والراجع منه محذوفٌ إنْ كانت (ما) موصولةً، تقديره: المُضعِفُون به، أو: فمُؤْتُوه أولئك هم المُضعِفون وذوو الأضعاف مِن الثواب، أو الذين ضعَّفوا أموالهم ببركة الزكاة، وفيه التفاتٌ حَسَنٌ للتعظيم؛ كأنَّه قال لملائكته[(٤)] وخواصِّ خلقِه تعريفاً لحالهم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يريدونَ وجهَ اللهِ بصدقاتهم ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، فهو أمدحُ لهم مِن أنْ يقول: وأنتم[(٥)] المضعفون.

وتغيير العبارة والنَّظم عن سَنَن المقابلة للمبالغة في المدح، أو للتعميم؛ أي: فمَن فَعَلَ ذلك فأولئك هم المضعفون، فيكون إثباتاً برهانياً.

* * *

(٤٠) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) في(ف): «من هدية»، وفي (م): «أي: من الهدية».

(٣) نسبت لمحمد بن كعب. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦).

(٤) في (م): «للملائكة».

(٥) في هامش (ي): «وأنتم، كذا في نسخة المؤلف بالواو، وإن كان الفاء أظهرَ به».

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ خبره، أو صفةٌ والخبر ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ والرابط للجملة بالمبتدأ: ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ لأنَّ معناه: من أفعاله.

و﴿مِّن﴾ الأولى والثانية يفيدان شيوعَ الحكم في جنسِ الشركاء والأفعال، والثالثة لاستغراق النفي، وكلٌّ منها مستقلَّة بتأكيد[1] مقرِّرٍ لتعجيز الشركاء وتجهيل عَبَدتها، فإنَّ معنى الاستفهام: الإنكارُ المستلزمُ للنفي على سبيل التأكيد، أثبت اللهُ تعالى [له] [2] هذه الأفعال التي هي مِن لوازم الألوهيَّة وخواصِّها، ونفاها عن شركائهم مِن الأصنام وغيرِها، لِـمَا دلَّ عليه البرهان والعيانُ ووقع عليه الوفاق، ثم استنتج[3] مِن ذلك أنَّه منزَّه أن يكون له شركاء.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قيل: لمَّا لم يُجيبوا عمَّا سأل عنه عجزاً[4] قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ إلخ.

***

(٤١) ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) في (ف) و(م): «تأكيد».

(٢) من «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٠٨).

(٣) في (ع): «استقبح» وهو تحريف شنيع، وفي (ف) و(م): «استفتح»، والمثبت من (ك) وهامش (ي). وقد وقع في متن (ي): «استفتح»، لكنه صحح في الهامش إلى المثبت، وكتب بجانبه: «في نسخة المؤلف: استفتح، وإن كان استنتج موافقاً لما في القاضي». وهو كما قال.

(٤) سقط من (ف) و(م).

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مِثْل: المُوتان[١] في الناسِ والدوابِّ، والجَدْب والقَحْط، وكثرة الحَرْق والغَرَق، وقلَّة الزرع[٢]، وخَيْبة الصيادينَ والغاصَةِ[٣]، وخُسران التجَّار، واحتباس الأمطار، ومَحْقِ البركات، وشمول الآفات.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: بشؤم معاصيهم وذنوبهم.

وقيل: ظهر الفسادُ في البرِّ بقَتْل ابنِ آدمَ أخاه، وفي البحر بأنَّ جُلَنْدَى كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً.

وعن الحسن: أنَّ المرادَ بالبحر: المدنُ والقرى التي على شاطئه.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أراد: وبالَهُ في الدنيا، فإنَّ جزاءَه الموعودَ في الآخرة، ولمَّا كان ما في الدنيا موجِبَ شآمةَ ما عملوا، ومقتضَى شأنِ ذلك العملُ، نُزِّل منزلتَه، واللام للعلَّة استعيرت هنا لترتُّب المسبَّب على السبب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لإرادة الرجوع عمَّا هم عليه.

* * *

(٤٢) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أمَرهم بالسير في الأرض

---

(١) يعني: كثرة الموت. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٢٥).

(٢) في (م) زيادة: «والنيل».

(٣) «والغاصة» سقط من (م)، وهو جمع أو اسم جمع لغائص، وهو مَن ينزل لقعر البحر لإخراج اللؤلؤ ونحوه؛. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٢٥).

والنظرِ في آثار مَن أَهلك اللهُ تعالى مِن الأُمم قبلهم بسبب كفرهم ومعاصيهم؛ ليشاهدوا مصداقَ ذلك ويتحقَّقوا صدقه.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ للدلالة على أنَّ منهم مَن أَهلكهم بسبب سائر المعاصي، ولم يكن الشركُ وحده سببَ تدميرِ الكُلِّ.

***

(٤٣) ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾: البليغِ الاستقامة، الذي لا يتأتَّى فيه عِوَجٌ، يعني: قد بلغ الإنذارُ مبلغَه، فلا تهتمَّنَّ لإعراض هؤلاء، واقصِدْ أنتَ الطريقَ الذي يُوصِلك إلى الدِّين المستقيم، وهو ما تقدَّم ذِكْره: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: يومٌ لا يَقدِرُ أنْ يردَّه أحدٌ، أو: يأتي يومٌ لا رادَّ له مِن جهة الله؛ أي: لا يردُّه الله؛ لتعلُّق إرادته القديمة بمجيئه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾: يتصدَّعون؛ أي: يتفرَّقون تفرُّق الأشخاص، على ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، لا تفرُّق الفريقَيْن كما ظَنَّه مَن قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] فإنَّ المبالغةَ في التفرُّق المستفاد مِن ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ إنَّما يناسب الأول، ثم استأنف لبيانِ شأنهم في تلك الحال، فكأنَّه يقول: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

***

(٤٤) ـ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: وبالُ كفرِه، مبالغةً في إحاطة جميع المضارِّ به؛ لأنَّ مضرَّة الكفرِ ووبالَهُ غايةٌ في المضارِّ لا وراءَ لها، وهي إحاطةُ النار به.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: يُسوُّونَ مقرًّا في الجنة لا أنعمَ ولا أَجلبَ للراحة منه، وهو تمثيلٌ لحالهم بحالِ مَن يُمهِّد فراشَه ويوطِّئه لنفسه في غايةِ النعومة، بحيث لا يصيبه في مَرْقده ما ينغِّصه عليه مِن أدنى خشونةٍ.

وتقديمُ الظرفِ في الموضعين للاختصاص، وصيغةُ الإفراد في الكافر للدلالة على انفرادِه في زمانِ عذابه تشديداً له، فإنَّ الوحشةَ نقمةٌ أخرى، وصيغةُ الجمعِ في المؤمن للدلالة على أنَّ لهم نعمةَ الأُنْس زيادةً على ثوابهم الجزيل.

وفي مقابلةِ ﴿مَن كَفَرَ﴾ بـ ﴿مَن عمل صالحاً﴾ تنبيهٌ على أنَّ العملَ الصالح مِن روادف الإيمان، لا يوجد مع الكفر، ولمَّا كان العملُ الصالحُ كنايةً عن الإيمان، لم يبقَ قسمٌ آخرُ مجهولَ الحال.

* * *

(٤٥) ـ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: ممَّا يَتفضَّل به عليهم؛ لأنَّ الثوابَ مِن الفَضْل، والعقابَ مِن العدل.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليلٌ لـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، والاقتصارُ على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصودُ بالذات، والاكتفاءُ مِن جزاء الكافرين بفحوى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وتوصيفُ المؤمنين بالعمل الصالح، ليس للتخصيص، بل للتنبيه على أنَّ الإيمانَ الخالصَ شأنُه استتباعُ العملِ الصالحِ.

أو لـ ﴿يَمْهَدُونَ﴾، والموصول مع صلته مِن باب وضعِ الظاهرِ موضعَ المُضمَر، والتصريح بالتكرير للمدح والإشعارِ بأنَّه هو الموجب للكرامة والاستحقاق والترغيب في الإيمان والصلاح.

وكذا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ فإنَّه تقريرٌ بعد تقريرٍ على الطَّرْدِ والعكسِ؛ أي: يُقرِّر الأولُ الثانيَ وبالعكس، وذلك أنَّ قولَه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ، يدلُّ بمنطوقه على اختصاصِهم بالجزاء التكريميِّ، وبمفهومه على أنَّهم أهلُ الولاية والزُّلْفى(1)، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتعليلِ الاختصاص يدلُّ بمنطوقه على أنَّ عدمَ المحبَّة اقتضى حرمانهم، وبمفهومه على أنَّ مقتضى الجزاء لأضدادهم موفورٌ فهو بحبِّ المؤمنين.

***

(٤٦) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: ومِن آياتٍ قدرته وحكمته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ هي الجَنوب والشَّمال والصَّبا، وهي رياح الرحمة، وأمَّا الدَّبُور فريحُ العذاب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»(2)، وذلك أنَّ العربَ تقول: لا يُلقَّح السحابُ إلَّا مِن رياحٍ مختلفةٍ، يريد: اجْعَلها لقاحاً للسحاب ولا

---

(١) في (ف) و(م): «والزلف».

(٢) رواه الشافعي في «مسنده» (ص: ٨١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١١٥٣٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٥١)، والبيهقي في «الدعوات» (٣٦٩)، من طريقين عن ابن عباس كلاهما ضعيف. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٢٩).

تجعلها عقاباً، وتحقيقُ[١] ذلك: مجيءُ الجمعِ في آيات الرحمة، والواحدِ في قصصِ العذاب.

وقرئ: ﴿الرِّيحَ﴾ على إرادة الجنس[٢].

ثم عدَّد الفوائدَ في إرسالها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ أي: إرسالها للبشارة في الغيث.

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ولإفاضة الرحمة؛ وهي نزول المطر، وحصول الخصب الذي يتبعه، والرَّوحُ الذي هو مع هبوب الريح، وزكاءُ الأرض، وغيرُ ذلك، عطفٌ على علَّة أو علل شتَّى محذوفة دلَّ عليها ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾، أو عليها باعتبار المعنى؛ لأنَّه في معنى التعليل، كأنَّه قيل: ليبشِّركم وليذيقكم، أو متعلق بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ تقديره: وليذيقكم وليكون كذا وكذا أرسلناها.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ولتشكروا نعمة الله فيها.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لمَّا وسَّط بين دلائل التوحيدِ تسليةَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام ووعدَه، اقتصر الكلام بإدراج ذِكْر الفريقين في طيِّ ذكر الانتصارِ والنصر؛ تقريباً للمقصود وقصرً لطريقه، والمعنى: فجاؤوهم بالبينات؛ فمنهم مَن آمَنَ ومنهم مَن كَفَر.

---

(١) في (ف) و(م): «ومحقق».

(٢) قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي، وباقي السبعة بالجمع. انظر: «التيسير» (ص: ٧٨).

﴿فَانتَقَمْنَا﴾ في الدنيا ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾؛ أي: كفروا، بالتدمير.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الانتقامَ مِن المجرمين كان لأجلهم، وتعظيمٌ لهم، وإظهارٌ لكرامتهم عند الله تعالى؛ بأنْ جعلهم مستحِقِّين على الله بنصرهم، مستوجِبين لأنْ يُظهِرهم على عدوِّهم، ولذلك قدَّم الخبر على الاسم؛ اعتناءً بهم وبحقيَّة نصرهم عليه، وقد يُوقف على ﴿حَقًّا﴾ على أنَّ اسم (كان) ضميرُ الانتقام، ويُبتدأ ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اكتفاءً مِن معنى الحق بـ: ﴿عَلَيْنَا﴾[1].

* * *

(٤٨) ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: يَجعله متصلاً تارةً في الجو ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سائراً وواقفاً، مطبَقاً أو غير مطبَق، مِن جانبٍ دونَ جانبٍ، إلى غير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾: قِطَعاً تارةً أخرى.

وقرئ بالسكون[2] على أنَّه مخفَّف، أو جمع كِسْفَةٍ، أو مصدرٌ وصف به.

والمرادُ بالسماء جهةُ العُلُو وسَمْتُها.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾: المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ في التارتين ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾: وسطه.

﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾: بالوَدْق ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يريد: إصابةَ بلادهم وأراضيهم.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بمجيء الخصب.

* * *

---

(١) في النسخ عدا (ي): «تغليبا» بدل «بعلينا»، والمثبت من (ي).

(٢) قرأ بها ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٥).

(٤٩) ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ (إن) هي المخفَّفة مِن الثقيلة، واللام في ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾[1] هي الفارق بينها وبين النافية.

﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ المطرُ ﴿عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكرَّر للتأكيد كقوله: ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧]، وللدلالة على بُعْدِ عهدِهم بالمطر، واستِحكام يَأْسِهم، وتمادي إِبْلاسِهم؛ ليفيد مبالغةً في استبشارهم، فإنَّ الفرح بنزول المطر على قَدْر اغتمامِهم بانقطاعه، ويقوِّيه معنى التأكيد، واللامُ في: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أي: آيسينَ متحيِّرينَ مِن الغَمِّ منقبضينَ، وكذلك معنى السببية في:

(٥٠) ـ ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ مِن النبات والأشجار وأنواع الثمار وغير ذلك؛ أي: إذا كان كلُّ الاستبشارِ في نزولِه، وجُلُّ الغم في احتباسه، فانظر إلى آثار[2] رحمته كيف هو واعْتَبِرْهُ، والضمير في ﴿فَٱنظُرْ﴾ لكلِّ مخاطب.

﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: إنَّ ذلك القادرَ الذي يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها، هو الذي يُحيي الناسَ بعد موتِهم، فهذا استدلالٌ بإحياء الموات على إحياء الأموات.

وفي ﴿إِنَّ﴾ واللام تأكيدٌ وتقويةٌ للدليل في مقابلة إنكارِهم، ثم قرَّره وقوَّاه بقوله:

---

(١) في (ف): «واللام من المبلسين».

(٢) في (ف): «فالنظر أثر».

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ نسبةَ قدرتِه إلى جميعِ الممكنات على السواء.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾؛ أي: فرأوا أثَرَ رحمةِ اللهِ؛ لأنَّ الرحمةَ الغيثُ، وأثره النبات.

﴿مُصْفَرًّا﴾ يابساً جافًّا؛ لأنَّه إذا يبِسَ اصفرَّ، وقيل: الضميرُ للسحاب؛ لأنَّه إذا كان مصفرًّا لم يُمطِر، واللام موطِّئة للقَسَم دخلت على حرف الشرط، وقوله:

﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ جوابه سَدَّ مَسَدَّ جزاءِ الشرط، ولذلك فسِّر بالمستقبل؛ أي: ليَظلُّنَّ مِن بعدِ اصفراره يَكفرون نِعَمَه.

وهذه الآياتُ ناعيةٌ على الكفَّار قلَّةَ تثبُّتهم وسرعةَ تزلزلهم؛ لعدم تدبُّرهم وسُوءِ رأيهم، فإنَّ النظرَ السويَّ يقتضي أن يتوكَّلوا على الله في الأحوال كلِّها ولا يَضْطَربوا؛ فيشكروا نِعَمَه عند السَّعَة والرَّخاء، ويصبروا عند الضِّيق والبلاء، ولا يكفروا نِعَمَه في[1] الشِّدَّة، ويَرضوا بما جرى مِن القضاء؛ فيفوزوا في الدارين بالنعماء. والفاء في:

(٥٢) ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ للسببية؛ أي: إذا كفروا ولم يَنتبهوا بهذه الآياتِ الواضحاتِ ولم يسمعوا[2]، فهم موتى أو صُمٌّ عُميٌ، فإنَّك لا تُسمِع الموتى، ولا تُسمِع الصُّمَّ، ولا تَهدي العُمْيَ، وتقييد الحكم بقوله:

---

(١) في (ف): «عند».

(٢) في (ف) و(م): «يسمعوه».

﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ للمبالغة في غفلتهم، وتماديهم في جهلهم، وعدم نجعِ الدعوة فيهم؛ فإنَّ الأصمَّ وإنْ لم يَسمع، فإذا كان مقبلاً فربما تفطَّن بالإشارات[1] والحركات، وأمَّا إذا كان مُدبِراً فلا إمكانَ لسماعِه وفهمِه.

* * *

(٥٣) - ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ إنَّما عدل هنا عن صيغة الفعل إلى صيغة الفاعل؛ لأنَّه لم يُرِدْ نفيَ الهداية أصلاً، فإنَّ الهدايةَ في الجملة ممكنةٌ للأعمى، بل أراد نفيَ الهداية التامَّة، ولذلك ضمَّنها معنى الإذهاب فقال:

﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ يقال: هداهُ عن الضلالة؛ أي: أَبعدهُ عنها بالهدى، ومَن قرأ: ﴿وما أنتَ تَهدِي العُمْيَ﴾[2] فقد اكتفى بما في قوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ مِن الدلالة على المراد، واللهُ الهادي إلى سبيل الرشاد.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنَّ إيمانَهم يدعوهم إلى سماعِ اللفظ وتدبُّر المعنى فهم منقادونَ لِمَا تَأمرهم به ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: منقادونَ لأوامرِ الله.

* * *

(٥٤) - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: ابتدأَكُم منه، وجعلَ أساسَ أمركم وما عليه بنيتكم الضعفَ، كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وذلك حال الطفوليَّة والصِّبا.

---

(١) في (ف) و(م): «بالإشارة».

(٢) قرأ بها حمزة. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٩).

وقرئ: ﴿ضُـعْف﴾ بالفتح والضَّمِّ، وهما لغتان كالفَقْر والفُقْر، والثاني أقوى قراءةً؛ لِمَا روي أن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قرأتُها على رسول الله ﷺ: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾، فأَقرأَني[١]: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾[٢] بالضَّمِّ[٣].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾: وهو حالُ الشبيبة؛ مِن أوانِ البلوغِ إلى زمانِ الكهولة.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾: ثم ردَّكم إلى الضعف والشيخوخة، وزيادة قوله: ﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾؛ للتنبيه على أنَّ المرادَ التبدُّلُ بحسب السِّنِّ، ففيه دفعٌ[٤] لذهاب الوهم إلى أنْ يراد بالجَعل الأولِ الخلقُ مِن النُّطفة، ومِن الثاني نفخُ الروح في البَدَن، والتنكيرُ مع التكرير لأنَّ المتأخِّر غير المتقدِّم[٥].

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ مِن ضعفٍ وقوَّةٍ وشَيبةٍ.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ فإنَّ هذه الانتقالاتِ في الأحوال المختلفة دالَّةٌ على أنَّه تعالى يَخلق على مقتضى المشيئة والعلم والقدرة؛ لأنَّ التغيير[٦] مِن صورةٍ إلى صورةٍ، والترديدَ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، مع إمكان خلافِ ذلك، دليلٌ على الإرادة المبنيَّة على العلم والحكمة المفْضية إلى القدرة.

* * *

---

(١) في (ف): «فأقرأنيه».

(٢) بعدها في (ف): «إلى من ضعف»، وبعدها في (ك): «لا من ضعف».

(٣) رواه أبو داود (٣٩٧٨)، والترمذي (٢٩٣٦) وحسنه.

(٤) في (ف) و(م): «رفع».

(٥) في (ف) و(م): «عين المتقدم»، وفي (ك): «ليس عين المتقدم».

(٦) في (ك): «التغير».

(٥٥) ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ (الساعة) للقيامة مِن الأسماء الغالبة، كالنَّجم للثُّريا، والكوكب للزُّهَرة، سُمِّيت بها لأنَّها تقوم في آخِرِ ساعةٍ مِن الدنيا، وقيل: لأنَّها تقع بغتةً، كما تقول لمن تستعجله: في ساعة.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يَحلف الكافرون: ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا، أو في القبور، أو في ما بينَ فناءِ الدنيا وانقطاع عذابهم، وفي الحديث: «ما بينَ فناءِ الدنيا والبعثِ أربعونَ»(1)، وهو يحتملُ الساعاتِ والأيامَ والأعوامَ.

﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الظاهر مِن القَسَم أنَّ ما ذكروه على زعمهم لنسيانهم، لا أنَّهم استقلُّوا مدَّة لبثهم إضافةً إلى مدَّة عذابهم؛ لأنَّ ذلك القولَ منهم قبلَ الدخول في زمانِ عذابِ الآخرة والوقوفِ على مدَّتها، فلا وجه للإضافة إليها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الصرفِ عند الصِّدق والتحقيق ﴿كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرَفون في الدنيا عن الصدق إلى الكذب، ويقولون: ما هي إلَّا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) قال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ١٢٩): (لم أجده هكذا). ثم أشار إلى ما رواه البخاريُّ (٤٩٣٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»، قيل: أربعون يوماً يا أبا هريرة؟ قال: أَبَيْتُ. قيل: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قيل: أربعون سنة؟ قال: أَبيتُ.... الحديث.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾: مِن المَلَك والإِنس والجنِّ:

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيما كتبه وأَوجبه لكم على أنَّ ﴿فِي﴾ للتعليل، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ امرأةً دخلت النارَ في هرَّةٍ حَبَسَتْها»[1].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ردُّوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم[2] على إنكار البعث بقوله:

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾؛ أي: فقد تبيَّن بطلانُ قولِكم، والفاءُ فصيحةٌ دخلت جوابَ شرطٍ محذوفٍ تقديره: إنْ كنتم مُنكِرين البعثَ فهذا يومه.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ؛ لتفريطكم في النَّظَر.

***

(٥٧) ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقرئ بالياء[3]؛ لأنَّ المعذرةَ بمعنى العذرِ، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، وقد فصل بينهما.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستعتابُ: الاسترضاءُ، يقال: اسْتَعْتَبَني فلانٌ فأَعتبتُه؛ أي: أَزلتُ عَتبَه وأَرضيتُه، والمعنى: لا يُطلَب منهم أن يَستعتبوا ربَّهم بالتوبة والطاعة كما طُلب منهم في الدنيا، ولا يقال لهم: استرضُوا ربَّكم.

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢)، من حديث ابنِ عمر رضي الله عنهما، ولفظه عند البخاري: «عُذِّبت امرأةٌ في هرَّةٍ حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النارَ».... الحديث.

(٢) في (ف): «بتفزيعهم».

(٣) في (ف) و(ك): «بالتاء»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب بدلالة اللحاق. وقراءة: «لا ينفع» بالياء؛ قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٦).

(٥٨) - ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ ﴾: ولقد بيَّنَّا كلَّ أمرٍ مِن أمور الدِّين والتوحيد، أو أحوال الآخرة، في هذا القرآن بالتمثيل، أو: وصفنا لهم كلَّ صفةٍ هي في التَّبيين والغرابةِ كالمَثَل لصفةِ المبعوثين وأحوالِهم ومقاولاتهم، وعدمِ فائدة معذرتِهم وتوبتِهم واستعتابِهم.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ولكنْ لقسوةِ قلوبهم واحتجابها[1] بمزخرفاتهم، لَئِنْ جِئتهم بآيةٍ عظيمةٍ لَنَسبوكَ ومَن معك مِن المؤمنين إلى التزوير[2] والإبطالِ.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ موضوعٌ موضعَ الضمير للتصريح بكفرهم ذمًّا، وبيانِ أنَّ كفرهم هو الموجبُ للعناد والإنكار، ونسبةِ المحقِّ إلى التزوير[3] والإبطال.

* * *

(٥٩) - ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾: مثلَ ذلك الطبعِ العظيم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ مِن باب إجراءِ المتعدِّي مجرى اللازم؛ أي: الذين لا عِلْمَ لهم ولا يَطلبونه ويصرُّون على معتقداتهم الباطلة حتى طبعَ على قلوبهم ورَانَ[4] بسبب

---

(١) في (ك): «واحتجاجها».

(٢) في (ف): «الترديد».

(٣) في (ف): «الترديد».

(٤) في (ي): «وزان»، وليست في (ف) و(ك).

الجهل المركَّب المانعِ مِن إدراك الحقِّ له ومعرفة المُحقِّ. والفاء في:

***

(٦٠) - ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ للسببية على تقديرِ شرطٍ؛ أي: وإذا علمتَ أنَّهم جُهَّالٌ مطبوعٌ على قلوبهم، فاصبر على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنُصرتك وإظهارِ دينك على الدِّين كلِّه ﴿حَقٌّ﴾ لا بُدَّ مِن إنجازه.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ولا يَحملَنَّك على الخفَّةِ والقَلَقِ قولُ هؤلاء الجَهَلة، فإنَّهم قومٌ شاكُّون ضالُّون لا يُستبدَعُ[1] ذلك منهم.

وقرئ: (ولا يَستَحِقَّنَّك)[2] مِن الاستحقاق؛ أي: لا يُزيغوك[3] فيكونوا أحقَّ بكَ مِن المؤمنين.

***

(١) في (ك) و(م): «لا تستبعد».

(٢) نسبت لابن أبي إسحاق، وليعقوب في غير المشهور عنه. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٦).

(٣) في (ع): «لا يزيفوك»، وفي (ف) و(ك): «لا يزلقونك»، وفي (م): «لا يزيفونك»، والمثبت من (ي) والبيضاوي.

سُورَةُ لُقْمَانَ

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

﴿الٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ سبقَ بيانُه في سورة يونس عليه السلام.

***

(٣) ـ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ حالان من الآيات، والعامل ما في ﴿ تِلْكَ ﴾ مِن معنى الإشارة، وقرئ بالرَّفع على أنَّه خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾: الجامعينَ بين العلم والعمل، وقوله:

(٤) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بيانُه، كما قال:

الألمعـي الَّـذي يَظُـنُّ بِـكَ الـظْ ... ظَـنَّ كأنْ قَـدْ رأى وقَـدْ سَـمِعا[1]

أو: الذين يعملون الحسنات كلَّها، وتخصيصُ القائمين بهذه الثَّلاث[2] بالذِّكر لإنافتها وفضل[3] الاعتداد بها.

---

(١) البيت لأوس بن حجر. انظر: «ديوان أوس بن حجر» (ص: ٥٣)، وانظر: «الغريب المصنف» للهروي (١/ ٣٧٧)، و«معجم ديوان الأدب» (١/ ٢٧٣)، و«الكشاف» (٣/ ٤٨٩).

(٢) في (ك): «الثلاثة».

(٣) في (ف) و(ك): «لأن فيها فضل».

وتكرُّرُ الضَّميرِ للتَّوكيدِ، ولِمَا فصَل[١] بينَه وبينَ خبرِه.

***

(٥) ـ ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة.

***

(٦) ـ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ، وكان يشتري أخبارَ الأكاسرة من فارس، ويقول: إنَّ محمَّداً يقصُّ طرفاً مِن قصَّة عادٍ وثمود، وأنا[٢] أحدِّثكم طرفاً من أحاديث رستم وأسفنديار، فيميلون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن[٣].

وقيل: كان يشتري القَيْنات ويحملهنَّ على معاشرة مَن أرادَ الإسلام ومَنْعِه عنه بشَغْله باللَّهو[٤].

---

(١) في (ك): «حصل».

(٢) في (ف) و(م): «فأنا».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٨٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٩١٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه جويبر عن ابن عباس قال: أنزلت في النَّضر بن الحارث اشترى قينة، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنِّيه، هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمَّدٌ مِن الصَّلاة والصيام وأن تقاتلَ بينَ يديه، فنزلَتْ. انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٥٠٤).

واللَّهوُ: كلُّ باطلٍ ألهى عن الخير وعمَّا يعني(١). ولهوُ الحديثِ نحو السَّمر بالأساطير التي لا أصلَ لها، والغناء.

والاشتراءُ مِن الشراء، كما روي عن النَّضر، أو من قوله: ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٧٧]؛ أي: استبدلوه منه، واختاروه عليه.

والإضافة بمعنى (مِن)، وهي تبيينيَّة سواءٌ أراد بـ ﴿الْحَدِيثِ﴾ المنكَر أو الأعمَّ منه، نعم على الثَّاني يجيء التَّبعيض باعتبار أنَّ بينهما عموماً وخصوصاً من وجهٍ، ولكن لا يكون من مقتضى الإضافة.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه، أو عن قراءة القرآن، وقرئ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفتح الياء(٢)؛ أي: ليَثبُتَ على الضَّلال عن الدِّين ويزيد فيه.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحالِ ما يشتريه أو بالتِّجارة، حيث استبدلَ الباطل بالحقِّ والضَّلالَ بالهدى، حال من ضمير ﴿يَشْتَرِي﴾؛ أي: جاهلاً. والضَّمير في:

﴿وَيَتَّخِذُهَا﴾ للسَّبيل؛ لأنَّها مؤنَّثة ﴿هُزُوًا﴾: سخريةً.

وقرئ ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنَّصب(٣) عطفاً على ﴿ليضلَّ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لإهانتهم الحقَّ باستئثارهم(٤) الباطل عليه.

***

---

(١) في (م): «يفي»، وفي (ف): «بقي».

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٤).

(٣) قراءة حفص وحمزة والكسائي، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٦). ووقع في النسخ بدل: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾: «يتخذ»، والمثبت هو المطابق للفظ القراءة.

(٤) في (ف) و(ك): «باستئثار».

(٧) ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾: متكبِّراً لا يعبأ بها[١].

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مُشْبِهاً حالُه في عدم التفاته إليها حالَ مَن لم يسمعها.

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ﴾: ثقلاً لا يقدر أنْ يسمعَ.

﴿كَأَنَّ﴾ مخفَّفة من الثَّقيلة، اسمُها ضمير الشَّأن محذوفاً، أصلها: كأنَّه لم يسمعها، جملة وقعَتْ حالاً من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو ضمير ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، و﴿كَأَنَّ﴾ بدل من الأوَّل، أو حال من ضمير (لم يسمع)، فهما حالان متداخلتان، ويجوز أن يكونا جملتَيْن مستأنفتين.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تهكُّم بهم، والمعنى: أعلِمْهُ.

* * *

(٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ النَّعيمُ: جنَّةٌ مِنْ الجنانِ الثَّمانية، كالمأوى والعدن، وقد سبق التَّفصيل[٢] في سورة البقرة.

والتَّعبيرُ عن جنَّةٍ واحدةٍ بالجنَّاتِ للمبالغة.

* * *

(٩) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) في (ف): «متكبراً لأثقالها».

(٢) في (ف) و(م): «التفضيل».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضَّمير في ﴿لَهُمْ﴾، أو من ﴿جَنَّٰتُ﴾، والعامل ما تعلَّق به اللَّام من معنى الاستقرار.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكِّدان؛ الأوَّل لنفسِه لأنَّ قولَه: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنى: وعدهم الله جنَّات النَّعيم، والثَّاني لغيره لأنَّ معناه: الصِّدق والثَّبات، وليس كلُّ وعدٍ كذلك.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: القويُّ الذي لا يغلبُه أحدٌ فيمنعَه عن إنجاز وعدِه وإنفاذ وعيده.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يفعل ما يفعل بمقتضى الحكمة.

* * *

(١٠) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قد سبق في تفسير[1] سورة الرعد.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾: جبالاً شوامخ ﴿أَن تَمِيدَ﴾: لئلَّا تضطرب ﴿بِكُمْ﴾.

قيلَ: تشابُه أجزائِها يقتضي تبدُّلَ أحيازِها[2] وأوضاعِها، وفيه نظرٌ؛ إذ لم يقمْ دليلٌ على تشابُهِ أجزائِها، بل الظَّاهِرُ خلافُه.

﴿وَبَثَّ﴾: ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فيه التفاتٌ في محزِّ[3] البلاغة؛ لأنَّ إنشاء هذه الأمور العظام ـ خاصَّةً

---

(١) في (ف)و (م): «تفسيره في».

(٢) في (ف): «أرضها».

(٣) في (ف): «مجيء»، وفي (م): «نحر».

ما به حياتُهم مِن إنزال الماء وإنبات أصناف النبات ـ موضعٌ[١] للتَّنبيه، والإيقاظ للعبادة، والشُّكر على النِّعمة، والإعراض عن الشِّرك.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾: صنفٍ كثيرِ المنفعةِ، استَدلَّ بما ذكر مِن الأشياء الدَّالة على كمال قدرته وحكمته على ألوهيَّته وتوحيده واستحقاقه للعبوديَّة، ثمَّ بكَّتهم[٢] بقوله:

***

(١١) ـ ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ أي: ماذا خلقَتْهُ آلهتُكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟! فـ ﴿مَاذَا﴾ نصب بـ ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿مَا﴾ مرتفعٌ بالابتداء، وخبره ﴿ذَا﴾ بصلته، و﴿أَرُونِي﴾ معلَّق عنه.

ثمَّ أضرب[٣] عن تبكيتهم والتَّهكُّمِ بهم إلى التَّسجيل عليهم بالظُّلم والتَّورُّط في ضلالٍ ليس بعدَه ضلالٌ فقال:

(١١) ـ ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ووضعَ الظَّاهرَ موضع الضَّمير للدِّلالة على أنَّهم ظالمون بإشراكهم.

***

---

(١) في (ك): «موضوع».

(٢) في(ف): «ثم نكبهم».

(٣) في (ك): «أعرضَ».

(١٢) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبيًّا.

والحِكمَةُ: هي الكمالُ العلميُّ مع العمليِّ؛ أي: العلمُ بحقائِقِ الأشياء على ما هي عليه، والملَكَةُ التَّامَّةُ على الأفعال الفاضلة.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ ﴿أَنِ﴾ هي المفسِّرة؛ لأنَّ إيتاء الحكمة في معنى القول، وإنَّما فسَّرَ اللهُ الحكمةَ بالشُّكر تنبيهاً على أنَّ الحكمةَ المعتدَّ بها هي المقتضيةُ للعمل الصَّالحِ والشُّكرِ لله تعالى والعبادة.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ لأنَّ نفعَه عائدٌ إليها، وهو دوامُ النِّعمةِ واستحقاقُ مزيدِها.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ حُذِفَ جزاؤُه، وهو: فإنَّما يكفُر على نفسه؛ أي[1]: ضررُ كفرِه لا يتعدَّى عنها، لانفهامه بقرينةِ قرينه[2]، وأقيم مقامَه تعليلُه، وهو قوله:

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن الشُّكر؛ لا ينتفعُ بوجودِه، ولا يتضرَّرُ بعدمِه.

﴿حَمِيدٌ ﴾ بذاتِه، حقيقٌ[3] بأنْ يُحْمَدَ وإنْ لم يحمدْهُ أحدٌ، أو محمودٌ نطقَ بحمدِه جميعُ مخلوقاتِه بلسانِ الحالِ، وهو أنطقُ[4] مِن لسانِ المقال.

* * *

(١) في (ك): «لأن».

(٢) «قرينه» سقط من «ف».

(٣) «حقيق» سقط من «ف».

(٤) في (ك): «أفصح».

(١٣) ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ.

﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: كان كافراً، فلم يزلْ به حتى أسلمَ. ومَن وقفَ على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ قسماً.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنَّه تسويةٌ بينَ مَن لا نعمةَ إلَّا منه، ومَن لا نعمةَ منه أصلاً.

* * *

(١٤) ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ آيتان معترضتان في أثناء وصيَّة لقمان لابنه؛ تأكيداً لِمَا فيها مِن النَّهي عن الشِّرك، وذِكرُ الوالدَيْن استطرادٌ، كأنَّه قال: ووصَّيْنا[١] بمثل ما وصَّى به، حتَّى إنَّ الوالدَيْن اللَّذَيْنِ وصَّيْنا بتعظيمِهما وبرِّهما وطاعتِهما وجعلناهما تِلْوَ الباري في وجوبِ الشُّكرِ والطَّاعة لهما إنْ أمَرا بالشِّركِ لم تجزْ طاعتُهما وتقليدُهما فيه، مع وجوبِ مصاحبَتِهما في الدُّنيا بالمعروف، فما ظنُّكَ بغيرِهما؟!

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ لَمَّا وصَّى بالوالدَيْن أكَّدَ الوصية في حقِّ الأمِّ خصوصاً بذكر مصاحبتها الحملَ والفِصالَ، وما تكابدُه مِن المشاقِّ والمتاعب فيهما[٢]،

---

(١) في (ف)و (م): «ووصيناه».

(٢) في (ف) و(م)، و(ي) و(ع): «فيها».

فاعترض بينَ المفسِّر والمفسَّر تذكيراً بحقِّها[1] العظيم مفرَداً، ولذلك قال النَّبيُّ عليه السلام ـ لمن قال: مَن أَبرُّ؟ ـ: «أمَّكَ، ثمَّ أمَّكَ، ثمَّ أمَّكَ»، ثمَّ قال بعد الثَّالثة: «ثمَّ أباكَ»[2].

﴿وَهْنًا﴾ حالٌ، وهو في الأصلِ نصبٌ على المصدر مِن فعلٍ وقع حالاً؛ أي: تَهِنُ وهناً، أو: ذاتَ وهنٍ[3].

﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ أي: تضعف ضعفاً فوقَ ضعفٍ؛ أي: ضعفاً متزايداً؛ لأنَّ الحمل كُلَّما ازدادَتْ مُدَّتُه ازدادَ ثقلاً فازداد ضعفاً فوقَ ضعفٍ.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾: وفطامُه في انقضاء[4] عامَيْن، وكانت ترضعُه في تلك المدَّة، وتوقيتُ الفصال بالعامَين بيانُ أنَّ هذه المدَّة أقصى غاية الرَّضاع.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسيرٌ لـ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، والجملتان معترضتان بين المفسِّر والمفسَّر، أو بدل من ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ بدل الاشتمال.

﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ هو ترغيبٌ وترهيبٌ.

* * *

---

(١) في (ك) و(م): «لحقهما» وفي (ع) و(ف): «لحقها».

(٢) رواه أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧) وحسَّنه، من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه. وأخرج نحوه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ففي إعرابه ثلاثة وجوه؛ الأول: جعله نفسه حالا من ﴿أُمُّهُۥ﴾ مبالغة، والثاني: جعله حالًا بتقدير مضاف؛ أي: ذاتَ وهن، والثالث جعله مفعولا مطلقا لفعل مقدر؛ أي: تهن وهنا، وتكون هذه الجملة حال من ﴿أُمُّهُۥ﴾ أيضاً.

(٤) في(ف): «الفصال»، وفي (ك): «انفصال».

(١٥) ـ ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾؛ أي: باستحقاقه للإشراك.

وقيل: أرادَ بنفيِ العلمِ نفيَ المعلوم؛ أي: أنْ تشركَ بي ما ليس بشيءٍ، كقوله: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صفةُ مصدرٍ محذوف؛ أي: صحاباً معروفاً، أو: مصاحَباً معروفاً، بخلقٍ حسنٍ وبِرٍّ واحتمالٍ وصلةٍ وحِلْمٍ وغير ذلك ممَّا يرتضيه الشَّرْعُ ويقتضيه الكرم والمروءة.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾؛ أي: سبيلَ المؤمنين في دينِك، ولا تتَّبع سبيلهما فيه.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: مرجعُكَ ومرجعُهما.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فأجازيْكَ على إيمانِك، وأجازيهما على كفرِهما.

رُوي أنَّها نزلَتْ في سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه وأمِّه، وفي القصَّة أنَّها مكثت لإسلامه[1] ثلاثاً لا تَطعَم ولا تشرب حتى شجروا فاها بالعود[2].

---

(١) «لإسلامه» ليست في (ف) و(م).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٩٤)، وفيه: (بعود)، والمثبت من (م)، وسقطت من باقي النسخ. ووقع في (ك): «حتى يرتد فأبى» بدل: «حتى شجروا...». والخبر رواه مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢) من حديث سعد رضي الله عنه، وفيه: (فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصاً ثم أوجروها).

ولذلك قيل: مَن أناب إليه تعالى أبو بكر رضي الله عنه؛ فإنَّه أسلمَ بدعوته.

***

(١٦) - ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ﴾؛ أي: إنَّ الخصلةَ مِن الإساءةِ والإحسانِ إن تكُ[١] مثلاً[٢] في الصِّغر كحبَّة الخَرْدلِ، والمثقالُ[٣] مقدارٌ يساوي غيره في الوزن.

وقرئ: ﴿مِثْقالُ﴾ بالرَّفع[٤] على أنَّ الضَّمير للقصَّة، و(كان) تامَّةٌ، وتأنيث المثقال لإضافته إلى الحبَّة، أو لأنَّ المراد به الحسنة أو السَّيئة.

﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾: في أخفى موضعٍ[٥] وأَحرزِه كجوف صخرةٍ، أو أعلى مكان كمحدَّبِ سماءٍ مِن السَّماوات، أو أسفلِه كمقعَّرِ[٦] الأرضِ.

وقرئ: ﴿فَتَكِن﴾ بكسر الكاف[٧]، مِن وكَنَ الطَّائر يَكِنُ: إذا استقرَّ في وُكْنَتِهِ؛ أي: بيتِه.

---

(١) في (ف): «إن تلك»، وفي (ك): «وإن تك».

(٢) في (ي) و(ع): «مثقال».

(٣) في (ك): «أو المثقال».

(٤) وهي قراءة نافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٥).

(٥) في (م) و(ع): «أخفى مواضع»، وفي (ك): «أخفى مكان».

(٦) في النسخ عدا (ي): «كقعر»، والمثبت من (ي)، ومثله في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٥).

(٧) وشد النون المفتوحة، وقرئ كذلك لكن بسكون النون، وقرئ: (فتُكَنَّ) بضم ففتح والنون مشددة، ونسبت كل لقوم، وجميعها من وكن الطائر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٦١).

﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: يُحضرُها يومَ القيامةِ، فيحاسِبُ بها عاملَها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾: يَنفذ علمُه في البواطن فيصِلُ إلى كلِّ خفيٍّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بكُنْهِهِ.

وعن قتادة: ﴿لَطِيفٌ﴾ باستخراجها، ﴿خَبِيرٌ﴾ بمستقرِّها[١].

* * *

(١٧) - ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسِكَ.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرِكَ.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ مِن الشَّدائد، لا سيَّما في ذلك.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصَّبر، أو إلى ما كُلِّفَ به.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: ممَّا[٢] عزمَهُ الله تعالى مِن الأمور؛ أي: قطعه قطعَ إيجابٍ وإلزامٍ، مصدرٌ أُطلِقَ للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل مِن قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: جَدَّ، والمعنى: مِن عازماتِ الأمورِ.

* * *

(١٨) - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾[٣]: ولا تَلْوِ صَفحةَ وجهكَ[٤] كما يفعله المتكبِّرون، مِن الصَّعَرِ، وهو داء يصيب البعير فيلوي عنقه منه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٥٧).

(٢) في (ف): «أي ما»، وفي (م): «ما».

(٣) في (م): «تصاعر»، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٦).

(٤) في (ك): «خدك»، وسقطت من (ف).

﴿لِلنَّاسِ﴾ لم يقل: عن الناس؛ لأنَّ المنهيَّ ما يكون تصغيراً[1] للنَّاس وتحقيراً لهم، لا الميل عنهم مطلقاً، فإنَّه إذا كان لأمرٍ آخرَ لا يكون منهيًّا.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ مصدرٌ في موضع الحال، بمعنى: مَرِحاً، أو مصدرٌ محذوفُ الفعلِ؛ أي: تمرحُ مرَحاً، أو مفعولٌ له؛ أي: للمرح؛ يعني: لأجل البَطَرِ والبَطالة[2]، لا لغرضٍ صحيحٍ دينيٍّ أو دنيويٍّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علَّةٌ للنَّهيِّ.

وتأخيرُ الفَخور وهو في مقابلةِ المقدَّم مِن المنهيَّين، وكذا الإتيانُ بصيغة المبالَغة؛ لتَوافُقِ رؤوس الآي، وإنَّما لم يقل: وفخور، حتَّى تكون المحبَّة مسلوبةً عن كلٍّ منهما أصالةً، للتَّنبيه على أنَّ الدَّخْل[3] في الجملة في عدم محبوبيته تعالى كافٍ في الانتهاء عنه، ومن هنا ظهرَ الوجه للعدول عن إثبات البغض إلى سلبِ المحبَّة، ثمَّ إنَّ سلْبَ[4] النَّفي داخل على أداة السُّور[5] لفظاً وهي داخلة عليه معنًى؛ أي: لا يحبُّ واحداً منهم.

والاختيالُ: مشيةُ المتكبِّر[6].

والفخرُ: ذِكْرُ المناقب للتَّطاولِ بها على السَّامع.

***

(١) في (ك): «تصعيراً»، وسقطت من (ف).

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «والبطارة».

(٣) في (ع»: «الداخل».

(٤) «سلب» سقط من (ي) و(ع).

(٥) في (ك): «السوء».

(٦) في (ف): «التكبر».

(١٩) - ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾.

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾: واعدل فيه؛ أي: توسَّطه بينَ الإسراع والدَّبيب؛ يعني: لا تَثِبْ وثوبَ الشُّطَّارِ، ولا تَدبَّ دبيبَ المتماوتين، قال النَّبيُّ عليه السلام: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بَهاءَ المؤمن»[١].

وأما قول عائشة رضي الله عنها في عمر رضي الله عنه: كان إذا مشى أسرع[٢]، فإنَّما أرادَتِ السُّرعة المرتفعة عن دبيبِ المتماوت.

وقرئ بقطع الهمزة[٣]، مِن أَقْصَدَ الرَّامي[٤]: إذا سدَّد[٥] سهمه نحو الرَّميَّة.

﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: وانقصْ منه وأَقصرْ، ويجوز أن يكون الغضُّ في الصَّوتِ مستعاراً من غضِّ البصر فإنَّه خفضٌ.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٠) من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً، وروي من طرق أخرى عن أبي هريرة ومن حديث ابن عمر وأبي سعيد وأسانيدها ضعيفة جداً، وقد فصلنا طرقه ورواياته في تحقيقنا لـ«روح المعاني» (٢١/ ٦٥). وانظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٣٠)

(٢) كذا ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤٩٨)، وابن الأثير في «النهاية» (٣/ ٣٧٠)، عن عائشة رضي الله عنها. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٩٠) عن الشفاء بنت عبد الله.

وروي من فعل النبي ﷺ، رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٧٩) عن يزيد بن مرثد مرسلاً.

وصح عنه ﷺ ما رواه الترمذي (٣٦٣٧) من حديث علي رضي الله عنه بلفظ: (كأنما ينحدر من صبب). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧).

(٤) في (ف) و(م): «الرمي».

(٥) في (ف): «صوب»، وفي (م): «سد».

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: أوحشَها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ الحمار ونهاقُه مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ، ولذلك يُكنَى[1] عنه فيُقال: طويل الأذنين.

وفي الآية ذمٌّ بليغٌ للرَّافعين أصواتِهم، حيثُ شُبِّهوا بالحمير، وأصواتُهم بالنُّهاقِ، ثمَّ طرح التَّشبيه، وأخرج الكلام مخرج الاستعارة، كلُّ ذلك لتهجينِ رفع الصَّوت، والتَّنفيرِ عنه، والحثِّ على الغضِّ، والتَّرغيبِ فيه.

وتوحيدُ الصَّوت لأنَّ المراد جنسُه الذي هو مَثَلٌ في النُّكر، لا أفرادُه.

***

(٢٠) ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾: لأجْلكم ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ما في جهة العلويَّات مِن الكواكب وأوضاعها، والسَّحاب وأمطارها، بأنْ جعلها أسباباً لمنافعِكم.

﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في الجهة السُّفليَّة[2]، بأنْ سلَّطكم عليها، ومكَّنكم من الانتفاع بها بواسطةٍ أو بغير واسطة[3].

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾: محسوسةً ﴿وَبَاطِنَةً ۗ﴾: معقولةً ومخفيَّةً عنكم، ما لم تدركوه بعقولِكم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾: في توحيده وصفاتِه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ مِن

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «يكتنى».

(٢) في (ف): «جهة السفل».

(٣) في (ف) و(ي): «بوسط أو بغير وسط».

دليلٍ ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجعٍ إلى نبيٍّ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ بل بتقليدٍ صِرْفٍ، كما صرَّحَ به في قوله:

(٢١) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ وفيه منعٌ صريحٌ عن التَّقليدِ في الأصولِ.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ جواب (لو) محذوف لدلالة ﴿نَتَّبِعُ﴾ عليه؛ أي: لاتَّبعوه[١]، والواو للحال، والهمزة للإنكار والتَّعجُّب، والضَّمير لآبائهم ولهم؛ أي: أيتبعونهم[٢] في حالِ دعاءِ الشَّيطانِ آباءَهم.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: إلى ما يؤدِّي إليه مِن الشِّركِ والتَّقليدِ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مِن أسلَمَ[٣] إليه المتاع: إذا دفعَهُ إليه، ويؤيِّده القراءة بالتَّشديد[٤].

---

(١) في (ع) و(ف) و(ي): «لاتبعوهم».

(٢) في النسخ عدا (ك): «أيتبعوهم»، والمثبت من (ك).

(٣) في النسخ عدا (ي): «سلم»، والمثبت من (ي)، وفي هامشها: «في نسخة المؤلف: من سلَّم، ولا وجه له».

(٤) نسبت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧).

وحيث عُدِّي باللَّام فلتضمين[١] معنى الاختصاص؛ أي: مَن يجعلْ ذاته ونفسَه سالماً خالصاً لله تعالى.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: فقد تعلَّق بأوثقِ ما يُتعلَّق به[٢]، مُثِّلَ حالُ المتوكِّلِ المفوِّضِ نفسَه إلى الله تعالى بحالِ مَن أرادَ أنْ ينزلَ مِن شاهقٍ فاحتاطَ لنفسِه بأنْ استمسَكَ بأوثقِ عُرْوةٍ مِن حبلٍ متينٍ مأمونِ الانقطاعِ.

وتقديم: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ للاختصاص؛ أي: صائرةٌ إلى اللهِ لا إلى غيره.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فيجازي عليها.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾: فلا يُهِمَّنَّكَ كفرُه وكيدُه للإسلامِ، فإنَّه لا يضرُّك في الدُّنيا والآخرة.

وقرئ: ﴿فلا يُحْزِنْكَ﴾[٣]، والمستفيضُ في الاستعمال أَحزنَ في الماضي ويَحْزُنُ ثلاثيًّا مجرَّداً في المستقبل.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ خاصَّة ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ فنعاقبُهم على أعمالِهم.

---

(١) في (ف) و(م): «فلتضمن».

(٢) في (ف) و(ك): «منه».

(٣) بضم الياء وكسر الزاي. قرأ بها نافع. انظر: «التيسير» (ص: ٩١). وفي النسخ: «ولا»، والصواب المثبت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّ الله يعلمُ ما في صدورِ عبادِه فيجازيهم على حسبِه.

* * *

(٢٤) ـ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾: تمتيعاً[1] أو زماناً قليلاً، فإنَّ الزَّائلَ بالنِّسبة إلى الدَّائمِ قليلٌ.

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ استعارَ الغلظَ من الإجرام الغليظة لثِقَلِ العذابِ عليهم، وشبَّه إلزامهم العذاب باضطرارِ المضطرِّ إلى الشَّيء الذي لا يقدر على الانفكاكِ منه[2].

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لوضوح البرهان الملجئ إلى الإذعان به.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ إلزامٌ لهم على إقرارِهم بأنَّ الخالقَ هو الله وحدَه، وأنَّه يجبُ أنْ يكون له الحمدُ، وأنْ لا يُعبدَ معه غيرُه.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ إقرارهم يلزمهم، و﴿بَلۡ﴾ إضرابٌ عن دعوتهم لجهلِهم، وأنَّهم لا يتنبَّهون بالتَّنبيه[3]، ولا يتفطَّنون أنَّ قولَهم عليهم.

---

(١) في النسخ عدا (ي): «تمتعا»، والمثبت من (ي).

(٢) في (ف): «عنه».

(٣) في (ف) و(م): «بالتنبه».

(٢٦) ـ ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ تقريرٌ للتَّوحيد باختصاص الملك به، ودخولِ آلهتهم في ملكِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عنهم وعن إسلامِهم وحمدِهم.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: المستَحِقُّ للحمد، المحمودُ منك[1] ومن كلِّ عارفٍ وإنْ لم يحمدوه.

***

(٢٧) ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ توحيدُ ﴿شَجَرَةٍ﴾ لتفصيل الجنس[2]، وتقصِّي كلِّ واحدةٍ من جنس الشَّجر، واستغراقِ عمومها؛ أي: جميع ما في الأرضِ مِن شجرةٍ شجرةٍ[3] حتَّى لا يبقى واحدةٌ منها إلَّا كانَتْ قلماً.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ بالرَّفع عطفاً على محلِّ (أنَّ) ومعمولِها، و﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ حالٌ، أو الابتداء[4] على أنَّه مستأنف والواو للحال.

---

(١) في (ف) و(م): «منه».

(٢) في (ف): «التفضيل الخبر»، وفي (ك) و(م): «لتفضل الجنس». ولفظ الزمخشري: (تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة)، ولفظ البيضاوي (تفصيل الآحاد). انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٦).

(٣) «شجرة» سقط من (ف) و(م).

(٤) أي: أو (البحر) مرفوع على الابتداء، وتكون جملة ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ هي الخبر، والواو للحال. واستظهر =

وبالنَّصب عطفاً على اسم (أنَّ)، أو إضمارِ[1] فعلٍ يفسِّره ﴿يَمُدُّهُۥ﴾؛ أي: ولو ثبتَ كونُ أشجار الأرض كلِّها أقلاماً، وكونُ البحر ممدوداً[2].

﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[3] أو على الابتداءِ، والواو للحال[4]؛ أي: ولو أنَّ الأشجارَ أقلامٌ في حال كون البحر ممدوداً، واستغنى بالواو عن الضَّمير لكون أمثال هذه الأحوال جارية مجرى الظُّروف.

ويجوز أنْ تكونَ اللَّامُ بدلَ الإضافة؛ أي: وبحرها، والضَّمير للأرض.

وقرئ: (وبحرٌ يمدُّه) على التَّنكير[5]، ولا وجهَ له إلَّا العطف على محلِّ (أن) واسمها.

= هذا الوجه أبو حيان. انظر: «البحر» (١٧/ ٢٣٢)، والجملة كما قال الآلوسي حال من الموصول أو الضمير الذي في صلته. انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٨٢).

(١) في النسخ: «وإضمار»، والمثبت هو الصواب، حيث جاء في هامش (ي): «كذا في نسخة المؤلف، والموافق للقاضي ـ وهو الظاهر ـ أن يقال: أو إضمار». وانظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٦).

(٢) في (ع) و(ي): «مدوداً».

(٣) في (ي): «بسبعة أبحر». وفي هامشها: «كذا في بعض [نسخ] المؤلف، والظاهر أن يكتب ﴿سَبْعَةُ﴾ إلخ فيما تقدم عند قوله: و﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ على أنه من الآية؛ لأنه بالباء، والموجه لأن يكون الباء غلطا؛ لأنه لا وجه لذكر القرآن هنا، فالظاهر أن يكون هنا بالباء ولا يكون من القرآن». قلت: وملخص الكلام: أنه كان يجب كتابة ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فيما تقدم من الآية، وتكون هنا: (بسبعة أبحر) على أنها من تتمة الكلام الذي قبلها.

(٤) في هامش (ي): «كذا في نسخة المؤلف، ولا يخفى أنه تكرار، وبالجملة: في هذا المحل غلط كثير إلا أنا اتبعنا أثر المؤلف».

(٥) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٩)، و«الكشاف» (٣/ ٥٠١).

وقرئ: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ و(يُمده)[1] من مدَّ الدواة وأَمَدَّها.

وأغنى عن ذِكْرِ المِداد بقوله: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ اختارَ جمعَ القِلَّةِ على جمعِ الكثرةِ ـ وهي الكلِمُ ـ للإشعار بأنَّها لا تفي بالقليل منها فضلاً عن الكثير، والتَّقديرُ: ولو أنَّ أشجارَ الأرضِ كلَّها أقلامٌ، والبحر المحيط دواتُه، فجُعل البحرُ بمنزلة الدَّواة والأبحرُ السَّبعةُ مملوءة مداداً تمدُّها أبداً، وكُتِبَت بها كلماتُ الله، ما نفدت كلمات الله ونفدت الأقلام والمداد؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: لا يعجزُهُ شيءٌ، ولا يخرج عن علمِه وحكمتِه أمرٌ، ومَن كانَ كذلك لا تَنْفَدُ كلماته وحِكَمُه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّها نزلَتْ جواباً لليهود لَمَّا قالوا: قد أُوتينا التَّوراةَ وفيها كلُّ الحكمة[2].

---

(١) الأولى قراءة الجمهور، والثانية نسبت لابن مسعود والحسن وابن مصرف وغيرهم. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٦٩)، و«البحر» (١٧/ ٢٣٣).

وقد وقع في كلام المؤلف في تفسير هذه الآية اضطراب كثير كما أشير إليه في هامش (ي)، ويوضحه بل ويغني عنه ما جاء في «الكشاف» (٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٦). كما أن في «البحر» (١٧/ ٢٤٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨١) مناقشات حسنة وتفصيل وبيان.

(٢) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣). وهذا الخبر يدل على أن الآية مدنية، ومن قال: إنها مكية، علله بأن اليهود أمروا وفد قريش أن يسألوا عنه النبي عليه الصلاة والسلام، وهو ما سيأتي بعده. انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٨٧).

وقيل: أُمِرَ وفدُ قريشٍ أنْ يقولوا لرسول الله ﷺ: ألسْتَ تتلو فيما أُنْزِلَ عليك أنَّا قد أوتينا التَّوراة وفيها عِلْمُ كلِّ شيء.

وأما ما قيل: إنها نزلَتْ حين سألوا عن قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومخالفته لنزول التَّوراة وفيها علم كلِّ شيء[1].

فيَرِدُ[2] عليه أنه لا يصلح سبباً للنزول؛ إذ ليس فيما نزلَ تعرُّضٌ لوجهِ التَّوفيق بينهما.

***

(٢٨) - ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾: إلَّا كخلقِها وبعثِها؛ لأنَّه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، فلا يتفاوت عندَه القليلُ والكثيرُ؛ لأنَّه يكفي في وجود الكلِّ تعلُّق إرادته القديمة منضمَّةً إلى قدرته الذَّاتية كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لكلِّ مسموعٍ.

﴿بَصِيرٌ﴾ لكلِّ مُبْصرٍ، فلا يشغلُه إدراكُ بعضِها عن بعضٍ، وكذلك الخَلْقُ والبعثُ.

***

(١) هو خبر ابن عباس الذي تقدم قريباً، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٨) أيضا عن عكرمة، و(١٥/ ٧٢) عن عطاء بن يسار.

(٢) في النسخ: «ويرد»، والصواب المثبت، فقد جاء في هامش (ي): «في نسخة المؤلف: ويرد، بالواو ولا وجه له».

(٢٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ مِن الشَّمس والقمر ﴿يَجْرِىٓ﴾ في فلكِه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى منتهًى معيَّنٍ؛ الشَّمسُ إلى آخر السَّنة، والقمرُ إلى آخر الشَّهر.

وقيل: إلى يوم القيامة؛ لأنَّه مُنتَهى جَرْيهما ومنقطَعُه.

استُعمِلَ الجري هاهنا مع حرف الانتهاء، وفي (فاطر) مع حرف الاختصاص؛ أي: يجري لإدراك أجلٍ معيَّنٍ؛ لأنَّ بلوغ الجري إلى منتهاها يوافق اختصاص الجري بإدراك الأجل المعيَّن في المعنى، فكِلَا المعنيَيْن يتوافقان في إفادة المقصودِ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالمٌ بِكُنْهِهِ.

* * *

(٣٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصفُ الذي وُصِفَ به مِن كمالِ القدرةِ والحكمةِ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: بسببِ أنَّ اللهَ.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثَّابتُ في ذاته، أو الثَّابتُ الألوهيَّة.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المنتفي الألوهيَّة، أو المعدوم في حدِّ ذاته.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ الشَّأنِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ السُّلطانِ، أو المترفِّعُ على كلِّ شيءٍ، الكبير عن أنْ يُشرَكَ به شيءٌ.

* * *

(٣١) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾: بإحسانِه في تهيئة أسبابِه، أو: برحمته.

والباء للصِّلة أو الحال، وهو استشهاد آخر على باهرِ[1] قدرته، وكمالِ حكمتِه، وشمولِ نعمتِه.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: بعضَ دلائلِ قدرتِه وحكمتِه ورحمتِه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاقِّ، فيُتعِب نفسَه بالتَّفكُّرِ في الأنفس والآفاق ﴿شَكُورٍ﴾ يعرف النِّعمَ، ويعرف مانِحَها.

وهما صفتان للمؤمنِ، فإنَّ الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفُ شكرٌ، فكأنَّه قال: إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ مؤمنٍ.

وقيل: ﴿صَبَّارٍ﴾ على بلائِه، و﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائِه.

* * *

(٣٢) - ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾: وإذا علاهم وغطَّاهم ﴿مَّوْجٌ﴾ مرتفعٌ متراكمٌ ﴿كَالظُّلَلِ﴾: جمع الظُّلَّة[2]، وهي كلُّ ما أظلَّكَ من الجبل أو السَّحاب أو غيرهما.

وقرئ: (كالظِّلال)[3]؛ كقُلَّةٍ وقِلال.

---

(١) في (ك): «تأثير».

(٢) في (م): «جمع ظلة».

(٣) نسبت لمحمد بن الحنفية رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧).

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوالِ ما يخالفُ الفِطرةَ مِن الهوى والتَّقليدِ، بما دهاهم من الخوفِ الشَّديد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: ثابتٌ على الطَّريق القَصْدِ الذي هو التَّوحيد؛ أي: باقٍ على الإخلاص الحادث في البحر، وقليل ما هم. أو متوسِّط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار، وانخفاضه عن غلوائه[1].

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ﴾: مبالغٍ في الغدرِ، ناقضٍ للعهدِ الفِطريِّ، أو لِمَا عاهد الله[2] عليه في البحر، والخَتْرُ: أشدُّ الغَدْرِ.

﴿كَفُورٖ﴾ بنعمةِ اللهِ.

* * *

(٣٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾ التَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّهويل.

﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ﴾: لا يقضي عنه، وقرئ: (لا يُجْزِئ)[3]؛ أي: لا يُغني، والجملة صفةُ ﴿يَوۡمٗا﴾، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: لا يجزي فيه.

﴿وَلَا مَوۡلُودٌ﴾ عطف على ﴿وَالِدٌ﴾، أو مبتدأ خبرُه:

---

(١) في (ف) و(م): «علوائه».

(٢) لفظ الجلالة ليس في (ف) و(م).

(٣) نسبت لأبي السمال وغيره. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧).

﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغيير النَّظم بالعدول عن الجملة(١) الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة للتَّوكيد، والدِّلالة على أنَّ الولد أولى بأن لا يجزي شيئاً عن والده، وحسمِ أطماع المؤمنين أنْ ينفعوا آباءهم الكفَّار في الآخرة، فإنَّهم كانوا يتوقَّعون ذلك.

وللمبالغة في التَّأكيد جِيء بلفظ ﴿هُوَ﴾ و﴿مَوْلُودٌ﴾ دون (ولد)؛ لأنَّ الولد يطلق على ولدِ الولد بخلاف المولود؛ فإنَّه لا يُطلَق على ولد الولد إلَّا بالنِّسبة إلى الذي وُلِدَ منه؛ أي: لو قَصدَ النَّفع لِمَن وُلِدَ منه لم يقدِرْ عليه، فضلاً أنْ ينفعَ لأجداده.

كذا قيل، ومبناه على تخصيص الخطاب والحُكم، والظَّاهرُ العمومُ، فالوجهُ أنْ يُقالَ: إنَّ الابن مِن شأنه أن يكون جازياً عن والده؛ لِمَا عليه من الحقوق، والوالد يجزي لِمَا فيه مِن الشَّفقةِ، فليس الثَّاني كالأوَّل.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثَّوابِ والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكِنُ خُلْفُه.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتِها؛ فإنَّ نعيمَها ذاهبٌ(٢)، ولذَّاتها فانيةٌ.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ. وقرئ بضمِّ الغين(٣)، فجُعِلَ الغُرور غارًّا للمبالغة، أو إرادةُ زينة الدُّنيا لأنَّها غُرور؛ إطلاقاً لاسم المسبَّب على السَّبب.

* * *

---

(١) «الجملة» سقط من (ك).

(٢) في (ف) و(م) و(ي) و(ع): «دانية»، والمثبت من (ك).

(٣) نسبت لسماك بن حرب وأبي حيوة. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٧٢)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٢٤٠).

(٣٤) - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ علمُ وقتِ قيامِها؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ الحارثَ بنَ عمرٍو أتى النَّبيَّ عليه السلام وقال: متى قيام السَّاعة؟ وإنِّي قد ألقيْتُ حبَّاتي في الأرضِ فمتى تمطرُ السَّماء؟ وحملُ امرأتي ذكرٌ أم أنثى؟ وما أعمل غداً؟ وأينَ أموتُ؟ فنزلَتْ[1].

أي: محفوظةٌ علمُها مِن جهته تعالى، لا يصلُ إليه غيرُه، فإنَّ كونَ الشَّيء عندَه عبارةٌ عن كمالِ حفظِه، وبهذا الوجه يظهرُ اختصاصُ العلمِ المذكور به تعالى.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ أي: يرسِلُ المطرَ النَّافع بحسب المصالح على التَّدريجِ في أوقاتٍ متعدِّدةٍ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكرٌ أم أنثى، أحيٌّ أم ميِّتٍ، أتامٌّ أم ناقصٍ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ أيَّةُ نفسٍ كانَتْ، وإنَّما جعلَ العِلْمَ لله تعالى، والدِّراية للعبدِ؛ لِمَا في الدِّراية مِن معنى الخَتْلِ[2] والحيلة، والمعنى: أنَّها لا تَعرِفُ وإنْ أعملَتْ حيلَها.

---

(١) رواه ابن المنذر في «تفسيره» عن عكرمة، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) وسمى الرجل: الوارث من بني مازن. وذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٤٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٢٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٧)، وذكره الواحدي أيضاً في «البسيط» (١٨/ ١٢٨) وعزاه لمجاهد ومقاتل، واسم صاحب القصة عندهم عدا «أسباب النزول»: عبد الوارث بن عمرو. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٨٥) عن مجاهد ولم يسمه. فهذا الخبر لم يرو بسند متصل إلى النبي ﷺ، وإنما هي مراسيل عن عكرمة ومجاهد ومقاتل.

(٢) في (ع): «المثل»، وفي (ف) و(م) و(ك): «الحيل».

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِن خيرٍ أو شرٍّ، فربَّما كانَتْ عازمةً على خيرٍ فعملَتْ شرًّا، أو عازمةً على شرٍّ فعملَتْ خيراً.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؛ أي: أينَ تموت، وربَّما أقامت بأرضٍ، وضربَتْ أوتادها، وقالَتْ: لا أبرحُها، فترمي بها مرامي القدر حتى تموتَ في مكانٍ لم يخطرْ ببالِها.

وقرئ: (بأيَّةِ أرضٍ)[1]، وشبَّه سيبويه تأنيثَ (أيّ) بتأنيث (كل) في: (كلتهنَّ)[2].

واعلم: أنَّ الانطباقَ على سبب النُّزول المذكور، والاتِّفاقَ بما روي في «صحيح البخاري» عن ابن عمر رضي الله عنه: «مفاتيحُ الغيبِ خمسةٌ لا يعلمُها إلَّا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾... الآية»[3] = إنَّما يكونان على تقدير أنْ يظهرَ [اختصاص] علمِ أوقات نزول الغيث وعلمِ أحوال الحمل به [تعالى][4]، وذلك بأن يكون تقدير قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾: وأنْ ينزِّلَ الغيث، عطفاً على ﴿السَّاعَةِ﴾، يعني: عندَه علمُ السَّاعة وعلمُ إنزال الغيث، فحذف (أنْ) كقوله:

---

(١) نسبت لموسى الأسواري وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٦).

(٢) في النسخ: «كلهن»، والمثبت من «الكتاب». انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٤٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٤) ما بين معكوفتين من رسالة للمؤلف بعنوان: «رسالة في تحقيق الغيب»، وما ذُكر هنا هو بعض ما جاء في تلك الرسالة المفيدة، وهي مطبوعة ضمن مجموع رسائله، وقد من الله علينا بتحقيقها في جملة ما حققناه من رسائله.

أَلَّا أَيُّهــذا الزَّاجــري(١) أحضــرُ الوَغَــى(٢)

والمعنى: أنْ أحضرَ الوغى.

وقِسْ على هذا قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

***

(١) في (م): «اللائمي»، وهي رواية. انظر التعليق الآتي.

(٢) صدر بيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه (ص: ٣٢)، وورد بلفظ: (اللائمي) في «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي (ص: ١٣٠)، و«الجمل في النحو» للخليل (ص: ١٦٥). وقوله: (أحضر) روي بالرفع والنصب، كما قال السمين في «الدر المصون» (١/ ٤٦٠)، لكن الاستشهاد به هنا على وجه الرفع، لأن الفعل في الآية مرفوع. وعجز البيت:

وأن أشــهد اللــذات هــل أنــت مُخْلــدي

سُورَةُ السَّجدَةِ

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنْ جُعل ﴿الٓمٓ﴾ اسماً للسورة فهو مبتدأٌ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرُه على أن التَّنزيل بمعنى المنزَل، و﴿مِن رَّبِّ﴾ صلةُ ﴿تَنزِيلُ﴾ أو خبرٌ ثانٍ.

وإنْ جُعل تعديداً للحروف فـ﴿تَنزِيلُ﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة؛ أي: لا ريب في ذلك، يعني: في كونه منزلاً من ربِّ العالمين، أو الخبرُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ و﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ من الضمير في ﴿فِيهِ﴾ على أنه للتنزيل أو للكتاب.

* * *

(٣) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ مؤيِّدٌ لرجوع الضمير في ﴿فِيهِ﴾ لمضمون[1] الجملة، وكذا قوله:

﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأن قولهم: هذا مفترى، إنكارٌ لأنْ يكون من رب العالمين.

والهمزة في ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ إنكارٌ لقولهم وتعجيبٌ منه، فيكون الكلام مصدَّراً بإعجازه وإثباتِ أنه من ربِّ العالمين، مقرِّراً بأنه لا ريب في ذلك، ثم مقفًّى بالإضراب عن ذلك إلى إنكار قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ والتعجيبِ منه؛ لظهورِ أمره في الإعجاز، ثم بالإضراب عن الإنكار إلى تقرير المقصود، بعد ردِّ قولهم وإثباتِ أنه الحقُّ من ربِّك، ثم ببيان الغرض منه بقوله:

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ ولا يُشكِلُ هذا بقوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ لأنهم لم يخل عن الوقوف بشريعة[2] تنذرهم وإن لم يأتهم نذير.

﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ لأنهم كانوا أهلَ الفترة.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

* * *

---

(١) في (ف): «للتنزيل أو إلى مضمون»، بدل: «لمضمون»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٠٦)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٩)، قال الزمخشري: (والوجه أن يرتفع [أي: ﴿تَنزِيلُ﴾] بالابتداء، وخبره ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، و﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزلا من رب العالمين، ويشهد لوجاهته قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ لأنّ قولهم: هذا مفترًى، إنكار لأنْ يكون من رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾...).

(٢) في (ي): «من الوقوف بشريعة»، وفي (ع) و(م): «عن الوقوف شريعة»، وسقطت من (ف) و(ك).

(٤) ـ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ سبق تفسيره في سورة الأعراف.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: ما لكم إذا جاوزتُم رضا اللهِ تعالى أحدٌ ينصركم أو يشفع لكم.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بمواعظ الله.

* * *

(٥) ـ ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾: يدبر أمرَ الدنيا كلِّها بأسبابٍ سماويةٍ نازلةٍ آثارُها إلى الأرض لكلِّ يومٍ من أيام الله، وهو ألفُ سنة كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يصيرُ إليه ويُكتب عنده في صحف ملائكته ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ كلَّ وقتٍ من أوقات هذه المدةِ ما[1] يرتفع من ذلك

(١) قوله: «ما» اسم موصول في محل رفعٍ لـ«يصير» أو لـ«يكتب» على التنازع، وقوله: «كلَّ يوم..» ظرف لهما، والمعنى: (ثم يَصير إليه تعالى ويَثْبُت عنده عزّ وجلّ ويُكتب في صحف ملائكته جلّ وعلا كلَّ وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر...)، هذا ما وفق الله إليه في شرح عبارة المؤلف، وهي منقولة عن الزمخشري ولم أجد من شرحها، والعبارة التي أوردتها هي عبارة الآلوسي، والله أعلم بالصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٢).

الأمر ويدخل تحت الوجود، إلى أن تبلغَ المدة آخِرَها، ثم يدبِّر أيضاً ليومٍ آخرَ، وهلمَّ جرًّا إلى أن تقوم الساعة.

وقيل: يُنْزِل الوحيَ مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يَعرج إليه في زمان هو في الحقيقة ألفُ سنة؛ لأن المسافة مسيرةُ ألف سنة، فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة عام.

وفيه نظر؛ إذ لا يَلزم من قطع المسافة الطويلةِ في مدةٍ قصيرةٍ أن تكون تلك المدةُ طويلةً في الحقيقة، وذلك ظاهر.

نعم لو قيل: في قوله: ﴿مِقْدَارُهُۥٓ﴾ تجوُّزٌ، فإن المقدار المذكور للمسافة باعتبار قطعها المعتاد، لكان له وجه.

* * *

(٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبِّر على[1] وَفْق علمه.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القويُّ بإنفاذ أمره.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره على وفق مصالحهم تفضُّلاً وامتناناً.

* * *

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: حسَّنه على وَفق الحكمة والمصلحة موفوراً عليه ما يَستعدُّه ويليق به، وإنْ تفاوَتَ إلى حَسَنٍ وأَحْسن، و﴿خَلْقه﴾ بدلٌ من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ بدلَ الاشتمال.

---

(١) «على»: ليست في (م).

وقيل: عَلِمَ كيف يخلقه، من قوله: قيمةُ المرء ما يُحْسِنه؛ أي: يُحسن معرفته، و﴿خَلْقه﴾ مفعول ثان.

وقرئ بفتح اللام[1]، فالشيءُ على الأول مخصوصٌ بمنفصِل، وعلى الثاني بمتَّصِل.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿مِن طِينٍ﴾.

* * *

(٨) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ﴾ النسل: الذرِّية، سميت به لأنها تَنسلُّ منه؛ أي: تنفصل وتخرج من صُلبه، والسلالة: ما يُسلُّ من الشيء ويُخرَج.

﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾: ضعيفٍ حقير.

* * *

(٩) ـ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾: قوَّمه بتصويرِ[2] أعضائه على ما ينبغي.

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً وإظهاراً بأن له خَلْقاً عجيباً، وأن له شأناً له مناسبةٌ مّا إلى حضرة الربوبية، قال عليه السلام: مَن عَرَفَ نَفْسَه فقد عَرَفَ ربَّه[3].

---

(١) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي ونافع، وباقي السبعة بسكون اللام. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٧).

(٢) في (ك): «بتقدير».

(٣) قال أبو المظفر ابن السمعاني: لا يعرف مرفوعا، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من =

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصوصاً لتَسمعوا وتُبصروا وتَعقلوا، وإنما قدَّم السمع على البصر لخساسته نظراً إلى البصر، فإن الكلام على أسلوب الترقِّي من الشريف إلى الأشرف فالأشرف.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون شكراً قليلاً.

***

(١٠) ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ قيل: القائل أبيُّ بن خلف، ولا حاجةَ إلى رضاهم بقوله في الإسناد إليهم، بل يكفي وجودُ القول بينهم كقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢].

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ بالفتح والكسر(١).

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: صرنا تراباً مختلِطاً بتراب الأرض بحيث لا امتياز فيه، أو: غبنا فيها.

وقرئ: (صَلَلْنا)(٢) من صلَّ اللحم: إذا أَنْتَنَ، وقيل: صِرنا من جنس الصَّلَّة وهي الأرض.

= قوله، وكذا قال النووي: إنه ليس بثابت. انظر: «المقاصد الحسنة» (ص: ٦٥٧). وذكره السلمي في «تفسيره» (٢/ ٨٦) من قول علي رضي الله عنه.

(١) بالفتح قراءة الجمهور، ونسبت قراءة ليحيى بن يعمر وابن محيصن وأبي رجاء وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٣).

(٢) قيدها بعضهم بفتح اللام وآخرون بكسرها، ونسبت لعلي وابن عباس والحسن وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣١)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٣)، و«الكشاف» (٣/ ٥٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٤١).

وقرئ: ﴿إِذَا﴾ على الخبر[١]، والعامل فيه ما دل عليه:

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وهو: نُبعث، أو: يجدَّد خَلْقُنا.

وقرئ: ﴿إِنَّآ﴾ على الخبر[٢].

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ لـمَّا ذكر[٣] كفرَهم بالبعث أعرضَ عنه إلى ما هو أبلغُ في الكفر بما بعد الموت من الرجوع إلى الله والجزاء[٤].

* * *

(١١) - ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ التَّوفِّي: استيفاء النَّفْس، من قولك: تَوَفَّيتُ حقِّي من فلان واستَوْفَيْتُه: إذا أخذْتَه وافياً كاملاً؛ أي: يَقبض نفوسكم بتمامها.

﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ أي: يَقبِض[٥] أرواحَكم عند انتهاء مُدد أعماركم، وفي عبارة ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى وجه التوفيق بين هذه الآية وقولهِ تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وهو أن فِعْلَ الوكيلِ فِعْلُ الموكِّل.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

* * *

---

(١) قراءة ابن عامر، والباقون على الاستفهام. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٢).

(٢) قراءة نافع والكسائي، والباقون على الاستفهام. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٢).

(٣) في (ف) و(ك): «رد».

(٤) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٧)، ولفظه: (لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالبعث وحده).

(٥) في (ك): «بقبض».

(١٢) - ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الأفصح أن يكون الخطاب لكلِّ أحدٍ ممن يَتأتَّى له الرؤيةُ[1] ولا يقدَّر لـ ﴿تَرَىٰٓ﴾ مفعولٌ؛ لأن المعنى: لو يكونُ منك الرؤية في هذا الوقت.

﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ من الذل والحياء والندم.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: عند حساب ربهم[2]، ويُوقَفُ عليه لحقِّ الحذف؛ إذ التقديرُ: قائلين.

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ وعدِكَ ووعيدِك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديقَ رسلك، أو: كنا عمياً وصمًّا أبصرنا وسمعنا.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: الإيمانَ والطاعة.

﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث[3] والحساب الآن.

وجواب (لو) محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً، والمضيُّ فيها وفي ﴿إِذِ﴾ لأن المترقَّب من الله تعالى بمنزلة الواقع.

* * *

(١٣) - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) في (ك): «القدرة».

(٢) في (ف) و(م): «حسابهم».

(٣) في (ف): «بالغيب».

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾: ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له.

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾: سبَق حُكمي وقضائي، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ إنما قدَّم الجنَّ لأن المقام مقامُ التحقير ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: ولكن اقتضى الحكمةُ خلافَ ذلك، وما ذُكر من سبق القضاء به كنايةٌ عن ذلك الاقتضاء، فليس فيه تسبُّبُ عدم إيمانهم عن سبق التقدير الأزلي به كما سبق إلى بعض الأوهام.

* * *

(١٤) ـ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَذُوقُوا﴾ يعني: ما أنتم فيه من الخزي والغم.

﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾: بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أو: بترككُم العمل لهذا اليوم كأنكم نسيتُموه فلم تذكروه.

﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾؛ أي: تركناكم في العذاب، أو: جازيناكم على نسيانكم، وفي استئنافه وبناءِ الفعل على (إنَّ) واسمها تشديدٌ في الانتقام منهم.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾؛ أي: واعلموا أن هذا العقاب خالدٌ لكم غيرُ زائل عنكم.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بأعمالكم من الكفر والمعاصي، وإنما كرَّر الأمر[1]

(١) «الأمر»: ليست في (م).

للتأكيد، ولِـمَا نِيطَ به من التصريح بمفعوله، وتعليلِه بأفعالهم السيئة كما علَّله بتركهم تدبُّر أمر العاقبة والتفكُّرَ فيها دلالةً على أن كلًّا منها يقتضي ذلك، وهذا منادٍ ينادي على أنه لا عذر لهم في ذلك[1] من جهة القضاء الأزلي.

* * *

(١٥) ـ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾: وعظوا بها.

﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾ خوفاً من عذاب الله تعالى.

﴿وَسَبَّحُوا۟ ﴾: نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث.

﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾: حامدين له شكراً على ما وفَّقهم للإسلام وآتاهم الهدى.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن[2] الإيمان والطاعة.

* * *

(١٦) ـ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ ترتفعُ وتتنحَّى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾: الفرُش ومواضعِ النوم، مبالغة في الاعتياد[3] بقيام الليل، كأنهم يقومون بالطبع لا بالاختيار كما يقومون لحاجاتهم الطبيعية.

---

(١) في هامش (م): «ولكن لا حياة لمن ينادى منه».

(٢) في (م): «على».

(٣) في (م): «الاعتبار».

﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾: داعين إياه ﴿خَوۡفٗا﴾ من سَخَطه ﴿وَطَمَعٗا﴾ في رحمته، وعن النبيِّ عليه السلام في تفسيرها: قيامُ العبد من الليل[1].

وقيل: كان ناسٌ من الصحابة يصلُّون من المغرب إلى العشاء، فنزلت فيهم[2].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

* * *

(١٧) - ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ واحدةٌ من النفوس، لا مَلَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل.

﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ على البناء للمفعول والفاعل، وقرئ: ﴿ما أُخْفيْ﴾ على أنه مضارع أَخْفَيتُ[3].

و: (ما نخفي)، و: (ما أَخْفيتُ)[4].

والفاعل في الكل هو الله تعالى، و﴿مَّآ﴾ موصولةٌ والعِلم بمعنى المعرفة، أو استفهامية[5] بمعنى: أيُّ شيء؟ علِّق عنها الفعل.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦) وصححه، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦١٤)، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) رويت فيه أخبار كثيرة تنظر في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٦)، وروى نحوه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢)، والترمذي (٣١٩٦) وصححه، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) هذه قراءة حمزة، وقرأ باقي السبعة: ﴿أُخۡفِيَ﴾ بالبناء للمفعول. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٧). وقراءة (أَخْفَى) بالماضي المبني للفاعل نسبت لمحمد بن كعب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥١٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٢).

(٤) نسبت الأولى لابن مسعود والثانية للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٢).

(٥) في (ف)و (م): (الاستفهامية).

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: ممَّا تَقَرُّ به أعينُهم، وقرئ: (مِن قُرَّاتِ أعينٍ)[1] لاختلاف الأنواع.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مفعولٌ له؛ أي: أُخفيَ للجزاء، أو مصدر؛ أي: جُزُوا جزاءً، أو حال على التسمية بالمصدر. والفاء للسببية؛ أي: إذا لقينا مَن كانوا يُخفون عبادتنا بالليل فلا تعلم نفسٌ ما أَخفينا لهم.

وفي الإبهام ثم التوضيحِ والتفسيرِ لـ ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ تفخيم لشأن جزائهم وتعظيمٌ له، وإن جُعل[2] ﴿مَّآ﴾ استفهاميةً زِيدَ تعظيمٌ على تعظيمٍ.

* * *

(١٨) ـ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ﴾ الفاء للتعقيب والهمزةُ للإنكار؛ أي: أَبَعْدَ ما ذُكر مِن ثواب المؤمن وكرامته هل يكون مساوياً للفاسق الخارج عن الإيمان في الشرف والمثوبة.

﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ تأكيد وتصريحٌ، والجمع للحمل على المعنى.

* * *

(١٩) ـ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: المأوى الحقيقيُّ الأبديُّ فإنَّ الدنيا منزلٌ مرتحَلٌ عنها، وقيل: نوع من الجِنان كما في قوله تعالى:

---

(١) نسبت لابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٤)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٣).

(٢) في (ف)و (م): «يجعل».

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما: تأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿نُزُلًۢا﴾ سبق تفسيره في آل عمران.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: بأعمالهم.

* * *

(٢٠) - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فجنةُ مأواهم النارُ؛ أي: النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين؛ كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ قد سبق تفسيره.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانةً لهم وزيادةً في غيظهم.

* * *

(٢١) - ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: عذابِ الدنيا مما محنوا به من الأسر والقتل والقحط سبع سنين.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: عذاب الآخرة.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعلَّ مَن بقي منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾: يتوبون عن الكفر.

رُوي أن الوليد بن عقبةَ فاخَرَ عليًّا رضي الله عنه يوم بدر، فنزلت هذه الآية(١).

***

(٢١) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ ولم يتفكَّر فيها، و﴿ثُمَّ﴾ مستعار للاستبعاد؛ لأن الإعراض عن مثل هذه الآيات مع وضوحها وإنارةِ برهانها وإرشادها إلى الفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعَدٌ عقلاً؛ كما تقول لصاحبك: وجدتَ مثلَ هذه الفرصةِ ثم لم تَنْتهِزها! ومنه ما في بيت الحماسة:

ولا يَكشفُ الغَمَّاءَ إلَّا ابنُ حُرَّةٍ ... يَرَى غَمَراتِ الموتِ ثم يَزورُها(٢)

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ استئناف مؤذِنٌ بأن الانتقام منهم هو أشدُّ الانتقام؛ لأنه لـمَّا بيَّن أنه أظلمُ من كلِّ ظالم، ثم دلَّ على أنه يَنتقم من كلِّ مجرم والظالمُ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥١٤). قال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ١٣١) ونقله عنه الشهاب في «الحاشية» (٧/ ١٥٤) مع بعض زيادة: (قوله: إن ذلك شجر بينهما يوم بدر، غلط فاحش، فما كان الوليد حينئذ رجلا، بل طفلاً لا يتصور منه حضور بدر وصدور ما ذكره الزمخشري من مشاجرته لعلي رضي الله عنه). قلت: قد رويت القصة دون تعيين يوم بدر، رواها عن ابن عباس رضي الله عنهما الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٢١). وكذا أوردها في تفاسيرهم السمرقندي والثعلبي والواحدي والبغوي وابن عطية وابن الجوزي، لكن نقل ابن عطية عن الزجاج والنحاس وغيرهما أنها نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط، قال: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة وإنما قتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر. قلت: ولعله على هذا يكون لما ذكره الزمخشري وجه إلا أنه وهم فذكر الوليد بدل أبيه.

(٢) البيت لجعفر بن عُلْبَةَ ـ بضم العين وسكون اللام بعدها باء ـ الحارثي. انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١/ ٤٩)، و«الحماسة البصرية» (١/ ٤٦٤)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٥).

مجرم، كان ممَّن[١] هو أظلمُ أشدَّ انتقاماً، فلهذا المعنى وَضع ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ موضع الضمير[٢].

* * *

(٢٣) - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك.

﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾: في شكٍّ ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾: من لقائك الكتابَ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٦]؛ أي: إنك أوتيتَ ما أوتيتَ[٣] مثلَ ما أُوتيه، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

أو: من لقاء موسى الكتابَ، ويؤيِّده انتظامُ قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: المنزلَ على موسى عليه السلام ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وأما عودُ الضمير إلى موسى عليه السلام؛ أي: من لقائكَ موسى، فيأباه تصديرُ النهي بأداة التفريع.

* * *

(٢٤) - ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناسَ إلى ما فيه من الحِكَم والأحكام.

---

(١) في النسخ: «من»، والصواب المثبت.

(٢) بعدها في (ف) و(م): «له»، ولا وجه لها.

(٣) «ما أوتيت» من (ف) و(ك).

﴿بِأَمْرِنَا﴾[١] إياهم به، أو بتوفيقنا له.

﴿لِمَا صَبَرُوا﴾: لصبرهم، وقرئ: ﴿لَمَّا﴾[٢]؛ أي: حين صبروا.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم في النظر.

* * *

(٢٥) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقضي فيَميزُ الحقَّ من الباطل بتمييز المحقِّ من المبطِل.

﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

* * *

(٢٦) - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواو للعطف على مقدَّرٍ من جنس المعطوف؛ أي: ألم يؤمنوا - أو: ألم تَدْعهم - ولم يَهْدِ لهم، والفاعل ما دل عليه:

﴿لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾؛ أي: كثرةُ إهلاكنا القرونَ، أو هذا الكلام كما هو بمضمونه كقولك: تعصمُ لا إلهَ إلا الله[٣] الدماءَ والأموالَ، أو ضميرُ ﴿رَبَّكَ﴾ بدلالة قراءته بالنون[٤].

---

(١) بعدها في (ك): «بآياتنا».

(٢) قراءة جمهور السبعة، وقرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٧).

(٣) في (ك): كتب فوق لفظ الجلالة: (هو).

(٤) نسبت لعلي وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» =

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني: أهل مكة يمرُّون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ قد سبق في تفسير سورة الروم وجهُ توصيف القوم بالسمع وكان الظاهر توصيفُهم بالإبصار.

* * *

(٢٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الواو لعطف الاستفهام على نظيره، وتأخيرُه عن أداتها لصدارتها.

﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾؛ أي[1]: التي جُرز نباتها؛ أي: قُطع؛ إما لعدم الماء، أو لأنه أُزيل أو رُعي، ولا يقال للَّتي لا تُنبت كالسباخ: جُرُزٌ، بدليل قوله:

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وقيل: اسمُ موضع في اليمن.

﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾؛ أي: من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من عَصْفِه وتِبْنِه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حبِّه وثمره، قدَّم أَكلَها على أَكلهم لأن ما تأكله من الورق والقَصيل[2] يحصل مقدَّماً.

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمالِ فضله وقدرته.

* * *

= (ص: ١١٨)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٥).

(١) «أي» من (ف) و(ك).

(٢) القصيل: ما اقتُصل من الزرع أخضر. انظر: «القاموس» (مادة: قصل).

(٢٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾: النصر، أو الفصل بالحكومة، من قوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] لا من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فإن إطلاق يوم الفتح على يوم القيامة لانفتاح أبواب السماء حينئذ، لا لانتصار المسلمين على الكفار.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد به.

* * *

(٢٩) ـ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يومُ الفتح: يومُ القيامة لأنه يُفتح فيه بين المؤمنين وبين أعدائهم ويُنصرون عليهم.

وقيل: هو يومُ بدر، أو يومُ فتح مكة، والمراد بالذين كفروا: المقتولون في أحد اليومين، فإنه لا ينفعهم إيمانهم حالَ القتل ولا يُمهَلون.

وتطبيق الجواب على سؤالهم من حيث المعنى؛ لأن غرضهم من الاستفهام لم يكن طلبَ تعيين الوقت بل الاستعجال، كأنه قيل: لا تستعجلوا به فإنه إذا جاء لا ينفعكم الإيمان إن آمنتم ولا تُنظَرون إن استَنظَرتُم، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من باب وضع الظاهرِ موضع المضمَر للتسجيل عليهم بالكفر، وأن الكفر المستمرَّ إلى وقت العذاب هو الذي يُوجِب عدم نفعِ الإيمان وينفي[1] الإنظار.

* * *

(١) في (ف)و (م): «ونفي».

(٣٠) ـ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تبال بتكذيبهم، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

﴿وَانتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم وهلاكَهم.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ الغلبةَ عليكم وهلاكَكم.

وقرئ: (منتظَرون) بفتح الظاء[1]؛ أي إنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أي إن الملائكة ينتظرون هلاكهم فإنهم هالكون لا محالة.

* * *

(١) نسبت لمحمد بن السميفع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٥)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٦).

سُورَةُ الأَحزَابِ

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ نودي عليه السلام في جميع القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ تعظيماً له وتعليماً للعباد كيفَ ينادونه.

﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أمرَهُ بالتَّقوى تعظيماً للتَّقوى، وإعلاماً للأمَّة بأنَّه بابٌ عظيمٌ يجبُ أنْ يُعتدَّ به ويُحافَظ عليه، والمرادُ الأمرُ بالثَّبات على ما هو عليه ليكون مانعاً له عمَّا نُهِيَ عنه بقوله:

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: لا تساعدهم على شيءٍ يعودُ لوهنٍ في الدِّين[1]، ولا تقبل لهم رأياً في ذلك.

روي أنَّ أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السُّلَمي قدموا المدينة بعدَ قِتال أُحُدٍ فنزلوا على عبد الله بن أُبَيٍّ، وأعطاهم رسولُ الله عليه السلام الأمانَ على أنْ يكلِّموه، فقالوا له: ارفضْ ذِكْرَ آلهتنا، وقل: إنَّها تشفعُ وتنفعُ، وندعك وربَّك، وآزرهم المنافقون على ذلك، فهَمَّ المسلمون بقتْلِهم، فنزلَتْ[2].

---

(١) في (ف): «يعود لتزيين في الدنيا»، وسقطت من (ك): «لوهن».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٧٦)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٦٩)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٩).

أي: اتَّقِ الله في نقضِ العهدِ[١]، ولا تطع الكافرين من أهل مكَّة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا منك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخُبْثِ أعمالِهم ﴿حَكِيمًا﴾ في تأخيرِ الأمرِ بقتالهم.

* * *

(٢) - ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾ مِن الأمر والنَّهي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فموحٍ إليك ما يصلحه ومغنٍ من الاستماع إلى الكفرة.

وقرئ بالياء[٢]؛ أي: إن الله خبيرٌ بمكايدهم يدفعُها عنك.

* * *

(٣) - ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾: وفوِّض أمرَكَ إليه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾: موكولاً إليه كلُّ أمر، قال الزَّجَّاجُ: ولفظ (كفى) وإن كان [لفظه لفظ] الخبر فالمعنى: اكتفِ باللهِ[٣].

* * *

(١) في (ك) و(م): «العهود».

(٢) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) ـ ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ ﴾ تنكيرُه وزيادة ﴿مِّن﴾ في قول: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ بعدَ النَّفي؛ للتَّعميم والاستغراق؛ أي: ما جعلَ اللهُ لفردٍ واحدٍ مِن جملة الرِّجالِ فضلاً عن الصِّبيان والنُّسوان قَلْبَين ألبتَّة بوجهٍ من الوجوهِ.

و﴿فِى جَوْفِهِۦ ﴾ تأكيدٌ[1]، وزيادةُ تصويرٍ للسَّامعِ ليكونَ إذا سمع تصوير جوف إنسانٍ مشتملاً على قلبَيْن، فيكون أسرعَ إلى الإنكار.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ ما جعل الزَّوجيَّة والأموميَّة في أنثى ولا الدَّعوة والبنوَّة في ذَكَرٍ، جَعَلَ نَفْيَ اجتماعِ القلبَيْن في جوفٍ أصلاً لانتفاءِ[2] الاجتماعَيْن الآخرَيْن.

وذلكَ أنَّ العربَ تزعمُ أنَّ اللَّبيبَ له قلبان، ولذلك قيل لأبي مَعمر جميل بن أسد الفهري: ذو القَلْبَين، وكانَ رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم، وكان يقول: إن لي قلبَيْن؛ أفهم بأحدهما أكثر ممَّا يفهم محمَّد، فأكذب الله تعالى قوله وقولهم[3].

وضربه مثلاً في الظِّهار والتَّبني، فإنَّهم كانوا يقولون: المرأة المظاهَر عنها أمٌّ، ودَعِيُّ الرَّجلِ ابنُه.

---

(١) في (م): «توكيد».

(٢) في (ف) و(ي) و(ع): «لانتفاع».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٦). وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧ ـ ٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وعكرمة بإبهام اسم الرجل.

والمعنى: كما لم يجعلِ الله قلبَيْن في جوفٍ لأدائه[١] إلى التَّناقض ـ وهو أنْ يكونَ كلٌّ منهما أصلاً لكلِّ القُوى وغيرَ أصلٍ ـ لم يجعل الزَّوجةَ والدَّعيَّ اللَّذَين لا ولادة بينهما وبين أمِّه وابنه اللَّذَين بينهما وبينه ولادة.

ومعنى الظِّهار: أنْ يقولَ للزَّوجةِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمِّي، مأخوذٌ مِن الظَّهر باعتبار اللَّفظ، كالتَّلبيةِ مِن لبَّيكَ، وتعديتُه بـ (من) لتضمُّنه معنى التَّجنُّب؛ لأنَّ الظِّهار كان في الجاهلية طلاقاً، فكانوا يجتنبون المرأة المظاهَر عنها كما يجتنبون المطلَّقةَ.

ونظيرُه: آلى مِن امرأته، فإنَّه عُدِّي بـ (من) لتضمُّنه معنى التَّباعد، وإلَّا فـ (آلى) بمعنى: حلفَ، فلا يُعدَّى بـ (من).

وذِكْرُ الظَّهر في تشبيههم كنايةٌ عن البطن في التَّحريم، كأنَّهم تحاشوا عن ذكرِه لأنَّه يُقارِب ذِكْرَ الفرج، فكَنوا بالظَّهر عنه لأنَّه عمود البطن[٢]، أو للتَّغليظ في التَّحريم، فإنَّهم كانوا يحرِّمون إتيان المرأة وظهرُها إلى السَّماء.

والأدعياءُ: جمع دَعِيٍّ، وهو المَدْعُوُّ ولداً[٣]، فَعيل بمعنى مَفعول، وحقُّه أنْ يجمع على فَعْلَى كجَرْحَى وقَتْلَى، والجمع على أفعلاء إنَّما يكون للفَعيل بمعنى الفاعل، كتَقِيٍّ وأتقياء، وشَقِيٍّ وأشقياء، فهو شاذٌّ عن القياس كقُتَلاءَ وأُسَراءَ، ووجهُه التَّشبيهُ اللَّفظيُّ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ، أو إلى الأخير.

---

(١) في (ف): «لأدى».

(٢) «البطن» زيادة من (ي) و(ع).

(٣) في (ك): «وكذا».

﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾؛ أي: لا حقيقةَ له ولا يطابقُ الواقع.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ ما لَهُ حقيقةٌ عينيَّةٌ مطابقةٌ[1] له.

﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾: سبيلَ الحقِّ.

وفي فصلِ بعضِ الجملِ الواقعة في هذه الآية ووصلِ بعضِها ما لا يخفى على العالِمِ بعلمِ المعاني المتدرِّب في طريق[2] النَّظم.

* * *

(٥) ـ ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾؛ أي: انسبوهم إليهم، وهو إفراد للمقصود مِن أقوالِه الحقَّة، وقوله:

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعليلٌ له، والضَّمير لمصدر (ادع).

و﴿أَقْسَطُ﴾ أفعل المستعمل لمطلق الزِّيادة، مِن القِسْطِ بمعنى العَدْلِ، ومعناه: البالغ في الصِّدق.

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾؛ أي: إنْ لم تعرفوا آباءهم حتى تنسبوهم إليهم.

﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾: فهم إخوانُكم في الدِّين.

﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾: وأولياؤكم فيه، فقولوا: هذا أخي، و: هذا مولاي.

---

(١) في (ف)، و(ك) و(م): «مطابق»، وفي (ف): «غنية» بدل: «عينية».

(٢) في (م): «بطريق».

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: إثمٌ ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ قبلَ النَّهي أو بعدَه على سبيل النِّسيان أو سَبْقِ اللِّسانِ.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكنَّ الجُناحَ فيما تعمَّدْتُموه بعدَ النَّهي.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: يغفر للمخطئ ويعفو عنه، وعن العامد إذا تابَ.

* * *

(٦) - ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ في كلِّ شيءٍ مِن أمور الدِّين والدُّنيا، فإنَّه لا يأمرُهم ولا يرضى منهم إلَّا بما فيه صلاحُهم وفلاحُهم، بخلاف أنفسِهم، فيجب أن يكونَ أحبَّ إليهم من أنفسِهم، وأمرُه أنفذَ عليهم مِن أمرِها، وشفقتُهم عليه أتمَّ وأقدَمَ من شفقتِهم عليها، وحقُّه آثرَ لديهم مِن حقوقِها، وأنْ يبذلُوها دونَه، وأنْ يتَّبعوا[1] كلَّ ما دعاهم إليه وصرفَهم عنه.

روي أنَّه عليه السلام أرادَ غزوةَ تبوك، فأمرَ النَّاسَ بالخروج، فقالَ ناسٌ: نستأذِنُ آباءَنا وأمَّهاتِنا، فنزلَتْ[2].

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (النَّبيُّ أولى بالمؤمنين مِن أنفسِهم وهو أبٌ لهم)[3]؛ أي: في الدِّين.

---

(١) في (ف): «سبقوا»، وفي (ك): «يسبقوا»، وفي (ي) و(ع): «ينبغوا».

(٢) انظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٣٧٣)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٩٥)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٢٥). قال ابن العربي: موضوع.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٥)، ورويت عن أبي بن كعب رضي الله عنه في «تفسير =

وقال مجاهد: كلُّ نبيٍّ فهو أبو أمَّته[1]. من حيث إنَّه أصلٌ فيما به الحياة الأبديَّة، ولذلك صار المؤمنون إخوة.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ كنايةٌ عن التَّحريم خاصَّة ـ ولذلك قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: لسنا أمَّهات النِّساء[2] ـ لا عنه وعن استحقاق التَّعظيم؛ إذ حينئذٍ يَنتظِم النِّساء، ويردُّه الأثرُ المذكور.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾: وذوو[3] القَرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التَّوارُثِ، وهو نسخُ ما كان في صدرِ الإسلام مِن التَّوارثِ بالموالاة في الدِّين وبالهجرة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في اللَّوح، أو: فيما أوحي إلى النَّبيِّ عليه السلام، وهو في هذه الآية، أو آية المواريث، أو فيما فرضَ الله تعالى.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانٌ لـ(أولي الأرحامِ)، وتخصيصُ المهاجرين بالذِّكرِ بعدَ التَّعميمِ لدفعِ ما عسى أنْ يسبقَ إلى الوهم من عدمِ تناول الحكم لهم لِمَا فيهم مِن فضيلة الهجرة.

أو صلة لـ(أولي)؛ أي: وأولو الأرحام لحقِّ القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحقِّ الولاية في الدِّين، ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة.

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ العام من معنى

= عبد الرزاق» (٢/ ٢١١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في «المستدرك» (٣٥٥٦).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٦٥ و٦٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٧٠).

(٣) في (ف) و(م): (وذو).

النَّفع والإحسان. وانتصاب ﴿أَن تَفۡعَلُوٓاْ﴾ على الظَّرف؛ أي: إلَّا وقتَ أنْ تفعلوا، وعدِّي بـ (إلى) لأنَّه في معنى: أنْ تُسْدوا[1].

والمرادُ بفعلِ المعروفِ: التَّوصيةُ، وبالأولياءِ: المؤمنون والمهاجرون؛ لِمَا بينهم مِن الولاية في الدِّين؛ أي: الأقرباءُ بعضُهم أولى ببعضٍ مِن الأجانب في كلِّ نفعٍ مِن ميراثٍ وهديَّةٍ وهبةٍ وصدقةٍ ومعاونةٍ وغيرِ ذلك، إلَّا في التوصيَّة[2].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ في الآيتَيْن جميعاً ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ، أو في القرآنِ، وقيل: في التَّوراةِ.

﴿مَسۡطُورٗا﴾ مثبَتاً، أو مذكوراً.

* * *

(٧) ـ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾ مقدَّر بـ (اذكرْ) ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾: عهودَهم بتبليغِ الرِّسالة والدَّعوة إلى الدِّين القيِّم.

﴿وَمِنكَ﴾ خصوصاً ﴿وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ تخصيصٌ للمشاهير وأصحاب الشَّرائع مِن الأنبياء عليه السلام بالذِّكرِ؛ لبيانِ شرفِهم وفضيلتِهم، ولذلك قدَّمَ محمَّداً[3] عليه السلام على الجميع لكونه أفضلَهم، وإنَّما قدَّم عليه نوحاً في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ

---

(١) في (ف) و(م): «أن سدوا»، وفي (ك): «أسدوا»، وبالهامش: «الإسداء: الإحسان».

(٢) في (ك): «الوصية».

(٣) في (ف) و(م): «محمد».

إِلَيْكَ ﴾ [الشورى: ١٣] لأنَّ الغرضَ مِن مساقِ الكلام ثمَّةَ بيانُ أصالةِ الدِّين وقِدَمِهِ واستقامَتِهِ، فكأنَّه قالَ: شرعَ لكم الدِّين الأصيل القديم الذي وصَّينا به نوحاً في العهد القديم، والذي أوحينا إليك في العهد الحديث، ووصَّينا به مَن توسَّط بينهما من الأنبياء المشاهير، فهو دينٌ أصيلٌ قديمٌ، اتَّفق عليه وعلى إقامته[١] الأنبياءُ كلُّهم ولم يتفرَّقوا فيه.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ تكريرٌ للتَّوكيد، وزيادةُ وصفٍ للميثاقِ بالعِظَمِ وفخامةِ الشَّأنِ، ولذلك نكَّره وغلَّظه؛ أي: ميثاقاً موثَّقاً بالأيمان الغِلاظ.

وسمَّاه ﴿مِّيثَٰقًا﴾ لا عهداً دلالةً على توثيقه باليمين.

والغِلظُ استعارةٌ مِن وصف الأجرام لتصوير معنى القوَّة والوثاقة في الحسِّ.

* * *

(٨) ـ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾ تعليلٌ لـ ﴿أَخَذْنَا﴾؛ أي: أخذنا ميثاقَهم ليسألَ اللهُ تعالى يوم القيامة عندَ مواقفِ الأشهادِ المؤمنين الذين صدقوا عهدَهم حينَ أشهدَهم على أنفسهم عن صِدق عهدهم، أو[٢] الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عمَّا قالوه لقومِهم، أو تصديقهم إيَّاهم تبكيتاً لهم، أو المصدِّقين لهم عن[٣] تصديقهم، فإنَّ مصدِّقَ الصَّادق صادقٌ.

---

(١) في (ف): «اتفق عليه إقامة».

(٢) في (ف) و(ك): «و».

(٣) تحرفت في (ف) و(ك) و(م) إلى: «عند».

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على ﴿أَخَذْنَا﴾؛ لأنَّ المعنى: أكَّدَ على الأنبياء الدَّعوةَ إلى دينه لإثابة المؤمنين وأعدَّ للكافرين، أو على ما دلَّ عليه لـ ﴿لِيَسْأَلَ﴾؛ أي: فأثابَ المؤمنين، وأعدَّ للكافرين.

* * *

(٩) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب، وهم قريشٌ وغطفانُ ويهودُ قريظةَ والنَّضيرِ، وكانوا زُهاءَ اثني عَشَرَ ألفاً.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ هي الصَّبا، قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بِالدَّبُورِ»[(١)].

﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هي الملائكةُ، رُوِيَ أنَّه عليه السلام لَمَّا سمع بإقبالهم ضربَ الخندقَ على المدينةِ، ثمَّ خرج إليهم في ثلاثةِ آلافٍ، فضرب مُعَسكره[(٢)] والخندقُ بينَه وبينَ القومِ، ومضى على الفريقَيْن قريبٌ مِن شهرٍ لا حربَ بينَهم إلَّا التَّراميَ بالنَّبْلِ والحجارةِ، حتى بعثَ اللهُ تعالى عليهم صباً باردةً في ليلةٍ شاتيةٍ، فأَخصرتهم[(٣)] وسفَتِ التُّراب في وجوهِهم، وأطفأَتْ نيرانَهم، وقلعَتْ خيامَهم، وماجَت الخيلُ بعضُها في بعضٍ، وقُذِفَ في قلوبِهم الرُّعْبُ، وكَبَّرَتِ

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ف) و(ك): «بعسكره».

(٣) أي: أوقعتهم في الخَصَر؛ وهو البرد، في «الصحاح» (مادة: خصر): الخصَر بالتحريك: البرد، وقد خَصِرَ الرجل: إذا آلمه البرد في أطرافه.

الملائكةُ في جوانب العسكرِ، فقال طليحةُ بن خويلد الأسدي: أمَّا محمَّدٌ فقد بدأكُمْ بالسِّحرِ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ، فانهزموا مِن غيرِ قتالٍ[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: مِن ضَرْبِ الخندقِ وغيرِه ﴿بَصِيرًا﴾.

وقرئ بالياء[2]؛ أي: بما يعملُ المشركون واليهودُ مِن التَّحزُّبِ والتَّضام[3].

* * *

(١٠) - ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ مِن ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: مِن أعلى الوادي مِن قِبَلِ المشرقِ بنو غَطفان.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ أي: مِن أسفل[4] الوادي مِن قِبلِ المغربِ[5] قريشٌ.

لم يقل: ومن تحتكم، مع ما فيه من رعاية المقابلة والاختصار؛ إظهاراً لِمَا في مقابلِه مِن التَّجوُّز، وإنَّما اختير ذلك لأنَّه أحسنُ لفظاً ومعنًى من: أعلى منكم[6].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: مالَتْ عن مُستوى نظرها حيرةً وشخوصاً.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٣٧٩).

(٢) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٧).

(٣) في (ف): «الخير والتضار»، وفي (م): «من الحرب والتصام»، وفي (ك): «الحربِ والتَّرامي».

(٤) «من أسفل» سقط من (ك).

(٥) في (ك): «الغرب».

(٦) في (ع): «ومن أعلى منكم»، وسقطت من (ف) و(ك).

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ رُعباً، فإنَّ الرِّئةَ تنتفخُ عندَ شدَّة الخوف، فتربو ويرتفع القلبُ بارتفاعها.

بلوغُ القلبِ الحنجرة مثلٌ في شدَّة الخفقانِ واضطرابِ القلبِ؛ فإنَّ صاحبَ الخفقانِ الشَّديدِ يتوهَّمُ مِن شدَّةِ انتفاخ الرِّئةِ أنَّ قلبَه بلغَ الحنجرةَ، وهي رأسُ قصبة الرِّئة، وهي مخرج النَّفَسِ.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾: الظُّنونَ المختلفةَ، والخطابُ[1] للمؤمنين، فمنهم الأقوياء الثُّبَّتُ الأقدام، يظنُّون الابتلاءَ مِن الله تعالى وإنجازَ وعدِه بالنَّصر، ومنهم مَن يخافُ الزَّللَ وضعفَ الاحتمال، ومنهم الضِّعافُ[2] الذين يشكُّون في أمرِهم ويستأذنون، والمنافقون ـ على ما حكى الله تعالى عنهم ـ يظنُّون أنَّ المسلِمينَ يُستأصَلونَ.

***

(١١) ـ ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: اختُبِروا ليتميَّزَ المخلِصُ مِن المنافقِ والثَّابتُ مِن المتزلزِلِ.

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾: وأُزْعِجوا أشدَّ إزعاجٍ[3] مِن شِدَّة الفَزَعِ، فالزِّلزالُ: الاضطرابُ العظيمُ.

***

---

(١) في (ك): «الخطاب».

(٢) في (ف): «الضعفاء».

(٣) في (ف): «إزعاجاً»، وفي (ك): «انزعاج».

(١٢) ـ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾: ضعفُ اعتقادٍ.

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾: وعداً باطلاً، أرادوا به ما وعدَهُ اللهُ تعالى مِن إعلاءِ الدِّين والظَّفَرِ على المشركين.

***

(١٣) ـ ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ هم(١) أوسُ بنُ قَيْظيٍّ ومَن وافقَهُ.

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: اسم المدينة، وقيل: اسم أرضٍ وقعَتِ المدينةُ في ناحيةٍ منها.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾: لا مَوضِعَ قيامٍ لكم هاهنا.

وقرئ بالضَّم(٢) على أنَّه مكانٌ أو مصدرٌ مِن أقام.

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى المدينة، وانخزِلُوا(٣) عن معسكرِ الرَّسولِ إلى منازلِكم.

وقيل: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالمدينةِ أنْ نقيمَ على دينِ محمَّدٍ، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ كفَّاراً مشركين، وأسلِموا محمَّداً حتى يمكنكم المقام بها.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ للرُّجوعِ.

---

(١) في (م): «هو».

(٢) أي: بضم الميم، وهي قراءة حفص، وقرأ باقي السبعة بفتحها. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٨).

(٣) في (ف): «وانخربوا».

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ بسكون الواو وبكسرها[1]، فالعَوْرَةُ بالسُّكون: الخللُ، مبالغةً في وصفِها بالعَوَرِ، كأنَّ أنفسَها عورة، وبالكسرِ: ذاتُ العَوَرِ؛ يقال: عَوِرَ المكانُ عَوَراً: إذا بدا فيه خَللٌ يُخافُ منه العدوُّ والسَّارق، ويجوز أن يكون (عَوْرَة) مخفَّف (عَوِرة).

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينةٌ.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: وما يريدون بذلك إلا الفِرار مِن القِتالِ.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾: دُخِلَتِ المدينةُ أو بيوتُهم.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: من جوانبِها، وحذف الفاعل للإيماءِ بأنَّ دخولَ هؤلاء المتحزِّبين عليهم، ودخولَ غيرهم من العساكر، سيَّانِ في اقتضاء الحكم المترتِّبِ عليه.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾: الرِّدَّةَ ومقاتلةَ المسلمين.

﴿لَآتَوْهَا﴾: لأَعْطَوها؛ وقرئ بالقصر[2]؛ أي: لجاؤوها وفعلوها.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾؛ أي: بالفتنة، أو: بإعطائها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السُّؤال والجواب مِن غير توقُّف.

(١) بالسكون قراءة الجمهور، ونسبت قراءة الكسر لابن عباس وغيره. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٨).

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٨).

أو: بالمدينة؛ أي: ما لبثوا بها بعدَ الارتداد إلَّا زماناً يسيراً، أو لبثاً يسيراً؛ لأنَّ اللهَ تعالى يهلكُهم ويستأصلُهم.

***

(١٥) ـ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: عاهدوا رسولَ اللهِ عليه السلام ليلةَ العقبةِ أن يمنعوه ممَّا يمنعون منه أنفسهم[(١)].

وقيل: قوم غابوا عن بدرٍ، فقالوا: لَئِنْ أشهدَنا اللهُ قتالاً لنقاتِلن[(٢)].

وعن محمَّدِ بنِ إسحاقَ هم بنو حارثةَ، عاهدوا يومَ أُحُدٍ رسولَ اللهِ عليه السلام حينَ فَشِلُوا، ثمَّ تابوا أنْ لا يفرُّوا[(٣)] بعدَ أنْ نزلَ فيهم ما نزلَ.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ عن الوفاءِ به، مجازًى عليه؛ أي: شأنه[(٤)] ذلك.

***

(١٦) ـ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ نفعاً تامًّا في دفعِ الأمرَيْن

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٢٨). وذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٦٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٥١٧) عن مقاتل والكلبي. قال السمعاني والبغوي: وهذ القول ليس بمرضيٍّ؛ لأن الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة لم يكن فيهم شاك ولا من يقول هذا القول.

(٢) في (م): «لنقابل»، وفي باقي النسخ: «لنقاتل»، والمثبت من «الكشاف» (٨/ ٥٢٨).

(٣) في(ك): «يعيدوا»، وفي (م): «يغزوا»، وفي (ف): «يعدوا».

(٤) في (ف) و(م): «أن شأنه».

المذكورَيْـن بالكليَّـة؛ إذْ لا بُـدَّ لـكلِّ شـخصٍ مِـن حَتْفِ أنـفٍ أو قتلٍ فـي وقتٍ، لا لأنـه سبق به القضـاء لأنَّـه تابـع للمقضيِّ(١) فـلا يكـون باعثاً لـه، بل لأنَّـه مقتضى ترتُّب الأسـباب والمسـبَّبات بحسـب العـادة على مقتضـى الحكمة، فـلا دلالة فيه علـى أنَّ الفِـرارَ لا يغنـي شـيئاً حتـى يُشْـكِلَ هـذا بالنَّهـي الواقـع فـي الكتـاب عن إلقـاءِ النَّفـسِ بالتَّهلُكـة وبالأمـرِ الواقِـع في السُّـنَّةِ بالفرار عـن المضـارِّ، كيف وقد دلَّ(٢) قولُه:

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ علـى أنَّ فـي الفرارِ نفعـاً(٣) في الجملـةِ؛ إذِ المعنى: لا تمتَّعـون علـى تقديرِ الفـرار إلَّا مَتاعـاً قليلاً أو زمانـاً قليلاً(٤).

وعن بعض المروانيَّة: أنَّه مرَّ بحائط مائل فأسرع، فتليت له هذه الآية، فقال: ذلك القليلَ نطلب(٥).

* * *

(١٧) ـ ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: ممَّـا أرادَ اللهُ إنزالَـه بكـم ﴿اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

---

(١) في هامش (ف) و(ي): «لأنه تابع للإرادة التابعة للعلم التابع للمعلوم وهو المقتضى. منه».

(٢) في (م) زيادة: «في».

(٣) في (ع) و(ي): «نفع»، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٢٤). وقد عزاه الآلوسي لبعض الأجلة، وبينما أطال الشهاب في تعقبه، اقتصر الآلوسي على القول: (وفيه ما فيه، فتأمل).

(٥) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٢٩). وسماه ابن عبد ربه في «العقد» (٣/ ١٥٢): الوليد بن عبد الملك.

سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ العصمةُ: هي المحافظةُ من السُّوء فلا يكون مِن الرَّحمةِ، فاقترانُها بالسُّوء في حكمِ العصمة على طريقة عطف عاملٍ حُذِفَ وبقي معمولُه على عاملٍ آخر يجمعُهما معنًى واحدٌ اختصاراً؛ أي: أو يصيبكم بسوءٍ إنْ أرادَ بكم رحمةً.

ويجوز أن تكون الرَّحمةُ قرينةَ السُّوء في العِصمةِ؛ لأنَّها في معنى المنعِ، كما كان الرُّمحُ قرينَ السيَّفِ في قولِه:

متقلِّداً سيفاً ورمحاً[1]

في التَّقلُّدِ؛ لأنَّه في معنى الحملِ فلا يحتاجُ إلى تقديرِ: ومعتقِلاً[2].

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ ينفعُهم ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ يدفعُ الضَّررَ عنهم.

* * *

(١٨) - ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿قَدۡ﴾ هنا للتَّحقيق، وإنْ دخلَ على المضارع.

﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾: المثبِّطينَ النَّاسَ عن الرَّسول عليه السلام، وهم المنافقون.

﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ مِن ساكني المدينةِ:

﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَا﴾ قد سبقَ تفسيرُه في سورة الأنعام.

---

(١) عجز بيت لعبد الله بن الزبعرى، وهو في ديوانه (ص: ٣٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٦٨)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣١)، وغيرها، وصدره:

يا ليت زوجك قد غدا

(٢) في (م) و(ك): «ومقتولاً»، وفي هامش (ك): «ومعتقلًا».

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إتياناً قليلاً، أو: زماناً قليلاً، أو: ناساً قليلاً؛ أي: يخرجون معكم يوهمون المؤمنين أنَّهم معهم ولايقاتلون إلَّا قتالاً قليلاً إذا اضطروا إليه، لقوله: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠][(١)].

***

(١٩) - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بخلاءَ عليكُم[(٢)] وقتَ الأمنِ، أو بالمعاونة، أو النَّفقةِ في سبيلِ اللهِ، أو[(٣)] الغنيمةِ عندَ الظَّفرِ.

جمعُ شحيحٍ، نصب على الحال مِن فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾، أو ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾، أو ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾، أو على الذَّمِّ.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾؛ أي: وقت الحرب ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ لواذاً بك ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في موضعِ الحالِ؛ أي: دائرة أعينهم. والكاف في:

---

(١) قوله: «أو ناسا قليلا أي يخرجون معكم يوهمون المؤمنين أنهم معهم ولايقاتلون إلا قتالا قليلا» سقط من (ي)، وقوله: «أو ناسا قليلا» سقط من (ع)، والعبارة كلها سقطت من (ف) و(ك)، والمثبت من (م).

وفي (ي): «أو زماناً قليلا إذا اضطروا إليه لقوله وما قاتلوا إلا قليلا».

وفي (ع): «أو زماناً قليلا أي يخرجون معكم يوهنون المؤمنون أنهم معهم ولايقاتلون إلا قتالا قليلا إذا اضطروا إليه لقوله وما قاتلوا إلا قليلا».

(٢) «عليكم» ليست في (ف) و(ك).

(٣) في (ف): «و».

﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ﴾ في موضع النَّصب على المصدر: إما مِن ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: نظراً مثلَ نظر الذي يُغشَى عليه، أو مِن ﴿تَدُورُ﴾؛ أي: دوراناً مثلَ دوران عَيْنِ الذي يُغشَى عليه.

﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾: مِن شِدَّةِ سكراتِ الموتِ خوفاً أو جُبْناً[1].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾: ضربوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: ذَربةٍ يطلبون الغنيمة، بعدَ أنْ كانَتْ حصرةً بالخوف.

قال قُطْرُب: سلقْتُ المرءَ وصلقْتُ؛ أي: صحْتُ به، وأصلُه: رفعُ الصَّوتِ.

قال عليه السلام: «ليس منَّا مَنْ حَلَقَ أو سَلَقَ»[2]؛ أي: حلَقَ شعرَه عند المصيبة، أو رفع صوته بالنِّياحة.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ حالٌ من ضمير ﴿سَلَقُوكُم﴾، أو نصب على الذَّمِّ، ويؤيِّده مَن قرأه بالرَّفع[3]، وليس بتكريرٍ؛ لأنَّ كلًّا منهما يفيد فائدةً أخرى.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ إخلاصاً والفاء في: ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ للسَّببيَّة؛ أي: أبطلَ اللهُ تعالى ما عملوه مِن أعمالِ البِرِّ بسبب نفاقِهم وعدم إيمانهم حقيقة، فإنَّه شرطُ صحَّة العبادة وقَبولها.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: هيِّناً؛ لتعلُّق إرادته مِن غيرِ مانعٍ يمنعُه.

* * *

---

(١) في (ف): «خوفاً وحسًّا»، وفي (م): «خوفاً وجئنا».

(٢) روى نحوه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٧٦)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٢٩٩).

(٢٠) ـ ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ ﴾ مِن شدَّة الجبنِ والخوفِ، ففرُّوا إلى المدينة وقد انهزمَ الأحزابُ، وهم مِن استيلاءِ الفَزَعِ عليهم لا يصدِّقونَ بذلك.

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ كرَّةً أخرى ﴿ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ تمنَّوا أنَّهم خارجون إلى البدوِ بينَ[1] الأعرابِ ﴿ يَسْـَٔلُونَ ﴾ كلَّ قادمٍ مِن جانبِ المدينةِ ﴿ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ وما جرى عليكم.

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم ﴾ هذه الكرَّة، ولم يفرُّوا إلى المدينةِ، ووقع قتالٌ ﴿ مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: إلَّا قتالاً قليلاً؛ رياءً وخوفاً مِن التعيير.

* * *

(٢١) ـ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ ﴾: خصلةٌ ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ يجبُ أنْ يُؤتَسى به، وهي المصابرة على الجهاد، والثَّبات في المحاربة، ومقاساة الشَّدائدِ.

والأولى بفصاحة القرآن أن تكون ﴿ فِى ﴾ [في][2] قوله: ﴿ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ للتَّجريد؛ أي: لقد كان لكم رسولُ الله بنفسِه أُسوةٌ حسنةٌ؛ أي: هو قدوةٌ يجبُ أنْ يُقتدَى به، كما تقولُ: لي من فلان صديقٌ صادقٌ، ومعناه: المبالغةُ في الصَّداقة؛ كأنَّ فيه مِن كمال صداقتِه صديقٌ آخرُ.

---

(١) في (ف) و(م): «إلى البدويين»، وفي (ي): «إلى المدينة».

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ يرجو ثوابَ اللهِ، أو لقاءَه والعاقبةَ المحمودةَ، وهي نعيمُ الآخرة، أو أيَّام اللهِ واليومَ الآخر خصوصاً.

ويجوزُ أن يكون ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ مِن باب التَّوطئةِ، كما تقولُ: رجوْتُ زيداً وفضلَه[1]؛ أي: فضلَ زيدٍ.

والرَّجاءُ هاهنا يجوز أن يكون بمعنى الأمل، وبمعنى الخوف.

و﴿لِّمَن كَانَ﴾ صفةٌ لـ ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو صفةٌ لـ ﴿أُسْوَةٌ﴾، وقيل: بدلٌ من ﴿لَكُمْ﴾، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، والأكثر على[2] أنَّ ضميرَ المخاطَب لا يُبدَلُ منه.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قرنَ الرَّجاءَ بالذِّكرِ الكثيرِ المؤدِّي إلى ملازمةِ الطَّاعةِ؛ لئلَّا يكون رجاؤه طَمعاً فارغاً؛ فإنَّ المقتديَ برسول الله ﷺ مَن كانَ كذلك.

* * *

(٢٢) - ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأنَّهم وُعِدوا أنْ يُزَلْزَلوا[3] حتى يستغيثوا ويستنصِروه في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، وفي قوله عليه السلام: «سيشتدُّ[4] الأمرُ باجتماعِ الأحزابِ عليكم، والعاقبةُ لكم

---

(١) في (ف): «فضله»، والمثبت من باقي النسخ و«الكشاف» (٣/ ٥٢٩).

(٢) «على» سقط من (م).

(٣) في (ك) و(م): «ينزلوا»، وفي (ف): «يتنزَّلوا».

(٤) في (ك) و(م): «سيشتد»، وفي (ف): «يستشهد».

عليهم»[1]، وقوله عليه السلام: «إن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع أو عشر» ـ أي: في آخرِ تسعِ ليالٍ أو عشرٍ ـ فلمَّا رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك[2].

و﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى الخَطْبِ أو البلاءِ، إيماناً بالله وبوعدِه، وتسليماً لقضائه وقدرِه.

وإظهارُ الاسمَيْن في قولِه: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ للتَّعظيمِ؛ أي: ظهرَ صِدْق خبرهما، أو صَدَقا في النَّصر والثَّواب كما صَدَقا في البلاء.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ضمير الفاعل فيه لِمَا رأوا، أو لِلمُشَارِ إليه بـ﴿ هَٰذَا ﴾ مِنَ الخَطْبِ أو البلاء.

﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ باللهِ ومواعيدِه ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامرِه وتقاديرِه.

***

(٢٣) ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ التَّنكير للتَّفخيم.

﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾؛ أي: صَدَقوا فيما عاهدوا عليه من الثَّبات مع الرَّسول، والمصابرة على قِتالِ أعداءِ الدِّين، فحذف الجارّ كما في المثل: صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه[3]؛ أي: صَدَقَني في سِنِّ بَكْرِه.

---

(١) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٩)، ولم يتكلم عليه المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٢٨).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده. انظر: «الكاف الشاف» (ص: ١٣٣).

(٣) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٤٩)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٥٧٥)، و«فصل =

نذرَ رجالٌ مِن الصَّحابة رضي الله عنهم أنَّهم إذا لَقُوا حرباً مع رسولِ الله ﷺ ثَبتوا وقاتلوا حتى يُستَشهَدوا، وهم عثمانُ بنُ عفَّانَ، وطلحة، وسعدُ بنُ زيدٍ، وحمزةُ، ومصعبٌ، وغيرُهم رضي الله عنهم(١).

ويجوز أنْ يُجعَلَ المعاهَدَ عليه مَصدوقاً على المجازِ، كأنَّهم قالوا له: سنفي بك، فإذا وفَوا به فقد صَدَقوه، مِن قولِكَ: صَدَقني أخوك: إذا قالَ لكَ الصِّدقَ.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: نَذْرَهُ(٢) بأنْ قاتلَ حتَّى استُشْهِد كحمزةَ ومصعبٍ وأنسٍ رضي الله عنهم.

قيل: والنَّحْبُ استعارةٌ للموتِ؛ فإنَّ الموتَ لازمٌ لكلِّ حيوان، فكأنَّه نَذْرٌ لازمٌ في رقبتِهِ، فإذا ماتَ قضى نحبَه.

كأنَّ هذا القائلَ غافلٌ عن النَّذرِ المذكور في سببِ النُّزولِ؛ لأنَّ مُوجَبه أنْ يكونَ النَّحْبُ على حقيقتِه، وقضاء نذرِهم(٣) يجوز أنْ يكونَ كنايةً عن شهادتِهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ كعثمانَ وطلحةَ رضي الله عنهما.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهدَ، ولا غَيَّروه، لا المستشهَدُ ولا مَنِ انتظرَ الشَّهادة.

= المقال» للبكري (ص: ٤١). وقوله: (سنّ) يجوز فيه الرفع والنصب، فالنصب على المعنى الذي ذكره المصنف، والرفع بجعل الصدق للسنّ توسعاً. وأصل المثل يدلُّ عليه. انظر: «القاموس» (مادة: بكر).

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٣٢). وقد ثبت في السنة أنها نزلت في أنس بن النضر، وقد نذر كما نذر الصحابة المذكورون، رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «نذره» زيادة من (م) و(ي) و(ع).

(٣) في (ف): «وقضائه».

ولقدْ ثبَتَ طلحةُ مع رسولِ اللهِ ﷺ يومَ أُحدٍ حتَّى أصيبَتْ يدُه، فقال رسول الله ﷺ: «أوجَبَ طلحةُ»[1]؛ أي: الجنَّة.

﴿تَبْدِيلًا﴾: شيئاً مِن التَّبديل، تعريضاً لِمَن بَدَّلَ مِن أهلِ النِّفاقِ وتبديلِهم، ولذلك قال:

***

(٢٤) ـ ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تعليلاً للمَنطوقِ، والمعرَّضُ به جَعْلُ المنافقين كأنَّهم قَصدوا بالتَّبديل عاقبةَ السُّوءِ كما قصدَ الصَّادقون بوفائِهم عاقبةَ الصِّدقِ، فاللَّامُ مجازٌ للعاقبةِ، فإنَّها وإنْ أمكنَ حملُها على الحقيقة بالنِّسبة إلى الصَّادقين، لكنْ لا يمكِنُ حملُها عليها بالنِّسبة إلى المنافقين؛ لأنَّ التَّعذيب لم يكن غرضاً لهم، ولا يُستعمل اللَّفظُ الواحدُ حقيقةً ومجازاً في استعمالٍ واحدٍ، فيجبُ حملُها على المجازِ؛ لأنَّ كِلَا الفريقَيْنِ مَسوقٌ إلى عاقبتِه[2] مِن الثَّواب والعقاب.

﴿إِن شَآءَ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا، ويجوزُ أنْ يُرادَ: يعذِّبُهم إنْ شاءَ أو يوفِّقُهم للتَّوبةِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٣٨) من حديث الزبير رضي الله عنه قال: كان على رسول الله ﷺ يوم أحد درعان فنهض إلى صخرة، فلم يستطع فأقعد تحته طلحة، فصعد النبي ﷺ حتى استوى على الصخرة، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أوجب طلحة»». قال: حسن صحيح غريب.

(٢) في (ك): «عاقبة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبولِ التَّوبةِ ﴿رَّحِيمًا﴾ يغفرُ الحَوْبَةَ[١].

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: الأحزاب.

﴿بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ﴾ حالان متداخلان أو متعاقبان[٢]؛ أي: متغيِّظينَ[٣] غيرَ ظافرين، ويجوز أنْ تكونَ الثَّانيةُ بياناً للأولى، واستئنافاً[٤].

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ بالرِّيحِ والملائكةِ، و﴿وَكَفَى﴾ هنا بمعنى: وقى، يتعدَّى لاثنين، وإذا كانَتْ بمعنى (حسب) فالأكثر في لسان العرب أن يكون الفاعلُ مصحوباً بالباء نحو: كفى بالله.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداثِ ما يريدُه ﴿عَزِيزًا﴾: غالباً على كلِّ شيءٍ.

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾: ظاهَروا الأحزاب[٥] ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: قريظة.

---

(١) في (م): «يعفو الحوبة»، وفي (ي): «بعفو الحوبة»، وفي (ع): «يعف الحوبة».

(٢) في (ع): «متداخلتان أو متعاقبتان»، وفي (ف) و(ي): «متداخلتان أو متعاقبان».

(٣) في (ف) و(م) و(ع): «مغيظين»، وفي (ي): «يغظين».

(٤) في (ف) و(ك): «أو استئنافا».

(٥) في (ف): «هم الأحزاب».

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: مِن حصونِهم، جمع صِيصِيَة، وهي ما يُتحصَّنُ به مِن حصنٍ وغيره.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: الفزعَ والخوفَ.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ إنَّما أخَّره عن قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾ وغيَّر النَّظمَ للدِّلالة على أنَّ الكلَّ منحصِرٌ في الفريقَيْن.

قيل: كان بنو قريظة ذمَّة[1] رسول الله ﷺ، فنقضوا العهدَ باستدعاءِ أبي سفيانَ، وجاؤوا لمحاربة المسلمين، فلمَّا فرغَ رسولُ الله ﷺ من قريشٍ، ودخل الحُجْرَةَ، ووضع[2] السِّلاح، سمعَ وجبة على باب الحجرة، فنظرَ فإذا هي جبريلُ عليه السلام على فرسٍ أبلقَ وعلى ثيابه[3] النَّقع، فقال: يا رسول الله، وضعت السِّلاح ونحنُ ما وضعنا أسلحتنا بعدُ! إنَّ الله تعالى يأمرُكَ أنْ لا تصلِّيَ العصر إلَّا ببني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ بذلك[4] في المسلمين، فخرجوا إليه، ولحقَ بهم رسولُ الله ﷺ، وحاصرَهم أحداً وعشرين يوماً، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم بأنْ يُقتَلَ مقاتليهم ويُسبَى ذراريهم ونساؤهم، وتُغنم أموالُهم، فقال عليه السلام: «لقد حكمْتَ بحكمِ اللهِ تعالى فيهم»، ففعل ذلك، ومَنَّ اللهُ تعالى على المسلمين بذلك[5].

---

(١) في (ك): «في ذمة».

(٢) في (ي): «فوضع».

(٣) في (ك): «ثناياه».

(٤) في (ك) و(م): «لذلك».

(٥) انظر القصة بتمامها في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٥)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٧٢). =

(٢٧) ـ ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾: مزارعَهم ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ ﴾: حصونَهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾: نقودَهم ومواشيهم وأثاثهم؛ أي: جعلَها لكم بعدَهم.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾؛ أي: لم تصيروا إليها بعدُ قاصدين قتالَ أهلِها، وهذا وعدٌ لهم بإحراز أرضٍ أخرى، قيل: هي أرض فارس والرُّوم، وقيل: هي مكَّة، وقيل: هي خيبر وفَدَك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيقدِرُ على ذلك.

* * *

(٢٨) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ ذِكْرُ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ توطئةٌ وتمهيدٌ[1] للاختصاص؛ أي: إنْ كنتُنَّ تردْنَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا، وكذا ذِكْرُ ﴿ٱللَّهَ ﴾ في ﴿تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فإنَّه لاختصاص الرَّسولِ به.

= وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٢٤٩٩٢): عن عائشة، أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب، دخل المغتسل ليغتسل، فجاء جبريل عليه السلام، فقال: أوقد وضعتم السلاح، ما وضعنا أسلحتنا بعد، انهد إلى بني قريظة.

وقول النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» رواه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما. ونزول قريظة على حكم سعد رضي الله عنه وما جاء بعده رواه البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) في (ف) و(ي) و(ع): «وتمهيداً».

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصل تعالَ: أنْ يقولَه مَن في المكان المرتفع العالي لمن في المكان المستوطي، ثمَّ كثرَ حتى استوَتْ في استعماله الأمكنة.

ومعنى (تعالَيْنَ) هنا: أقبلْنَ بإرادتِكُنَّ واختيارِكُنَّ لأحَدِ أمرَيْنِ، ولم يُرِدْ نهوضهُنَّ إليه بأنفسهِنَّ، كقولِكَ: قامَ يهدِّدني.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: أُعْطِكُنَّ[1] متعةَ الطَّلاقَ.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ التَّسريحُ كنايةٌ عن رفعِ النِّكاحِ، وذلك بوقوعِ البينونةِ.

﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: لا ضِرارَ فيه، أردْنَ شيئاً مِن الدُّنيا مِن ثيابٍ وزيادةِ نفقةٍ، وتغايرْنَ، فغمَّ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فنزلَتْ، فبدأ بعائشةَ رضي الله عنها، وكانت أحبَّهُنَّ إليه فخيَّرها، وقرأ عليها القرآنَ، فاختارَتِ اللهَ ورسولَه والدَّار الآخرة، فرُئِيَ الفرحُ في وجهِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ اختارَتْ جميعُهنَّ اختيارَها[2]، فشكرَ لهنَّ اللهُ فأنزلَ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢][3].

وتعليقُ التَّسريحِ بإرادتهنَّ زينةَ الدُّنيا وجعلُها قسيمةَ إرادتهنَّ[4] الرَّسولَ دليلٌ على أنَّها إذا اختارَتْ زوجَها لا تقعُ البينونة، وأمَّا أنَّه لا يقع الطَّلاق أصلاً فلا دلالة فيما ذُكِرَ عليه؛ لِمَا نبَّهتُ عليه آنفاً أنَّ التَّسريحَ ينبئ عن البينونةِ.

---

(١) في (ف) و(م): «أعطيكن».

(٢) رواه بنحوه رواه البخاري (٤٧٨٥) ومعلقا بصيغة الجزم (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٥)، والترمذي (٣٢٠٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨٦ ـ ٨٧) عن قتادة والحسن. ورواه بنحوه دون عبارة: «فشكر...» البخاري (٤٧٨٥) ـ ومعلقاً بصيغة الجزم (٤٧٨٦) ـ، ومسلم (١٤٧٥)، والترمذي (٣٢٠٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) في (م): «لإرادتهن».

وتقديمُ التَّمتيع على التَّسريح المسبَّبِ عنه مِن الكرمِ وحُسْنِ الخلقِ.

وقرئ: (أمتعُكُنَّ وأسرحكُنَّ) بالرَّفعِ على الاستئنافِ[1].

***

(٢٩) - ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ تنكيرُ ﴿أَجْرًا﴾ للتَّعظيم؛ أي: أجراً عظيماً يُسْتَحقَرُ دونَه الدُّنيا وزينتُها، و(من) للتَّبيينِ لأنَّهنَّ كلَّهنَّ محصناتٌ، وإنَّما عدل فيه عن مقتضى الظَّاهر للدِّلالة على سببِ استحقاقِهنَّ لأصلِ الأجرِ، وللمزيَّةِ فيه على سائرِ المحصناتِ.

***

(٣٠) - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾: سيئةٍ بليغةٍ في القُبْحِ.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: ظاهرٍ[2] فُحشُها، مِن بيَّن بمعنى: تبيَّن.

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضِعْفَي عذابِ غيرهنَّ مِن النِّساء؛ أي: مثلَيْه؛ لأنَّ ما قَبُحَ مِن سائرِ النِّساء كانَ أقبحَ منهنَّ، فزيادةُ قبحِ المعصية يتبعُ زيادةَ فضلِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩).

(٢) في (ك) و(ي) و(ع) و(م): «ظاهرة».

العاصي، وزيادةُ العقابِ تتبعُ زيادةَ قبحِ المعصية، ولذا فضل[١] حدُّ الأحرارِ على العبيدِ، ولا يرجم[٢] الكافرُ، وعُوتِبَ الأنبياءُ عليهم السلام بما[٣] لا يُعاتَبُ به غيرُهم مِن الصَّغائرِ.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التضعيف ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعُه عنه كونهنَّ نساءَ النَّبيِّ عليه السلام، بل هو السَّببُ له، فكيفَ يصيرُ صارفاً عنه.

***

(٣١) - ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ تدم[٤] على الطَّاعةِ ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ عليه السلام، وذكر (الله) هنا كَذِكْرِه في قوله: ﴿تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لأنَّ طاعتَه طاعةُ اللهِ، كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾: مرَّةً على الطَّاعةِ، ومرَّةً على طلبهنَّ رضاءَ النَّبيِّ عليه السلام بالقَناعةِ وحُسْنِ المعاشرة.

وقرئ: ﴿ويعمَلْ﴾[٥] أيضاً بالياء حملاً على لفظ (من)، و﴿يُؤْتِها﴾ على أن فيه ضميرَ اسم الله[٦].

---

(١) في (ف): «وكذا فصل».

(٢) في (ف) و(ك) و(م): «فلا يرجم».

(٣) في (ف): «مما».

(٤) في النسخ عدا (ك): «تديم»، والمثبت من (ك).

(٥) في (ك): «يعمل».

(٦) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٩).

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنَّةِ زيادةً على أجرِها.

* * *

(٣٢) ـ ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ في الفضلِ.

و(أحد) في الأصل: وَحَدٌ بمعنَى واحدٍ، واستُعمل في النَّفي العام مستوياً فيه المذكَّر والمؤنَّث والواحد وما فوقه، ولذلك جاء هاهنا بمعنى جماعة واحدة مِن جماعات النِّساء.

﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الظَّاهر أنَّه بمعنى: استقبلتُنَّ[١] أحداً.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾: فلا تقلْنَ قولاً خاضعاً ليِّناً حسناً، كقول الـمُرِيْبات[٢].

واتَّقى بمعنى استقبل معروفٌ في اللُّغة؛ قال النَّابغةُ:

سقطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فَتَناوَلَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ[٣]

أي: استقبلَتْنا باليد، وهذا المعنى أبلغُ في مدحِهنَّ؛ إذْ لم يُعلِّقْ فضيلتَهُنَّ على التَّقوى، ولا علَّقَ نهيَهُنَّ عن الخضوع بها؛ إذ هُنَّ مُتَّقياتٌ في أنفسهنَّ، والتعليقُ ظاهرُه يقتضي أنهنَّ لسْنَ مُتحلِّيات بالتَّقوى[٤].

---

(١) في (ك): «استقبلن».

(٢) في (م): «كقولة المريبات»، وفي (ف): «كقول المرتبات»، وفي (ك): «كقول المربيات».

(٣) انظر: «ديوان النابغة ـ بشرح ابن السكيت» (ص: ٣٤). والنصيف: الخمار.

(٤) هذا الوجه في تفسير الآية ذكره أبو حيان في «البحر» (١٧/ ٣١٨) واختاره، لكن تعقبه الآلوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٢٨٠) بقوله: (وفيه: أن اتَّقى بمعنى: استقبل، وإن كان صحيحاً لغةً، وقد ورد =

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: ريبةٌ وفجورٌ. وقرئ بالجزم[1] عطفاً على محلِّ النَّهي على أنَّه نهيٌ لمريض[2] القلب عن الطَّمع عقيب نهيهنَّ عن الخضوع بالقولِ؛ أي: لا يخضعْنَ فلا يطمعِ الفاجرُ.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: حسناً مع كونه خَشناً بعيداً عن الرِّيبةِ.

***

(٣٣) ـ ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

﴿وَقِـرْنَ فِـي بُيُوتِكُنَّ﴾ مِـن وَقَرَ يَقِرُ وقـاراً، أو مِن قَرَّ يَقِرُّ قـراراً بحذف الأوَّل من راءَي اِقْـرِرْنَ ونقـلِ كسـرتها إلـى القاف، والاسـتغناءِ بها عن همـزة الوصل، كقولك: ظِلْنَ، بكسـر الظَّاء.

وقرئ: ﴿وَقَرْنَ﴾ بفتح القاف[3]، وأصلُه اِقرَرْنَ، فحُذِفَتِ الرَّاءُ، ونُقِلَتْ فتحتُها إلى القافِ، كقولكَ: ظَلْنَ[4] بالفتح.

= في القرآن كثيراً كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، إلا أنه لا يتأتى هاهنا؛ لأنه لا يستعمل في ذلك المعنى إلا مع المتعلق الذي تحصل به الوقاية، كقوله سبحانه: ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ وقول النابغة: باليد، وما استدَل به أمره سهل).

(١) نسبت لأبي السمال وأبان بن عثمان وابن هرمز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩)، و«» (٢/ ١٨١)، و«البحر» (١٧/ ٣١٩).

(٢) في (ك): «لمريضي».

(٣) قراءة نافع وعاصم، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٩).

(٤) في (ك) و(م): «طلن».

وقيل: مِنْ قارَ يقارُ: إذا اجتمعَ، ومنه: القارَةُ للخيل لاجتماعِه.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ التَّبرُّجُ: الخروج بالزِّينة.

﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: تبرُّجاً مثل تبرُّجِ النِّساءِ في أيَّامِ الجاهليَّة القديمة[1]، التي يُقالُ لها: الجاهلية الجهلاء، وهي الزَّمنُ الذي وُلِدَ فيه إبراهيم عليه السلام، كانَتِ المرأةُ تلبسُ الدِّرعَ من اللُّؤلؤِ، فتمشي وسط الطَّريق تعرضُ نفسَها على الرِّجال.

وقيل: ما بين آدم ونوحٍ عليهما السلام.

وقيل: بين إدريس ونوحٍ عليهما السلام.

وقيل: زمن[2] داود وسليمان.

والجاهليَّةُ الأخرى: ما بينَ عيسى ومحمَّدٍ عليهما السلام.

ويجوز أن تكون الجاهليَّة الأولى: جاهليَّةُ الكُفْرِ قبلَ الإسلام، والجاهليَّة الأخرى: الفسوق في الإسلام؛ أي: لا تُحدِثْنَ بالتَّبرُّج جاهليَّة[3] في الإسلام تتشبَّهْنَ بها بأهل جاهليَّة الكفر.

ويعضده ما رُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي الدَّرداء رضي الله عنه: «إنَّ فيك جاهليَّة»، قالَ: جاهليَّةُ كفرٍ أم إسلامٍ؟ قال: «بل جاهليَّةُ كفرٍ»[4].

---

(١) في (ف) و(ك): «ولا تبرجن التبرج مثل تبرج النساء في أيام الجاهلية الأولى القديمة».

(٢) «زمن» من (ي) و(ع).

(٣) في (ك): «الجاهلية».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٣٧) عن ابن زيد مرسلًا. رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩٩). وهو في الصحيحين عن أبي ذر. ولم يقل: جاهلية كفر... إلى آخره. رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائرِ ما أمَرَ به ونهى عنه، أمرَهُنَّ بالصَّلاة والزَّكاة على الخصوصِ، ثمَّ بالطَّاعةِ على العموم؛ اعتناءً بشأنِهما، وإيماءً إلى أنَّهما أصلُ جميعِ الطَّاعات البدنيَّة والماليَّة، مَن اعتنى بهما حقَّ الاعتناءِ جرَّتاه إلى جميعها.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ لتعليلِ أمرِهنَّ ونهيِهنَّ بما أمرهنَّ به ونهاهنَّ عنه.

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾: الذَّنب المدنِّس لعرضكم.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصب على النِّداء أو على المدح.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾ استعار الرِّجسَ للمأثم، والطُّهرَ للتَّقوى؛ للتَّنفيرِ عن القبائحِ، والتَّرغيبِ في المحاسنِ.

وفي[1] التَّصريح والتَّخصيص بأهل البيت تعظيمٌ للنَّبي عليه السلام وبيانٌ لشرفِ أهلِ بيتِه.

* * *

(٣٤) - ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ﴾ لَمَّا وعظهُنَّ بما يزكِّي نفوسهُنَّ جمعَ إلى أعمال التَّزكية ما يحلِّي قلوبهنَّ مِن العلم والحكمة، فذكَّرهنَّ ما يُتلَى في بيوتهنَّ مِن الكتاب الجامع بينَ الآيات الدَّالة على التَّوحيد والنُّبوَّة، وبينَ الحِكَم والشَّرائع المقنَّنة[2]..

(١) في (ف): «ومن».

(٢) في (ف): «المتقنة».

بقوانين العدالة في مهابط الوحي ومنازل العلم والهداية، فيجب عليهنَّ أن يحفظْنَه ولا يغفلْنَ عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ حيثُ حثَّ على[1] ما يصلحُكم وينفعُكم، فأنزلَ عليكم وأخبركم به، وفيه تحريضٌ على الائتمار والانتهاء.

* * *

(٣٥) - ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾: الداخلين في السِّلم[2]، المنقادين لحكم الله.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾: المصدِّقين بما يجبُ أنْ يصدَّقَ به.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ المداوِمين على الطَّاعة.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ في نيَّاتهم وأحوالِهم وأعمالِهم.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ على الطَّاعات وعن المعاصي.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ المتواضعين لله، المخبِتين إليه بقلوبهم وجوارحهم.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ بما وجبَ في مالهم.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ الصَّومَ المفروض.

---

(١) في (ي) و(ع): «حيث على»، وفي (ف) و(م): «حيث علم».

(٢) في (م): «الداخلين في السلام»، وفي (ي): «الداخلين في المسلم»، وسقطت من (ف) و(ك).

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لِـمَا اقترفوا مِن الصَّغائرِ التي لا يخلو الإنسان منها بحكم البشريَّة؛ لأنَّها مكفِّراتٌ ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على الطَّاعات.

رُوِيَ أنَّ أزواجَ النَّبيِّ عليه السلام قلْنَ: يا رسولَ اللهِ، ذَكَرَ اللهُ الرِّجال في القرآن بخيرٍ، فما فينا خيرٌ نُذْكَرُ به؟ إنَّا نخافُ أنْ لا يُقبَلَ منَّا طاعةٌ، فنزلَتْ(١).

وقيل: لَمَّا نزلَ فيهنَّ قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟ فنزلَتْ(٢).

وعطفُ الإناثِ على الذُّكورِ ضروريٌّ؛ لكونهما صنفَيْن مختلفَيْن تحتَ جنسٍ واحدٍ، فلا بُدَّ مِن توسيط(٣) العاطف، وأمَّا عطف الزَّوجَيْنِ على الزَّوجَيْنِ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ فليس بضروريٍّ، وإلَّا لَمَا تُرِكَ في قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، وفائدتُه الدِّلالة على أنَّ إعداد(٤) الـمُعَدِّ لهم للجمع بينَ هذه الصِّفات(٥).

---

(١) روى الإمام أحمد في «مسنده» (٢٦٦٠٣) عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه يومئذ إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، إلى آخر الآية، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. ورواه بنحوه النسائي في «الكبرى» (١١٣٤٠) و(١١٣٤١).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١١٦)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٢٠٠) عن قتادة.

(٣) في (ف): «توسط».

(٤) في (م): «ما أعد لهم المعد لهم».

(٥) في هامش (ع) و(ف) و(م) و(ي): «فهو من باب ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، لا من باب: ﴿فَأَنَّ =

(٣٦) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ﴾: وما صحَّ ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أتى بأداة الجمعِ دونَ التَّفريقِ للدِّلالة على أنَّ أحدَ القضاءَينِ لا ينفكُّ عن الآخرِ، فإنَّ قضاءَ اللهِ لا يظهَرُ إلَّا مِن جهةِ الرَّسولِ، وقضاؤُه لا يكون إلَّا بأمرِ اللهِ.

﴿أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ وهيَ(١) ما يُتخيَّر، وجمعُ الضَّميرِ على المعنى، فإنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي تفيدُ العمومَ.

﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وهذا الجمعُ للتَّعظيمِ؛ أي: لا يجوزُ لهم أن يختاروا مِن أمرِهم شيئاً، بل يجبُ عليهم أنْ يجعلوا اختيارَهم تبعاً لاختيارِ اللهِ ورسولِه.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾: بيِّنَ الانحرافِ عن الصَّواب.

وسببُ نزولِه: أنَّه خطبَ رسولُ اللهِ ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ بنتَ عمَّتِه على مولاه زيدِ بنِ حارثة، فأبَتْ وأبى أخوها عبدُ اللهِ، فنزلَتْ، فقالا: رضينا يا رسولَ اللهِ، فأنكحَها إيَّاه(٢).

* * *

= ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾. منه». وفيها عدا (م): «ترضوه».

(١) في (ف) و(ك): «هي».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٣٩). وروى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٩)، والدارقطني في «سننه» (٣/ ٣٠١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤٧): رواه الطبراني وفيه حفص بن سليمان وهو متروك وفيه توثيق لين. ووقع في النسخ: «فنحكها»، والمثبت من «الكشاف».

(٣٧) ـ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بتوفيقِه للإسلامِ، وتوفيقِكَ لعِتقِه[1] واختصاصِه.

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بعِتقِه وتربيتِه، وما وفَّقكَ اللهُ في حقِّه؛ يعني: زيداً.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب، وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أبصرَها بعد ما أنكحها إيَّاه، فوقعت في نفسه، فقال: سبحانَ اللهِ مقلِّبِ القلوبِ، وسمعَتْ زينبُ التَّسبيحةَ فذكرَتْها لزيدٍ، ففطِنَ لذلك، وألقى اللهُ في نفسِه كراهةَ صحبتِها، فأتى النَّبيَّ ﷺ فقالَ: أريدُ أنْ أفارقَ صاحبتي، فقال: «ما لَكَ؟ أرابَكَ منها شيء؟»، فقال: لا واللهِ ما رأيْتُ منها إلَّا خيراً، ولكن لشرفِها تتعظَّم[2] عليَّ، فقال له: «أمسِكْ عليكَ زوجَك»[3]، أمرَهُ بإمساكِها.

---

(١) في (م): «بعتقه».

(٢) في (ف): «تتعاظم».

(٣) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١١١): غريب بهذا اللفظ. وقال ابن حجر في «الكاف الشاف» (ص: ١٣٤): ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري [في «تفسيره» (١٩/ ١١٦)] معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله.

وانظر كلام القاضي عياض في الرد على أمثال هذه الأخبار في كتابه «الشفا»، وقد نقل عن القشيري قوله: وكيف يقال: رآها فأعجبَتْه، وهي بنتُ عمَّتِه، ولم يزَلْ يراها منذُ وُلِدَت، ولا كان النساءُ يحتجِبْنَ منه عليه السلام؟ وهو زوَّجَها لزيدٍ، وإنَّما جعلَ اللهُ تعالى طلاقَ زيدٍ لها، وتزويجَ النبيِّ ﷺ إياها؛ لإزالةِ حرمةِ التبنِّي وإبطالِ سنَّتِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]. =

وزيادة ﴿عَلَيْكَ﴾ لتضمين[1] معنى الحبس؛ أي: احبسها ولا تطلِّقْها[2].

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في أمرِها، ولا تطلِّقها تعلُّلاً بتعظُّمِها[3] وتكبُّرها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مِن نكاحِها إنْ طلَّقها زيدٌ، وهو الذي أبداه الله تعالى ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾؛ أي: قالَةَ[4] النَّاسِ بأنَّه نكحَ امرأةَ ابنِه.

و(تخفي) عطف على ﴿تَقُولُ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ حال؛ أي: حقيقاً في ذلك أنْ تخشى اللهَ، أو اعتراض؛ أي: واللهُ أحقُّ أنْ تخشاه في كلِّ حالٍ.

ويجوزُ أن يكون الواو في ﴿وَتُخْفِي﴾ واو الحال على: وأنت تُخفي؛ أي: تقولُ: أمسك مُخْفِياً في نفسِك ما الله مبديه.

وكذا في ﴿وَتَخْشَى﴾ يحتمل العطفَ؛ أي: تجمع بين أن تقولَ وتُخفي وتَخشى، والحال؛ أي: تخفي في نفسك خاشياً قالة[5] النَّاسِ فيك.

= وقال أيضا: وأصحُّ ما في هذا ما حكاه أهلُ التفسيرِ عن عليِّ بن الحسينِ رضي الله عنهما: أنَّ اللهَ تعالى كان أعلمَ نبيَّه عليه السلام أنَّ زينبَ ستكونُ من أزواجِه، فلمَّا شكَاها إليه زيدٌ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]، وأخفَى في نفسِه ما أعلمَه اللهُ تعالى به من أنَّه سيتزوَّجُها ممَّا اللهُ مُبدِيه ومُظهِرُه بتمامِ التزويجِ وطلاقِ زيدٍ لها. قلت: رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٦ ـ ١١٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٦٦).

(١) في (ف): «لتضمن».

(٢) في هامش (ف) و(ي): «كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]. منه».

(٣) في (ف) و(ك) و(ي): «بتعظيمها».

(٤) في (ك): «قال».

(٥) في (ك) و(م): «مقالة»، وفي (ف): «حالة».

وليس العتابُ في الإخفاءِ وحدَه؛ فإنَّه أحسن، بل في الإخفاء مخافةَ قالةِ النَّاس فيه، وإظهارِ ما ينافي إضمارَه، فإنَّ الأَولى أنْ يصمُتَ فيه أو يفوِّض الأمرَ إلى رأيه[١]، حتى لا يخالِفَ سرُّه علانيَته؛ لأنَّ الأنبياء عليهم السلام كذلك.

وعن عائشة رضي الله عنها: لو كتمَ رسولُ الله ﷺ ممَّا أوحيَ إليه لكتمَ هذه الآية[٢].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ إذا تعلَّقَتْ[٣] همَّةُ الرَّجلِ بشيءٍ وبلغَ حاجته منه قيل: قضى منه وطرَه؛ أي: فلمَّا لم يبقَ لزيدٍ فيها حاجةٌ، وطابَتْ عنها نفسُه، وطلَّقها، وانقضَتْ عدَّتُها.

وقيل: قضاء الوطر كنايةٌ عن الطلاق نحو: لا حاجة لي فيك[٤].

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وقرئ: (زَوَّجْتُكها)[٥]؛ أي: أمرنا بتزويجها منك، أو: تولَّينا تزويجَها منك، ويؤيِّدُه أنَّها كانت تقول لنساءِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام:

---

(١) كذا في جميع النسخ، وفي «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٣٣): (ربِّه)، وفي «روح المعاني» (٢١/ ٣٢١): (رأي زيد).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٤١). ولفظ البخاري: (لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]).

(٣) في (ك): «ابتلغت».

(٤) في (ف) و(م) و(ك) وقع قوله: «وقيل: قضاء الوطر كناية عن الطلاق نحو لا حاجة لي فيك» بعد قوله: «زوجناكها».

(٥) نسبت لعلي بن أبي طالب والحسن والحسين رضي الله عنهم. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٨٧).

إنَّ اللهَ تعالى تولَّى إنكاحي، وأنتنَّ زوجكُنَّ أولياؤكُنَّ[1].

إلَّا أنَّ انطباق التَّعليل الآتي ذكرُه على الأوَّل.

وقيل: كان السَّفير في خطبتها زيدٌ[2]، وذلك ابتلاءٌ عظيمٌ، وشاهدٌ بيِّنٌ على قوَّةِ إيمانِه.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ تعليلٌ للتَّزويج، وهو دليلٌ على أنَّ حكمَه عليه الصلاة والسلام وحكمَ المؤمنين واحدٌ إلَّا ما خصَّه[3] الدَّليل.

وقضاءُ الوطر هنا كنايةٌ عن الطَّلاقِ؛ لأنَّ الحكم المذكور غير مشروطٍ ببلوغِ الحاجةِ منهنَّ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ جملة اعتراضيَّةٌ؛ أي: وكان أمرُه الذي يريدُ تكوينَه مكوَّناً لا محالة، كما كان تزويجُ زينبَ.

***

(٣٨) - ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾؛ أي: قسمَ له وقدَّر، مِن قولهم: فرضَ له في الدِّيوان كذا، ومنه فروض العسكر لأرزاقِهم.

---

(١) روى نحوه البخاري (٧٤٢٠)، والترمذي (٣٢١٣).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٨).

(٣) في (ف) و(ك): «خصصه».

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدر، وهو مؤكِّد لِمَا تقدَّمَ؛ أي: سنَّ اللهُ سنَّةً.

﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ في الأنبياء الماضين عليهم السلام، وهو نفيُ الحرجِ عنهم فيما أباحَ لهم، وتوسعةٌ عليهم في باب النِّكاح وغيره، وقد كان لداود عليه السلام مئةُ امرأةٍ وثلاثُ مئة سريَّةٍ، ولسليمان عليه السلام ثلاثُ مئة حرَّة وسبعُ مئة سريَّة[1].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾: قضاءً مقضيًّا وحكماً مقطوعاً.

* * *

(٣٩)- ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ مجرور، وصفٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾، أو نصبٌ على المدح، أو رفعٌ عليه.

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تعريضٌ بعد التَّصريح في قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: كافياً للمخاوف، أو محاسباً للصَّغيرة والكبيرة، فيجب أن لا يُخشَى حقَّ الخشية إلَّا منه.

---

(١) وقال القاضي ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ٥٥) مشيراً إلى تضعيف هذه الرواية: قِفوا حيث وقف بكم البيان بالبرهان دون ما تتناقله الألسنة من غير تثقيف للنقل والله أعلم.
والذي ورد في الصحيح كما رواه البخاري (٣٤٢٤) ومسلم (١٦٥٤) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: قال: سليمان بن داود: لأطوفنَّ اللَّيلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً، ساقطاً أحد شقَّيه.

(٤٠) ـ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾؛ أي: لم يكن أبا رجلٍ منكم على الحقيقة حتى يَثبت بينه وبينه ما بين الأب وابنه من حرمة المصاهرة وغيرها.

ولا يَنتقِضُ عمومُه بكونه عليه السلام أباً للطَّاهر والطَّيِّب والقاسم وإبراهيم؛ لأنَّهم لم يبلغوا مبلَغَ الرجال.

قيل: ولو بلغوا كانوا رجالَه لا رجالَهم. ولا وجهَ له لِمَا ستقفُ أنَّ التَّأكيد بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ لا ينتظِمُ معَه.

ولا بكونه أباً للحسَنَيْنِ؛ لأنَّه قُصد المولودُ منه، لا ولَدُ الولَدِ.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾[1] بالنَّصب عطفاً على ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾.

وكلُّ نبيٍّ أبو أمَّته من حيث إنَّه يعلِّمهم ويربِّيهم، ويجب عليهم تعظيمُه وتوقيره، وعليه شفقتُهم ونصيحتهم، لا في سائر الأحكام، وزَيْدٌ منهم، وحكمُه حكمُهم فيما ذُكِرَ، لا أنَّه وُلِدَ منه، والادِّعاء والتَّبنِّي من باب الاختصاص والتَّقريب لا غير.

وقرئ: (رسولُ اللهِ) بالرَّفع[2] على أنَّه خبرُ محذوفٍ؛ أي: ولكنْ هو رسولُ اللهِ.

وقرئ: (ولكنَّ) بالتَّشديد[3] على حذف الخبر، تقديره: ولكنَّ رسولَ اللهِ مَن عرفتُموه؛ أي: لم يعشْ له ولَدٌ ذكرٌ.

---

(١) في (م) و(ع): «ولكن كان».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠)، وقال: عن أبي عمرو، ذكره ابن مجاهد.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ أي: وكانَ خاتَمَ النَّبيِّين وآخرَهم الذين[١] ختمَهم على قراءة الكسرِ، أو خُتِموا به على قراءة الفتح[٢]، بمعنى الطَّابع.

ولو كان له ابنٌ بالغٌ لكان نبيًّا؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السلام قال حين توفِّي إبراهيمُ: «لو عاشَ لكان نبيًّا»[٣]، فلم يكنْ هو خاتَماً[٤]، فهو مؤكِّد لكونِه ليس أبا أحدٍ من الرِّجال.

ولا يقدح في ذلك نزول عيسى عليه السلام، لا لأنَّه إذا نزل كان على دينه؛ لأنَّه لا ينافي استقلاله في النُّبوَّة، إنَّما ينافي استقلاله في الرِّسالة، بل لأنَّه عليه السلام كان نبيًّا قبلَه ـ عليه السلام ـ لا بعدَه، فلا ينافي كونَه خاتماً للأنبياء على أنَّه آخرُهم بعثةً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم مَن يليق بأنْ تُختَم به النُّبوَّة، وكيف ينبغي شأنه.

* * *

(٤١) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: اذكروا الله بأصنافِ الذِّكرِ مِن التَّقديس والتَّمجيد والتَّكبير والتَّهليل، وكلُّ ما هو أهلُه مِن أنواع الثَّناء.

* * *

---

(١) «الذين» سقط من (ك).

(٢) قرأ عاصم بفتح التاء وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) قال عنه النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ١١٦): باطلٌ وجَسارة على الكلام في المغيَّباتِ، ومجازَفةٌ وهجومٌ على عظيم مِن الزَّلاتِ.

(٤) في (م): «خاتم».

(٤٢) ـ ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ تخصيصُ التَّسبيح بالذِّكر مِن بينِ سائرِ الأذكار بيانٌ لفضلِه واختصاصِه بالشَّرفِ؛ لأنَّ التَّنزيهَ أفضلُ[1] الأذكارِ، مقدَّم على كلِّ حمدٍ وثناءٍ.

والتَّقييدُ بالوَقْتَيْنِ المذكورَيْنِ لذلك أيضاً؛ أي: لبيانِ فضلِهما وشرفِهما؛ لكونِهما طَرَفي اللَّيل والنَّهار، ومجتَمعَ الملائكة ومختلَفَهما[2]، ويجوزُ أنْ[3] يُراد بهما الدَّوام.

* * *

(٤٣) ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾: بالرَّحمةِ ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ بالاستغفار والاهتمام بما يصلحُكم.

والصَّلاة المشتركة بينَ[4] اللهِ تعالى وملائكتِه هي إقامةُ الخيرات والكمالات ممَّا[5] يُسعدُ المؤمنين في الدارين ويكمِّلُهم، أو العناية بذلك، مستعارة مِن الصَّلاة التي هي شرفٌ وكمالٌ لهم، ولهذا علَّله بقوله:

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾: مِن ظُلُماتِ الكفر والمعاصي.

---

(١) في (ي) و(ع): «أصل».

(٢) في (ف) و(ك): «ومحتفلهما».

(٣) في (ف) زيادة: «يكون».

(٤) في (ف) و(ك): «من».

(٥) في (ف) و(ك): (بما».

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى نورِ الإيمانِ والطَّاعاتِ.

ولَمَّا كانتِ الملائكةُ واسطةَ الفيضِ كان لهم مدخلٌ في الأمداد النُّوريَّة الكماليَّة.

وقيل: هي الرَّحمةُ والرَّأفةُ والتَّعطُّف المعنويَّة استُعيرَتْ من الصَّلاة المشتملة على الحنوِّ والانعطاف في الرُّكوع والسُّجود للحنوِّ والانعطاف الصُّوريِّ، كانعطاف العائد على المريض، والمرأة على ولدها، ثمَّ نُقِلَ بكثرة الاستعمال إلى التَّرحم[1] والتَّرؤُّف المعنويَّين، ومنه قولهم: صلَّى الله عليك[2]؛ أي: ترحَّم وترأَّف؛ ولأنَّ الملائكةَ وسائط الرَّحمة ومستجابو الدَّعوة في الاستغفار لهم نُسِبَتِ الرَّحمة إليهم، كما نُسِبَتْ إلى الله على أنَّ الاستغفار ترحُّمٌ، ويؤيِّده قولُه:

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاحِ أمرِهم، وإنافة[3] قدرِهم، واستعمَلَ في ذلك ملائكتَه المقرَّبين.

***

(٤٤) ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مِن إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: يُحيَّوْنَ.

﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾: يومَ القيامة، أو عندَ الموتِ، أو الخروج مِن القبرِ، أو دخول الجنَّةِ.

﴿سَلَٰمٌ﴾ بإخبار السَّلامةِ عن كلِّ مكروهٍ وآفةٍ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

---

(١) في (ك): «إلى الترحم».

(٢) في (م): «ﷺ عليك».

(٣) في (ف) زاد: «أمرهم».

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ في الجنَّة، وتغييرُ النَّظمِ في ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ و﴿وَأَعَدَّ﴾ للمبالغة فيما هو أهمُّ وأدلُّ على الكرامة، وللمحافظة على الفاصلة.

***

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على مَن بُعِثْتَ عليهم بقَبول القولِ في تصديقهم وتكذيبهم، وطاعتهم ومعصيتهم، وهو حال مقدَّرة.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: الإقرار به وبتوحيدِه[1] وبما يجبُ الإيمانُ به مِن صفاتِه.

﴿بِإِذْنِهِ﴾: بتيسيره، لَمَّا كانَ التَّصرُّف للغير في حقِّ المالك متعذِّراً إنَّما يتيسَّر بالإذن، استُعِيرَ الإذن للتَّيسير والتَّسهيل؛ إيذاناً بأنَّ دعاءَ أهلِ الشِّرك والجاهلية إلى التَّوحيد والإسلام أمرٌ صعبٌ متعذِّرٌ لا يُستطاع[2] إلَّا إذا سهَّلَهُ اللهُ تعالى ويسَّره، ولا يصحُّ حملُه على الحقيقةِ؛ لأنَّ قولَه: (أرسلناك داعياً) يغني عن الإذن بمعناه الوضعي.

﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ شُبِّهَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام بالسِّراج لاستضاءة مَن تحيَّر[3] في ظلماتِ الجهل بنورِه، واهتداءِ مَن ضلَّ بضوئه، ولأنَّه قد جَلَّى اللهُ تعالى ظلماتِ الشِّرك بنورِ توحيدِه، أو نوَّرَ البصائر بنورِ هدايتِه، كما ينوِّرُ الأبصارَ بنور السِّراج.

---

(١) في (ف) و(ك): «بتوحيده».

(٢) في (ك): «متعذر الاستطاعة».

(٣) في (ك): «من هو».

وبولغ في وصفِه بالإنارة لأنَّ[١] مِن السُّرج[٢] ما لا ينير.

وقيل: ذا سراجٍ منيرٍ، على أنَّ السِّراج[٣] مستعارٌ للقرآن.

* * *

(٤٧) ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾؛ أي: عطاءً واسعاً، أو ثواباً جزيلاً، أو فضيلةً[٤] على سائرِ الأمم.

وصفَه بخمسِ صفاتٍ، ثمَّ قابل كلًّا منها بخطابٍ يناسبُه:

وصفَه بكونِه ﴿شَٰهِدًا﴾ وأضمر ما يقابله بدلالة عطف ﴿بشِّر﴾ عليه، فإنَّه مقابل لـ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ فيجب أن يكون معطوفاً على ما يناسب الوصف الذي عُطِفَ عليه ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، وهو: فراقبْ أمَّتك.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

وقابلَ ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنَّهي عن موافقة[٥] الكفار والمبالاةِ بهم الوارد في قوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾[٦] فإنَّ ذلك أشدُّ الانذار، كأنَّه

---

(١) في (ف): «وبولغ في وصفها لأن».

(٢) في (م): «السراج».

(٣) من قوله: «وبولغ..» إلى هنا سقط من (ي) و(ع).

(٤) في (ف) و(م): «وفضيلة».

(٥) في (ع) و(ي): «مواقعة».

(٦) «ودع أذاهم» ليست في (م) و(ي) و(ع).

قالَ: خلِّهم وشأنَهم، فأنا أكفيك[١]، وذلك تهييجٌ له عليه السلام على ما هو عليه من مخالفتهم.

وقابل ﴿داعياً إلى الله بإذنه﴾، بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢] فإنَّه ميسِّرُ كلِّ[٣] عسيرٍ.

و﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: موكولاً إليه الأمرُ في الأحوال كلِّها؛ لأنَّ مَن أناره برهاناً على جميع خلقِه حقيقٌ بأنْ يُكتفى به عن غيرِه، ولا يُستعانَ إلَّا بِهِ.

***

(٤٩) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ النِّكاحُ: العقدُ.

وتخصيصُ ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ مع أنَّ الحكم المذكور يستوي فيه المؤمنات والكتابيَّات، تعليمٌ لِمَا هو الأولى وتحريضٌ عليه، فإنَّ الأَولى بالمؤمن أن يتخيَّرَ لنطفتِه ولا يختارَ للنَّسلِ إلَّا الطَّيبةَ الطَّاهرة، وجاء في المائدة بيانُ الجوازِ.

ومعنى التَّراخي في: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ دفعٌ لِمَا عسى أنْ يُتوهَّم أنَّ تراخيَ الطَّلاق مدَّةً يمكن فيها الإصابةُ مؤثِّرٌ[٤] في العدَّة كما في النَّسب.

---

(١) في (ك): «أكفيكهم»، وفي (ف) و(م): «أكفيكم».

(٢) في (م) و(ي) و(ع): «ودع أذاهم وتوكل على الله».

(٣) في (م): «لكل».

(٤) في (ع) و(ي): «مؤثرا»، وفي (ف) و(ك): «مؤثرة».

﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ المساسُ[1] كنايةٌ عن الجِماعِ.

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: أيَّامٍ يتربَّصْنَ فيها بأنفسهنَّ.

﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾: تستوفونَ عددَها، مِن عَدَدْتُ الدَّراهم فاعتَدَّها، كقولك: كِلْتُه فاكتالَه، أو تعدُّونَها، والإسناد إلى الرِّجال للدِّلالة على أنَّ العدَّةَ حقُّ الأزواج كما أشعر به ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

ومَن قرأ: (تَعْتَدُونَها) بالتَّخفيف[2] حذفَ الجارَّ وأوصل الفعل إلى الضَّمير بنفسه، كقوله: ويومٍ شَهِدْناه؛ أي: شهِدْنا فيه.

ومنطوقُه ساكتٌ عن العدَّة بمجرَّد الخلوة الصَّحيحة، ولا عبرةَ للمفهوم، فلا مانعَ لإلحاقِ[3] الخلوةِ بالمساس في إيجابِ العدَّةِ.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ للوجوبِ إنْ لم يكن مفروضاً لهنَّ، فإنَّ المفروضِ لها نصفُ المهر، ويجوز أنْ يُحمَلَ على الرَّاجحِ والأولى؛ أي: القَدْرِ المشترك بينَ الوجوب والنَّدب، فيتناولُهما؛ إذ[4] متعةُ المفروض لها مستحبَّةٌ، ولم تجب[5] إلَّا لغير المفروض لها قبل[6] المساسِ مِن المطلَّقات.

---

(١) في (ك): «المس».

(٢) نسبت لابن كثير، والرواية المشهورة عنه مثل قراءة الجمهور بالتشديد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠).

(٣) في (ف): «لإطلاق».

(٤) في(ك): «أن». وفي (م): «فيتناولها فإن».

(٥) في (ك): «ولا تجب».

(٦) في (ك): «قبل قيل»، وفي (ف): «قيل قبل».

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: أخرجوهنَّ مِن منازلكم؛ إذ ليس لكم عليهنَّ عدَّةٌ[1].

﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ مِن غير إضرار ولا منعِ حقٍّ.

* * *

(٥٠) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهنَّ؛ إذ المهرُ أجرٌ على البُضع.

وإيتاؤُها: إعطاؤها، والمعتبر فيه الالتزام كما في إعطاء الجزية، وقد نبَّه على هذا مَن قالَ: إعطاؤها عاجلاً، أو فرضُها[2] وتسميتُها في العقد، فإنَّه في حكم الإعطاء.

﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ وهي صفيَّة وجويرية، فأعتقهما وتزوَّجهما.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ الجمع في العمَّات والخالات دون العمِّ والخال لنسق الكلام[3] على وفقِ الواقع، كما في قرينه السَّابق.

---

(١) في (م): «منازلكم أو ليس عليهن عدة».

(٢) في (ف) و(م): «فرضاً».

(٣) في (ك): «أنسق للكلام».

﴿ٱلَّتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ (مع) ليس للقِران بل لوجودها فحسب، كقوله: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ [النمل: ٤٤] والتقييد المذكور للتَّخصيص؛ لِـمَا روي عن أم هانئ أنَّها قالَتْ: خطبني رسولُ اللهِ ﷺ فاعتذرْتُ إليه فعذرني، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، فلم أَحِلَّ له لأنِّي لم أهاجرْ معه(١).

﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾؛ إنِ اتَّفقَ(٢)، ولذلك نكَّرها؛ أي: رضيَتْ بالنِّكاح له عليه السلام بلا مهرٍ، فالهبةُ المذكورة مجازٌ عن تمليكِ المتعة بلا عوضٍ، وليس معناه: إنْ قالَتْ: وهبتُ نفسي للنَّبيِّ عليه السلام، حتى ينتهِضَ حجَّةً في الخلافيَّة المشهورة بينَنا وبينَ الشَّافعي علينا أو لنا.

و﴿امرأةً﴾ عطفٌ على ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾ وما بعدَها، ولا يمنعه التقييد بـ﴿إن﴾ الاستقباليَّة؛ لأنَّ المراد بالإحلال: الإعلام بالحلِّ؛ أي: أعلمناك حلَّ امرأة مؤمنة، أو نصب بفعلٍ مضمَرٍ يدلُّ عليه ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾؛ أي: وأحللنا لك امرأةً.

وقرئ: (أنْ) بالفتح(٣) على التَّعليل بتقدير حذف أداته، أو على الظَّرف؛ أي: وقتَ أنْ وهبَتْ، أو مدَّةَ هبتها.

﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ شرطٌ للشَّرط الأوَّل في استيجاب الحِلِّ؛ فإنَّ هبتَها نفسَها منه لا يوجب له حِلَّها إلَّا بقبولِه، والإرادةُ المذكورة عبارةٌ عنه، ولا

---

(١) رواه الترمذي (٣٢١٤)، وقال: حديث حسن، لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي.
قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣/ ٥٨٨): وهو ضعيف جداً ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج في مواضعه بها.

(٢) في (ف) و(ك): «أي اتفق»، وفي (ي): «أن أنفق».

(٣) نسبت للحسن وغيره. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠).

وجهَ لحملها على الحقيقة؛ لأنَّ قوله: ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾ يغني عن الإرادة بمعناها الوضعي[١].

والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، ثمَّ الرُّجوع إليه في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ للإيذان بأنَّه ممَّا خُصَّ به لنبوَّته، وتكرُّرُه[٢] تقريرٌ لاستحقاق الكرامة لأجله.

و﴿خَالِصَةً﴾ مصدر مؤكِّد، كقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: خَلَصَ لك إحلالها خالصةً بمعنى: خلوصاً، أو حالٌ من الضَّمير في ﴿وَهَبَتْ﴾، أو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: هبةً خالصةً.

وقرئ: (خالصةٌ) بالرَّفع[٣]؛ أي: ذلك خلوص لك.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي[٤]: تلك المرأة خالصة لك من دونهم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن شرائطِ العقدِ، ووجوب القَسْم والمهر بالوطء حيثُ لم يُسمَّ.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مِن توسيعِ الأمر فيها[٥] عليهم كيف ينبغي أن يفرض عليهم[٦].

---

(١) في (ف): «لمعناها الأصلي».

(٢) في (ف) و(ك): «وتكريره».

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٥٢).

(٤) في (ع) و(م) و(ي): «أو»، وفي (ف): «إذ».

(٥) في (ك): «فيهما»، وفي (ي) و(ع): «عليها».

(٦) العبارة في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٣٦): «من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أن يفرض عليهم».

والعدول مِن عبارة (الإماء) إلى ما ذُكِر للدِّلالة على أنَّ مدارَ الحلِّ على ملك اليد، ولذلكَ لا يتحقَّقُ الحلُّ إذا تخلَّف ملك اليد عن ملك الرَّقبة، كما في المكاتبة.

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ علَّةٌ لقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾، وما بينهما اعتراضٌ لبيان أنَّ الفرقَ بينَه وبينَ المؤمنين ليس لمجرَّد التَّوسيع عليه، كما هاهنا، بل لمعانٍ مِن خواصِّ النبوَّة تقتضي التَّوسيع عليه والتَّضييق عليهم تارة، وبالعكس أخرى.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾؛ أي: لِمَا يعسُرُ التَّحرُّز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتَّوسعةِ في مظان[1] الحرج.

***

(٥١) - ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

﴿تُرْجِي﴾ بهمزٍ وبلا همزٍ[2]، والمعنى واحد.

﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾: تؤخِّرها، وتترك مصاحبتها[3]، فلا تقسم لها.

---

(١) في (ف) و(ك): «مكان»، وفي (ع) و(م) و(ي): «إمكان»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٢) قرأ ابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وابن عامر بالهمز، وباقي السبعة بغير همز. انظر: «التيسير» (ص: ١١٩).

(٣) كذا في النسخ، وفي «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٧/ ١١٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٠٢): (مضاجعتها).

﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيۡكَ﴾: وتضمُّ إليك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتضاجعها[١]، أو: تطلِّقُ مَن تشاءُ وتمسكُ مَن تشاءُ.

﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾: طلبْتَ ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾: طلَّقْتَ بالرَّجعةِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ﴾ في شيءٍ مِن ذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّفويضُ إلى مشيئتِكَ ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: أقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إلى[٢] قرَّةِ أعينهنَّ، وذهابِ حزنهنَّ، وحصول رضاهنَّ جميعاً؛ لأنَّه حكمٌ كلُّهنَّ فيه سواء، لا تفاضُلَ بينهنَّ فيتغايرن[٣].

ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بينهنَّ وجدْنَ ذلك تفضُّلاً منك، وإنْ رجَّحْتَ بعضهنَّ على بعضٍ علمْنَ أنَّ ذلكَ مِن عندِ اللهِ وبوحيِه وتفويضِه، فتطمئِنُّ نفوسهنَّ ويرضيْنَ ولا يتغايرين.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ وعيدٌ لِمَنْ لم ترضَ منهنَّ بما دبَّر[٤] اللهُ تعالى وفوَّضَ إلى مشيئته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصُّدور.

﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيقٌ بأنْ يُتَّقى ويُحذَر.

* * *

(١) في (ف) و(ك): «وتصاحبها»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر السابقة.

(٢) في (ف): «أي».

(٣) أي: فتقع الغيرة بينهن.

(٤) في (ف): «ذكر».

(٥٢) - ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

﴿لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾؛ أي: ذلكَ الجنسُ، وإتيان صيغة الجمع ثمَّ إبطالُه بالتَّعريف لعدم المفرد مِن لفظها، ولم يقل: (امرأةٌ)؛ لعمومِها المملوكةَ بملك اليمين، والمراد: المملوكة بملك النِّكاح، بقرينة قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾.

وقرئ بالتَّذكير[١] لأنَّ تأنيث الجمع غير حقيقيٍّ، وإذا جازَ بغير فصلٍ في قوله[٢]: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠]، فمعَ الفصلِ أجوزُ.

﴿مِنۢ بَعْدُ﴾: مِن بعدِ التِّسع؛ لأنَّه نصاب رسول الله ﷺ مِن الأزواج كما أن الأربع نصاب أمَّته، أو: مِن بعد اليوم، حتى إنَّه لو ماتَتْ واحدة منهنَّ لم يحلَّ له نكاحُ أخرى.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾: ولا أنْ تستبدلَ بهنَّ ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ لا بكلهنَّ ولا ببعضهنَّ، بأنْ تطلِّق إحداهنَّ وتنكح أخرى مكانَها؛ كرامةً لهنَّ، وجزاءً على ما اخترْنَ ورضيْنَ به، فقُصِر رسول الله ﷺ عليهنَّ، وهنَّ التِّسعُ اللَّاتي ماتَ عنهنَّ.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ هي الاستغراقيَّة، مزيدةٌ لتأكيد نفي التَّبدل مِن جنس الأزواج.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾: حسنُ الأزواجِ المستبدلَة[٣]، وهو حالٌ مِن الضَّمير الذي هو فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾؛ أي: مفروضاً إعجابُكَ بهنَّ، أو من المفعول الذي

---

(١) قرأ أبو عمرو بالتاء، وباقي السبعة بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٩).

(٢) «قوله» سقط من (ك).

(٣) في (ك) و(ع): «المتبدلة».

هـو ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾؛ لأنَّـه فـي سـياق النَّفي، فشـابه المعرفـة المسـتغرقة، ألا تـرى إلى تجويزهـم[1] أن يقـع مبتدأً.

وعـن عائشـة رضـي الله عنها: ما مـاتَ رسـولُ اللهِ ﷺ حتى أُحِلَّ له النِّسـاء[2]؛ يعنـي: أنَّ الآيـة قد نُسِـخَتْ، ولا يخلو نسـخُها أن يكون إمَّـا بالسُّـنَّة[3]، وإمَّا بقوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾، أو بقولـه: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن﴾[4] [الأحزاب: ٥١] علـى المعنـى الثانـي، وترتيبُ النُّزولِ ليس على ترتيـب المصحف.

وقيـل: المعنـى: لا تحـلُّ لك النِّسـاء مِن بعـدِ الأجنـاس الأربعة اللَّاتـي نُصَّ علـى إحلالهنَّ لك مـن الأعرابيَّات والكتابيَّـات والقرائب والإماء بالنِّكاح؛ فإنَّهنَّ لا يناسـبْنَ[5] منصب النُّبـوَّة وجلالته.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ اسـتثناءٌ منقطـعٌ؛ لأنَّ ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾ وإنْ كان فـي الأصـل يتنـاول الحرائـر والإمـاء، لكـنْ غلَـبَ اسـتعمالُه فـي الأزواج، وهـو المـراد هاهنا علـى مـا مـرَّ بيانه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾: حافظاً مهيمناً. وهو تحذيرٌ عن مجاوزةِ حدودِه وتخطِّي حلالِه إلى حرامِه.

* * *

---

(١) في (ك): «تجويز».

(٢) رواه الترمذي (٣٢١٦)، والنسائي (٣٢٠٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «بالنسبة»، وفي (ف): «بالكتاب».

(٤) في (ك): «ترجىء».

(٥) في (م) و(ي) و(ع): «لا ينافي»، وصححت في هامش (ي) إلى المثبت.

(٥٣) - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ لم يقلْ: بيتَ النَّبيِّ؛ كيلا يَسبقَ الوهم إلى أنَّ المرادَ البيتَ الذي هو فيه.

﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: إلَّا بأنْ يُؤْذَنَ لكم، أو: إلَّا مأذوناً لكم، ولا يجوزُ نصبُه على الظَّرف؛ لأنَّهم قد نصُّوا على أنَّ المصدريَّة لا تكون في معناه، تقول: أجيئك[١] صياحَ الدِّيك وقدومَ الحاجِّ، ولا يجوز: أجيئك أن يصيح[٢] الدِّيك، ولا: أنْ يَقدم الحاجُّ.

﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ متعلِّق بـ ﴿يُؤْذَنَ﴾؛ لأنَّه متضمِّنٌ معنى: يُدْعى[٣]؛ للدِّلالة على أنَّ حكمَ النَّهيِ لا يرتفع بمجرَّد الإذنِ دلالةً بفتح الباب ورفع الحجاب مثلاً، بل لا بدَّ معه[٤] مِن صريح الدَّعوة.

ويعضده قوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾: غيرَ منتظرينَ وقتَه وإدراكَه، حالٌ مِن فاعل ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾، أو من المجرور في ﴿لَكُمْ﴾.

---

(١) في (ك): «أجئك»، وفي (م): «أجيتك»، وفي (ف): «أجليك»، وفي (ع): «أجبتك».

(٢) في (ك): «أجئك أن يصيح»، وفي (ف): «أجئتك أن يضح»، وفي (ع): «أجيتك أن يصبح».

(٣) في (ك): «يدعو».

(٤) في (ف): «له».

وقرئ بالجرِّ[١] صفةً لـ ﴿طَعَامٍ﴾، فيكون جارياً على غير مَن هو له بلا إبراز الضَّمير، وهو غيرُ جائزٍ عند البصريين[٢].

وقرئ: (إناه) بالإمالة[٣]؛ لأنَّه مصدرٌ أَنَى الطَّعام: إذا أدرك.

قيل: الخطابُ مخصوصٌ بقومٍ كانوا يتحيَّنون[٤] طعامَ رسولِ اللهِ عليه السلام، فيدخلونَ ويقعدون[٥] منتظرين لإدراكه، وإلَّا لم يجزْ لأحدٍ أنْ يدخلَ بيوته إلَّا بإذنٍ خاصٍّ.

والظَّاهر أنَّ الخطاب عامٌّ لغيرِ المحارمِ، وخصوصُ السَّبب لا يصلح مخصِّصاً على ما تقرَّر في الأصول، نعم يكون وجهاً لتقييد[٦] الإذن بقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، فيندفع وهمُ اعتبار مفهومِه[٧].

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ هذه الفاءُ للجزاء، ولا دِلالة فيها للتَّعقيب بلا مُهلَةٍ، وأمَّا الفاء في قوله:

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ فللتَّعقيب بلا مهلةٍ؛ للدِّلالة على أنَّه ينبغي أن يكون

---

(١) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩٦).

(٢) ومذهب البصريين في ذلك وجوب إبراز الضمير بأن يقال هنا: غير ناظر أنتم، أو: غير ناظرين أنتم، ولا بأس بحذفه عند الكوفيين إذا لم يقع لبس كما هنا، والتخريج المذكور عليه. انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٤٢١).

(٣) قراءة الكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ٤٩).

(٤) في (م): «يتجنبون»، وفي (ف): «يحبُّون».

(٥) في (ف): «ويعقدون»، وفي (م) و(ي) و(ع): «ويقصرون».

(٦) في (ك): «لتقيد».

(٧) نقله عنه الآلوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٤٢٣)، ثم تعقبه بقوله: وفيه بحث فتأمل.

دخولُهم بعد الإذن والدَّعوة على وجهٍ يشرعوا في الأكل كما دخلوا[١].

ففيه تقريرٌ لِمَا أُشيرَ إليه بقوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ مِن النَّهي عن الدَّخول للطَّعام قبلَ إدراكِه.

﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ فتفرَّقوا ولا تمكثوا.

رُوِيَ عن أنس رضي الله عنه قال: أنا أعلمُ بهذه الآية؛ لَمَّا زُفَّتْ زينبُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ كانَتْ معه في البيتِ وصُنِعَ[٢] طعام للناس، فأكلوا وتفرَّقوا، وبقيَ ثلاثةُ نفرٍ يتحدَّثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ لِيَخرجوا[٣] ثمَّ رجعَ فإذا الثَّلاثةُ جلوسٌ يتحدَّثون، وكان رسول الله ﷺ شديدَ الحياءِ، فتولَّى، فلَمَّا رأَوْهُ متولِّياً خرجوا، فرجَعَ فنزلَتْ[٤][٥].

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾؛ أي: ولا مستأنسٍ[٦] بعضُكم لبعضٍ لأجلِ الحديث، أو: مستمعين حديثَ أهلِ البيتِ. والأوَّلُ يرجِّحُه سببُ النُّزولِ.

عطفٌ على ﴿نَٰظِرِينَ﴾، أو منصوب على تقدير فعل؛ أي: ولا تدخلوها أو: ولا تمكثوا مستأنسين.

---

(١) كذا وقعت العبارة في النسخ، وعبارة الآلوسي أحسن وأوضح، وهي: (... على وجه يعقبه الشروع في الأكل بلا فصل). انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٤٢٢).

(٢) في (ف): «وضع».

(٣) في (م): «ليخرج».

(٤) روى نحوه البخاري (٤٧٩١)، ومسلم (١٤٢٨).

(٥) في (ف): «فترك».

(٦) في (ك): «مستأنسين».

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ اللَّبثَ ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ لتضييق[١] المنزل عليه وأهله، وإشغاله فيما لا يعنيه.

﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ تعليلٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه المساق؛ أي: ولا يخرجكم فيستحيي منكم، ولذلك صدَّره بأداة التَّعليل، ولو كان المعنى: يستحيي من إخراجكم، لكان حقَّه أن يُصدَّر بالواو العاطفة[٢].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ لَمَّا كان الحياءُ يمنعُ الحييَّ مِن بعضِ أفعالِه وأقوالِه ـ وإنْ كان حقًّا ـ قيلَ: إنَّ اللهَ لا يستحيي من الحقِّ؛ أي: لا يمتنعُ منه[٣] امتناع الحييِّ، وهو مجازٌ، أو على طريقة قوله:

قلت اطبخوا لي جُبَّةً وقميصاً[٤]

يعني: إخراجُكم حقٌّ[٥]، فينبغي أنْ لا يترك حياءً، كما لم يتركْهُ اللهُ تعالى فأمَرَكُم بالخروجِ.

---

(١) في (ع): «لتضيق»، وفي (م): «لضيق».

(٢) نقله عنه الآلوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٤٢٤)، ثم تعقب ما ذهب إليه المؤلف من التقدير بقوله: وفيه انه بعد تسليم ما ذكر على تقدير المضاف.

(٣) في (ف) و(ي) و(ع): «يمتنع من».

(٤) عجز بيت نسب لجحظة في «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٢٧)، ولأبي حامد محمد بن محمد في «لباب الآداب» للثعالبي (ص: ١٩٥)، وصدره:

قالوا اقترح لوناً نجيد طبيخه

والشاهد فيه أنه وضع (اطبخوا) موضع (خيطوا) لمجرد مراعاة اللفظ دون المعنى.

(٥) في (ف): «أن إخراجكم حقاً».

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضَّمير لنساءِ النَّبيِّ ـ عليه السلام ـ لدلالةِ ذِكْرِ البيوتِ أو دلالةِ الحال عليهنَّ.

﴿مَتَاعًا﴾: شيئاً يُنتفَعُ به ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاعَ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: سترٍ.

رُويَ أنَّ عُمراً رضي الله عنه قال: يا رسولَ اللهِ، يدخلُ عليكَ البرُّ والفاجرُ، فلو أمرْتَ أمَّهاتِ المؤمنين بالحجاب، فنزلَتْ(١).

وقيل: إنَّه عليه السلام كان يَطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابِه، فأصابَتْ يدُ رجلٍ يدَ عائشة رضي الله عنها، فكرِهَ النَّبيُّ عليه السلام ذلك، فنزلَتْ(٢).

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ مِن خواطر الشَّيطانيَّة(٣).

﴿وَمَا كَانَ﴾: وما صحَّ ﴿لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾: أن تفعلوا ما يكرهه.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾: مِن بعدِ وفاتِه أو فراقِه.

وخُصَّ التي لم يدخلْ بها؛ لِمَا رُويَ أنَّ أشعث بن قيس تزوَّج المستعيذة في أيَّامِ عمر رضي الله عنه فهمَّ برجمها(٤)، فأُخبر بأنَّه عليه السلام فارقها(٥) قبلَ أنْ يمسَّها، فترَكَ مِن غير نكير(٦).

---

(١) رواه البخاري (٤٧٩٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٦٧) عن مجاهد مرسلاً، وروى نحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٠١٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤١٩) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) في (م): «الشياطين»، وفي (ف) و(ك): «شيطانية».

(٤) في (ف) و(م): «برجمهما».

(٥) في (م) زيادة: «من».

(٦) ذكره الغزالي في «الوسيط» (٥/ ٢١)، وقال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ٢٩٢): (لا أصل =

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: إيذاءه[١] ونكاحَ نسائه.

﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: ذنباً عظيماً، استئنافٌ لتعظيمِ النَّبيِّ عليه السلام وإيجابِ حرمتِه حيًّا وميتاً، فلذلك بالغ في الوعيد عليه فقال:

(٥٤) - ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ مِن نكاحِهنَّ وغيرِه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدورِكم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيَعلمُ ذلكَ فيجازيكم[٢] عليه، وفي هذا التَّعميم مع أنَّه برهانٌ على المقصود تهويلٌ عظيمٌ، ومبالغةٌ شديدةٌ في الوعيدِ.

* * *

(٥٥) - ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استئنافٌ لِمَنْ لا يجبُ الاحتجابُ عنه.

رُويَ أنَّه[٣] لَمَّا نزلَتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ: يا رسولَ اللهِ، أَوَ نكلمهنَّ أيضاً من وراء حجابٍ؟ فنزلَتْ[٤].

= له في كتب الحديث). وروى ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٤٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس نحو هذه القصة، وفيه أن الذي تزوجها هو المهاجر بن أبي أمية.

(١) في (م) و(ي) و(ع): «إيذاؤه»، وسقطت من (ف) و(ك). والصواب المثبت.

(٢) في (م): «ويجازيكم».

(٣) في (ف) و(ك): «أنها».

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٢٩)، و«النكت والعيون» (٤/ ٤٢١)، و«الكشاف» (٣/ ٥٥٧)، و«زاد المسير» (٦/ ٤١٧).

وإنَّما لم يذكر العمَّ والخالَ ـ مع شدَّة الاهتمام على ما دلَّ عليه في البيان ما في عدم الاكتفاء بالانفهام في حقِّ الأخ، فإنَّ ذكر ابنه يُغني عنه دلالةً ـ لأنَّه كُرِه ترك الاحتجاب عنهما مخافةَ أن يصفانها لأبنائهما(١).

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: نساءَ المؤمنات.

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ مِن العبيد والإماء، وقيل: مِن الإماءِ خاصَّة، وقد سبق في تفسير سورة النُّور.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمرتنَّ به، التفاتٌ إلى الخطاب بعد الغيبةِ؛ لإظهارِ الاعتناء بأمرِ الحجابِ والتَّشديد عليهنَّ في ذلك، وأنَّه من باب التَّقوى الواجبِ رعايتُه والمحافظةُ عليه.

ثمَّ أوعَدَ على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ سواءٌ عندَه السِّرُّ والعلَنُ، لا يتفاوت عندَه شيءٌ مِن الأحوال، فليكن عملكنَّ في الحجب أحسنَ مما كان قبل الاحتجاب(٢).

* * *

(٥٦) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾: يعتنون بإظهار شرفِه وتعظيمِ شأنِه.

---

(١) في هامش (ي): «فيه رد لمن زعم أن ذلك لأنهما بمنزلة الوالدين. منه».

(٢) في(ك): «»، وفي (م): «فليكن عملكن في الحجب مما كان قبل الإحتجاب»، وفي (ف): «فليكن عما سبق في الحجاب أحسن مما كان قبل الإضراب».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾: اعتنوا أنتم أيضاً، فإنَّكم أولى بذلك، فقولوا: اللَّهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ.

﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ قولوا: السَّلام عليك أيُّها النَّبيُّ.

والآية تدلُّ على وجوبِ الصَّلاة والسلام عليه ـ عليه السلام ـ في الجملةِ.

* * *

(٥٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ جاز أن يكون مجازاً؛ أي: يرتكبون ما يكرَهانِه مِن الكفرِ والمعاصي، وأن يكون حقيقةً، وذِكْرُ اللهِ توطئةٌ للتَّعظيم والاختصاص؛ أي: يؤذون رسولَ اللهِ.

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أبعدَهم مِن رحمتِه.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾: يهينُهم مع الإيلامِ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾: بغيرِ جنايةٍ استحقُّوا بها ذلكَ، أطلقَ إيذاءَ اللهِ ورسولِه[1]، وقيَّد إيذاءَ المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ إيذاءَ اللهِ ورسولِه لا يكون إلَّا بغيرِ حقٍّ، وإيذاءَهم قد يكون بحقٍّ[2].

---

(١) في (ف) و(ك): «وإيذاء رسوله».

(٢) في (ف) و(ك): «بغير حق»، وفي (ي): «بالحق».

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: ظاهراً.

رُويَ أنَّها نزلَتْ في ناسٍ مِن المنافقين يؤذون عليًّا رضي الله عنه.

وقيل: في أهل الإفك، وقيل: في زُناةٍ كانوا يَتْبعونَ(١) النِّساء وهنَّ كارهات.

* * *

(٥٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾: يغطين بها وجوهَهُنَّ وأعطافَهُنَّ(٢)، ويُرْخِينَها على أبدانهنَّ إذا برزت لحاجةٍ.

يقال إذا زال الثَّوب عن وجه المرأة: أدني(٣) ثوبَك على وجهِك.

والجلبابُ: الملحفةُ وكلُّ ما يُستَرُ به مِن كساء وغيره، و﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ المرأة تتلفَّع ببعضِها وترخي بعضَها على بدنها، أو لأنَّ لها جلابيب.

كانت النِّساء في أوَّل الإسلام يَبرزْنَ(٤) في درعٍ وخِمارٍ كما كانت عادتهنَّ في الجاهليَّة، لا فرْقَ بينَ الحرَّةِ والأَمَةِ في ذلك، وربَّما كانَ الشَّباب(٥) والشُّطَّارُ يتعرَّضونَ لهنَّ، فإذا عُوتِبوا فيه يقولون(٦): حسبناها أَمَةً، فأُمِرْنَ أن يحتجِبْنَ ويخالفْنَ بزيهِنَّ زِيَّ الإماء. فلذلك قال:

---

(١) في (ك): «يستتبعون».

(٢) في (ف) و(ك): «وأعضاءَهُنَّ».

(٣) في (ك): «أرخي»، وفي (ي) و(ع): «أذن».

(٤) في (ف): «يبرزون».

(٥) في (ك): «كانت الأشبال»، وفي (ي) و(ع): «كان أشبان».

(٦) في (ك): «قالوا».

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾: يُمَيَّزْنَ مِن الإماءِ والقَيْناتِ.

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: فلا يؤذيهنَّ أهلُ الرِّيبةِ[1] بالتَّعرُّض لهنَّ بما يكرهْنَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما سلَفَ منهنَّ[2] مِن التَّفريطِ ﴿رَّحِيمًا﴾ بتعليم آداب المكارم.

***

(٦٠) ـ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقِهم.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: ضعفُ إيمانٍ، أو قِلَّةُ ثَباتٍ عليه، وقيل: أهل الرِّيبةِ والفجور والزُّناة، مِن قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين يُرجِفون بأخبار السُّوء عن سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هُزِموا وقُتِلوا. وبالجملةِ: ما يكسرُ قلوبَ المؤمنين.

والإرجافُ: الإخبارُ الكاذبُ[3]؛ لأنَّه متزلزلٌ غير ثابت، يُقالُ: أَرْجَفَ بكذا: إذا أَخبَرَ به على غير حقيقةٍ، مِن الرَّجفةِ وهي الزَّلزلةُ.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ الإغـراءُ: التَّحريشُ، جُعلَ مجازاً عن قصدهم بالسُّـوء؛ أي: لئِـنْ لـم ينتـهِ المنافقون عن نفاقِهـم وكيدِهم، والفَسـقَةُ عن فجورِهـم، والمرجِفونَ

(١) في (ف) و(ي) و(ع): «الرقبة».

(٢) في (ف): «منهم».

(٣) في (ف): «الكاذبة».

عن أراجيفِهم[١] = لنأمرنَّكَ بأنْ[٢] تفعلَ بهم الأفاعيل التي تسوؤُهم من أنواع التعذيب.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عطف على ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾؛ لأنَّ النَّفيَ ممَّا يُجابُ به القسمُ، ولو قيلَ: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك، لكان صحيحاً، وإنَّما عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ لأنَّ الجلاءَ عن الأوطان كان أعظمَ عليهم من كلِّ بلاءٍ، وأشدَّ مِن كلِّ ما أُصِيبوا به مِن العذابِ، مُبْعَدٌ حالُه عن حالِ المعطوفِ عليه؛ أي: ثمَّ يُفعَل بهم ما يَضطرُّهم إلى الجلاء من المدينة، وإلى أنْ لا يساكنوك[٣] فيها إلَّا زمناً قليلاً ريثما يتهيَّؤون للرَّحيل، ويسرِّحونَ عيالَهم مِنها، ويرتحلون بهم.

* * *

(٦١) ـ ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصبٌ على الشَّتم[٤]، أو الحال؛ أي: لا يجاورونك إلَّا ملعونين، فالاستثناء شاملٌ له أيضاً؛ أي: لا يجاورونك إلا ملعونين.

ولا يجوز انتصابه بـ ﴿أُخِذُوا۟﴾ في قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾: وُجدوا ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لأنَّ ما بعد كلمة الشَّرط لا يعمل فيما قبلها.

والتَّشديدُ للدِّلالة على التَّكثير، وكذا التَّنكير.

* * *

(١) في (ف) و(ك): «إرجافهم».

(٢) في (ف): «أن».

(٣) في (م): «يساكنوا».

(٤) في (م): «الذم».

(٦٢) ـ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ ﴾ مصدرٌ مؤكِّد؛ أي: سنَّ اللهُ في الأنبياء الذين مضَوا ﴿مِن قَبْلُ ﴾ ذلك سنةً[١]، وهو الأخذُ والتَّقتيل في الذين نافقوا وأفسدوا.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ لأنَّه تعالى لم يبدِّلها، ولا يقدر أحدٌ على تبديلها.

* * *

(٦٣) ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾: عن وقتِ قيامِها، كان المشركون يسألون رسولَ اللهِ ﷺ عنها[٢] استعجالاً على سبيل الهزء والإنكار، واليهود[٣] امتحاناً؛ لأنَّ الله تعالى عمَّى وقتها[٤] في التَّوراة وفي جميع كتبِه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لم يُطْلِعْ عليها[٥] أحدَ الأنبياء ولا مَلَكاً.

ثمَّ بيَّنَ لرسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ أنَّها قريبة الوقوع؛ تهديداً[٦] للمستعجِلين، وإسكاتاً للممتحِنين.

وتذكيرُ ﴿قَرِيبًا ﴾ على تأويل الشَّيء، أو اليوم، أو الزَّمان، ويجوز انتصابه على الظَّرف، أو في زمانٍ قريب.

---

(١) في (ف) و(م): «سنة الله».

(٢) «عنها» من (ك)، وفي (ي): «عنه».

(٣) في (ك) كتب بالهامش: «وأهل الكتاب».

(٤) في (ك): «أخفاها».

(٥) في (ك) و(م): «عليه».

(٦) في (ك): «تهديد».

(٦٤) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾: ناراً مسعَّرةً شديدةَ الإيقاد.

***

(٦٥) ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ ينفعُهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

***

(٦٦) ـ ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

﴿ يَوْمَ ﴾: ظرفٌ لـ ﴿ يَقُولُونَ ﴾، أو نصبٌ بـ (اذكر) و﴿ يَقُولُونَ ﴾ حال.

﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ كما يقلَّبُ اللَّحم عند الشَّيِّ، أو من[1] حالٍ إلى حالٍ وهيئةٍ إلى هيئة[2].

وخُصَّتْ الوجوه بالذِّكر لأنَّها أشرف أعضاء الإنسان وأعزُّها، أو عبِّر بها عن الجملة.

وقرئ: (تَقَلَّبُ) بمعنى: تتقلَّبُ[3].

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ فلنْ نُبْتلى بهذا العذاب.

وزيادة الألف في ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ لإطلاق الصَّوت، جُعِلَتْ

(١) في (ف): «ومن حال»، وفي (ي) و(ع): «أو» وسقطت «من».

(٢) في (ف): «وهيشة إلى هيشة».

(٣) نسبت للحسن وعيسى وأبي جعفر الرؤاسي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠).

فواصلُ الآي كقرائن السَّجع وقوافي الشِّعر، وفائدتها الوقفُ، والدِّلالةُ على أنَّ الكلامَ قد انقطع[١]، وأنَّ ما بعدَه مستأنَفٌ.

* * *

(٦٧) ـ ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ يعنون رؤساءَ الكفر الذين لقَّنوهم الكفر وزيَّنوه لهم. وقرئ: ﴿سَادَاتِنا﴾ على جمع الجمع[٢]؛ للدِّلالة على الكفرة.

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ بما زيَّنوا لنا.

* * *

(٦٨) ـ ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ ﴾؛ أي: مثلَي ما آتيتَنا[٣] ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ لضلالِهم وإضلالهم لنا.

﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثيراً﴾: كثير العدد، وقرئ بالباء[٤]؛ أي: لعناً هو أشدُّ اللَّعنِ وأعظمُه.

* * *

(٦٩) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾.

---

(١) في (ك): «قد تمّ».

(٢) قرأ بها ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) في (ف): «أوتينا».

(٤) قراءة عاصم، وباقي السبعة بالثاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٩).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ فاستحقُّوا العذابَ في العُقبى.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ في حقِّه.

لَمَّا أظهرَ اللهُ تعالى براءَته عليه السلام ممَّا قذفوه به انقطعَ كلماتهم فيه، فبرئ عليه السلام مِن قولهم، فحصل لهم الخجالة في الدُّنيا بظهور كذبِهم وافترائِهم على رسولهم، وذلك ما مرَّ في (القصص) مِن تحريض قارون امرأةً على قذفه بنفسِها، أو اتِّهامِهم إيَّاه بقتل هارون عليه السلام، فأحياه الله تعالى فأَخبر ببراءة موسى عليه السلام، أو قرفوه[1] بعيبٍ في بدنِه مِن برصٍ أو أدرَةٍ؛ لفرْط تستُّره حياءً، فأطلعهم الله على أنَّه بريءٌ منه[2].

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾: ذا جاهٍ[3] ومنزلةٍ، فلذلك كان يدفعُ عنه التُّهمَّ[4] ويحافظ على ماء وجهِه بصونِه عن كلِّ وصمٍ[5] ونقيصةٍ.

وقرئ: (عبداً للهِ وجيهاً)[6].

***

---

(١) في هامش (ي): «قرفت الرجل؛ أي: عبته، وفلان يُقرف بكذا؛ أي: يُرمى به». وانظر: «الصحاح» (مادة: قرف).

(٢) في هامش (ف) و(ع) و(ي): «فلا حاجةَ إلى التَّأويل، لا في برئ ولا فيما قالوا، كما توهَّمه من قال: فأظهر براءته مِن مضمون مقولهم. منه».

(٣) في (ك): «وجاهة».

(٤) في النسخ: «الهم»، والمثبت من «الكشاف» (٣/ ٥٦٣).

(٥) في (ف): «وضم».

(٦) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه والأعمش وأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٥)، و«الكشاف» (٣/ ٥٦٣).

(٧٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ارتكابِ ما يكرهه فضلاً عن إيذاء[1] رسولِه.

﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ السَّدادُ: القَصْدُ إلى الحقِّ، يقال: سدَّد السَّهم نحو الرَّميَّة، إذا لم يَعْدِل به عن سَمْتِها.

قرَّر النَّهي بالأمر بالقولِ السَّديد الحقِّ، وحفظِ اللِّسان عن الكذب والغيبة والرِّيبة؛ ليتعاضد الأمرُ والنَّهي مترادفَين عليهم، مع إتباعِ النَّهي الوعدَ الشَّديد في ضمن قصَّة موسى عليه السلام، وإتباعِ الأمر الوعدَ البليغ، فيتقوَّى الصَّارفُ عن الشَّرِّ والأذى بالدَّاعي إلى الخير والتُّقى، وأفردَ القولَ السَّديد بالذِّكرِ وإن كان داخلاً في التَّقوى؛ لأنَّه اجتنابٌ عن[2] رذيلة الكذب[3] لفضله كأنَّه جنسٌ برأسه، كما خُصَّ جبريل عليه السلام مِن بينِ الملائكةِ[4].

***

(٧١) ـ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالقَبولِ والإثابة عليها، وذلك بالتَّوفيق لصالح الأعمالِ[5].

---

(١) في (ف): «عن يؤذي»، وفي (ي): «مما يؤذي»، وفي (ع): «عما يؤذي».

(٢) في (ك): «من».

(٣) في (ف): «الكفر».

(٤) من قوله: «قرر النهي بالأمر...» إلى هنا وقع في (ف) و(ك) بعد تفسير قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

(٥) بعدها في (ف) و(ك): «لا نهيٌ عن القول المؤذي لرسولِ الله».

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفِّرة باستقامتكم في القول والعمل.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ عاش في الدُّنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً.

* * *

(٧٢) - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ الإشفاقُ: خوفٌ مع اعتناء.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ تقريرٌ للوعد السَّابق بتعظيم الطَّاعة، فإنَّه لَمَّا علَّقَ الفوزَ العظيم بها أراد أنْ يقرِّر أنَّه حقٌّ لها باستعارة الأمانة لها؛ لأنَّها واجبةُ الأداء كالأمانة، وهي أنها مِن عِظَمها بحيث لو عُرِضَتْ على هذه الأجرام العِظام مع إحكامها وقوَّتها وكانت شاعرة لأبَتْ أنْ يحملنها وأشفقْنَ منها، وحملها الإنسانُ مع ضعفِ بِنْيته[1] ورخاوة قوَّته، فجدير بالقائم بحقوقِها والمراعي لها أنْ يفوزَ بخير الدَّارين، وسعادةِ المنزِلَيْنِ، وحقَّ[2] لمن أضاع حقوقَها وخانها أنْ يُرهق بأشدِّ العذاب، ويؤوبَ شرَّ المآب.

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيثُ لم يراعِ حقوقَها، ولم يؤدِّها، ولم يفِ بها.

﴿جَهُولًا﴾ حيثُ لم يعرِفْ عظمَ قدرِها وفخامةَ شأنِها، فلم يؤدِّها، وهذا حكمٌ على الجنس بحسب الأغلب.

---

(١) في (ف): «بنية».

(٢) وقع في (م) سقط لوحة، وهي من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ إلى هنا.

ووجهٌ آخرُ، وهو أنْ يراد بالطَّاعة: الانقياد لأمر الله تعالى مطلقاً، بحيث يشتمل الاختياريَّ والطَّبيعيَّ.

وبعرضها: استدعاؤُها الذي يعمُّ إرادةَ صدور ما خُلقت هذه الأجرام لها عليها[١]، وطلبَ ما خُلِقَ الإنسان له منه[٢].

وبحملِها: الامتناعُ من أدائها والخيانة فيها.

يُقال: حملَ الأمانة واحتملها: إذا لم يؤدِّها إلى صاحبها فيخرجَ مِن[٣] عهدتها وتزولَ عن ذمَّته؛ لأنَّ الأمانة إذا كانت عليه كانت كأنَّها[٤] راكبةٌ له وهو حاملها، كما يُقالُ: ركبَتْهُ الدُّيون، فإذا أدَّاها لم تبقَ راكبةً له، ولا يكون هو حاملها.

وبإبائِها حملَها[٥]: إتيانُها بما أراد الله تعالى منها طوعاً وانقياداً.

وبإشفاقِها: موافقتُها لأمر الله وامتناعُها من مخالفته.

على أنَّها مجازاتٌ، فيكون المعنى: أنَّ هذه الأجرام مع عِظَمِها وقوَّتها لم تمتنع مِن طاعتنا، وانقادَتْ لِمَا أمرناها به، وأدَّتْ أمانتنا (ولم تخُنْ، وأذعنَتْ لِمَا أردنا منها، كقوله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وأمَّا الإنسان مع كونه عاقلاً لِمَا يوجِبُ[٦] طاعتنا، فحاله بخلاف ذلك،

---

(١) في (م): «عنها».

(٢) عبارة البيضاوي: (استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره).

(٣) في (ف): «عن».

(٤) «كأنها» سقط من (ك).

(٥) في (ي) و(ع): «حاملها».

(٦) في (ك): «عالماً بوجوب»، وفي (ف): «عاقلاً لما بوجوب».

فإنَّـه حمـل الأمانـةَ ولـم يؤدِّهـا؛ أي: عصانا[١] ولـم يطع.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لأنَّه لم يؤدِّ حقَّنا وأمانتنا، ولم يفِ بعهدنا وخانَنا ﴿جَهُولًا﴾ بوخامةِ عاقبته. ولام التَّعليل للعاقبة؛ لأنَّ التَّعذيبَ يَعقب حملَ الأمانةِ.

ويجوزُ أنْ يُرادَ بالأمانةِ: العقلُ، وما يلزمُه من التَّكليف.

وبعرضِها عليهنَّ: اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنَّ.

وبإبائهنَّ: الإباءُ الطَّبعي، الذي هو عدمُ اللياقة والاستعداد.

وبحمل الإنسان: قابليَّتُه واستعدادُه لها، وكونه[٢] ظلوماً جهولاً لِمَا غلبَ عليه مِن القوَّة الغضبيَّة والشهويَّة، وعلى هذا يَحسُن أن يكون علَّةً للحمل عليه، فإنَّ مِن فوائدِ العقلِ أنْ يكون مهيمناً على القوَّتَيْنِ، حافظاً لهما عن التَّعدِّي ومجاوزةِ الحدِّ، ومعظمُ المقصودِ مِن التَّكليف: تعديلُهما وكسرُ سَورتِهما.

* * *

(٧٣) ـ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تعليـلٌ للحمْـلِ مِـن حيـثُ إنَّه نتيجتـه[٣]؛ كالتَّأديـبِ للضَّربِ، فـي: ضربتُـهُ تأديباً.

---

(١) من قوله: «لما يوجب طاعتنا...» إلى هنا سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٢) في (ف) و(ك): «بكونه».

(٣) في (ع) و(ي): «نتيجة»، وفي (م): «ينتجه»، وفي (ف): «ينتخبه». والمثبت من (ك)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي».

وذِكْرُ التَّوبةِ في الوعد إشعارٌ بأنَّ كونه ظلوماً جهولاً في جِبلَّته لا يكاد يخلو[١] عن شيءٍ منه.

وقرئ: (ويتوبُ) بالرَّفع[٢]، على أنَّ العلَّةَ قاصرةٌ على فعل الحامل، و(يتوبُ اللهُ) ابتداءُ كلامٍ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ حيثُ تابَ على فرطاتِهِ.

﴿رَّحِيمًا﴾ حيثُ أثابَ على طاعاتِهِ.

* * *

(١) في (ي) و(ع): «ينجُ».

(٢) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٠).

سُورَةُ سَبَإٍ

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قد سبقَ أنَّ في وصف المحمودِ بعد إثباتِ الحمدِ له إشعارٌ بأنَّه موجِبٌ لاستحقاقِه للحمد، فالمعنى أنَّه تعالى حقيقٌ بالحمد لأجْل إنعامه بجميع النِّعم الدنيويَّة، ولهذا عطفَ عليه بقوله:

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ـ الحمدُ على النِّعم الأُخرويَّة ـ عطفَ المقيَّد على المقيَّد؛ أي: إنَّه المحمودُ على نِعَمِ الدنيا في الدنيا، وعلى نِعَمِ الآخرةِ في الآخرة، وتقديمُ الصلة للاختصاص بكون النِّعَم الأُخرويَّة منه تعالى بلا واسطةٍ، وأمَّا نِعَمُ الدنيا فقد تكون بواسطةِ مَن يستحِقُّ الحمد أيضاً؛ لتسبُّبه لها.

والفَرْق بين الحمْدَيْن: بأنَّ الأولَ منهما واجبٌ دون الثاني؛ لأنَّه على نعمةٍ واجبةِ الإيصال إلى مستحقِّها لا يتمشَّى على أصل أهل السنَّة، وذلك ظاهر، ولا على أهل(١) الاعتزالِ؛ لأنَّهم لا يُنكِرون التفضُّلَ(٢) في الآخرة، غايتُه(٣) أنَّهم لا

---

(١) في (ف) و(ك): «أصل».

(٢) في (ف) و(ك): «التفضيل».

(٣) في (ف): «على».

يُوافقونا في كون الكلِّ تفضُّلاً[١]، ووجوبُه بحُكْم الوعد لا ينافيه؛ لأنَّ الوعدَ منه تعالى مع عدم شموله لأنواع النِّعَم الأخرويَّة فضلاً عن أفرادها، كان تفضُّلاً، وما يجب بحُكم التفضُّل لا يَخرج عن حدِّه، على أنَّه لا يَثبت به الاستحقاقُ، فلا يجدي نفعاً في دفعِ الخَلَل، فتأمَّل[٢].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، المصيبُ في أقواله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بما في الضمائر مِن السرائر، فهما للإيذان بأنَّه تعالى كما يستحقُّ الحمدَ لأنَّه مُنعِمٌ يَستحقُّه لأنَّه منعوتٌ بصفات الكمالِ، وأنَّ إنعامَه على وجه الحكمةِ والصواب، وعن علمٍ بوضع الاستحقاق والاستيجاب.

ثم فصَّل علمَه وحكمتَه بعد الإجمال بقوله:

(٢) - ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مِن ماء المطر وعروقِ النبات وأصولِ الأشجار، وأمَّا الكنوز والدفائنُ والأمواتُ فممَّا يُوضَع[٣] فيها، لا ممَّا يَلجُ فيها، والولوجُ: الدخولُ في المضيق[٤].

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: مِن مياهِ العيون والنباتِ والأشجار وحشرات الأرض، وأمَّا الفِلزَّات فممَّا يُخرَج لا ممَّا يَخرُج.

---

(١) في (ف): «تفضيلًا».

(٢) في (م): «فقال»، وسقطت من (ع) و(ي).

(٣) بعدها في (ف) و(ك): «الناس».

(٤) في (ك): «مضيق».

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: مِن الملائكة والكتبِ وقَطَراتِ الأمطار والصواعقِ وأمثالِ ذلك.

﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾: مِن الملائكة والأعمالِ والأَبْخرة والأَدخنة وغيرها، وتعديةُ ﴿يَعۡرُجُ﴾[1] بـ(في)، يقال: عَرَجَ في الدَّرجة، إذا ارتقى.

﴿وَهُوَ﴾ مع وفورِ هذه النِّعَم وسبوغِها ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالنِّعَم الدينيَّة؛ مِن العلم والحكمة والهداية ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ للمفرِّطينِ في أداءِ موجبِ[2] شكرِها، عقَّبه بهذين الوصفين تتميماً للمقصود، يعني أنَّه تعالى مع أنَّه أولاهم بتلك النِّعم وشَهدَ منهم ذلك التقصيرَ، يَزيدُ في تلك النعمة، ويَغفر لهم ذلك التفريط.

* * *

(٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ النفيُ إمَّا إنكارٌ، وإمَّا استبطاءٌ للموعود واستهزاءٌ وسخريةٌ، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يونس: ٤٨].

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ردٌّ لقولهم، وإثباتٌ لِمَا نَفَوهُ بما هو الغاية في المبالغة بتكرير[3] الإيجاب مع التأكيد القَسَمي، وإتباعِ المقسوم به بالوصف المقرِّر لوقوعه، والتعليلِ الموجب لثبوته[4].

(١) في (م): «عرج».

(٢) في (ف) و(ك): «الواجب».

(٣) في (ف) و(ك): «بتنكير».

(٤) في (ك) و(م): «لثبوته».

وقرئ: (ليأتينكم) بالياء التحتانية[١]؛ على أنَّ الساعةَ بمعنى اليوم، أو على أنَّ الفاعل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾؛ أي: ليأتينَّكم أمرُه، وعلى الأول كان المذكور رفعاً على المدح؛ أي: هو عالمُ الغيبِ، أو: مبتدأ، خبره: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾.

وقرئ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالجرِّ، صفةٌ لـ (ربِّي)، و(علَّامِ الغيوبِ)[٢]؛ للمبالغة.

و﴿لا يَعْـزُب﴾ بضمِّ الزاي وكسرِها[٣]؛ مِن العُزُوب، وهو البُعْدُ.

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: مقدارُ أصغرِ نملةٍ[٤].

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لنفي العزوب، ورفعُهما على الابتداء، ويؤيِّده القراءةُ بالفتح فيهما[٥]، على نفي الجنس، كقوله: لا حول ولا قوَّة، بالرفع والنصب.

والاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ - أي: اللوح المحفوظ[٦] - يأبى عطفَ المرفوعِ على ﴿مِثْقَالُ﴾ والمنصوبِ على ﴿ذَرَّةٍ﴾ على أنَّ فتحَه لامتناعِ

---

(١) نسبت لطليق - أو طلق - عن بعض أشياخه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٦).

(٢) قرأ ﴿عَٰلِمِ﴾ بالرفع نافع وابن عامر، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿علَّامِ﴾ بصيغة المبالغة والجر، وباقي السبعة: ﴿عالمِ﴾ بالكسر، وفيها جميعا: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ بالإفراد. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠). وذكر الزمخشري: (عالمُ الغيوب) بالرفع على المدح. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٦٨).

(٣) قرأ بالكسر الكسائيُّ، وقرأ الباقون بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٢). وكلمة: «الزاي» تحرفت في النسخ عدا (ك) إلى: «الراء».

(٤) في (ك): «أنملة».

(٥) نسبت للأعمش وقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

(٦) سقط من (ف) و(ك).

الصَّرْف، إلَّا أنْ يُجعل الضميرُ في ﴿عَنْهُ﴾ للغيب، ويُجعلَ المثبَت في اللوح بارزاً عن الغيب مشهوداً للملأِ الأَعلى، كما قال بعضُهم، ولا يُساعده المعنى؛ لأنَّ المعنى الغيبي إذا أُبرز إلى الشهادة[1] لم يَعزُب عنه، بل بقيَ في الغيب على ما كان عليه مع بروزِه، فهي جملةٌ مستقلَّةٌ، والواوُ عاطفةٌ للجملة على الجملة؛ لتَناسُبهما في بيانِ علمه تعالى لا بالغيب.

* * *

(٤) ـ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ إذ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه.

* * *

(٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالإبطال وتزهيدِ الناس فيها.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مسابقين؛ ليفوتونا، وقرئ: ﴿مُعَجِّزِينَ﴾[2]؛ أي: مثبِّطينَ الناسَ عن قَبولها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾ الرِّجْزُ: سوءُ العذاب.

﴿أَلِيمٞ﴾: مُؤلِمٌ، قرئ: بالرفع والجرِّ[3].

* * *

---

(١) في (ك): «للشهادة».

(٢) قراءة ابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٨).

(٣) قرأ بالرفع ابن كثير وحفص وباقي السبعة بالجر. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

(٦) ـ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: ويَعلمُ أولو[1] العلم مِن أصحابِ رسول الله ﷺ ومَن تابعهم مِن أمَّته، أو علماءُ أهلِ الكتاب الذين أَسلموا؛ كعبد الله بن سَلَام وكعبِ الأحبار وأضرابِهما.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ مفعولان لـ ﴿يَرى﴾، و﴿هُوَ﴾ فَصْلٌ[2]، ومَن رفع (الحقّ)[3] جعله مبتدأً، و(الحقُّ) خبراً، والجملة في موضع المفعول الثاني لـ ﴿ وَيَرَى﴾ وهو في محلِّ الرفع على أنَّه كلامٌ مستأنَف للاستشهاد بأُولي العلم على الجهلةِ الساعينَ في الآيات.

وقيل: في محلِّ النصب عطفاً على ﴿ لِيَجْزِىَ﴾؛ أي: ليَعلم العلماءُ عند مجيءِ الساعةِ أنَّه الحقُّ عياناً كما علموا[4] الآن برهاناً، فيحتجُّوا به على المكذِّبين السَّاعين، أو: ليَعلم علماءُ أهلِ الكتاب الذين لم يُؤمِنوا حينئذٍ أنَّه الحقُّ؛ فيزدادوا حسرةً وغمًّا.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّعُ بلباس التقوى.

* * *

---

(١) في (ف) و(م): «الذين أوتوا».

(٢) في (ع) و(ي): «أفضل».

(٣) حكاها أبو معاذ، ونسبت لابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«البحر» (١٧/ ٣٩٤).

(٤) في (ك): «علموه».

(٧) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال بعض كفَّار قريشٍ لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنُون محمَّداً عليه الصلاة والسلام، وإنَّما عبَّروا عنه بـ ﴿رَجُلٍ﴾ على التنكير ولم يَذكروه باسمه ـ مع شهرتِه فيما بينهم ـ للتعجُّب[1]، وإخراجِ كلامه[2] مخرجَ الأعاجيبِ التي لا يُعرَف ناقلُها وواضعُها، بل تُحكى للتلهِّي والسخرية، فلذلك أُخرجَ هو مخرج مَن لم يعرف، وفي قوله:

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ دون: يُخبركم، تأييدٌ لِمَا ذكر، فإنَّ النبأ خبرٌ فيه غرابةٌ وشأنٌ.

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾: إذا مُتُّم وفرِّقتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ نصبٌ على المصدر، أو على الظرف على أنَّه اسمُ مكانٍ؛ أي: فرِّقتم كلَّ تفريقٍ وصرتُم تراباً، أو كلَّ موضعِ تفريقٍ؛ كبطون السباع، وحواصل الطيور، ومذاهب السيول.

والعاملُ في الظرف[3] ما دلَّ عليه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: بُعثتم وجُدِّد خَلْقكم، و﴿جَدِيدٍ﴾ فَعِيل بمعنى فاعل مِن جَدَّ، أو بمعنى مفعول[4] مِن جَدَّهُ الناسِجُ إذا قَطَعهُ، وأصله في الثوب ثم شَاعَ.

وإنَّما قدِّم الظرفُ اعتناءً باستبعاده، وإيذاناً بأنَّه سببُ التعجُّب؛ لبُعدِه عن[5]

(١) في (ك): «للتعجيب».

(٢) في (ف) و(ك): «وإخراجا لكلامه».

(٣) يعني بالظرف: ﴿إِذَا﴾.

(٤) في (ك): «المفعول».

(٥) في (م): «من».

العقول، وأصله: يُنبِّئكم أنَّكم تُبعَثون ويُجدَّد خَلْقكم إذا متُّم، فقدَّم وأخَّر وبدَّل وغيَّر لما قلنا، ولذلك بالغُوا في التأكيد بـ (إنَّ) واللامِ مُتعجِّبين ومُعجِّبين مِن جزمه بالبعث؛ أي: لا يُقنَع بإمكانه، بل يُجزَم بوقوعٍ[1] محالٍ مثلِه، وهذا هو السبب في حصرِهم قولَه عليه الصلاة والسلام في الافتراء والجنون؛ بناءً على أنَّ كونه صدقاً وحقًّا أمرٌ بيِّنُ الاستحالة عندهم، فالترديد بين قِسْمي الكذب.

* * *

(٨) ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾.

﴿أَفْتَرَىٰ﴾ ألفُ استفهامٍ دخلت على الألف المجتلَبة فأَسْقَطتْها؛ للاستغناء عنها، ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: أَقصدَ وتعمَّدَ كذباً بالغاً في كَذِبه.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: أم حلَّ به جنونٌ فيقولَ بغيرِ قصدٍ، عادَلوا بين الافتراء والجنون؛ لأنَّ هذا القولَ عندهم إنَّما يَصدُر عن أَحَدِ هذين؛ لأنَّه إنْ كان يَعتقد خلافَ[2] ما أَخبر به فهو مفترٍ، وإنْ كان لا يعتقد فهو مجنون.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أَضربَ عن تقسِيمهم لبطلانه، إلى أنَّ الكافرين وقعوا بسببِ إنكارِهم للبعث وعدمِ إيمانِهم بالدار الآخرةِ[3]، في العذاب والضلال معاً، ولم يَفطنوا[4] ـ لغاية ضلالهم ـ للقِسْم الثالث الذي هو الحقُّ، وأنَّه عليه الصلاة والسلام بعيدٌ مِن القسمين المذكورين، لم يقلْ إلَّا صدقاً وحقًّا.

---

(١) في (ف) و(ك): «بوقوعه».

(٢) سقط من (ف) و(ك).

(٣) في (م): «وعدم إيجازهم أي وعدم إيمانهم بالآخرة».

(٤) في (ك): «ولم يتفطنوا لغاية».

ووُضع الموصول موضعَ الضمير للإيذان بأنَّ سببَ استبعادهم للبعث ونسبةِ الافتراء والجنون إليه ـ الذي هو الضلالُ المحض ـ إنَّما هو عدمُ إيمانهم بالآخرة.

وقُرن العذاب بالضلال إشعاراً بأنَّ العذابَ يلزم الضلالَ غير منفكٍّ عنه كأنَّهما في وقتٍ واحدٍ؛ لسرعة أداءِ الضلالِ إليه، ووصفُ الضلال بالبُعد مِن الإسناد[1] المجازي؛ لأنَّ البعدَ صفةُ الضلال إذا بَعُدَ عن الجادَّة.

* * *

(٩) ـ ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ تذكيرٌ لهم بما هم معاينوه مِن كمال قدرةِ الله تعالى، وتهديدٌ على تكذيبهم؛ أي: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أَحاط بجوانبهم مِن السماء والأرض، فيستدلُّوا بذلك على أنَّهم في سلطان الله تعالى تجري عليهم أحكامه!

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فعلنا بقارونَ ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ قطعةً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما فَعَلنا بأصحاب الأَيْكة؛ لتكذيبهم بالآيات البيِّنات بعد ظهورها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في النظر إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفهم مِن السماء والأرض ﴿لَءَايَةً﴾ بيِّنةً، ودلالةً واضحةً على قدرة الله تعالى.

---

(١) في (م) زيادة: «أي».

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: راجعٍ إلى الله تعالى؛ لأنَّ الراجعَ إليه تعالى متفكِّر[١] في آياته الدالَّة على أنَّه قادرٌ على البعث وعلى عقاب المكذِّبين.

* * *

(١٠) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ على سائرِ الناس؛ ويندرج فيه النبوَّةُ والكتاب والملك[٢] والصوت الحسن، أو على سائر الأنبياء في زمانه؛ وهو ما ذكر بعده مِن المعجزات الخاصَّة به.

﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدلٌ مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار: قولنا، أو مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار: قلنا.

﴿أَوِّبِى﴾ رجِّعي ﴿مَعَهُۥ﴾ التسبيحَ، وقرئ: (أُوْبِي)[٣] مِن الأَوْبِ؛ أي: ارْجِعي معه في التسبيح؛ لأنَّه إذا رجَّعه فقد رجَع فيه، وذلك بخَلْق صوتٍ فيها مثلَ صوتِه؛ معجزةً له، كخَلْق الكلام في الشجرة.

وقيل: سيري معه أينما سارَ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ وقرئ بالرفع[٤] عطفاً على لفظ الجبال؛ تشبيهاً للحركة البنائية -لكون بنائه بسبب العارض، وهو وقوعُ منادًى مقامَ[٥] مبنيِّ الأصل وهو كافُ أدعوكَ-

---

(١) في (ك): «يتفكر».

(٢) سقط من (ف) و(ك).

(٣) نسبت لابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

(٤) نسبت للأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

(٥) في (ي): «موقوع».

بالحركة الإعرابيَّة، أو عطفاً على فاعل: ﴿أَوِّبِي﴾؛ أي: أوبي أنتِ والطيرُ، كقوله: اشكر أنت والطيرُ، كقوله: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وبالنصب على محلِّه[١]، ولا تأييدَ في القراءة بالرفع لهذا[٢]؛ لأنَّ مبناهُ على أنْ يتعيَّن فيها العطف على لفظ الجبال، وقد عرفتَ أنَّه غير متعيِّن، أو على أنَّه مفعول معه.

وقيل: عطفاً على ﴿فَضْلًا﴾ بمعنى: وسخرنا له الطير، وأصل النظم: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويبَ الجبالِ والطيرَ، وعدل إلى هذه الصيغة للفخامة والجزالة، والدلالة على كمال قدرته تعالى وعزَّة سلطانه وكبريائه.

وجعل الجبال والطير كالعقلاءِ المطيعين الذين إذا دعاهم سمعوا وأجابوا، وإذا أَمرهم أذعنوا وأطاعوا؛ إشعاراً بأنَّ كلَّ حيوانٍ وجمادٍ مطيعٌ له ومنقادٌ لمشيئته غيرُ ممتنعٍ على إرادته.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾: وجعلناهُ له ليِّناً كالشمع؛ يُصرِّفه بيده كيف شاءَ بغير إحماءٍ بنارٍ ولا ضربٍ بمطرقة، بإلانَتِه أو بشدَّة قوَّته[٣].

* * *

(١١) ـ ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) أي: على محل الجبال، والقراءة بالنصب هي قراءة العشرة في المشهور عنهم.

(٢) رد على البيضاوي في قوله: (﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على محل الجبال، ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على لفظها).

(٣) بعدها في (ف): «عليه السلام».

﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ (أنْ) هي المفسِّرة؛ أي: أمرناهُ أنِ اعمل، أو المصدريَّة؛ أي: بأن اعمل.

﴿سَابِغَاتٍ﴾: دروعاً ضافياتٍ[1]، يقال: سَبَغَ الثوبُ، إذ غطَّى كلَّ ما هو عليه وفَضَلَ منه، والمراد: زيادته على البدن حتى يسترَ الساعدين والساقين، وهو أوَّل مَن اتَّخذها، وكانت قبل ذلك صفائحَ وكانت ثقالاً، ولذلك أَمَره بالتقدير؛ بأنْ يَجمع بين الخفَّة والحصانة؛ أي: لا تَقصِد الحصانةَ فتَثقُلَ، ولا الخفَّةَ فتزولَ المنفعةُ.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾: سَرْدِ الدِّرعِ، وهو أنْ تُحكِمَها وتجعلَ نظامَ حَلَقِها ولاءً غيرَ مختلفة[2]، ومنه سَرْدُ الكلامِ: نَظْمُه في نسقٍ واحدٍ.

وقيل: التقدير: أمر به في قَدْرِ الحَلْقة[3]؛ أي: لا تجعلها صغيرةً فتَضعُفَ ولا يَقوى الدرعُ على الدفاع، ولا كبيرةً فيُنالَ لابسُها مِن[4] خِلالها.

وقيل: هو في المسمار؛ أي: اجعل المسامير[5] على قَدْرِ الحلَق؛ لا تُغلِّظها فتُختَرقَ، ولا تُدقِّقها فتَعلقَ.

وهذان القولان[6] على الوجهين المذكورين في تفسير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، فردُّ الأخيرِ بأنَّ دروعها لم تكن مسمَّرةً مردودٌ؛ لأنَّ عدمَ الحاجة إلى التسمير على

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «صافيات»، وفي (ف): «صافنات»، والمثبت من (ك).

(٢) في (ك): «مختلف».

(٣) في (ع) و(ي): «في قدرها الحلقة» وفي (م): «وقدرها الحلقة».

(٤) «من»: ليست في (م).

(٥) في (ك): «المسمار».

(٦) في النسخ عدا (ك): «وهذين القولين».

تقدير أن يكون الحديدُ ليِّناً بإلانته تعالى، وأمَّا إذا كان على طبيعتِه وليَّنه داودُ عليه السلام بشدَّة قوَّته، فلا بُدَّ مِن التسمير، وبهذا التفصيل ظهر فسادُ ما قيل: ويؤيد الرَّدَّ المذكورَ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

﴿وَٱعْمَلُوٓاْ﴾ الضمير لداودَ عليه السلام وأهلِه ﴿صَٰلِحًا﴾ عملاً يُوافقُ أمرَ الله تعالى ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ.

***

(١٢) ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾: وسخَّرنا لسليمان الريحَ[1] فيمَن نَصَبَ، و: لِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ مسخرةٌ فيمَن رَفَعَ[2].

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾؛ أي: جَرْيُها بالغداةِ مسيرةُ شهرٍ، وجَرْيُها بالعشيِّ كذلك.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: النحاسِ المذابِ، أساله مِن معدنِ النحاس، فكان ينبعُ له نبوعَ الماء مِن الينبوع، ولذلك سمَّاه ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾، وكان ذلك باليَمَن.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ ﴿وَمَن﴾ في محلِّ النصب عطفاً على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حالٌ مُتقدِّمة، أو في محلِّ الرفع على الابتداء، و﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ خبرُه.

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: قُدَّامَه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: بتيسيره، وقد سبق وجهُ هذه الاستعارة في سورة الأحزاب.

---

(١) بعدها في (ف) و(ك): «مسخرة».

(٢) هي قراءة شعبة عن عاصم، وحفص وباقي السبعة بالنصب. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿وَمَن يَزِغْ﴾: يَعدِلْ ﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به مِن طاعة سليمان عليه السلام ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: عذابِ النار، قيل: كان معه مَلَكٌ بيده سَوطٌ مِن نارٍ؛ فمَن زَاغَ عن أمرِه، ضَرَبه ضربةً أَحْرقته.

* * *

(١٣) ـ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾؛ أي: مساجدَ، إنَّما عبَّر عن المسجد بالمحراب؛ لاختصاصه به مِن بين سائر البيوت[1].

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ صورَ الملائكةِ والنبيينَ والعُبَّادِ؛ كانت تُعمَل في المساجد على هياكلِ العبادات التي اعتادوها ليراها الناسُ، فيَعبدوا نحوَ عبادتهم، ولم يكن عملُ التصاوير إذ ذاك حراماً.

﴿وَجِفَانٍ﴾: وصِحافٍ ﴿كالجوابي﴾: جمع جابية؛ وهي الحوض الكبير[2]؛ لأنَّ الماءَ يُجبى فيها؛ أي: يُجمَع، جُعل الفعلُ لها مجازاً، وهي مِن الصفات الغالبة كالدَّابَّة.

---

(١) إن أراد بالمحراب المكان المعروف الذي يقف بحذائه الإمام، ففيه نظر على ما يفهم من كلام بعض العلماء؛ لأنه على ما قال الشهاب والآلوسي: (مما أحدث في المساجد ولم يكن في الصدر الأول كما قال السيوطي، وألف في ذلك رسالة، ولذا كره الفقهاء الوقوف في داخله). انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٩٤)، و«روح المعاني» (٢٢/ ٤٣). ورسالة السيوطي بعنوان: «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب» وقد طبعت مراراً. والقول بأن المراد بالمحاريب المساجد مبني عند الآلوسي على أن المحراب اسم لحجرة في المسجد يعبد الله تعالى فيها أو لموقف الإمام.

(٢) قوله: «جمع جابية وهي الحوض الكبير» تأخَّر في (ف) و(ك) إلى ما بعد قوله: «مجازاً».

وقرئ بحذف الياء اكتفاءً بالكسرة(١)، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦].

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: ثابتاتٍ على الأَثافي لا تنزلُ عنها؛ كنايةً عن عِظَمِها، وهذه الكنايةُ كانت في منزلة التشبيه في قرينها.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكايةٌ لِمَا قيل لهم، و﴿شُكْرًا﴾ مفعوله، أو حالٌ بمعنى: شاكرين، أو نصبٌ على المصدر؛ أي: اشكروا شكراً، وحُذفَ فِعْله لدلالة ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ عليه مِن حيث إنَّ العملَ للمُنعِم شكرٌ له، ويجوز أن يكون مفعولاً به على طريقة المشاكلة، بمعنى: إنَّا سخَّرنا لكم الجِنَّ يعملونَ لكم ما شِئتم، فاعملوا أنتُم لنا شكراً.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه ولسانِه وجوارحه في أكثرِ أوقاته(٢).

* * *

(١٤) ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾: على سليمانَ ﴿ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ﴾ الضمير للجِنِّ ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي الأَرَضةُ اسمها: السُّرْفَة، والأَرْضُ ـ وهو تأثُّر الخشبة منها ـ فِعلُها(٣)، فأُضيفت إليه.

---

(١) أثبت الياء وصلًا ووقفاً ابن كثير، وأثبتها في الوصل ورش وأبو عمرو، وباقي السبعة بحذفها. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٢).

(٢) في (ف) و(ك): «الأوقات».

(٣) في (ك): (بفعلها).

﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ المِنْسَأة: العصا؛ لأنَّه يُنسأُ بها؛ أي: يُطرد ويُؤخَّر، وقرئ: بفتح الميمِ وتخفيفِ الهمزة قلباً وحذفاً(١)، وكلاهما ليس بقياسٍ، ولكن [إخراج الهمزة بينَ بينَ هو] التخفيف القياسي.

و: (مِنْسَاءته) على مِفْعالَة(٢)، كما يقال في المِيْضَأة: مِيْضاءَة.

و: ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾(٣)؛ أي: مِن طَرَفِ عصاهُ، استُعيرت مِن سَأَةِ القوسِ، وفيه لغتان؛ كقَحَةٍ وقِحَةٍ.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ مِن تَبيَّن الشيءُ: إذا ظَهَر وانجلى(٤)، أو مِن تَبيَّنَهُ: إذا تحقَّقه.

﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ ﴿أَن﴾ مع صلتها بدلٌ مِن ﴿ٱلۡجِنُّ﴾ بدلَ الاشتمال؛ كقولك: تبيَّن زيدٌ جهلُه؛ أي: تبيَّن جهلُ زيدٍ، أو مفعول به.

وعلى الأول الظهور في المعنى للمُبدَل مِن الجنِّ لا لهم؛ أي: ظهر أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

وعلى الثاني معناه: تحقَّق الجنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ كما يزعمونَ لعلموا

---

(١) أي: بقلبها ألفاً، أو بحذفها بالكلية، فهما قراءتان ذكرهما في «الكشاف» (٣/ ٥٧٣) والكلام وما سيأتي بين معكوفتين منه، و«البحر» (١٧/ ٤١٤).
وقرأ بالتسهيل لكن مع كسر الميم نافع وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٧٣)، و«البحر» (١٧/ ٤١٤).

(٣) نسبت لعمرو بن ثابت عن سعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٦).

(٤) في (م): «وتجلى».

بموته حالَ وقوعه فلم يَلبثوا بعده حولاً في تسخيره، أو: عَلِم الجنُّ كلُّهم عِلْماً بيِّناً بعد التباسِ الأمرِ على عامَّتهم وضَعَفَتهم، وتوهُّمهم أنَّ كبراءَهم يَصدُقون في ادِّعائهم علم الغيب.

***

(١٥) - ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ الانتظامُ بيِّنٌ في القصَّتين؛ أنَّ الأولى في مدح الشَّكور، والثانيةَ في ذمِّ الكفور وبيانِ جزاءِ كفرانه.

وقرئ: ﴿لِسَبَإٍ﴾ مُنصَرِفاً؛ أي: لأولادِ سبأٍ، وهو سَبَأُ بنُ يَعْرُبَ بنِ قَحطانَ، وبالفتح ممنوعاً عن الصَّرْف[١]؛ على معنى القَبيلة أو المدينة، و: (سبا) بقلب الهمزة ألفاً[٢].

﴿فِي مَسْاكِنِهِمْ﴾: مواضعِ سُكْناهم، وهي باليمن، يقال لها: مَأْرِب، وقرئ: ﴿مَسْكِنِهم﴾ بفتح الكاف وكسرها[٣] حملاً على ما شذَّ مِن القياس، كالمَسْجد والمَطْلِع.

﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: عَلَامةٌ تدلُّ أنَّ لهم إلهاً خَلَقَهم ورزقهم؛ لأنَّ ما أَعطاهم مِن أنواع الشجر وألوانِ الثمر كان خارجاً عن وُسْعِ البشر.

---

(١) قرأ أبو عمرو، البزيُّ عن ابن كثير: ﴿لِسَبَأَ﴾، وقرأ قنبل: ﴿لِسَبأْ﴾، وقرأ الباقون: ﴿لِسَبَإٍ﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧).

(٢) قرأ بها ابن كثير في غير المشهور عنه. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٤٤).

(٣) قرأ بالكسر الكسائي، وقرأ بالفتح مفرداً حمزة وحفص، وقرأ الباقون بالكسر جمعاً. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل مِن ﴿ءَايَةٌ﴾، أو: خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هي جنتان، وقرئ بالنصب[١] على المدح، ودلَّ ذلك على أنَّ في رفعه معنى المدح، والمراد: جماعتان مِن البساتين، لا بستانان اثنان.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمينِ بلدهم، وجماعة عن شمالِه، كلُّ واحدٍ منهما لتقارب بساتينها وتضامِّها[٢] والتفافِ أغصانها كجنَّةٍ واحدةٍ، أو بستانُ كلِّ رجلٍ منهم عن يمين مسكنه وشماله.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ حكايةٌ لِمَا قيل لهم؛ أي: قلنا على لسانِ الأنبياء عليهم السلام المبعوثين إليهم، أو هم أحقَّاء بأنْ يقال لهم، أو قال لهم لسانُ الحال.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ لم تكن سَبْخةً، ولا عاهَةَ فيها ولا هامَّةَ، استئنافٌ للدلالة على مُوجِب الشكر، وتعليلٌ للأمر؛ أي: هذه البلدةُ التي فيها رزقُكم بلدةٌ طيبة.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾: وربُّكم الذي رَزَقكم وطَلَبَ شُكرَكم ربٌّ غفورٌ فَرطاتِ مَن يَشكُره.

وقرئ: (بلدةً.... وربًّا) بالنصب على المدح[٣]، أو: اسْكُنوا واعبدُوا.

* * *

(١٦) ـ ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

---

(١) أي: (جنتين)، ونسبت لابن أبي عبلة. انظر: «البحر المحيط» (١٧/ ٤٢٠).

(٢) في (ف) و(ك): «ونظامها».

(٣) نسبت ليعقوب في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ عن الشُّكر ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ جمع: عَرِمَة؛ وهي الحجارةُ المركومةُ، والمراد: المُسنَّاةُ التي عقدوها سِكْراً.

وقيل: ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ اسمُ الوادي الذي فيه السِّكْرُ، أو الوادي الذي جاء منه السيلُ، وقيل: المطرُ الشديدُ، أو الجُرَذ الذي نَقبَ السِّكْرَ عليهم.

﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ تسميةُ اللهِ لهم جنَّتين؛ للمشاكَلَة مع التهكُّم.

﴿ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ﴾ الأُكُل بالضَّمِّ والسكون: الثَّمر، والخَمْطُ: شجرُ الأراك، وقيل: كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ، وقيل: كلُّ نبتٍ أَخذ طعماً مِن مرارةٍ حتى لا يُمكِن أكلُه.

وقرئ: ﴿أُكُلٍ﴾ بالتنوين، والإضافة إلى ﴿خَمۡطٍ﴾[1]، وإذا نوِّن جعل ﴿خَمۡطٍ﴾ بدلاً منه، كأنَّه قيل: ذواتي أُكُلٍ بشعٍ، أو جعل أصله: ذواتي أُكُلِ أُكُلِ خمطٍ، بحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، وأمَّا الإضافة؛ فلأنَّ الخمطَ في معنى البَرير وهو ثمرُه.

﴿وَأَثۡلٍ﴾: شجرٌ يُشبِه الطَّرْفاءَ أعظمُ منه وأجودُ عوداً.

﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ السِّدْر: شجرُ النَّبِق، وهو ممَّا يطيبُ أكلُه، ولذلك كان يُغرَس في الجنان الأُوَل[2] ويُرغَب فيه، ولذلك قيَّده بالقلَّة، وبالغَ فيه بقوله: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ﴾؛ أي: بقيَ أثرٌ مّا منه على[3] الجنانِ المُبدَلة يتذاكرونَ به ما كان

---

(١) قرأ بالإضافة أبو عمرو، وباقي السبعة بالتنوين. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

(٢) «الأول» ليس في (ف) و(ك).

(٣) في (ك): «في».

ويتحسَّرون عليه، والأَثْلُ والسِّدرُ معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنَّ ﴿الأثل﴾ لا أُكُلَ له.

وقرئ: (وأثلاً.... وشيئاً) بالنصب(١)؛ عطفاً على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

* * *

(١٧) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾: بسبب كفرانهم النعمةَ، أو: بسبب كفرِهم بالرُّسل، وتقديم المفعول على ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾(٢)؛ للاهتمام والتعظيم، ولذلك أُشير إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾(٣) لمَّا استُعمل الجزاءُ في معنى العقاب قيل: هل نُجازي، بمعنى: نعاقب؛ أي: هل نُجازي بمثلِ هذا الجزاءِ، وهو العقابُ العاجلُ ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾: إلَّا البليغَ في الكفران أو الكفرِ.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعةِ على أهلها، وهي قرى

---

(١) نسبت للفضل بن إبراهيم. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).

(٢) في (م): «مع جزينا».

(٣) في (م): «يجازى»، وهي والمثبت قراءتان سبعيتان، فقد قرأ حفص وحمزة والكسائيّ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ بالنُّون وكسر الزَّاي ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ بالنصب، والباقون بالياء وفتح الزَّاي والرَّفع. انظر: «التيسير» (ص: ١٨١).

الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾: متواصلةً يُرى بعضُها مِن بعضٍ، أو: راكبةً متنَ الطريق ظاهرةً للسابلة[1].

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ قيل: كان الغادي[2] منهم يَقيلُ في قريةٍ، والرائحُ يبيتُ في قريةٍ، إلى أنْ يَبلُغ الشامَ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدوًّا، ولا يحتاج إلى حملِ زادٍ ولا ماءٍ.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادة القول بلسان الحال، إذ لا قولَ لهم ثمَّة، ولكنْ لمَّا هيِّئت أسبابُهم ومُكِّنوا مِن السير، كأنَّهم[3] أُمِروا بذلك وأُذِنوا فيه.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ أي: إنْ شئتم بالليل، وإنْ شئتم بالنهار؛ فإنَّه لا يختلف الأمرُ فيها باختلاف الأوقات.

أو: سيروا فيها آمنينَ وإنْ طالت مدَّةُ سفرِكم وامتدَّت أياماً وليالِيَ.

أو: سيروا لياليَ أعمارِكم وأيامَها لا تَلقَون فيها إلَّا الأمنَ.

* * *

(١٩) ـ ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ سئموا أطيبَ العيشِ، وملُّوا[4] العافيةَ والترفُّهَ، وبَطِروا النعمةَ، فطلبوا الكدَّ والتعبَ، كما طَلَب بنو إسرائيل الثومَ والبصلَ مكانَ

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «للسائلة».

(٢) في (ف) و(ك): «القادم».

(٣) في (م): «كأنه».

(٤) في (ك): «وهو».

المَـنِّ والسَّـلْوى، وهـو بـأن[(١)] يَجعـل اللهُ تعالـى بينهـم وبيـن الشـام مفـاوزَ ليرَكبـوا الرواحـلَ ويتـزوَّدوا الأزوادَ[(٢)]، ويتطاولـوا بهـا على الفقـراء، فجعل اللهُ لهـم الإجابةَ بتخريـب القرى المتوسِّـطة.

وقرئ: ﴿ربُّنا باعَدَ﴾[(٣)] على لفظِ الخبر، ومعناه على خلاف ذلك[(٤)]، وهو استبعادُ مسائرهم على قصدِها ودنوِّها لفَرْط تنعُّمهم وترفُّههم، وعدمُ الاعتداد بما أُنعم عليهم فيه، كأنَّهم[(٥)] تشاحُّوا على ربِّهم وشَكَوا إليه.

ومثله قراءةُ مَن قرأ: (ربُّنا بَعَّدَ)[(٦)]، أو: (ربَّنا بَعُدَ) على النداء، ورفعِ (بينُ)[(٧)] بإسناد الفعل إليه.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث بَطِروا النعمةَ ولم يعتدُّوا بها.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾؛ أي: عظاتٍ وعِبَراً، يُتحدَّث بهم ويُتمثَّل، فيقال: تفرَّقوا أَيدي سَبَا.

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: وفرَّقناهم[(٨)] ....

---

(١) في (ك): «أن».

(٢) في (م): «ويزدادوا الأزاود».

(٣) قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٠).

(٤) سقط من (ك).

(٥) في (ك): «قيل كانوا».

(٦) نسبت لابن عباس وابن الحنفية وابن يعمر وآخرين. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٦).

(٧) نسبت لسعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١٦).

(٨) في هامش (ف) و(ي): «عبارة القاضي: ففرقناهم، ولا يخلو ما فيها من سوء الأدب الناشئ عدم الوقوف عن فصاحة الواو الواقعة في كلام الله تعالى. منه.».

غايةَ التفريق، لَحِقَ غسَّانُ بالشام، وأنْمار بيثربَ، وجذام بتِهامة، والأَزْد بعُمَان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على الطاعة والبلاءِ ﴿شَكُورٍ﴾ للنِّعم في الرخاء.

* * *

(٢٠) - ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنصب؛ أي: حقَّق عليهم ظنَّه صادقاً.

وقرئ: بنصب (إبليسَ) ورفع (ظنُّه)[1]؛ أي: وَجَدَهُ ظنُّه صادقاً.

وقرئ بتخفيف ﴿صَدَّقَ﴾[2] على الوجهين:

ومعنى الأول[3]: صَدَقَ إبليسُ في ظنِّه، أو: صَدَقَ يَظنُّ ظنًّا، نحو: فعلتَه جهدَك؛ أي: أن تجهدَ جهدَك.

ومعنى الثاني[4]: قال له ظنُّه الصدقَ حين خيَّلَه إغواؤهم يقولون: صَدَقَكَ ظنُّك.

وبالتخفيف ورفعِهما[5]؛ على أنَّ (ظنُّه) بدلٌ منه؛ أي: صَدَقَ عليهم ظنُّ إبليسَ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٨٩)، و«الكشاف» (٣/ ٥٧٨).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتشديد، والباقون بالتخفيف. انظر: «التيسير» (ص: ١٨١).

(٣) أي: تخفيف (صَدَق) ورفع (إبليسُ) ونصب (ظنَّه)، وهي قراءة سبعية كما تقدم.

(٤) أي: تخفيف (صَدَق) ونصب (إبليسَ) ورفع (ظنُّه)، وهي قراءة شاذة كما تقدم. أما تشديد (صدَّق) مع كل من القراءتين فقد تقدم توجيهه، وكل القراءات مع توجيهها منقول من «الكشاف».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١)، و«الكشاف» (٣/ ٥٧٨).

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ إنْ جعلنا الضمير هنا وفي ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ لبني آدم، كان كالبرهان على أنَّ أهلَ سَبأ اتَّبعوا الشيطان فأَغواهم.

ومعنى صِدْقِ ظنِّ إبليسَ في تخييله إغواءَهم: أنَّه حين وجد آدمَ عليه السلام ضعيفَ العزم، وقد أَصغى إلى وسوسته، قال: إنَّ ذرِّيَّته أضعفُ عزماً منه، فظنَّ بهم اتِّباعَه، وقال: لأُضلنَّهم ولأُغوينَّهم.

﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قلَّل المؤمنين بالنسبة إلى الكفَّار على أنَّ ﴿مِّنَ﴾ للبيان؛ أي: إلَّا فريقاً منهم المؤمنون؛ لقوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وإنْ كان للتبعيض، فهم المخلَصون لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

* * *

(٢١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾؛ أي: مِن تسلُّط واستيلاءٍ بالوسوسة والاستعلاء.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: إلَّا ليَظهر علمُنا بإيمانِ مَن آمَنَ، وشَكِّ مَن شَكَّ؛ بتميُّزهم عن[1] مظاهر الرسول والمؤمنين.

وقرئ: (ليُعلَم) على البناء للمفعول[2].

والمرادُ بالعلم متعلَّقُه؛ ليترتَّب عليه الجزاءُ، ولذلك علَّل التسلُّطُ به.

---

(١) في (ف) و(ك): «على».

(٢) نسبت للزهري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

وفي[١] قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ وتغيير نظم الصِّلتين بإيرادِ الجملة الاسميَّة، وتنكيرِ الشَّكِّ، وجعلِه مَقَرًّا لهم، ما لا يخفى؛ أي: ممَّن هو راسخٌ في الشَّكِّ عظيمٌ لا يَرعوي منه؛ أي: لا يتوب وعلى الكفر يموت.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظٌ، والزِّنَتان متآخِيتان[٢].

***

(٢٢) - ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

﴿قُلِ﴾ للمشركين: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ حُذف مفعولا ﴿زَعَمْتُم﴾، والتقدير: زعمتُموه آلهةً؛ أمَّا الأول: فلطول الموصول بصلته، وأمَّا الثاني: فلقيام صفته مقامه، وهو: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وهو حذفٌ شائعٌ إذا كان معلوماً، ولا يستقيم أن يكون هو مفعولَه الثاني؛ لأنَّ قولك: هم مِن دون الله، لا يلتئم[٣] كلاماً ولا[٤] ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يَزعموا ذلك بل نقيضَه، والمعنى: ادعُوهم فيما يهمكُّم مِن جَلْبِ نفعٍ ودفعِ ضُرٍّ، كما تَدْعون اللهَ تعالى، هل يستجيبون لكم بشيء؟!.

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ بأنفسهم واختيارِهم ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، أو نفعٍ

---

(١) في (ك): «في».

(٢) أي: فعيل ومفاعل يردان بمعنى واحد كثيراً؛ كالجليس بمعنى المجالس، وليس المحافظ بمعنى: المواظب المداوم، بل بمعنى: الوكيل القائم على أحواله وأموره. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٠٠).

(٣) في (ف) و(ك): «يتم».

(٤) في (ف) و(ك) و(م): «و» دون كلمة «لا».

أو ضُرٍّ، استئنافُ الجوابِ عنهم بعدَ أمرِهم إشعارٌ بأنَّه متعيِّن ضروريٌّ لا يَحتمل غيرَه، ولا يُمكنهم الإفصاح عنه لكونه حجَّةً عليهم.

قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعميمٌ عرفيٌّ؛ أي: لا يملكون شيئاً مّا في موضعٍ مّا، أو لأنَّ آلهتهم بعضها سماويَّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيَّة كالأصنام، أو لأنَّ الأسبابَ القريبةَ للخير والشَّرِّ إمَّا سماويَّةٌ وإمَّا أرضيَّة، والجمل المعطوفة على الاستئنافية كلُّها لبيان منافاةِ صفاتهم للألوهيَّة بالكلية إلزاماً لهم.

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾: في هذين الجنسين؛ مِن شركةٍ في خَلْقهما ولا في ملكِهما.

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾: مِن مُعِينٍ[1] يُعينه على خَلْقهما وتدبيرهما، يعني أنَّهم في العَجْز والبُعْد عن صفات الربوبيَّة بهذه المثابة، فكيف يصحُّ أنْ يُعبَدوا ويُدعَوا ويُرجَوا كما يُعبَد اللهُ تعالى ويُدعى ويُرجى؟!.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: لا تَنفعهم مِن جهة الشفاعة أيضاً كما تزعمون[2]، إذ لا تنفع الشفاعة عنده ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ قرئ على البناءَين[3].

---

(١) في (م): «عون».

(٢) في (ف) و(ك): «تدعون».

(٣) قرأ بالبناء للمجهول أبو عمرو وحمزة والكسائي، والباقون للمعلوم. انظر: «التيسير» (ص: ١٨١).

أي: إلَّا لمن أَذِنَ له أن يَشْفَعَ، أو: لمن أَذِنَ أن يُشْفَعَ له[١]؛ فإنَّ اللامَ المتعلِّقة بالشفاعة قد تكون للشافع، وقد تكون للمشفوع له، والأليق بهذا الموضع أن تكون بمعنى المشفوع له، واللام الثانية كالثابتة[٢] في قولك: أذن لزيدٍ لعمرٍو؛ أي: لأجْله، والمعنى: لا تنفع الشفاعةُ إلَّا كائنةً لمَن وقع الإذنُ للشفيع لأجله، حتى يكون ردًّا[٣] لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ أي: لا تنفعكم شفاعتهم؛ لأنَّهم لا يُؤذَنون أن يشفعوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غايةٌ لمفهوم الكلام، فإنَّ توقُّفَ الشفاعةِ على الإذن مُؤذِنٌ بأنَّ ثمَّة انتظاراً للإذنِ وفزعاً للراجينَ للشفاعة والشفعاء مِن أنْ لا يُؤذَن لهم، كأنَّه قيل[٤]: يتربصونَ فزعينَ حتى كُشفَ الفزعُ عن قلوبهم بالإذن في الشفاعة.

والتفزيع: كشف الفزع وإزالتُه.

وقرئ: مخفَّفاً بمعنى المشدَّد[٥].

وقرئ: بالراء المهملة والغين المعجمة[٦]؛ أي: نُفِيَ الوجلُ عنها وأُفنيَ، من قولهم: فرَغَ الزادُ، إذا لم يبقَ منه شيءٌ.

---

(١) الظاهر من كلام المفسرين أن كلا هذين الوجهين يصلح على كل من القراءتين لا أن أحدهما على القراءة بالمبني للمعلوم والآخر على القراءة بالمبني للمجهول. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٨٠)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٤٦)، و«روح المعاني» (٢٢/ ٨٩ ـ ٩٠).

(٢) في (ع) و(ي): «كالثالثة»، وسقطت من (ف) و(م)، والمثبت من (ك).

(٣) في (ك): «راداً».

(٤) في (ك): «قال».

(٥) نسبت للحسن. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩١).

(٦) أي: (فُرِّغَ)، ذكرها الزمخشري دون نسبة، ونسبها أبو حيان لابن عمر والحسن وقتادة وغيرهم. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٨٠)، و«البحر» (١٧/ ٤٤١).

و: (فَرغَ) مشدَّداً ومخفَّفاً[1].

أصل ﴿فُزِعَ﴾ بالزاي المعجمة: فُزِّعَ الوجلُ عنها، ثم تُركَ ذِكْرُ الوَجَلِ وأُسند إلى الجارِّ والمجرور، كما تقول: دُفِعَ إلى زيدٍ، إذا عُلمَ المدفوعُ.

وأصل المخفَّف: فَزِع[2] الوَجَلُ؛ أي: انتفى عنها وفَنِيَ، ثم حذف الفاعل وأُسند إلى الجارِّ والمجرور.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: قالوا: قال القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ بالشفاعة لمَن ارتضى مِن المؤمنين. وقرئ: (الحقُّ) بالرفع[3]؛ أي: مقولُه الحقُّ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: ذو العلوِّ والكبرياء، وليس لمَلَكٍ مُقرَّب ولا نبيٍّ مُرسَل أنْ يتكلَّم ذلك اليومَ إلَّا بإذنه وأنْ يشفعَ إلَّا لمَن ارتضى.

* * *

(٢٤) - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، ولذلك أَمَرَ بالجواب بعد سؤالهم بقوله:

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ لتعيُّنه عند العقل، وفيه إشعارٌ بأنَّهم إنْ سكتوا وتلعثموا في الجواب

---

(١) قرأ الحسن وقتادة وأبو المتوكل: (فَرَّغَ) بالتشديد مبنيا للفاعل، وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلا أنه خفف الراء. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٢)، و«البحر» (١٧/ ٤٤١).

(٢) في (ع) و(ف): «فرغ»، وسقطت الجملة من (م) و(ي)، والمثبت من (ك).

(٣) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «البحر المحيط» (١٧/ ٤٤٣).

مخافةَ الإلزام، فهم مُقِرُّون بقلوبهم؛ لعِلْمهم أنْ لا جوابَ إلَّا هذا، وإن ألجم العناد وحبُّ الشرك أفواههم أنْ ينطقوا به.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وإنَّ أحدَ الفريقين: مِن الموحِّدين الذين يخصُّون الرازقَ وحده المتفرِّدَ بالقدرة الواجبَ لذاته بالعبادة، ومِن المشركين الذين يشركون الجمادَ النازلَ في أدنى مراتب الإمكان، لعلى أَحَدِ الأمرين مِن الضلال والهدى، وهو غايةٌ في الإنصاف الذي كلُّ مَن سمعه مِن الموافق والمخالف رضيه.

وفي طيِّهِ ـ بعد ما تقدَّم مِن التقرير البليغ ـ تعريضٌ بمَن هو في ضلالٍ مِن الفريقين ومَن هو على الهدى أبلغُ مِن التصريح؛ لأنَّه في صورة الإنصاف المُبكِّت للخصم المشاغِب.

وإنَّما خُولف بين حرفَي التعدية؛ لأنَّ المُحِقَّ كالمستعلي على جوادٍ يَركضُه حيث يَشاءُ، أو على منارٍ مُشرفٍ على كلِّ أحدٍ مطَّلع على كلِّ شيء، والمبطلَ كالمحبوس في مطمورة لا يمكنه التفصِّي منها، لا يرى ما على وجه الخلاص، أو كالمنغمسِ في ظلامٍ مُرتبِك لا يَرى وجهةً يتوجَّه إليها، ثم أَتبعه بقوله:

(٢٥) ـ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بما هو أبلغُ مِن الأول في إرخاءِ العَنانِ والإنصاف، وبالغ فيه حتى بلغَ ذروةَ الإخبات[1]، حيث نسب الإجرامَ إلى نفسِه وأصحابِه، والعملَ إليهم، وهو بناءٌ على الفَرْض والتقدير، فلا يلزم إجرامُهم ولا يخلو عن التعريضِ المذكورِ أيضاً مع التهكُّم.

---

(١) الإخبات: الخضوع والتذلل، والمراد هنا: حتى بلغ ذروة إخباتهم وإسكاتهم.

(٢٦) ـ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾: يَحكم ويفصل بأنْ يُدخِل المحقِّين الجنةَ والمبطلينَ النارَ.

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾: الحاكم الفصل في القضايا المنغلقة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أنْ يقضى به.

* * *

(٢٧) ـ ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾: استفسارٌ عن شُبهتهم بعد إلزامهم الحجَّةَ؛ تبصيراً إيَّاهم بخطائهم العظيم، وزيادةً في التبكيت؛ أي: أَرونيهم بأيِّ صفةٍ أَلحقتموهم به في استحقاقِ العبادةِ، وأشركتُموهم به في التعظيم، وكيف قايَسْتُم الجمادَ الذي هو في غاية العَجْز والذِّلَّة، بالقادر الذي قَهر كلَّ شيء بقدرته[1].

﴿كَلَّا﴾: ردعٌ لهم عن دينهم[2] بعدما بصَّرهم بإبطاله عند المقايسة.

﴿بَلْ﴾ إضرابٌ بعد الرَّدع عن الشرك إلى حَصْر الإلهيَّة في الله تعالى ومحضِ التوحيد.

﴿هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: الموصوفُ بالغَلَبة وكمالِ القدرة والحكمةِ، تنبيهٌ لهم على تفاحش غلطهم وتعامِي بصائرهم، كأنَّه قال: أينَ شركاؤكم مِن هذا الوصف؟! وهو راجعٌ إلى الله تعالى، أو ضميرُ الشأن كما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

(١) في (م): «بالقدرة».

(٢) في (ك): «ذنبهم».

أَحَدٌ ﴾ وكيف ما كان فهو دالٌّ على انفراده بالوصفين، الملقِم إيَّاهم الحجرَ[١].

***

(٢٨) - ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾: ﴿ كَآفَّةً ﴾ مِن كفَّ: إذا منعَ، صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: إرسالةً عامَّةً محيطةً بهم، مانعةً لهم مِن أنْ يَخرج منهم أحدٌ.

وقال الزجَّاج: جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ[٢]، فجعله حالاً مِن الكاف، وحقُّ التاء على هذا أن يكون للمبالغة كتاءِ الرَّاوية والعَلَامة.

ويجوزُ جعلُه حالاً مِن (الناس) متقدِّمةً، فإنَّ تقدُّم الحالِ على صاحبه المجرورِ مختلَفٌ فيه؛ فذهب أبي عليٍّ وابنِ كيسان وابنِ برهان وابنِ مالك إلى أنَّه يجوز، وهو الصحيح، ولا حاجة حينئذٍ إلى أنْ تُتأوَّل اللام بمعنى (إلى)؛ فإنَّ (أرسل) يتعدَّى باللام، كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ [النساء: ٧٩].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾: للمطيعين والعاصين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: فيَحملهم جهلُهم على مخالفتك.

***

(٢٩) - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ مِن فَرْط تعنُّتهم لا مِن فَرْط جهلِهم، ولذلك عطف بالواو دون الفاء:

---

(١) في (ك): «الملهم إياهم الحجة».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٤).

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعنون المبشَّرَ به والمنذَرَ عنه، أو الموعودَ بقوله: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به رسولَ الله ﷺ والمؤمنين.

ولمَّا كان سؤالهم عن تعيين الميعاد تعنُّتاً وإنكاراً لا استرشاداً، جاء الجوابُ تهديداً ووعيداً مطابقاً لِمَا قصدوه:

* * *

(٣٠) ـ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعادُ ظرفُ الوعد مِن مكانٍ أو زمانٍ، وهو هاهنا الزمانُ، والإضافةُ للتبيين، كما تقول: سَحْقُ ثوبٍ[1]، قيل: ويؤيِّده أنَّه قُرِئَ: (ميعادٌ يومٌ)[2] فأُبدل منه اليوم، وقرئ: (يوماً)[3] على التعظيم، وتقديره: لكم ميعادٌ، أعني: يوماً، ويجوز أن يكون الرفع أيضاً على التعظيم.

﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ أي: إذا فاجأكم لا تستطيعونَ عنه تأخُّراً ولا عليه تقدُّماً.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) السحق: الثوب الخلق الذي انسحق وبلي، ويضاف للبيان فيقال: سحق بُرْدٍ، وسحق عمامة، وسحق ثوب. انظر: «النهاية» (مادة: سحق)، و«المغرب» (ص: ٣٨٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٨٣)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٥٠).

(٣) أي: (ميعادٌ يوماً)، نسبت لليزيدي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب المتقدِّمة المنزلةِ على الأنبياء عليهم السلام الدالَّة على البعث.

روي أنَّ كفارَ مكَّة سألوا أهلَ الكتاب عنه، فأخبروهم أنَّهم يَجدون نعتَه في كتبهم، فغضبوا وقالوا ذلك.

وقيل: (الذي بين يديه) القيامةُ، ثم أخبر عن صورةِ حالِهم في الآخرة فقال له عليه السلام أو لكلِّ مَن يستحقُّ أنْ يُخاطَب:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: لو ترى في الآخرة موقفهم عند المحاسبة وهم يتحاورون[١] ويتراجعون[٢] القولَ، وجواب (لو) محذوف للدلالة على ما لا يدخل تحت الوصف مِن العَجَب والهولِ والفزعِ.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾؛ أي: الأَتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للرؤساء: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾: لولا إضلالُكم وصدُّكم عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتِّباع الرسول.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾ أتى بصيغة المضارع تصويراً للحال، ثم عدل عنها إلى الماضي، ولذلك ترك العاطف هنا.

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «يتجاوزون».

(٢) في (ك): (ويراجعون).

﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ قد يُتَّسع في ظروفِ الزمانِ ما لا يُتَّسع في غيرها؛ فيُضاف بعضُها إلى بعضٍ وإلى الجملِ، فلذلك أضيف ﴿بَعْدَ﴾ إلى ﴿إِذْ﴾، و﴿إِذْ﴾ إلى الجملة.

﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أَولى الاسمَ الهمزةَ؛ لإنكارِ أنْ يكونوا هم الصادِّين إيَّاهم عن الهدى بعد إذ جاءهم وتمكَّنوا منه، وإثباتِ أنَّهم الذين صُدُّوا باختيارهم وآثروا الضلالَ على الهدى، ولذا أضرب عن دعواهم الإضلالَ عليهم إلى أنَّهم هم الذين أجرموا بكسبهم[1].

* * *

(٣٣) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ عطف هذا الكلام على كلامِهم الأول بالواو[2] دون كلام المستكبرين في جوابهم؛ لأنَّه ابتداءُ جوابٍ حقُّه الاستئنافُ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ كرَّر المستضعفون عليهم، وقابلوا إضرابهم بقولهم:

﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ مبطلينَ إضرابَهم بالإضرابِ عنه إلى أنَّ الإضلالَ كان مِن جهةِ مكرِكم الدائم، وحملِكم إيَّانا على الشرك واتخاذ الأنداد، لا مِن جهتنا واختيارِنا، وأُضيف المكر إلى الظرف على الاتِّساع وإجراءِ الظرف مجرى

---

(١) في (ك): «بسببهم».

(٢) سقط من (ك).

المفعول به؛ أي: مكرُكم لنا في الليل والنهار، ويجوز أن يكون إضافةُ المكر إلى الليل والنهار مِن باب الإسناد المجازي، وإضافةِ المصدر إلى الفاعل؛ بجعل الليل والنهار ماكرين.

وقرئ: (مكرٌ الليلَ والنهارَ) بالتنوين ونصبِ الظرفين[1] على الأصل.

و: (مَكَرّ الليلِ والنهارِ) بالرفع والنصب[2]؛ مِن الكُرُور.

أمَّا الرفع: فعلى الابتداء أو الخبر؛ أي: سببُ ذلك مكرُكم أو مكرُّكم، أو مكرُكم أو مكرُّكم سبب ذلك.

وأمَّا النصب: فعلى المصدر؛ أي: تكرُّون الإغواءَ مَكَرَّ الليلِ والنهارِ.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ ﴿إِذْ﴾ بـدلٌ من ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: مكرُكـم في زمـانِ أمركم إيَّانا بالكفـر، أو نصبٌ على الظرف لـ ﴿مَكْرُ﴾، أو تعليلٌ؛ أي: لأمركـم إيَّانا بالكفر.

﴿وَأَسَرُّواْ﴾؛ أي: أسرَّ الظالمون الموقوفونَ الشاملونَ للفريقين ﴿ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: أخفَوا الكلامَ بالندامة فيما بينهم على سبيل المسارَّة والتناجي ندامةَ المستكبرين على الضلال والإضلال، وندامةَ المستضعفين على الضلال والاتِّباع، أو أظهروها على سبيل الجَزَع والتضرُّع؛ على أنَّ الهمزة للإزالة، كما في قولك: أَعتبتُه وأَشكيتُه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِـن بـاب وضعِ الظاهـر موضعَ الضمير؛

---

(١) نسبت لقتادة. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٣).

(٢) نسبت بالرفع لسعيد بن جبير وأبي رزين وغيرهما، ونسبت بالنصب لابن جبير وطلحة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٣).

أي: في أعناقهم؛ للتصريح والتنويه بذمِّهم، والدلالةِ على أنَّ الكفر هو الذي استحقُّوا به الإغلال.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ما يُفعَل بهم ما يُفعَل إلَّا جزاءً على أعمالهم، وتعدية (يجزي) لتضمينه معنى يقضي، أو بنزع الخافض.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾: تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ بأنَّ الرسل كلَّهم مُنُوا بما مُنِيَ به مِن قومه مِن التكذيب والمفاخرة بالأموال والأولاد.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ تخصيصُ المتنعِّمين بذلك لأنَّ معظمَ الدواعي إلى الكفر والإنكار: التكبُّر والمفاخرةُ بالأموال والأسباب التي هي منشأ الطُّغيان، ولذلك ضمُّوا التهكُّمَ والمفاخرةَ على التكذيب فقالوا:

﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على[1] مقابلة الجمعِ بالجمع[2]؛ لأنَّ قولَه: ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ في سياق النفي للعموم، ولأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام كلَّهم متَّفقون في إثبات التوحيد والبعث.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ فنحن أَولى بما تدَّعون إنْ أَمكَن، وأُوليَ النفيُ الاسمَ في قوله:

---

(١) في (م): «لأن»، وفي (ع) و(ي): «لا»، وسقطت الجملة من (ك)، والمثبت من (ف).

(٢) قوله: «لا على مقابلة الجمع بالجمع» سقط من (ك).

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنَّهم اعتقدوا أنَّ اختصاصهم بالغنى وأسباب التنعُّم[١] والترفُّه إنَّما هو لكرامتهم عند الله تعالى، أو قاسوا أمرَ الآخرةِ على أمرِ الدنيا، فقالوا ذلك على أنَّ البعث إنْ وقع لم يكونوا بمعذَّبين؛ لأنَّهم أكرمُ على الله تعالى مِن أنْ يعذِّبهم، إنَّما المعذَّبون مَن يهون عند اللهِ مِن أهل الفقر والفاقة وسوء الحال في الدنيا، وفيه استهزاءٌ بالأنبياء عليهم السلام وأصحابهم مِن الفقراء، واستهانةٌ بهم؛ أي: إنْ صدقَ وعدُكم بالبعث فإنَّهم المعذَّبون لا نحن، كما في الدنيا.

***

(٣٦) - ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ ردًّا لحسبانهم: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يوسِّع على مَن يشاء، ويُضيِّق على مَن يشاء؛ مُكرَّماً كان عنده أو مُهاناً، فلا التوسيعُ يدلُّ على الإكرام، ولا التضييقُ على الإهانة، ولا تتعلَّق السعادة والشقاوة الأخرويتان بتوسيع الرزق الدنيويِّ وتضييقه.

قيل: ولو كان ذلك في كرامةٍ[٢] وهوانٍ يُوجبانه، لم يكن بمشيئته.

وفيه نظرٌ؛ لِمَا تقرَّر[٣] في موضعه أنَّ المشيئةَ تُجامِع الإيجاب، إنَّما المنافي له القدرةُ على الفعلِ والتركِ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ لعدم وقوفهم على مواقف[٤] الحكمة

---

(١) في (ك) و(ي): «النعم».

(٢) «في كرامة» كذا في النسخ، وعند البيضاوي: (لكرامة).

(٣) في (ك): «تقدم».

(٤) في (ك): «موافق».

وأسرارها؛ فيظنُّون أنَّ الغنى والفقرَ وكثرةَ الأولاد وقلَّتهم في الدنيا[١]؛ للكرامة والهوانِ عند الله تعالى[٢]، وقرَّر ذلك بقوله:

***

(٣٧) ـ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أخبر عن الأموال والأولاد بـ(التي) على إرادة الجماعة؛ لأنَّ الجمع المكسَّر يستوي في تأنيثه العقلاءُ وغيرُهم.

وقرئ: ﴿باللاتي﴾[٣]؛ لأنَّها جماعاتٌ، وقرئ: (بالذي)[٤]؛ أي: بالشيءِ الذي.

و﴿زُلْفَىٰٓ﴾ في محلِّ النصب على المصدر؛ أي: تقرِّبكم قربةً، كقوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الظاهر أنَّه استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكن مَن آمَنَ وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يُقرِّبانه.

وقيل: استثناء متَّصلٌ مِن مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ أي: لا تُقرِّب الأموالُ والأولادُ أحداً إلَّا المؤمنَ الصالحَ الذي يُنفق أموالَه في سبيل الله تعالى، ويُعلِّم أولاده الخيرَ والفقهَ في الدِّين، ويُربِّيه على الصلاح، أو مِن ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ على حذف المضاف؛ أي: إلَّا أموالُ مَن آمَنَ وأولاده.

---

(١) «في الدنيا»: ليست في (م).

(٢) بعدها في (م): «في الدنيا».

(٣) نسبت للحسن. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٨٦)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٥٧).

(٤) انظر: المرجعين السابقين.

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: تُضاعف لهم حسناتهم؛ الواحدة عشراً إلى سبع مئةٍ وأكثر، مِن إضافةِ المصدر إلى المفعول؛ أي: أولئك لهم أن يُجاوزوا الضعف.

وقرئ: ﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾؛ على الأصل، و﴿جزاءً الضعفُ﴾ بنصبِ ﴿جزاءً﴾ ورفع ﴿الضعفُ﴾[1]؛ أي: لهم الضعفُ جزاءً، على أنَّه تمييزٌ، أو مصدرٌ لدلالة ﴿لَهُمْ﴾ على فِعْله؛ أي: يُجزَون جزاءً، ويجوز كونه حالاً تسميةً بالمصدر.

و: (جزاءٌ الضعفُ) برفعهما[2]؛ على أنَّ (الضعفُ) بدل مِن (جزاءٌ).

والفاء في ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ للسببية، وبالغ بها وباسم الإشارة، وبقوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في أنَّ الموجِبَ للكرامة والزُّلفى عند الله تعالى هو الإيمانُ والعملُ الصالحُ لا غيرهما.

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾؛ أي: في غُرَفِ[3] منازل الجنَّة، وقرئ: ﴿في الغرفة﴾[4]، على إرادةِ الجنس.

﴿آمِنُونَ﴾؛ أي: مِن كلِّ مَخُوفٍ ومكروهٍ.

* * *

(٣٨) - ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾؛ أي: في إبطالها وصرفِ الناس عنها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين لأنبيائنا، أو ظانِّين أنَّهم يَفوتوننا.

---

(١) قرأ بها يعقوب في رواية رويس. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥١).

(٢) نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٣) سقط من (ك).

(٤) قرأ بها حمزة. انظر: «التيسير» (ص: ٥٣٠).

﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ عبَّر عن موضعِ العذابِ بالعذابِ مبالغةً.

***

(٣٩) ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ إنَّما أعاده لأنَّ ما سبق باعتبار الأشخاص، وهذا باعتبار الأوقاتِ بالنسبة إلى شخصٍ؛ بدلالة ﴿لَهُۥ﴾ فيكون أدلَّ على المقصود.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عِوَضاً؛ إمَّا عاجلاً أو آجلاً، لا مُعوِّضَ له سواه[1].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ لأنَّه قادرٌ على مواصلةِ رزقِه وزيادةِ ما شاءَ لمَن يشاءُ بغير حسابٍ، وليس العبدُ كذلك، وأمَّا أنَّه رازقٌ حقيقةً دون العبد، فلا يناسب تفضيلَ أحدِهما على الآخرِ؛ لأنَّه يقتضي الشركة في أصلِ الفعلِ حقيقةً.

***

(٤٠) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ نصب بـ ﴿قَالُوا۟﴾، أو بـ: اذكر ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: المستكبرين والمستضعفين.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؛ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً وإقناطاً لهم عمَّا يتوقَّعون مِن شفاعتهم، فهو واردٌ على المَثَل السائرِ: إيَّاكِ أَعني واسمعي يا

---

(١) في (م): «لا معوض سواه»، وفي (ع) و(ي): «بعوض سواه».

جارَة، وتخصيص الملائكة لا لأَنَّهم أشرفُ معبودهم؛ لأنَّ عيسى عليه السلام أشرفُ منهم، ولا لانحصار صلاحيةِ الخطاب فيهم، بل لأنَّ مبدأَ الشرك عبادتُهم.

***

(٤١) - ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾: تنزيهاً لكَ أنْ نَعبُدَ معكَ غيرَك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أنت[1] الذي نواليه ﴿مِن دُونِهِم﴾ لا موالاةَ بيننا وبينهم، أرادوا بإثباتِ موالاةِ الله تعالى ونفيِ موالاتهم براءَتهم مِن الرضا بعبادتهم؛ لأنَّ تخصيصَ موالاتهم به تعالى وإثباتَ معاداتهم إيَّاهم ينافي ذلك، ثم أضربوا عن عبادتهم لهم إلى إثباتِ عبادتهم للجِنِّ بقولهم:

﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾؛ أي: الشياطينَ الذي يخيِّلونهم ذلك؛ لأنهم أطاعوهم في عبادة غيرِ الله تعالى، أو يتوهَّمون الصورَ الخبيثةَ ويحسبونها ملائكةً[2].

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ إنَّما قال: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لأنَّ عبادةَ بعضِهم كان عن وهمٍ واحتمالٍ، لا عن تصديقٍ واعتقادٍ.

***

(٤٢) - ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

---

(١) «أنت»: ليست في (م).

(٢) قيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٨٨).

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ إذ الأمرُ يومئذٍ لله تعالى؛ فلا يَملك أحدٌ شيئاً مِن الضُّرِّ والنفع لا لغيرِه ولا لنفسِه، وإنَّما نفى الملك دون القدرة؛ لِمَا في البعض مِن القدرة على الشفاعة بإذن الله تعالى.

﴿وَنَقُولُ﴾ عطف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ مبيِّن للمقصودِ من تمهيده ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ تخصيصُ العقاب بالذين ظلموا لتصدير المقاولة بهم في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فختم باختصاصهم بالعقاب؛ لأنَّ الكلام فيهم، وفي قوله:

﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ دلالةٌ قاطعةٌ على أنَّ عودَ الضمير على المضاف إليه لا يُخلُّ حُسْنَ الكلامِ إذا لم يكن في محلِّ الاشتباه.

* * *

(٤٣) ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾: آياتُ القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالاتِ على إعجازه ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسولَ الله ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ الصَّدُّ: الصَّرْفُ عن الخير ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾: عن دينِ آباءكم.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يريدون القرآنَ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ ﴿مُّفْتَرًى﴾ على الله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾: لأمرِ النبوَّة، أو للإسلام، أو للقرآن، والأول ـ أي: إطلاق الكذبِ عليه ـ باعتبار معناه، وهذا ـ أي: إطلاقُ السحر عليه ـ باعتبار لفظِه وبلاغتِه.

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: الحقُّ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريتُه.

وفي الإشارة بـ (هذا) في المواضع الثلاثة تحقيرٌ دالٌّ على جراءتهم على اللهِ تعالى ورسولِه عليه السلام وكتابِه ورسالاته[١]، فلهذا قُوبِلت بما يدلُّ على غضبٍ شديدٍ، وإنكارٍ عظيمٍ، وتعجيبٍ مِن كفرهم بليغٍ، بإيقاع الموصول والصلة موقع الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وتعريف (الحقِّ)، وإيرادِ ﴿لَمَّا﴾ الدالَّة على مبادهتهم[٢] بالكفر، وتسميةِ الحقِّ النَّيِّر بالسحر البَيِّن.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾: يَقرؤونها وفيها[٣] دليلٌ على صحَّة الشركة أو أمرٌ به، وقرئ: (يُدَرِّسُونها)[٤]؛ مِن التدريسِ؛ وهو تكريرُ الدرس، أو للتكثير؛ مِن دَرَسَ الكتابَ ودَرَّس الكتبَ، و: (يَدَّرِسونها) بتشديدِ الدَّالِ[٥]؛ يَفتعلون مِن الدَّرْس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يَدعوهم إليه، ويُنذرهم العقابَ على تركه، وقد بَانَ مِن قبلُ بالبرهانِ وجهُ بطلانِه، فمِن أين وقعت لهم الشبهة؟! وهذا غايةٌ في تجهيلهم وتسفيهِ رأيهم.

ويجوز أن يكون معناه: أنَّهم قومٌ جُهَّالٌ أُمِّيُّون لا كتابَ لهم ولا نبيَّ، نشؤوا على طباعهم الجاسية في الجاهلية، لا تَثَبُّتَ لهم بوجهٍ ولا تمسُّكَ بشبهة، كقوله: ﴿أَمْ

---

(١) في (ك): «ورسالته».

(٢) أي: مسارعتهم، لأن (لما) تفيد وقوعهما في وقت واحد دون فاصل. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٠٩).

(٣) أي: في الكتب. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٠٩).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (١٧/ ٤٦٥).

(٥) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]، ثم هدَّدهم بقوله:

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذَّبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وما بلغ هؤلاء عُشْرَ ما آتينا[1] أولئك مِن القوَّة والقدرةِ، وطولِ الأعمار، وعِظَمِ الأجرامِ، وكثرةِ الأموال.

وقيل: معنى المعشار: عُشْرُ العُشْرِ.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحين كذَّبوا رُسُلي[2] جاءهم إنكاري، فكيف كان حالهم في التدمير والاستئصال، حيث لم يُغنِ عنهم استظهارُهم بما هم به مستظهِرونَ، فما بالُ هؤلاء.

ويجوز أن يكون المعنى: وما بَلَغَ أولئك عُشْرَ ما آتينا هؤلاء مِن البيِّنات والهدى، فكذَّبوا رسلي فاستؤصلوا مع أنَّ الحججَ والبيِّنات لم تتكرَّر عليهم كما تكرَّرت على هؤلاء، فكيف كان حالهم في إنكاري، فكيف يكون حالُ هؤلاء مع تكرُّر البيِّنات وتكثُّرها، فليعتبروا بحالهم وليَحْذَروا مِن مثلها.

﴿فَكَذَّبُواْ﴾ عطف على ﴿كذَّبَ الذين﴾ عطفَ المقيَّدِ على المُطلَق بالفاء السببية؛ أي: فعلوا التكذيبَ وأقدموا عليه حتى تعوَّدوا به، فصار سبباً لتكذيب رُسُلي، ويجوز أن يعطف على ﴿ما بلغوا﴾ كقولك: ما بَلَغَ زيدٌ معشارَ فَضْلِ عمرٍو فيُفضَّلَ عمرٌو عليه.

---

(١) في النسخ عدا (ف): «آتيناهم».

(٢) في (ف) و(م): (رسلهم).

(٤٦) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم﴾ أنصحُ لكم ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ بخصلةٍ واحدةٍ، إنْ فَعَلتم أَصبتم الحقَّ وتخلَّصتم، وفسَّرها بقوله:

﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هي أن تقوموا، والمرادُ: القيامُ مِن مجلسِ رسولِ الله ﷺ، ولا يجوز أن يكون عطفَ بيانٍ؛ لأنَّ ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ نكرةٌ، و﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ معرفةٌ تقديرُه: قيامُكم لله، والتخالُف في عطفِ البيانِ لم يذهب إليه ذاهب[1].

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾: متفرِّقين اثنينِ اثنينِ، متناظِرين على النَّصَف[2] دونَ

(١) في هامش (ف) و(ي): «مذهب البصريين أن يكون معرفة من معرفة ومذهب الكوفيين أن يتبع ما قبله في التعريف والتنكير».
قلت: والذي جوز عطف البيان هنا هو الزمخشري، قال الآلوسي: والظاهر أن الزمخشري ذاهب إلى جواز التخالف، وقد صرح ابن مالك في «التسهيل» بنسبة ذلك إليه، وهو من مجتهدي علماء العربية، وجوِّز أن يكون قد عبر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيها، وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمي التوكيد صفة وعطف البيان صفة، ثم إن كون المصدر المسبوك معرفةً أو مؤوَّلاً بها دائما غير مسلم. انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٧٩)، و«التسهيل» (ص: ١٧٥)، و«روح المعاني» (٢٢/ ١٣١). وجاء تسمية التوكيد صفة في «الكتاب» (٢/ ٣٥١ و٣٥٩ و٣٧٨ و٣٧٩ و٣٨١ و٣٨٥ و٣٩١)، وتسمية عطف البيان صفة (٢/ ١٩٢).
قلت: وفي قول الآلوسي: (وجوِّز أن يكون قد عبر بعطف البيان وأراد البدل) نظر؛ لأن المعروف هو العكس، أي: كثيراً ما يعبر عن عطف البيان بالبدل، وقد يكون بالصفة كما فعل سيبويه، أما التعبير بعطف البيان فالأظهر أنه مقصود بذاته، ولعله لهذا أخره الآلوسي وساقه بصيغة المجهول.
(٢) في (ف) و(ك): «النصفة».

العَصَبةِ[١] والجدالِ، أو: واحداً واحداً متفكِّرين؛ فإنَّ الاجتماعَ والازدحامَ ممَّا يُشوِّش الخواطرَ[٢]، ويُعمِي البصائرَ، ويُهيِّج الفتنَ والتخاصُمَ.

أو: تعزموا[٣] بهذا الأمر؛ من قولهم: قامَ بالأمرِ: إذا جَدَّ فيه، ومعنى ﴿لِلَّهِ﴾: خالصاً لوجهِ الله، مُعرِضاً عن المراءِ والتقليد.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمرِه عليه السلام، ومحلُّه الجرُّ على البدل أو البيان[٤]، أو الرفعُ أو النصب، بإضمار: هو، أو: أعني.

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ (ما) نافية متعلِّقة بـ ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾؛ أي: تتفكروا فتَعلموا ما به مِن جنَّة.

ويجوز أن يكون استئنافاً؛ تنبيهاً مِن الله تعالى لهم على أنَّ ما عرفوا مِن رجاحةِ عقلِه كافٍ في ترجُّح[٥] صدقه، فإنَّه لا يَدَعُهُ أنْ يتصدَّى لادِّعاء مثلِ هذا الأمر العظيم الذي تحته ملكُ الدنيا والآخرةِ مِن غير تحقُّقٍ بيقين، وتعرُّفٍ ببرهانٍ مبين، فيُفْتضَح على رؤوس الأشهاد، ويُلقيَ نفسَه في معرض الهلاك، كيف وقد انضمَّ إليه آياتٌ باهرةٌ ومعجزاتٌ قاهرةٌ.

ويجوز أن تكون استفهاميَّةً؛ أي: ثم تتفكَّروا في أحوالِه وأقوالِه وأفعالِه، هل فيه ما يتهمه ويدلُّ على أنَّ به جِنَّةً؟!

---

(١) في (ع): «القصّية»، وفي (ي): «القصبة».

(٢) في (ك): «الخاطر».

(٣) في (ف) و(ك): «تقوموا».

(٤) في (م) و(ي): «على البيان أو البيان»، وفي (ف) و(ك): «على البيان»، والمثبت من (ع)، وهو الموافق لما في البيضاوي.

(٥) في (ف) و(ك): «ترجيح».

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ يرجِّح كون (ما) نافيةً.

﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: قُدَّامَه، كقوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثتُ في نسم الساعة»[1].

***

(٤٧) ـ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ خبر جزاء الشرط؛ أي: أيَّ شيءٍ سألتكم مِن أجرِ الرسالةِ فهو لكم، ويجوز أن تكون (ما) موصولةً، والفاء لتضمُّنها معنى الشرط، والغرضُ نفيُ الأجرِ رأساً، كما يقول الرجلُ لصاحبه: إنْ أعطيتني شيئاً فاسترِدَّه[2]، وهو يَعلم أنَّه لم يُعطِه[3] شيئاً، أو إثباتُ الأجرِ لهم، وهو ما أراد بقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، وبقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ لأنَّ اتخاذَ السبيلِ إلى الله تعالى يَنفعهم، وكذا مودَّةُ قربانِه فإنَّ فيه قربانَهم إلى الله تعالى.

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٧٧٣) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك، عن أشياخ من الأنصار، ورواه البزار (٣٢١٥ ـ كشف)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦١) من طريق أبي جبيرة بن الضحاك، عن النبيِّ ﷺ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١/ ٢٢٨): (ورجاله رجال الصحيح غير شبل ـ أو شبيل ـ بن عوف، وهو ثقة). وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩): (أخرجه البزار بسند حسن من حديث أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري). قلت: وأبو جبيرة مختلف في صحبته. انظر: «الإصابة» (٧/ ٥٤). قال ابن الأثير في «النهاية» (مادة: نسم): والنَّسَمُ جمع: نسمَة، وهي النَّفسُ وَالروحُ؛ أي: بُعِثت فِي ذِي أَرْوَاح خلقهم اللهُ تعالى قبل اقتراب السَّاعَةِ.

(٢) في (ك): «فأسرره». ولفظ «الكشاف» و«البحر» و«أبو السعود» و«الآلوسي»: (فخذه).

(٣) في (ك): «يعط».

وعلى الأول؛ قيل: كأنَّه جعل النبيَّ مستلزماً لأحَدِ الأمرين: الجنون، وتوقُّع نفعٍ دنيويٍّ عليه، لا لأنَّه لا يخلو مِن أنْ يكون لغرضٍ، أو لا، وأيًّا مّا كان يَلزم أحدُهما، ثم نفى كلًّا منهما. ولا يَخفى ضعفُه؛ لأنَّ توقُّع النفع الدنيويِّ غيرُ منحصرٍ في سؤالِ الأجرِ، وذلك ظاهر.

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: ما أَبتغي عليه إلَّا الثوابَ مِن الله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾: مُطَّلعٌ يَعلمُ صدقي، وأنِّي لا أَطمع في شيءٍ ولا أَتوقَّع أجراً إلَّا منه.

***

(٤٨) ـ ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾.

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ القذفُ[1] مستعارٌ مِن معناه بمعنى الإلقاء؛ أي: يُلقيه إلى أنبيائه، أو يرمي به الباطلَ فيدمغُه ويُزهِقه.

﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو صفةٌ لـ ﴿رَبِّي﴾ محمولةٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها، أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو بدلٌ مِن المستكنِّ في ﴿يَقۡذِفُ﴾.

وقرئ: بالنصب[2] صفةً لـ ﴿رَبِّي﴾، أو على المدح؛ أي: أعني، أو: أخصُّ.

وقرئ: بكسر الغين[3]، كالبِيوتِ، وبفتحها كالصَّبُور[4]، على أنَّه مبالغةُ غائبٍ، وهو البليغُ في الغَيبة والخَفاء.

***

---

(١) «القذف»: ليست في (م).

(٢) نسبت لعيسى وابن أبي إسحاق. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٣) قرأ بها حمزة، وشعبة عن عاصم. انظر: «التيسير» (ص: ١٠١).

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٩١)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٧٣). ووقع في (ك) و(ي): «كالصيود».

(٤٩) ـ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾: الإسلامُ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: زهق الباطل ـ وهو الشرك ـ بحيث لم يبقَ له أَثَرٌ ولا يُبدِئ ولا يُعيد؛ مَثَلٌ في الهلاك؛ لأنَّ الحيَّ إمَّا أنْ يبدئ فعلاً أو يُعيدَه، فإذا هلكَ لم يبقَ له بَداءٌ[1] ولا إعادة، فصار مَثَلاً فيه، ومنه قول عَبيدٍ:

أَقْفَرَ مِنْ أهلِه عَبيدُ فاليومَ لا يُبدي ولا يُعيدُ[2]

وقيل: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إبليسُ؛ أي: ما يُنشئ خَلْقاً ولا يُعيده، إنَّما المنشئُ والباعثُ هو اللهُ تعالى.

وقال الزجَّاج: أيَّ شيءٍ يُنشِئ إبليسُ ويُعيده[3]؟! فجعَله للاستفهام.

***

(٥٠) ـ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنَّ وبالَ ضلالي على نفسي.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أصلُ الكلام: إنْ ضللتُ فبما يوسوس إليَّ الشيطانُ، وضررُه[4] على نفسي، وإنِ اهتديتُ فبما يُوحِي إليَّ ربِّي ونفعُه لها، فعدلَ

---

(١) في (ك): «إبداء».

(٢) البيت في «ديوان عبيد بن الأبرص» (ص: ٤٥)، و«الأغاني» للأصفهاني (٢٢/ ٨٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٨).

(٤) في (ك): «فضرره».

إلى ما ذكر؛ فبيَّن في أحدِ القِسمين الحكمَ وفي الآخر السببَ؛ اكتفاءً بما فُهِمَ ممَّا[1] ذكر في أحدهما حال الآخر، وهذا غايةُ الإيجازِ، وقلَّما يتنبَّه لمثلِه إلَّا الحُذَّاقُ.

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يَسمع ويَرى قولَ كلِّ ضالٍّ ومهتدٍ وفِعْلَه، لا يخفى عليه منهما شيءٌ وإنْ أخفاه.

* * *

(٥١) - ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ حـذف جـواب (لـو) للتهويـل؛ أي: لرأيـتَ أمـراً هائلاً لا يُمكِـن وصفُه، ووقـتُ الفزعِ وقـتُ البعث وقيام السـاعة، أو وقتُ المـوت، وقيل: يـومُ بدرٍ.

و(لـو) و(إذ) والأفعـالُ الماضية بعدهما وهـي: ﴿فَزِعُواْ﴾ و﴿أُخِذُوا﴾، و﴿حيل بينهـم﴾[2] كلُّهـا للمضيِّ والمـراد بها الاسـتقبالُ؛ للدلالة علـى تحقُّق وقـوعِ معانيها عنـد اللهِ تعالـى، وكلُّ مـا يَفعـلُ اللهُ تعالى في المسـتقبل فهـو بمنزلة الماضـي لتحقُّق وقوعِـه لا محالـةَ، فكأنَّه قـد وَقَعَ.

﴿فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتونَ اللهَ ولا يَسبقونه؛ أي: لا فوتَ لهم.

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الموقف إلى النار، أو: مِن ظهرِ الأرض إلى بطنها، أو: مِن صحراءِ بدرٍ إلى القَليبِ.

والعطف على ﴿فَزِعُواْ﴾؛ أي: فَزعوا وأُخذوا فلا فوتَ لهم، أو على (لا فوت)،

---

(١) في (ي): «بما».

(٢) قوله: «وحيل بينهم» من «الكشاف» (٣/ ٥٩٢)، ووقع في النسخ بدلا منه: «وجعل وفعل».

على معنى: إذ فزعوا فلم يَفوتوا وأُخذوا، ويؤيِّده ما قُرئَ: (وأَخْذٌ)[1] معطوفاً على محلِّ (لا فوت)؛ أي: لا فوتَ هناكَ وهناكَ أَخْذٌ.

***

(٥٢) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ ﷺ؛ لمرور ذِكْره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾، أو: للعذاب[2] المذكور في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾: ومِن أينَ لهم التناولُ السهلُ مِن مكانٍ قريبٍ، يعني: تناولَ الإيمان ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ فإنَّه يكون في حيِّز التكليفِ، وقد بَعُدَ عنهم؛ تمثيلٌ لطلبهم المستحيل، وهو أنْ يَنفعهم الإيمانُ وقتَ العذابِ في الآخرة كما يَنفع المؤمنين في الدنيا؛ مثَّل حالَهم بحالِ مَن يريدُ أنْ يتناولَ الشيءَ مِن غَلْوةٍ[3]، كما يَتناوله الآخَرُ مِن قِيسِ ذراعٍ تناولاً سهلاً.

وقرئ: ﴿التناؤش﴾ بهمز الواو المضمومة[4]، كما هُمِزَت في: أَجْؤُر وأَدْؤُر، وعن أبي عمرو: التناؤشُ ـ بالهمز ـ: التناول[5] مِن بُعْدٍ، مِن قولك: نأشتُ، إذا أبطأتَ وتأخَّرتَ.

---

(١) نسبت لعبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«الكشاف» (٣/ ٥٩٣)، و«البحر المحيط» (١٧/ ٤٧٧).

(٢) أي: أو الضمير للعذاب.

(٣) الغَلْوة: الغايةُ، وهي رميةُ سهمٍ أَبعد ما يُقدرُ عليه، ويقال: هي قدرُ ثلاثِ مئةِ ذراعٍ إلى أربع مئةٍ، والجمع: غَلَوَاتٌ. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: غلو).

(٤) قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي، وشعبة عن عاصم. انظر: «التيسير» (ص: ١٨١).

(٥) في النسخ: «التناوش»، والمثبت من «الكشاف» (٣/ ٥٩٣)، والكلام منه.

(٥٣) ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ ﷺ، أو بالعذاب ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك أوانَ التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾: يرجمون به ويتكلَّمون بما لم يَظهر في رسولِ الله ﷺ؛ مِن قولهم: ساحرٌ وشاعرٌ وكذَّاب، ولم يُشاهدوا منه شيئاً مِن ذلك.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: قد أَتَوا هذا الغيبَ مِن جهةٍ بعيدةٍ عن حالِه عليه السلام؛ لأنَّه أبعدُ شيءٍ ممَّا جاء به الشِّعر والسِّحر، وأَبعدُ مِن عادته التي هو معروفٌ بها الزور والكذب.

وعلى تقدير عودِ الضميرِ على العذاب، معنى قَذْفِهم بالغيب: قياسُهم أمرَ الآخرةِ على أمرِ الدنيا، وهو غيبٌ ومقذوفٌ به مِن جهةٍ بعيدةٍ.

والعطف على ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ، أو على (قالوا) فيكون تمثيلاً آخَرَ لهم، بأنْ مُثِّلت حالُهم في طلب المستحِيل ـ وهو نفعُ الإيمان في الآخرة ـ بمَن يَقذف شيئاً إلى مَن لا يراهُ مِن مكانٍ بعيدٍ، لا مجالَ للظَّنِّ في لحوقه؛ لغايةِ بُعْدِه.

وقرئ: (يُقذَفون) على البناء للمفعول[1]، على أنَّ الشيطانَ يُلقي إليهم ويُلقِّنهم ذلك.

* * *

---

(١) نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٥٤) ـ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نفعِ الإيمانِ يومئذٍ، والنجاةِ مِن النار والفوزِ بالجنة، أو مِن الرَّدِّ إلى الدنيا، كما حَكَى عنهم بقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾: بأشباهِهم مِن كَفَرةِ الأُمم الدَّارجة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مِن أرابهُ: إذا أوقعه في الرِّيبة والتُّهمة، أو مِن أَرابَ الرجلُ: إذا صار ذا ريبةٍ ودَخَلَ فيها، مجازٌ في كِلَا المعنيين، والفرق: أنَّ المريبَ[1] بالمعنى الأول منقولٌ ممَّن يصحُّ أنْ يكون مريباً مِن الأعيان، والمعنى الثاني منقولٌ مِن صاحبِ الشَّكِّ الى الشَّكِّ، كما تقول: شِعْرٌ شَاعِرٌ، يُنعَت به الشَّكُّ للمبالغة[2].

* * *

(١) في (م): «والمريب» بدل: «والفرق أن المريب».

(٢) في (م) زيادة: «والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والله أعلم وأحكم». وفي هامش (ي): «في الليلة الرابعة من الصفر سنة: ٩٣٣».

سُورَةُ فَاطِرٍ

سُورَةُ فَاطِر (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(1) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبدعِهما، مِن الفَطْرِ(2)، وهو الشَّقُّ، فاستُعْمِلَ في الخلق ابتداءً على طريقِ(3) المجاز المرتَّب على الكنايةِ، والإضافةُ حقيقيَّةٌ لأنَّه بمعنى الماضي، على ما قرئ بلفظه(4)، ولذلك وُصِفَ به المعرَّفُ.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وقرئ بالرَّفعِ على المدح(5).

﴿رُسُلًا﴾: وسائطَ بينَه وبينَ عبادِه، يبلِّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرُّؤيا الصَّالحة.

---

(1) في (م): «سورة الملائكة أربعون وخمس آيات وسبع مئة وسبعون كلمة».

(2) في (ع): «الفطرة».

(3) في (ك) و(م): «طريقة»، وفي (ف): «طريقته».

(4) قرأ الضحاك: (فطر) بصيغة الماضي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: 123).

(5) بالرفع والتنوين مع نصب (الملائكة) نسبت للحلبي، وبالرفع بلا تنوين مع جر (الملائكة) نسبت للحسن، وبالرفع بلا تنوين مع نصب (الملائكة) نسبت لعبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: 123)، و«المحتسب» (2/ 198)، و«البحر» (18/ 7).

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ ﴿أُوْلِيٓ﴾ اسمُ جمعٍ لـ ﴿ذُو﴾، وهو بدل من ﴿رُسُلًا﴾، أو نعتٌ له.

﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ صفاتٌ لـ ﴿أَجۡنِحَةٖ﴾ غيرُ منصرفة؛ أي: صنفٌ منهم أجنحتُهم اثنان اثنان، وصنفٌ أجنحتُهم ثلاثة ثلاثة، وصنفٌ[1] أربعة أربعة، وتفاوتها بحسبِ تفاوتِ مراتبِهم وأمورِهم التي سُخِّرَتْ لها.

وما رُوِيَ أنَّه عليه السلام رأى جبريل عليه السلام ليلةَ المعراج وله[2] ستُّ مئةِ جناحٍ[3]، فلعلَّه مخصوصٌ به، فلم[4] يذكَر لأنَّه ليس من جنس المكرَّر.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ استئنافٌ للدِّلالة على أن الاختلاف المذكور أمرٌ تقتضيه مشيئتُه وحكمتُه.

وإنَّما عمَّ الخلق ليتناولَ كلَّ زيادة في جميع الخلائق؛ كحُسن الصُّورة[5]، وحصافة العقل، وذكاء القلبِ وشهامته، وشجاعة النَّفس وسماحتها[6]، إلى ما لا يتناهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ استئنافٌ للتَّعليل؛ فإنَّ القدرة الكاملة الشَّاملةَ لا بدَّ لها[7] مِن مرجِّح لا مِن خارجٍ؛ لأنَّه ينافي كمالَ القدرةِ، فهو المشيئةُ.

* * *

---

(١) في (ف): «أو».

(٢) في (ك): «له».

(٣) روى نحوه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في (ف): «ولم».

(٥) في (م): «الصوت».

(٦) في (ف) و(ك): «وشهامتها».

(٧) في النسخ: «له».

(٢) ـ ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ استعيرَ الفَتْحُ للإطلاق والإرسال، وأومأَ إلى استعارته له بقوله: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ مكانَ: لا فاتح له.

﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ تنكيرُها للإشاعة والتَّعميم؛ أي: مِن أَيَّةِ رحمةٍ كانت معنويَّةً أو صوريَّةً، سماويَّةً أو أرضيَّةً.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾: فلا أحدَ يقدرُ على إمساكِها[1].

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ قيَّد المرسَل بالرَّحمة وقُدِّمَ لأنَّها الأصل، وأُطلق الممسَك ليتناولها وغيرَها من النِّعمة والغضب؛ إشعاراً بقوله: «سبقت رحمتي على غضبي»[2].

﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ فلا أحدَ يقدرُ على إرساله.

أنَّثَ ضميرَ الاسم الأوَّل[3] المتضمِّن للشَّرط على المعنى لتفسيره بالرَّحمة، وذكَّرَ الثَّاني على اللَّفظ لإطلاقِه.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: مِن بعدِ إمساكِه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الغالبُ القادرُ على ما يشاءُ، ليس لأحدٍ أنْ ينازِعَه في الإرسال والإمساك.

---

(١) في النسخ: «إمساكه».

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «سبقت رحمتي غضبي».

(٣) في (م): «أولا».

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ ما يفعلُ إلَّا بحكمةٍ وإتقان علم(١).

ثمَّ لَمَّا بيَّنَ أنَّه الموجِدُ للملكِ والملكوتِ، المتصرِّفُ في الكلِّ على الإطلاق، أمرَ النَّاس بشكرِ نعمتِه وتخصيصِه به تعالى، فقال:

(٣) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الخطابُ عامٌّ، وكذا النِّعمةُ، ولا عبرةَ في الخصوصِ في سببِ النُّزولِ، والمرادُ بذكرِ النِّعمةِ: شكرُها بالقلبِ واللِّسان والجوارح، برؤيتها منه لا مِن غيرِه، وأداءِ حقوقِها بالثَّناءِ على المنعِم، والطَّاعةِ له، واستعمالِها في مراضيه(٢).

ثمَّ أنكرَ أن يكونَ لغيره في ذلك مَدخلٌ فيستحِقَّ أنْ يُشرَكَ به بقولِه:

﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ قرئ بالحركات الثَّلاث(٣)؛ أمَّا الرَّفع فللحمل على محلِّ ﴿مِنْ خَـٰلِقٍ﴾ بأنَّه وصفٌ أو بدلٌ(٤)، فإنَّ الاستفهام بمعنى النَّفي، أو لأنَّه فاعل ﴿خَـٰلِقٍ﴾، وأمَّا الجرُّ فللحمل على لفظِه، وأمَّا النَّصبُ فعلى الاستثناء.

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة لـ ﴿خَـٰلِقٍ﴾، أو تفسير لعامله إنْ جعلتَه

---

(١) في (ف) و(ك): «علمه».

(٢) في (م): «مرضيه».

(٣) قرأ حمزة والكسائي بخفض الراء، وباقي السبعة برفعها. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٢).

ونسبت القراءة بنصب الراء للفضل بن إبراهيم النحوي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٤) بعدها في (ف) و(ك): «أو تفسيرٌ لعامله إنْ جعلتَهُ مرفوعَ المحلِّ»، وهو ناشئ عن سبق نظر عند الناسخ، وسيأتي في مكانه الصحيح.

مرفوع المحلِّ بإضمار فعلٍ لا بالابتداءِ؛ أي: هل يرزقُكُم مِن خالقٍ، أو استئنافٌ دلَّ على أنْ لا خالقَ غير الله، وعلى وجوب شكر نعمتِه، فهو أحسنُ الوجوه، وعلى الوجهَيْن الأخيرَيْن لا محلَّ له من الإعراب.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصولة [لا محل لها][(١)] مثل ﴿يَرْزُقُكُم﴾ في الوجه الثَّالثِ؛ إذ لو وصلْتَه مثل ﴿يَرْزُقُكُم﴾ في الوجهَيْن الأوَّلَيْن لفسد[(٢)] المعنى؛ لأنَّ قولَك: هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلَّا ذلك الخالق[(٣)]؛ متناقضٌ.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: فمِنْ أيِّ وجهٍ تُصرَفون عنِ التَّوحيدِ إلى إشراكِ غيرِه.

* * *

(٤) - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ﴾: تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وبعثٌ له على التَّأسِّي بالرُّسل السَّابقين في الصَّبر على تكذيبهم؛ أي: وإن يكذِّبوك فتأسَّ بالرُّسلِ العظامِ، واصبرْ[(٤)] على تكذيبهم، فوضع ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ موضعه لبيان السَّبب، واستغنى بذكر السَّبب عن المسبَّب إيجازاً.

وتنكير ﴿رُسُلٌ﴾ للتَّعظيم المقتضي لزيادةِ التَّسليةِ، والحثِّ على الصَّبرِ؛ أي: رسلٌ عظامٌ ذوو[(٥)] عددٍ كثيرٍ، وأولو آياتٍ بيِّناتٍ.

---

(١) في (ع) و(ف) و(ك) و(ي): «منصوبة»، وفي (م): «منصوب»، وكلاهما تحريف، والمثبت من «الكشاف» (٣/ ٥٩٨)، والكلام وما بين معكوفتين منه.

(٢) في (ف): «يفسد».

(٣) في (ف): «إلا هو».

(٤) في (ف) و(ك): «فاصبر».

(٥) في النسخ عدا (ك): «ذو»، والمثبت من (ك) و«الكشاف» (٣/ ٥٩٩).

وقد نعى بها على قريش حينئذٍ سوءَ تلقِّيهم لآياتِ اللهِ وتكذيبَهم بها بعد التَّقريع البالغ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وعدٌ ووعيدٌ؛ أي: فيجازيك[1] وإيَّاهم على الصَّبر والتَّكذيب.

***

(٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: الجزاءَ بالثَّواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾: لا خُلْفَ فيه.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: فلا تخدعنَّكم الدُّنيا ولذَّاتُها وشهواتها، فيذهلكم التَّمتُّع بها عن السَّعي للآخرة، وطلبِ ما عندَ اللهِ.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: الشَّيطانُ، فإنَّه هو البالغ في التَّغرير بأنْ يمنِّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعصية، فإنَّها وإنْ أمكنَتْ لكنَّ الذَّنْبَ بهذا التَّوقُّع كتَناولِ السُّمِّ اعتماداً على الدَّفع بقوَّة الطَّبيعة[2].

وقرئ بالضَّم[3]، وهو مصدرُ غرَّه كاللُّزومِ والنُّهوك[4]، أو جمع غارٍّ، كقَاعِدٍ وقُعودٍ.

***

(١) في (ف) و(م): «فيجازيكم».

(٢) «بقوة الطبيعة» زيادة من (ي) و(ع)، وفي (م): «بقوى الطليعة».

(٣) أي: (الغُرور) بضم الغين. انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٢٩).

(٤) في (ك): «كالهتوك»، وفي (ي): «والشهواك»، وفي (ع): «والشهوك». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٥٩٩).

(٦) ـ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ تذكيرٌ لبني آدمَ ما فَعَلَ بأبيهِم آدم عليه السلام بالإغواءِ والتَّغرير، وتحذيرٌ عن موالاتِه.

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بالغَ العداوة في عقائدِكم وأفعالِكم، وكونوا على حذرٍ منه في مجامعِ أحوالكم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ مبالغةٌ في التَّحذير عن عداوته بتقريرها، وبيانِ غرضِه في دعوة شيعته إلى اتِّباع الهوى والرُّكونِ إلى الدُّنيا.

* * *

(٧) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعدٌ لمَن أجابَه، ووعيدٌ لمن خالفه، وبنى الأمر على الإيمان والعمل الصَّالح وتركهما؛ ليقطعَ الأطماع الفارغة، ويهيِّجَ الهِمَمَ العاليةَ.

ولَمَّا ذَكَرَ الفريقَيْن قرَّرَ(١) الوعد والوعيد بقوله:

* * *

(٨) ـ ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ ﴾؛ أي: أفمن زين له سوءُ عمله لغلبة وهمه

---

(١) في (ف) و(م) و(ي) و(ع): «قدَّر».

وهواه على عقله، فانتكس رأيُه فرأى الباطلَ حقًّا والقُبْحَ حَسَناً، كمَن لم يُزيَّن له، بل وُفِّقَ للنَّظر الصَّحيح فعرفهما، ورأى[١] الحقَّ حقًّا فاستحسنه[٢] واختاره، ورأى الباطلَ باطلاً فاستقبحه وتركه.

والهمزة للإنكار دخلَتْ على الفاء العاطفة لإنكار الجهلِ وفقدِ النَّظرِ والتَّمييزِ؛ أي: أبعدَ ما تبيَّنَ[٣] عاقبةُ الفريقَيْن مَن فقدَ التَّمييز واتَّبعَ الشَّيطان، فرأى القبيحَ الذي زُيِّنَ له حَسناً كَمَنْ ليسَ كذلك.

وإنَّما حذفَ الجوابَ لدلالة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ عليه.

وقالَ الزَّجَّاج: الجواب: ذهبَتْ نفسُكَ[٤] عليهم حسرةً، فحذفَ لدلالة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ عليه[٥]؛ أي: فلا تُهلك نفسَك للحسرات.

و﴿عَلَيْهِمْ﴾ صلةُ ﴿تَذْهَبْ﴾، كقولِكَ: هلكَ عليه حبًّا، أو بيانٌ للمتحسَّرِ عليه، ولا يجوز أنْ يتعلَّق بـ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنَّ صلة المصدر لا تتقدَّم عليه، ويجوز أن يكون حالاً[٦] على أنَّها كلَّها صارَتْ حسراتٍ لفرط التَّحسُّرِ.

---

(١) في(م): «فرأى».

(٢) في (م) و(ي): «فأحسنه».

(٣) في (ف): «بين».

(٤) في (ف) و(ك): «الجواب فلا تذهب نفسك»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٤).

(٦) أي: (أن يكون ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ حالا من ﴿نَفْسُكَ﴾)، وهذه عبارة الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ١٧٠)، وعبارة المؤلف منقولة بالحرف من «الكشاف» (٣/ ٦٠٠). ووقع في (ك): «ولا يجوز»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المصدرين المذكورين وغيرهما.

وجمعُ الحسرات للدِّلالة على تضاعف اغتمامه[١] على أحوالهم، أو كثرةِ مساوئ أفعالهم المقتضيةِ للتَّأسُّف عليهم.

وقرئ: ﴿فلا تُذْهِبُ نفسَكَ﴾[٢]؛ أي: فلا تُهلكها.

والفاءات الثَّلاث للسَّببيَّة، غير أنَّ الأُولَيين دخلتا على السَّبب، والثالثة على المسبَّب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ وعيدٌ لهم بالعقاب على سوءِ صنيعِهم.

* * *

(٩) ـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ، وقد خُولِفَ به عمَّا قبلَه وما بعدَه إلى المضارع؛ استحضاراً لتلك الصُّورة البديعة الدَّالة على القدرة الباهرة من إثارة الرِّيح السَّحابَ، وما يقارنُه من إنزال المطر وغيره.

وهكذا يُغيِّر النَّظم في كلِّ أمرٍ عجيبٍ وفعلٍ يختصُّ بحالٍ يُستغرَبُ، أو يهمُّ المخاطِبَ أو المخاطَبَ[٣]، أو يتميَّزُ[٤] بنوعِ شرفٍ، وغير ذلك.

---

(١) في (ف) و(ي): «إغمامه».

(٢) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥١).

(٣) «أو المخاطب» من (ي) و(ع)، وفي (ع) كررها مرتين.

(٤) وقعت العبارة في (ك) هكذا: «في كلِّ أمرٍ عجيبٍ وفعلٍ يختصُّ بحاله تقريباً لفهم المخاطب بتمييز».

والتفتَ في[١]: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ مِن الغيبة إلى التَّكلُّم الذي هو أدلُّ[٢] على الاختصاص بالقدرة الباهرة، والضَّمير في:

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ للمطرِ الدَّالِّ عليه السَّحابُ، أو للسَّحاب لأنَّه سبب السَّبب فهو سبب[٣].

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بعد يبسها.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: مثلَ إحياءِ المواتِ نشورُ الأموات في صحَّة المقدوريَّة؛ إذ لا فرق بينهما إلَّا احتمالُ اختلاف[٤] المادَّة في المقيس عليه، ولا مدخل له فيها.

وقيل في كيفيَّة الإحياء: إن الله تعالى يرسل ماءً[٥] مِن تحتِ العرشِ تَنبتُ به أجسادُ الخلقِ.

***

(١٠) - ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ أي: القوَّة والقدرة والـمَنَعة فليطلبها مِن عند الله تعالى، فحذف الجزاء استغناءً عن المدلول بالدَّليل، وهو قوله:

---

(١) «في» سقط من (ك) و(ي).

(٢) في (م): «الأدل».

(٣) بعدها في (ع): «أو لا سيول له»، وفي (ف): «أو لا سوء له»، وفي (ك): «أو لإرسال دل له»، وفي (م): «أو لا سؤل إليه»، وفي (ي): «أو لا مسؤولاً له».

(٤) في (ي): «الاحتمال اختلاف»، وسقطت «اختلاف» من (ف).

(٥) في (ك): «يرسلها».

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾؛ أي: عِزَّةُ الدُّنيا والآخرة، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الذي يُطلَبُ به العزَّةُ هو التَّوحيد والعمل الصالح فقال:

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو قولُ لا إله إلا الله، وصعودُه إليه مجازٌ عن قَبولِه إيَّاه، والمستكنُّ في ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ للكَلِم؛ لأنَّ الصَّاعد بنفسِه هو، ولا خلافَ في أنَّ العملَ لا يُقبَلُ إلَّا بالتَّوحيد والإيمان. ويؤيده القراءة بنصب (العملَ)[١].

وقيل: لله تعالى، والمرفوع العملُ، وتخصيصه بهذا الشَّرف لِمَا فيه مِن الكلفة.

وقيل: للعمل فإنه يحقِّق الإيمان ويقوِّيه.

والكَلِمُ: اسمُ جنسٍ مِن الأجناسِ التي يُفرق بين واحدها والجنس بالتَّاء، كتمرٍ وتمرة[٢].

وقرئ: (يُصْعَد) على البناء للمفعول[٣].

و: (يُصْعِد) على البناء للفاعل مِن أصعَدَ، ونصبِ (الكلِمَ)، والفاعل هو المتكلِّم به لأنَّه يُصْعِده إلى الله تعالى[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: المكراتِ السَّيئات، أو لمضافٍ[٥] إلى المصدر؛ أي: أصنافَ المكرِ السَّيئات، أو ضُمِّن ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ معنى:

---

(١) نسبت لعيسى وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣).

(٢) في (ف) و(ك): «كتمرة».

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٦٠٣).

(٤) نسبت لعلي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«الكشاف» (٣/ ٦٠٣).

(٥) في النسخ عدا (ك): «المضاف»، والمثبت من (ك).

يكسبون، فنُصب ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مفعولاً به، والمراد: مكرات قريشٍ في دار النَّدوة، وقد مرَّ تفصيلُها في (الأنفال).

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يؤبَهُ دونَه بما يمكرون به.

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جِيءَ به للدِّلالةِ على عِظمِ مكرِهِم، وأنَّه لخبثه أوجب فساده وعدم نفاذه.

وتوسيط ﴿هُوَ﴾ للحصر؛ أي: هو خاصَّةً يبور[١] ويفسد دون مكرِ اللهُ تعالى بهم.

وكون الأمور مقدَّرةً لا تتغير[٢]، لا يصلحُ علَّةً لفساد مكرهم؛ لِمَا قرَّرناه في مواضعَ مِن أنَّه لا تأثيرَ في التَّقدير كما زعمتْه الجبريَّة، ولا دلالةَ على ذلك في قوله:

(١١) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلقِ آدم عليه السلام منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ بخلقِ ذرِّيَّته منها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً ذكوراً[٣] وإناثاً.

﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ في موضعِ الحال؛ أي: إلا معلومةً له.

لَمَّا أثبتَ القدرةَ الكاملةَ والعِلمَ الشَّامل أرادَ إثباتَ القضاءِ والقدرِ فقال:

---

(١) في (ف) و(م): «يبعد».

(٢) رد للبيضاوي. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٥٥).

(٣) في (م): «وذكرانا».

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ مِن بابِ تسميةِ الشَّيءِ بما يَؤولُ إليه[1]؛ أي: وما يعمَّرُ مِن أحدٍ، ألا ترى أنَّه يرجع الضَّمير في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إليه؟ والنُّقصانُ مِن عُمرِ المعمَّرِ مُحالٌ، وهو مِن التَّسامحِ في العبارة ثقةً بفهم السَّامع.

هذا بحسب الجليل[2] مِن النَّظر، وأمَّا النَّظرُ الدَّقيقُ فيَحكم بصحَّة أنَّ المعمَّر ـ أي: الذي قُدِّرَ له عمرٌ طويلٌ ـ يجوز أنْ يبلغَ حَدَّ ذلك العمرِ وأنْ لا يبلغَ عمرَه، فيزيدُ عمرُه على الأوَّل وينقص على الثَّاني، ومع ذلك لا يلزمُ التَّغييرُ في التَّقدير، وذلك لأنَّ[3] المقدَّرَ لكلِّ شخصٍ إنَّما هو الأنفاس المعدودة، لا الأيَّام المحدودة والأعوام الممدودة، ولا خفاء في أنَّ الأيَّام قَدْرٌ مِن الأنفاسِ يزيدُ وينقصُ بالصِّحة والحضور والمرض والتَّعب، فافهم هذا السِّرَّ العجيبَ[4].

---

(١) في (م): «بما يؤول به».

(٢) في (م): «الجلي».

(٣) في (ف) و(م): «أن».

(٤) في هامش (ف) و(م) و(ي) و(ع): «حتى ينكشف لكَ سِرُّ اختيار حبس النفس، ويتضح وجه صحة قوله عليه السلام: الصَّدقة والصِّلة تعمران الدِّيار وتزيدان في الأعمار. منه». وهذا القول للمؤلف مع العبارة الواردة في حواشي النسخ المذكورة قد نقله الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨) مصدرا ذلك بالتعجب منه، ومتعقبا إياه برد الشهاب، الذي قال: (وهو مما لا يعوِّل عليه عاقل، ولم يقل به أحد غير بعض جهلة الهنود، مع أنه مخالف لما ورد في الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ لأم حبيبة رضي الله عنها وقد دعت بطول عمر: «سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة». وقد أطال المحشي فيه وفي رده وهو غنيٌّ عنه). قلت: وأراد بالمحشي الجلبي كما صرح الآلوسي.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ وهو[١] اللَّوح أو الصَّحيفة[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الزِّيادة والنّقصان[٣].

* * *

(١٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضَرب البحرَيْن ـ العذبِ والملحِ[٤] ـ مثلَيْن للمؤمنِ والكافرِ.

والعَذْبُ: ما يقمع العطش ويردعُه، مِن أعذبَ عن الشَّيء: إذا أمسَكَ عنه.

والفُراتُ: الذي يكسِرُ العطشَ.

والسَّائِغُ: الذي يسهل انحدارُه.

والـمِلحُ: الماءُ الذي فيه ملوحةٌ، ولا يقال: مالح.

والأُجاجُ: أشدُّ المياه ملوحةً، وهو الذي لشدَّة ملوحتِه يلتهب، ويُقال: أجَّجْتُ النَّارَ؛ أي: ألهبتُها، والأَجَّةُ: شِدَّةُ الحرِّ.

ثمَّ وصفَ البحرَيْنِ بما فيهما مِن النِّعمِ والفوائد على سبيل الاستطراد امتناناً وتفضُّلاً، فقال:

---

(١) في (م): «هو».

(٢) في (ف): «والصحيفة».

(٣) في (ف) و(ك): «والنقص».

(٤) في (ف): «والمالح».

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إنَّما غيَّرَ النَّظمَ ـ حيث لم يقل: وتلبسون حليةً ـ لتفاوت الحال؛ حيث كان الأوَّلُ سهلَ المأخذ دون الثَّاني، وفي زيادة السِّينِ نوعُ دلالةٍ إلى مزيد كلفةٍ في إخراجها.

وفي عبارةِ ﴿كُلٍّ﴾[1] دلالة على أنَّ قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على ظاهره.

ويجوز أن يكون وصفهما مِن تمامِ المثَلِ، وهو أنَّهما مشتركان في فوائدَ كثيرةٍ، كما أنَّ الكافرَ وإنْ كانَ المقصودُ من الإنسان فيه مفقوداً كالمقصود الأعظم من الماء في البحر الملح، ولكنْ قد يُشارِكُ المؤمنَ في فوائد دنيويَّة كالشَّجاعة والسَّخاوة وأمثالها[2].

أو أنَّ[3] الملحَ وإنْ لم يبقَ فيه خاصيَّةُ[4] الماء، وفسدَ جوهرُه بما اختلطَ به وأبطلَ فطرتَه كالكافر، لكنَّه مُفضَّلٌ عليه بأنَّ فيه فوائدَ كثيرةً ومنافعَ جمَّةً، بخلاف الكافر فإنَّه لا خيرَ فيه ولا نفعَ، فيكون على طريقة قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾: في كلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾: شواقَّ الماء بجريها.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: مِن فضلِ اللهِ بالنُّقلة فيها، وأُضْمِرَ للعلم به تعالى وتعيُّنِه، واللَّام متعلقة بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾، ويجوز أن تُعلَّق بما دلَّ عليه الأفعال المذكورة.

---

(١) في (ف): «عبارة النظم»، وفي (ك): «عبارته».

(٢) في (ك): «وأمثالهما».

(٣) في (ع) و(ف) و(ك): «وأن».

(٤) في (ف) و(م): «خاصة».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لعلَّ) مستعارٌ مِن معنى التَّرجِّي للإرادة، ولذلك سلك به مَسلَكَ التَّعليلِ، وعطفَ على قولِه: ﴿لِتَبْتَغُوا﴾، كأنَّه قالَ: لتبتغوا من فضله ولتشكروا[1] على ذلك.

* * *

(١٣) - ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قد سبقَ تفسيرُه في سورة لقمان.

﴿ذَلِكُمُ﴾ إشارةٌ إلى الموصوف بالصِّفات المذكورة، وفيه إشعارٌ بأنَّ فاعليَّته لها موجبةٌ لثبوتِ الأخبار المترادفة.

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ ﴿ذَلِكُمُ﴾ مبتدأ، ﴿اللَّهُ﴾ عطفُ بيان[2]، ولا يجوز أن يكونَ صفةً؛ لأنَّه عَلَمٌ، والعَلَم[3] لا يوصف به.

و﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ مقرِّرة لمعنى التَّعظيم الذي في ﴿ذَلِكُمُ﴾، أو لمعاني الصِّفات المذكورة، أو ثلاثتُها أخبار مترادفة، ولا يأبى المعنى عن خبريَّة ﴿رَبُّكُمْ﴾ لأنَّه يكون قد أخبر بأنَّه المشار إليه بتلك الصِّفات والأفعال.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «وتشكرون».

(٢) «بيان» زيادة من (م) و(ي) و(ع). وكلمة: «عطف» سقطت من (م).

(٣) «والعلم» سقط من (م).

أو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبران، و﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملةٌ مبتدأة[1] لا محلَّ لها من الإعراب، واقعةٌ في قِرَان قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ مقدّمة منضمَّة[2] إلى الأولى؛ لينعقد القياس منهما برهاناً دالًّا على أنَّها لم تَصلح للإلهيَّة، ولم تَستحقَّ العبادةَ.

والقطميرُ: القُمعُ الذي في رأس التَّمرة، وقيل: لفافة النَّواة.

***

(١٤) ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

ثمَّ قررَ نفيَ الألوهيَّة عنها بقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَّهم[3] جمادٌ.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيلِ الفَرْضِ والتَّقديرِ.

﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ بتحصيل سؤلِكم؛ لعدمِ قدرتِهم على شيءٍ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: ينكرونه، هذا على أن يكون الكلامُ في الأصنام، فجحدُهم بأنْ ينطقهم اللهُ تعالى يوم القيامةِ فينكرون أن يكونوا[4] أهلاً للعبادة، أو ينكرون أن تكون تلك العبادة حقًّا، وإنَّما ذكر أفعالهم بالواو والنُّون لأنَّه وصفهم بصفات العقلاء.

---

(١) في (ف) و(م) و(ي) و(ع): «مبتدأ».

(٢) في (ف): «متقدمة متضمنة»، وفي (م): «متقدمة منضمة».

(٣) في (م): «لأنها».

(٤) في (ف) و(م) و(ي) و(ع): «يكون».

وإنْ كان في الملائكة والأنبياء عليهم السلام فمعنى قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾: لغيبتهم عنكم[1]، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنَّهم لا يملكون ذلك.

ومعنى إنكارهم شركَهم: أنَّهم يومَ القيامةِ يقولون: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]، أو ينكرون أن يكون ذلك حقًّا.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ التَّنكيرُ للتَّعظيم؛ أي: ولا يخبرُكَ بحقيقةِ الأمر على ما هو عليه خبرُه[2] مثلُ خبيرٍ أيِّ خبير، عليم[3] بكلِّ خفيَّةٍ وجليَّةٍ؛ يعني: ما أخبرتكم به مِن حالِ الأوثان هو الحقُّ؛ لأنِّي خبيرٌ بكلِّ شيءٍ.

* * *

(١٥) ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ في أنفسكم، وما يَعِنُّ لكم[4].

وتعريف ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ للماهيَّة؛ بناءً على المبالغة.

وتوسيط ﴿أَنتُمُ﴾ للحصر؛ أي: أنتم جنس الفقراء مطلقاً، دون سائر الخلائق، يعني أنَّكم لكثرة حوائجكم وشدَّة افتقاركم وغاية ضعفكم بالنِّسبة إلى سائر الخلائق كأنَّكم جنس الفقراء، ليس غيركم فقراء، ولذلك قابله بقوله:

---

(١) في (م) و(ع): «عنهم»، وقوله: «لغيبتهم» سقط من (ف) و(ك).

(٢) في (ك) و(م): «خبير»، وفي (ف) و(ي): «خبر».

(٣) «عليم» سقط من (م).

(٤) في (ك): «يعني لكم»، وفي (ف): «يعز لكم». والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب، ويعن: بكسر العين وتشديد النون؛ أي: ما يعرض لكم ويطرأ من الأحوال. انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٢٠).

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ مطلقاً وبالذَّات؛ لوجوب وجوده، لا غنيَّ سواه؛ لاحتياجِ الكلِّ إليه.

وزاد عليه:

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لأنَّ الغنيَّ قد لا يَجود فلا يُحمَدَ، وهو الجوادُ المنعِمُ بجميع النِّعمِ، وقد أنعمَ عليهم بالوجودِ وكلِّ ما يحتاجون إليه، فكان حميداً مطلقاً.

* * *

(١٦) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: بقوم أَطْوعَ(١) منكم.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: بعسيرٍ.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: ولا تحمِلُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أخرى، فلا تغترُّوا بقولِ كبرائكم القائلين: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، ولا يخالفُ(٢)

(١) في (ك): «أنجع».

(٢) في (ف) زيادة: «وزر».

هـذا قولـه فـي حـقِّ الضَّاليـن المضلِّيـن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبـوت: ١٣]؛ لأنَّ الحملَيْـنِ كلاهمـا مِـن أوزارِه.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾: نفـسٌ أثقلهـا[1] الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾: لحمـلِ بعـضِ[2] أوزارِهـا.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[3]: لا يحمـلُ شـيئاً مِـن وزرهـا؛ أي: لا غِيـاثَ لِمَـنِ اسـتغاثَ منهـم.

حذفَ مفعول (إن تدع) للتَّعميم؛ أي: وإن تدعُ كلَّ مَن في العالم واحداً واحداً لم يُجبْ، ولهذا أضمر المدعوَّ في: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾.

قرئ: (ذو قربى)[4] على حذف الخبر، ويجوز أن تكون ﴿كَانَ﴾ تامَّةً، إلَّا أنَّ النَّاقصة أوقعُ وأفصح.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل؛ أي: يخشونه غائبين عن عذابه، أو من المفعول؛ أي: يخشون عذابَه غائباً عنهم، أو نصب على الظَّرف؛ أي: في السِّرِّ والغيبة مِن النَّاس.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنَّهم المنتفِعون بالإنذار، واختلاف الفعلَيْنَ[5] للدِّلالة على استمرارِ خشيتِهم.

---

(١) في (ك): «أثقلتها».

(٢) في (ف): «ما يحمل»، وفي (م): «بحمل بعض».

(٣) بعدها في (ف): «أي».

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٦٠٧).

(٥) في (م): «الفعل».

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: ومَن تطهَّر عن دنسِ المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعُه لها، وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخشيتِهم وإقامتِهم الصَّلاة؛ لأنَّهما من جملة التَّزكِّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثَلٌ آخرُ للكافر والمؤمن، أو للصَّنم والله تعالى، وتأخير ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ لمحافظةِ الفاصلة.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ مثلٌ للباطل والحقِّ. وإنَّما جمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ دون ﴿ٱلنُّورُ﴾ لأنَّ الحقَّ واحدٌ بخلافِ الباطل فإنَّه على أنواع متعدِّدة.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ مثلٌ للثَّواب والعِقاب. و﴿ٱلْحَرُورُ﴾: فَعولٌ مِن الحرِّ، غلبَ على السَّموم، وقيل: غلب على ما يكون باللَّيل، والسَّموم ما يكون بالنَّهار، والواوات بعضُها عاطفة الوتر على الوترِ كالَّتي بين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾، وبعضُها عاطفة الشَّفع على الشَّفعِ كالَّتي بينهما وبين[1] ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾.

---

(١) في (م): «كالتي بين»، وفي (ي) و(ع): «كالتي بينها».

وكرَّر ﴿وَلَا﴾ فيما كرَّر لتأكيد المنافاة، فـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ تنافي ﴿ٱلنُّورُ﴾، و﴿ٱلظِّلُّ﴾ ينافي ﴿ٱلْحَرُورُ﴾، و﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ لا ينافي ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾، إنَّما المنافاة بين الوصفَيْنِ، ولذلك يكون الشَّخصُ الواحد بصيراً في وقتٍ وأعمًى[1] في وقتٍ آخرَ، ولهذا[2] لم يذكر (لا) بينهما.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مثلٌ للعقلاءِ الذين دخلوا في الإسلامِ، والجهَّال الذين لم يدخلوا فيه وأصرُّوا على الكفر.

آثر صيغةَ الجمع هنا لأنَّه أرادَ نفيَ المساواة بين الأفراد؛ أي: ليس في جنس الأموات فردٌ يساوي فرداً من جنس الأحياء، ولا صحَّة لهذا المعنى في الأعمى والبصير؛ فإنَّه قد يوجد في جنس الأعمى ما يساوي بعضَ أفراد البصير، بل يَفضُلُ عليه، فلذلك آثر فيه[3] صيغة الإفراد تفضيلاً للجنسِ على الجنسِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه، فيوفِّقه لفهم آياته والاتِّعاظِ بعظاتِه. وبناء الفعل على الاسم يفيد أنَّك لا تُسمِعُ مَن تشاءُ.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ وما مَثلُكَ في إرادة إسلام مَن تشاءُ مِن قومٍ مخذولين إلَّا مَثلُ مَن يريد أن يُسمِعَ مَن في القبور، وهو ترشيحٌ لتمثيلِ

---

(١) في (ك): «أعمى».

(٢) في (ك) و(ي) و(ع): «فلهذا».

(٣) في (م): «عليه».

المصرِّيْنَ على الكفر بالأموات، ومبالغةٌ في إقناطه عنهم[1].

***

(٢٣) ـ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾.

ثمَّ قالَ: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾؛ أي: لسْتَ بمسمعٍ؛ فإنَّ الإسماعَ ليسَ إليك، ولا حيلةَ لك في إسماع المطبوع على قلوبهم، ما عليك إلا الإنذار.

***

(٢٤) ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ حالٌ مِن أحد الضَّميرَيْنِ؛ أي: محقِّين، أو محقًّا، أو صفةُ مصدر محذوف؛ أي: إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، أو صلةٌ لقوله:

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾؛ أي: بشيراً بالوعد الحقِّ، ونذيراً بالوعيد الحقِّ.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ الأمَّةُ: الجماعةُ الكثيرةُ، والمراد هنا: أهل عصرٍ.

﴿إِلَّا خَلَا ﴾[2]: مَضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ مِن نبيٍّ، أو عالمٍ قائمٍ مقامَه في الإنذارِ.

وإنَّما خصَّه بالذِّكر لأنَّ البشارة إنَّما تكون بالسَّمع، فهي مِن خصائص الأنبياء، فالبشير لا يكون إلَّا نبيًّا، أو ناقلاً عنه، بخلاف الإنذار فإنَّه كما يكون بالسَّمع يكون بالعقل، فلذلك وُجِدَ الثَّاني في كلِّ أمَّةٍ دون الأوَّل، ولا يُشكل هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ: ٤٤]؛ لأنَّ المراد مِن النَّذير فيه: النذِّيرُ بالسَّمع.

---

(١) في (ف): «إقناعهم». وعند البيضاوي: (إقناطه منهم).

(٢) من قوله: «أي: بشيراً بالوعد الحقِّ.. » إلى هنا سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٢٥) ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مَسْلاةٌ للرَّسول عليه الصلاة والسلام.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾: بالمعجزات الشَّاهدة على نبوَّتهم.

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: وبالصُّحف ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: وبجنس الكتاب كالتَّوراة والزَّبور والإنجيل[1].

ولَمَّا كانتِ الأشياء المذكورةُ في جنس الأنبياء عليهم السلام، بعضُها في جميعهم وهي البيِّنات، وبعضُها في بعضهم وهي الزُّبر[2] والكتب؛ أسندَ المجيء بها إليهم مطلقاً على أنَّ الكلَّ منهم جاؤوا بالكلِّ، لا أنَّ كلَّ واحدٍ جاء[3] بكلِّ واحدٍ.

* * *

(٢٦) ـ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ قد سبق تفسيره في سورة سبأ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.

(١) في هامش (ف) و(م) و(ي) و(ع): «أي أعم من التفصيل والجمع، لا على الثاني كما توهمه القاضي».

(٢) في (م): «الزبور».

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «جاؤوا».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾؛ أي: أجناسُها كالرُّمَّان والتُّفاح والتِّين والعنب وغيرها ممَّا لا يُحصى، أو أصنافها على أنَّ كلًّا منها أصنافٌ مختلفةٌ، أو هيئاتها مِن الحمرة والصُّفرة والخضرة ونحوها.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾: طرائقُ مختلفٌ ألوانُها؛ أي: جبالٌ كلٌّ بعضٍ منها على لونٍ وطريقٍ مخالفٍ لآخر، كما في الثَّمرات، أو: مِن الجبالِ ذو جُدَد؛ أي: جنس ذو خطط.

﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾؛ أي: بعضٌ مختلفُ الألوانِ، وبعضٌ على لونٍ واحدٍ.

وقرئ: (جُدُدٌ) بضمِّ الدَّال[1]، جمع جَديدةٍ، وهي الجُدَّة، و: (جَدَد) بفتحتَيْنِ[2]، وهو الطَّريق الواضح.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾[3]، أو على ﴿جُدَدٌ﴾؛ أي: ومن الجبال[4] مخطط[5] ذو طرائق مختلفة، ومنها ما هو على لونٍ واحدٍ غرابيبُ.

والغرابيبُ: البالغُ في السَّواد، وهو مِن التَّوابع المؤكِّدة، ومنه الغراب، وعليه تفسير عكرمة[6].

---

(١) نسبت للزهري. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٩).

(٢) نسبت للزهري أيضاً. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٩٩).

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «بعض».

(٤) «أي ومن الجبال» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٥) في (ك): «خطط»، وفي (م): «مختطة».

(٦) انظر: «الكشاف» (٣/ ٦٠٩)، وفيه: وعن عكرمة رضى الله عنه: هي الجبال الطوال السود.

ووجهُه: أنْ يُضمَر المؤكَّد قبلَه لأنَّه تابعٌ، ثمَّ أوقع بياناً له خيفةَ اللَّبس، كقول النَّابغة:

والمؤمـــنُ العائـــذاتِ الطَّيـــرَ[١]

وتغيير الأصل فيه لزيادة التَّأكيد، كأنَّه دلَّ على المعنى الواحد بطريق الإضمار والإظهار، فيكون كتكرير[٢] التَّأكيد بوجهٍ أبلغَ.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾: كاختلاف الثِّمار والجبال.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾: ما يخشى اللهَ تعالى مِن بين[٣] عبادِه إلَّا العلماءُ باللهِ وبصفاتِه وأفعالِه؛ فإنَّ الخشيةَ على قَدْرِ العلمِ، فمَنْ كانَ أعلمَ باللهِ كانَ أخشى منه.

وفي الحديث: «أعلمُكُم باللهِ أشدُّكُم خشيةً»[٤].

---

(١) هو في «ديوانه ـ بشرح ابن السكيت» (ص: ٢٠)، وتمامه:

.... يمسَحها ركبانُ مكَّة بين الغَيْلِ والسَّنَدِ

و(المؤمن): بالرفع عطف على مبتدأ تقدم، و(العائذات) منصوب بالمؤمن، و(الطير): عطف بيان للعائذات، ويجوز جعله بدلا منه، وكذا كل موصوف تبع صفته.

(٢) في (ف) و(م): «فيكون لتكرير»، وسقطت «فيكون» من (ع) و(ي).

(٣) «بين» سقط من (م).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٠٦)، و«الكشاف» (٣/ ٦١١). وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٥٢): غريب. وروى الدارمي في «سننه» (٣٧٤) عن عطاء قال: قال موسى عليه =

ولهذا لَمَّا ذكر أفعالَه الدَّالة على كمال قدرته وعظمته وحكمته أتبعه بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ﴾؛ أي: إنَّما يخشاه مثلُك ومَن على صفتك ممَّن يعرفه حقَّ معرفته.

وتأخيرُ الفاعلِ للحصر فيه، ولو قُدِّم لانعكس الحصر، فكان في المفعول.

ومَن قرأ برفع (اللهُ)[1] ونصب (العلماءَ)[2] استعارَ الخشيةَ للإجلال والتَّعظيم؛ أي: ما يجلُّ اللهُ مِن بين النَّاس كما يُجَلُّ المَهيبُ المَخْشِيُّ إلَّا العلماءَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوب الخشيةِ؛ لأنَّ مَن قدرَ على العقوبة والانتقام والعفو والغفران حقُّه أنْ يُخْشَى.

* * *

(٢٩) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: يداوِمون على قراءة[3] القرآن.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ يعني: لا يقنعون[4] بتلاوته عن حلاوة العمل به.

= السّلام: يا رب، أيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه، قال: يا رب، أيُّ عبادك أغنى؟ قال: أرضاهم بما قسمت له، قال: يا رب، أيُّ عبادك أخشى؟ قال: أعلمهم بي.

(١) في (م) و(ي) و(ع): «برفع الأول».

(٢) نسبت لعمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة. انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٠٥)، و«الكشاف» (٣/ ٦١١). وقد طعن ابن الجزري في هذه القراءة. انظر: «النشر» (١/ ١٦).

(٣) «قراءة» سقط من (ف).

(٤) في (ف): «ينفقون»، وفي (ي) و(ع): «يعنون». والمثبت من (ك) و(م)، وهو موافق لما في «تفسير النسفي» (٣/ ٨٧)، وفيه: (لا يقتنعون).

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيف اتَّفق[1] من غيرِ قصدٍ إليها، أو سرًّا في المسنونة وعلانيةً[2] في المفروضة.

﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ من ضمير ﴿أنفقوا﴾، والخبر ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

﴿تِجَٰرَةً﴾: تحصيلَ ثوابٍ بالطَّاعة، لا طلبَه؛ لأنَّه لا يصلح متعلَّقاً للرَّجاء.

﴿لَّن تَبُورَ﴾: لن تكسد ولن تهلك[3] بالخسران، صفةٌ للتِّجارة.

***

(٣٠) - ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلِّق بـ ﴿لَّن تَبُورَ﴾، أو بـ ﴿يَرْجُونَ﴾، أو علَّة للأفعال المذكورة من التِّلاوة وإقامة الصَّلاة والإنفاق؛ أي: فعلوا مِن الطَّاعات راجين تجارةً لن تبور ليوفِّيهم ويزيدهم[4].

﴿أُجُورَهُمْ﴾ ما وعدَ مِن ثوابِ أعمالهم، وإنَّما عبَّر عنه بالأجر لكونِه في مقابلة العمل.

﴿وَيَزِيدَهُم﴾ على الموعود.

﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ متعلِّق بجميع ما ذُكِرَ مِن التَّوفية والزِّيادة، لا الزِّيادة[5] خاصَّة؛

---

(١) في (ف): «أنفق».

(٢) في (ف): «وعلانيته».

(٣) في (م) و(ي) و(ع) زيادة: «يعني».

(٤) «ويزيدهم» سقط من (ك).

(٥) في (ك) و(ي) و(ع): «للزيادة».

إذ حينئذٍ يلزم أن لا يكون تعالى[1] في التَّوفية متفضِّلاً، بل مؤدِّياً ما وجب عليه، كما زعمته المعتزلة[2].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لفرطاتهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم. مجازٌ[3] عن إعطاءِ الجزيل على العمل القليلِ.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: القرآن و﴿مِنَ﴾ للتَّبيين، أو الجنس و﴿مِنَ﴾ للتَّبعيض.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الكاملُ في كونه حقًّا.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مؤكِّدة[4]؛ لأنَّ الحقَّ لا ينفكُّ عن هذا التَّصديقِ.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتبِ المتقدِّمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ﴾ بالبواطنِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بالظَّواهر، فلو لم يرَ فيك أهليَّةً واستحقاقاً لهذه الكرامة لم يوحِ إليك مثلَ هذا الكتاب المعجز، الذي هو عيارٌ على سائر الكتب[5].

---

(١) بعدها في (ف) زيادة: «من».

(٢) في هامش (ف): «لا يلائم المذهب الحق بل يناسب مذهب الفيلسوف. منه».

(٣) في (م): «مجازا».

(٤) في (م): «مؤكد».

(٥) في النسخ: «الذي هو كسائر الكاتب»، وجاءفي هامش (ي): «كذا في نسخة المؤلف، ولا يخفى أنه سقط شيء وعبارة القاضي: عيار على سائر الكتب». قلت: ليست هي عبارة القاضي فقط، بل =

وتقديم الخبير لأنَّ الاعتناء[1] بالأمور[2] الرُّوحانيَّة أكثر، وهي العمدة.

***

(٣٢) - ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ أي: أعطيناه بلا كلفةِ كسبٍ، كمالِ الميراثِ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني: أمَّة محمَّد ﷺ، فإنَّهم مختارون مِن بين سائر الأمم.

وفي عبارة ﴿أَوْرَثْنَا﴾ إشارة إلى أنَّ الكتاب المذكور يكون باقياً في هذه الأمَّة يرثُه بعضُهم عن[3] بعضٍ إلى قيام السَّاعة، ولا يضيع كما ضاع سائر الكتب، فالمعنى: نورِثه، على عادة[4] الله تعالى في إخباره عما يتحقق وقوعه.

وكما أنَّ ورثةَ الدُّنيا ثلاثةُ أصنافٍ: صاحب فرضٍ، وعصبة، وذوي الأرحام، كذلك ورثةُ الدِّين ثلاثةُ أصناف:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو مَن عاشَ عاصياً ومات عاصياً من أهل الإيمان الذين قال النبي عليه السلام فيهم: «شفاعتي لأهل الكبائر مِن أمَّتي»[5].

= الزمخشري والقاضي وأبي السعود والآلوسي.

(١) في (ف) و(ك): «الاعتقاد»، ووقع في النسخ عدا (ي): «الخبر» بدل: «الخبير».

(٢) في (ف): «بالأنوار».

(٣) في (ف) و(ك): «من».

(٤) في (ي) و(ع): «عبادة»، ولعلها محرفة عن: (عبارة).

(٥) رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وابن ماجه (٤٣١٠)، من حديث أنس رضي الله عنه. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

قدَّمه اهتماماً لأنَّه أبعدُ الأصناف عن كرامة الاصطفاء، واللَّام للاختصاص لأنَّ فعل الظُّلم يتعدَّى بنفسه، وفائدته الاحترازُ عن الظُّلم لغيره؛ لأنَّ التَّجاوز عنه(١) في عهدة ذلك الغير.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو مَن عاش عاصياً ومات مطيعاً.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهو من عاش مطيعاً ومات مطيعاً.

نُقِلَ عن عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سابقُنا سابق، ومقتصدُنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»(٢).

فالأصناف المذكورة على مراتبَ في الوصول إلى المقصد: متأخِّر، ومتوسِّط، وسابق حاز قَصَب السَّبق، لكن لا بفضيلةٍ ذاتيَّةٍ كما في سباق الدُّنيا، بل بفضلٍ مِن الله تعالى، وإلى هذا أشير بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بتيسيره، وقد سبق وجهُ هذا المجاز.

والباء الأولى للتَّعدية، مِن قولِكَ: سبقتُه بالكرة: إذا ضربتَها قبله، ومنه قوله عليه السلام: «سَبَقَكَ بها عُكاشةُ»(٣).

---

(١) «عنه» سقط من (م).

(٢) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٠٥)، من طريق الفضل بن عميرة، عن ميمون بن سياه، عن أبي عثمان النهدي عن عمر رضي الله عنه. والفضل بن عميرة ضعيف. قال العقيلي: لا يتابع عليه.
ورواه البيهقي في «البعث والنشور» (٦٥) من طريق ميمون بن سياه عن عمر رضي الله عنه. وهذا منقطع كما ذكر البيهقي.
ورواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٠٨) عن عمر موقوفاً. وانظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الاصطفاء ﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ لَمَّا ذكر الأصنافَ المذكورة بحسب أحوالهم في دار العمل فرَّق بينهم، ولَمَّا ذكرهم باعتبار مآلهم إلى دار الجزاء جمعَهم فقال:

* * *

(٣٣) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدلٌ؛ لأنَّ الفضل هو السَّبب في الوصول إليها، فكأنَّه مِن شدَّة اقتضائه للمسبَّب عينُه[1]، وتنزيل السَّبب منزلةَ المسبَّب غيرُ عزيز.

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾؛ أي: الفِرق الثَّلاث يدخلونها، ويجوز أن تكون الإشارة إلى السَّبق، واختصاصُ السَّابقين بعد التَّعميم[2] بذكر ثوابهم، والسُّكوتُ عن القسمَيْنِ الأخيرَيْنِ؛ للإنذارِ والحثِّ على التَّوبة والتَّشويق إلى[3] السَّابقين.

وقرئ: (جنَّاتِ)[4] منصوبةً بفعلٍ يفسِّره الظَّاهر.

وقرئ: ﴿يُدْخَلونها﴾ على بناءِ المفعول[5].

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ حالٌ مقدَّرة، أو خبرٌ ثانٍ، وقرئ: (يَحْلَون) مِن حَلِيَتِ المرأةُ فهي حَالِيَةٌ[6].

---

(١) في (ف): «عنه».

(٢) في (ف) و(ك): «التَّقسيم».

(٣) في (ف): «أي»، وبعدها في (م) و(ي) «سلو»، وفي (ع): «شلو»، وفي (ف) بياض بمقدار كلمة.

(٤) نسبت للجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

(٥) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٢).

(٦) انظر: «الكشاف» (٣/ ٦١٤).

﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للبيان أو للتَّبعيض؛ أي: يحلَّون بعضَ أساور، كأنَّه بعضٌ سبقَ[1] سائر الأبعاض، كما سبق المسوَّرون به[2] غيرهم، وهذا على تقدير أن تكون الإشارة إلى السَّبق.

﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِن﴾ للبيان، لا للتَّبعيض؛ إذ حينئذٍ يكون الخبر خلواً عن الفائدة.

﴿وَلُؤۡلُؤٍ﴾ عطف على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ أي: مِن[3] ذهبٍ مرصَّع باللُّؤلؤ[4]، أو ذهبٍ في صفاءِ اللُّؤلؤِ، وقرئ: ﴿وَلُؤۡلُؤًا﴾[5] عطفاً على محلِّ ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾[6].

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ التَّنكير للدِّلالة على أنَّه نوعٌ غيرُ معهودٍ مِن جنسِ الحريرِ.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾: همّهم مِن خوف العاقبة، أو مِن أجل المعاش وآفاته، أو مِن وسوسةِ إبليس وغيرها.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ للمُذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

* * *

---

(١) في (ك): «فارق»، وفي (ف) و(م) و(ع) و(ي): «فلق»، والمثبت «الكشاف» (٣/ ٦١٤).

(٢) في (ك): «به المتسورون به».

(٣) «من» سقط من (م).

(٤) في (م): «من لؤلؤ».

(٥) في (ك) «لؤلؤاً بالواو»، وفي (ف): «بالواو».

(٦) قرأ نافع وعاصم بالنصب، وباقي السبعة بالخفض. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٦).

(٣٥) - ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: دارَ الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: مِن إنعامه وتفضُّله؛ إذ[1] لا واجبَ عليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ النَّصبُ: التَّعبُ والمشقَّةُ التي تصيب المنتصِبَ للأمرِ.

﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ اللُّغوبُ: الفُتور والكَلال دونَ التَّعبِ، فهو مِن بابِ التَّرقِّي لا مِن باب[2] التَّتميم، ولذلك أعادَ قولَه: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا﴾، ولم يقل: ولا لغوب.

* * *

(٣٦) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ جواب النَّفي، ونصبُه بإضمار (أنْ)؛ أي: لا يموتون بموتٍ ثانٍ فيستريحوا[3]، يُقال: قضى عليه: إذا أماته، قال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

فلا بُدَّ مِن صرف قوله: ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ عن الحقيقة إلى المجاز؛ صوناً له[4] عن وَصمةِ اللَّاغية[5].

---

(١) «إذ» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٢) «باب» من (ك) و(م).

(٣) في (ي) و(ع): «فيسترحوا»، وفي (ف): «فيسرحوا».

(٤) «له» زيادة من (ك).

(٥) أي: لئلا يلغو ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾. وتحرفت «اللاغية» في (ف) و(ك) و(ي) إلى: «اللاعنة».

وقـرئ: (فيموتـون)[١] عطفـاً علـى ﴿يُقْضَىٰ﴾، وإدخـالاً لـه فـي حكـم النَّفي؛ أي: لا يقضـي عليهـم المـوت فـلا يموتـون، كقولـه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسـلات: ٣٦].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾: مِـن عذاب جهنَّم، كقولـه[٢] تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، فـإنَّ فيـه دلالـةً علـى أنَّ مظنَّة الخفَّـة في غيرهم مئنَّةُ[٣] الشِّـدة فـي حقِّهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثـلَ ذلـك الجـزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾: مبالـغٍ فـي الكفـر أو الكفـران[٤].

قـرئ بالنُّـون واليـاء، والفاعـل هـو الله تعالـى، وقـرئ: ﴿يُجْزَى﴾ علـى بناء المفعـول، وإسـنادِه إلـى ﴿كلُّ﴾[٥].

***

(٣٧) ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

---

(١) نسبت للحسن وعيسى. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠١)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٨٣).

(٢) في (م): «لقوله».

(٣) أي: مخلقة ومجدرة، مأخوذة من إنَّ التحقيقية. وتحرفت في (ك) إلى: «مشيئة»، وفي (م) إلى: «متنة»، وفي (ف) إلى: «شد».

(٤) في (ك): «الكفر أي الكفران»، وفي (ف): «الكفر والكفران»، في (ي): «الكفور أو الكفران»، والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لعبارة البيضاوي وأبي السعود والآلوسي. وهو ـ كما قال الشهاب ـ إشارة إلى أنه يجوز أن يكون من الكفر أو الكفران. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٢٧).

(٥) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٢).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾ يفتعِلون، مِن الصُّراخ، وهو الصِّياح بجهدٍ وشدَّةٍ، واستُعمِلَ في الاستغاثة؛ لجهدِ المستغيثِ صوتَه[١].

﴿فِيهَا﴾: في جهنَّم.

﴿رَبَّنَآ﴾ بإضمار القول[٢]؛ أي: يستغيثون ويقولون: ربَّنا.

﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ اعترافٌ منهم بأنَّ ما عملوه كانَ غيرَ صالحٍ حَسِبوه صالحاً، وتحسُّرٌ عليه، والدِّلالة[٣] على أنَّ طلب الخروج لتلافيه.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: مَن أرادَ أنْ يتذكَّرَ، توبيخٌ مِن الله تعالى على طَلِبتهم، وتقريرٌ على تقدير القول؛ أي: نقول لهم: أتتمنونَ الرُّجوع ولم نعمِّركم مدَّة يمكن فيها التَّذكُّر والتَّدبُّر؟

و﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ يتناولُ كلَّ عمرٍ يتمكَّنُ فيه الإنسان مِن العمل الموجب للنَّجاةِ وإنْ قَصُرَ، إلَّا أنَّ التَّوبيخَ في المتطاوِل[٤] أعظم.

وقيل: ما بين العشرين إلى السِّتين، وعنه عليه السلام: «العمرُ الذي أَعْذرَ اللهُ فيه إلى ابن آدم ستُّون سنةً»[٥].

---

(١) قوله: «لجهد» بالدال المهملة لا بالراء كما في بعض نسخ البيضاوي؛ أي: يجهد ويبالغ في مد صوته ويبذل جهده فيه. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٢٧).

(٢) في (ف) و(ك): «بالإضافة إلى القول».

(٣) في (ف) و(ك): «اعترافاً منهم والدلالة» وسقط باقي العبارة.

(٤) في (ف) و(ي) و(ع): «التطاول».

(٥) روى نحوه البخاري (٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظه: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله، حتى بلَّغه ستين سنة».

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على معنى ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾؛ لأنَّه تقريرٌ لفظُه لفظُ الاستفهام، ومعناه معنى الخبر، كأنَّه قيل: قد عمَّرناكم وجاءكم النَّذير؛ أي: النَّبيُّ[1] المنذِر أو الكتاب، وهذا إلزام الحجَّة[2] عليهم بالعقل والسَّمع؛ فإنَّ التَّذكُّرَ مِن باب العقل، والإنذار مِن باب السَّمع.

والفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ للسَّببيَّة؛ أي: ما تذكَّرتم فذوقوا بسببِه[3]، وكذا الثَّانية إلَّا أنَّ فيها معنى التَّعليل.

﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

***

(٣٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: ما غابَ فيها[4] عنكم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ؛ لأنَّ ما في الصُّدور أخفى الغيوب، فإذا علمَه علمَ كلَّ غيبٍ في العالم، فيعلَمُ أنَّه لو ردَّهم إلى الدُّنيا لم يعملوا غير الذي كانوا يعملون؛ كقوله[5]: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

***

(١) «النبي» من (ف) و(ك).

(٢) في (ف): «ألزم الحجبة».

(٣) في (ف) و(ي): «سببه»، وفي (ع): «سببية».

(٤) في (ك): «فيهما».

(٥) في (ف) و(م): «لقوله».

(٣٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ يُقال للمستخلَفِ: خليفة وخليف، ويجمع الخليفة على خلائِف، والخليف على خُلفاء.

والخطاب عامٌّ على أنَّ المعنى: أنَّه جعلكم خلفاء في أرضِه، وألقى إليكم مقاليدَ التَّصرُّف فيها، وأباح لكم منافعها؛ لتؤمنوا به وتشكروه[١].

وقيل: لمن بُعِثَ إليه رسول الله ﷺ، فإنَّهم خَلَفوا مَن قبلَهم، وشاهدوا مِن آثارِ[٢] هلاكهم ما فيه معتَبر، ورأوا ما فيه مزدَجَر.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم وغمطَ تلك النِّعمةَ ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: فعليه وَبال كفرِه لا على غيرِه.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بيانٌ له، والمقتُ: أشدُّ البغضِ، والتَّنكيرُ للتَّعظيم؛ لأنَّ مقتَ الله أعظمُ مِن كلِّ مَقْتٍ، وكذا التَّنكير في ﴿خَسَارًا﴾.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ وهو خسار الآخرة.

تكرير ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والتَّصريح في[٣] موضع الإضمار ذمٌّ، وبيانٌ لكون الكفر مقتضياً لكلِّ واحدٍ مِن الأمرَيْنِ القبيحَيْنِ[٤] المذمومَيْنِ بالأصالةِ.

* * *

(١) في (م): «وتشكرونه».

(٢) في (ف) و(ك): «آثارهم».

(٣) في (ف): «والصريح من».

(٤) في (ف) زيادة: «القسمين».

(٤٠) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: آلهتَهم، وإضافة الشُّركاء إليهم للملابسة؛ لأنَّهم جعلوهم شركاء الله.

﴿ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بدلَ الاشتمال؛ لأنَّه بمعنى: أخبروني عن هؤلاء الشُّركاء وعمَّا[1] استحقُّوا به العبادة، أيَّ شيءٍ مِن الأرض استبدُّوا بخلقِه؟!

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أم لهم شركةٌ مع الله تعالى في خلق السَّماوات، فاستحقُّوا بذلك الشِّركةَ في الألوهيَّة ذاتيَّة[2] ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنَّهم شركاؤه.

ويجوز أن يكون الضَّمير في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركين، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥]، على أنَّ السُّؤال عن دليل آلهتهم: أهو برهانٌ عقليٌّ أم نقليٌّ؟

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾: على حجَّةٍ مِن ذلك الكتاب، بأنَّ لهم شركة جعليَّة.

وقرئ: ﴿بيِّناتٍ﴾[3]، فيكون إيماءً إلى[4] أنَّ الشِّركَ أمرٌ خطيرٌ، لا بُدَّ فيه[5] مِن تعاضد الدَّلائل.

---

(١) في (ف) و(ك): «عما». والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٦١٧) و«تفسير النسفي» (٣/ ٩١).

(٢) في (ف): «وأنه»، وسقط من (ك).

(٣) وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي بكر والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٢).

(٤) في (م) و(ي) و(ع): «على».

(٥) في (م) و(ي) و(ع): «منه».

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ على معنى الإضراب عن العقليِّ وإنكار النَّقليِّ، ثمَّ أضرب عنها[1] صريحاً بقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ إذا ثبت أن[2] ذلك لأتباعهم ما هو إلَّا غرورٌ صِرْفٌ، وهو قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

قوله: ﴿بَعْضُهُم﴾ بدل من ﴿الظَّالِمُونَ﴾[3]، وهم الرُّؤساء، والمرادُ مِن البعض الآخر: الأتباعُ.

ويجوز أن يكون[4] وعد الشَّيطان للكافر[5] كما قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، منَّاهم أن تشفعَ لهم أصنامهم وتقرِّبهم إلى الله زُلفَى.

* * *

(٤١) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾: يمنعُهما مِن أنْ تزولا؛ لأنَّ الإمساكَ منعٌ، أو: لأنْ لا تزولا؛ كقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]؛ أي: لأنْ لا تميدَ بكم.

---

(١) في (ك): «عنهما».

(٢) في (ع) و(م) و(ي): «وأثبت أي».

(٣) في (م): «الظالمين».

(٤) «أن يكون» سقط من (ي) و(ع).

(٥) في (م): «للكافرين».

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ على سبيل الفَرْضِ ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾: ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: مِن بعدِ اللهِ، أو: مِن[1] بعدِ الزَّوال.

واللَّامُ موطِّئةٌ للقسم، و﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ جوابٌ للقسم[2] سادٌّ مسدَّ جواب الشَّرط، و﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفي، والثَّانيةُ للابتداء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبةِ حيث يمسكهما، وكانتا جديرَتَيْنِ أنْ تُهدَّا هدًّا[3] لِعظمِ كلمة الشِّرك، كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠].

﴿غَفُورًا﴾ لِمَنْ تابَ عن الشِّركِ ووحَّده مؤمناً.

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ أي: واحدةٍ مِن الأمم مِن اليهود والنَّصارى والصَّابئين وغيرهم، أو مِن الأمَّة التي يُقال فيها: هي إحدى الأمم؛ أي: أوحديتُها[4]؛ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة، كما تقول: فلانٌ أحدُ الرِّجال.

بلغ قريشاً قبلَ مبعث النَّبيِّ ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذَّبوا رسلَهم، فقالوا: لعنَ اللهُ

---

(١) «من» سقط من (م) و(ع).

(٢) في (ك): «القسم».

(٣) في (ك): «أن تنهدما».

(٤) في (ع): «أو أوحديتها»، وفي: (م): «أو أحديتها»، وفي (ي): «أوحديتها».

اليهودَ والنَّصارى أتتهم الرسل فكذَّبوهم، فوالله لئن أتانا رسولٌ لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم، فلمَّا بُعِثَ الرَّسول[١] عليه السلام كذَّبوه[٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ التَّنكير للتَّعظيم.

﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ النَّذير أو مجيئُه، والإسناد مجازيٌّ؛ لأنَّه هو السَّبب في أن زادوا نفوراً.

﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقِّ وتباعداً عنه.

* * *

(٤٣) ـ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بدل من ﴿نُفُورًا﴾، أو مفعول له، أو حال؛ أي: مستكبرين.

﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ عطف على ﴿نُفُورًا﴾ على أنَّ الأصل: وأنْ مكروا السَّيِّئ؛ أي: المكرَ السَّيِء، فحذفَ الموصوف استغناءً بوصفه، ثمَّ بدل (أنْ) والفعل بالمصدَر، فصار: ومكر السَّيئ، ثمَّ أضيف.

﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: ولا يحيط[٣] ﴿ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ وهو الماكر[٤]. وقرئ: (ولا يُحِيْقُ المكرَ)[٥]؛ أي: لا يحيقُ اللهُ تعالى.

---

(١) في (م): «رسول الله».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٨٤)، و«الكشاف» (٣/ ٦١٨). وهذه القصة وقعت في (ي) و(ع) و(م) عقب ما سيأتي من قوله: «﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ أي: النذير أو مجيئه».

(٣) «ولا يحيط» من (ك).

(٤) في (ك): «الماكرون».

(٥) انظر: «الكشاف» (٣/ ٦١٨).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ما[1] ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ انتظارُ سُنَّتِهم ـ وهي[2] إنزال العذاب على مَن كذَّبَ مِن الأمم قبلَهم ـ مجازٌ عن استقبالهم[3] لذلك ووقوعه في المستقبل لا محالةَ، كالشَّيء المنتَظَرِ المترقَّبِ.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأنْ لا يعذبهم.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأنْ ينقله إلى غيرهم، وقوله:

(٤٤) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادٌ عليهم[4] بما كانوا يشاهدونه في متاجرهم ومسائرهم إلى الشَّام والعراق واليمن مِن آثار الماضين، وعلامات[5] هلاكِهم وديارهم.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾: ليسبقه ويفوتَه؛ أي: ليس مِن شأنه تعالى ذلك.

﴿مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلِّها.

﴿قَدِيرًا﴾ عليها، ثمَّ بيَّنَ أنَّ تأخيرَ العذاب عنهم ليس للعجزِ بل لحكمةٍ تقتضيه، فقال:

---

(١) «أي ما» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٢) في (م): «وهو».

(٣) في (ف): «استثقالهم».

(٤) في (م): «عليه».

(٥) في (ف): «وعلامة»، وسقطت من (ي) و(ع).

(٤٥) ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ مِن المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: على ظهرِ الأرضِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: مِن نسمةٍ تدبُّ عليها؛ أي: الإنس وحده.

وقيل: ما تركَ الإنسي[١] وغيرهم من سائر الدَّواب بشؤم ذنوبهم، على ما ورد في الآثار.

ويرجِّح الأوَّلَ قولُه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: يؤخِّرُ كلَّ واحدٍ منهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: معلوم عندَه، قيل: هو يوم القيامة، وفيه: أنَّ الكلَّ لم يؤخَّرْ إليه.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: وقتُهم عذَّبهم[٢]، حُذف الجزاء وأقيم[٣] ما هو كالدَّليل عليه مقامَه، وهو قوله:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾، وذلكَ أنَّ العمل بموجب العلمِ كاللَّازم لشأن الحكيم[٤].

* * *

(١) «الإنسي» من (م) و(ي)، وفي (ع): «إلا شيء».

(٢) في (ف) و(ك): «وقتُ عذابهم».

(٣) في (ك) و(ي) و(ع): «وأقام».

(٤) في (ف): «بشأن الحليم»، وفي (ك): «بشأن الحكيم».

سُورَةُ يسٓ

سورة يس[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يسٓ﴾.

﴿يسٓ﴾ كـ: ﴿الٓمٓ﴾ في الإعراب[2].

وقرئ: بالكسر؛ كـ: جَيْرِ[3].

وبالفتح كـ: أَيْنَ[4]؛ للجدِّ في الهرب مِن التقاءِ الساكنين لا للبناء، أو على إضمارِ حرف القَسَم ومنعِ الصرف، أو بالنصب؛ على: أُتْلُ ﴿يسٓ﴾.

وبالضَّمِّ كـ: (حيثُ)[5]، أو بالرفع على: هذه ﴿يسٓ﴾.

* * *

(٢) ـ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

---

(١) في (م) زيادة: «ثمانون وثلاث آيات مكية».

(٢) في (ف): «الأغلب».

(٣) نسبت لأبي السمال. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

(٤) نسبت لعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٠٧).

(٥) نسبت لهارون الأعور ومحمد بن السميفع. انظر المرجع السابق.

وبتفخيم الألف وإمالتها[١]، وبإدغام النون في واو: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾[٢]، وهي واو القَسَم، أو العطف إن جعل ﴿يسٓ﴾ مُقسَماً به.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذي الحكمة، ومعنى ﴿يسٓ﴾: يا إنسانُ، بلغة طيِّىء عند الهيثم بنِ عديٍّ، وبالسُّريانيَّة عند ابنِ عباس رضي الله عنهما[٣].

وعند سعيد بنِ جُبَير: هو اسمٌ مِن أسماءِ محمَّد ﷺ[٤]، دليله:

(٣) ـ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ جواب القَسَم، وهو ردٌّ على الكفَّار في قولهم: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ [الرعد: ٤٣].

* * *

(٤) ـ ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ، أو صلة لـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أو حالٌ مِن المستكنِّ في الجارِّ والمجرور، وفائدتُه التصريحُ بالمدح، والجمعُ بين وصفِه ووصفِ شريعته، وتعظيمه وتعظيمها المستفادِ مِن التنكير.

* * *

---

(١) أَمالَ حمزة والكسائي وشعبة الياءَ غير مفرطين، والجمهور يفتحونها، ونافع وسطٌ بين ذلك. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

(٢) قرأ جمهور السبعة بسكون النون مدغمةً في الواو، والكسائي وأبو بكر وورش وابن عامر بسكونها مظهرةً. انظر المرجعين السابقين.

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٩٨).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٠٨).

(٥) ـ ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقرئ بالرفع[1] على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وبالنصب على المدح، أو على أنَّه مصدرٌ؛ أي: نُزِّلَ تنزيلَ، وبالجرِّ على البدل مِن (القرآن).

* * *

(٦) ـ ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ متعلِّق بـ ﴿تَنزِيلَ﴾، أو معنى الإرسال في ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

إنْ جعلْتَ (ما) في: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ نافيةً، فالجملة في محلِّ النصب صفةٌ لـ ﴿قَوۡمٗا﴾؛ أي: قوماً غيرَ مُنذَرٍ آباؤهم، قيل[2]: لقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وفيه نظرٌ؛ إذ لا يَلزم مِن عدمِ إتيانِهم النذيرَ أنْ لا يكونوا مُنذَرين، فإنَّ إتيانَه بأهلِ الكتابِ وهم يعلمون ذلك يكفي في الإنذار.

وإنْ جعلتها موصولةً أو موصوفةً، فهي مع صلتِها أو صفتِها مفعولٌ ثانٍ لـ (تنذرَ)؛ أي: لتنذر قوماً الذي أُنذرَ به ـ أو: شيئاً أنذر به ـ آباؤهم مِن العذاب، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ [النبأ: ٤٠].

وإن جعتلها مصدريَّةً، ففي محلِّ النصب على المصدر؛ أي: لتنذرَ قوماً ما أُنذرَ آباؤهم، والمعنى: إنذاراً مثلَ إنذارِ آبائهم[3].

وعلى الأول؛ يتعلَّق ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ بالفعل المنفيِّ؛ أي: لم يُنذَروا ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على أنَّ عدمَ الإنذارِ هو سببُ غفلتهم.

---

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٣).

(٢) في (ي): «قبل».

(٣) قوله: «والمعنى: إنذاراً مثلَ إنذارِ آباءَهم» سقط من (ف) و(ك) و(م).

وعلى الثاني؛ تعليلٌ للإرسال والإنذار؛ أي: إنَّك لمن المرسلين لتُنذرَهم؛ فإنَّهم غافلون.

والمراد بآبائهم: الأقربونَ الذين في زمنِ الفترة والجاهلية إنْ حُمل ﴿مَآ أُنذِرَ﴾ على النفي، والأقدمونَ مِن وَلَدِ إسماعيَل عليه السلام الذين كانت فيهم النذارةُ إنْ حُمل على الإثبات.

* * *

(٧) - ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؛ أي: ثَبَتَ وَوَجبَ عليهم فهم لا يؤمنون، لمَّا علم مِن أعيانهم أنَّهم يموتون على الكفر باختيارهم إيَّاه وإصرارِهم عليه، فشاءَ منهم ذلك وأخبر عنهم به، وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] فلا يعيِّن الأشخاصَ، ولا يقتضي أن يكون ذلك أكثرَ المذكورين.

* * *

(٨) - ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ مثَّل تصميمَهم على الكفر وعدمَ مبالاتهم بالإنذار وتدبُّرِهم بالآياتِ تمثيلين؛ تقريراً لتصميمِهم على الكفر وعدمِ إرعوائهم عنه؛ جعلهم كالمغلولين المُقمَحِين في أنَّهم لا يلتفتون إلى الحقِّ، ولا يَعطفون أعناقَهم نحوَه، ولا يُطأطئون رؤوسَهم، وجعلهم كالمحصورينَ المحبوسينَ بين سدَّين لا يُبصرون ما قدَّامهم ولا ما خَلْفهم، فلا يتبصَّرون العِبَر، ولا يتأمَّلون في آياتِ الله تعالى فيَعتبروا ويَنزجروا.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ الضمير للأغـلال؛ أي[1]: هـي عريضـةٌ تبلـغُ بحرفِهـا الأذقـانَ، والذَّقـن: مجتمـعُ اللَّحْيَيـن، فيضطـرُّ المغلـول إلـى رَفْـعِ وجهِـه إلـى السـماء، وذلـك هـو الإقمـاحُ.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: رافعـونَ رؤوسَـهم، غاضُّونَ أبصارَهم، يقـال: أَقمحهُ الغُلُّ، إذا تـركَ رأسَـه مرفوعـاً مِـن ضِيقه، وقـال الفـرَّاء: المُقمَـح: الذي يغضُّ بصـرَهُ بعد رَفْعِ رأسِه[2].

* * *

(٩) ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرئ: بالفتح والضَّمِّ[3]، وقيل: بالفتح المصدر، وبالضَّمِّ الاسم، وقيل: ما كان مِن أعمالِ الناس فبالفتح، وما كان مِن خَلْق اللهِ تعالى فبالضَّمِّ.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: فأغشينا أبصارهم؛ أي: غطَّيناها وجعلنا عليها غشاوةً عن أن تطمح إلى شيءٍ، والمعنى: فأعميناهم، وقرئ: بالعين الغير المعجمة؛ مِن العَشا[4].

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: فلا ينتفعون بالإنذار، وهو[5] مضمون قوله:

---

(١) في (م): «التي».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٣).

(٣) قـرأ: ﴿سَدًّا﴾ بفتـح السـين الكسـائي وحمـزة وحفص، وباقي السبعة بضمهـا. انظر: «التيسـير» (ص: ١٨٣).

(٤) في (ع) و(م) و(ي): «وهم»، وفي هامش (م): «لعله وهو».

(٥) نسبت لابن عباس وعكرمة ويحيى بن بعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٤).

(١٠) ـ ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ قد سبق تفسيرُه في سورة البقرة.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ استئنافٌ لبيانِ عدمِ نفعِ الإنذار في حقِّهم، لمَّا بيَّن أنَّ الإنذارَ لا يَنجَع فيهم، وأنَّ المقصودَ مِن الإنذارِ ـ وهو إيمان المُنذَر ـ لا يترتَّب عليه، وأنَّ الإنذارَ وعدمَه بالنسبة إليهم سواءٌ، أَخبر أنَّ إنذارَهم كلا إنذارٍ، فقال:

(١١) ـ ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ الإنذارَ المُنجِعَ والمستتبعَ لفائدته ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾؛ أي: آمَنَ بما جاء مِن عندِ الله تعالى، فالذِّكْرُ: القرآنُ.

﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ﴾ الخشيةُ كنايةٌ عن الائتمار بالأوامر والانزجارِ عن المناهي، ويَعضده قوله:

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ وذلك أنَّ الغفرانَ جزاءُ الإيمان، والأجرَ الكريمَ جزاءُ العمل، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سبأ: ٤].

وفي عبارة ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما في الخشيةِ مِن الخوفِ ينبغي أنْ لا يخلوَ عن الرجاء، وذلك لأنَّ مقابلَ كلٍّ منهما مذمومٌ.

وإنَّما قال: ﴿بِٱلْغَيْبِ ۖ﴾ إذ عند العَيانِ لا يبقى للخشية شأنٌ.

* * *

(١٢) - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ نبعثهم بعد مماتهم، أو نُخرِجهم مِن الضلالةِ بالهداية.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾؛ أي: ما أَسلفوا مِن الأعمالِ الصالحة والطالحة، عبَّر عن إحاطةِ علمِه بأعمالهم بالكتابة التي تُضبَط بها الأشياءُ، وكَنى بذلك عن المجازاةِ، فانتظم مع قوله: ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ وما بقيَ بعدَهم مِن آثارِ حسنةٍ أو سيِّئةٍ، ونحوُه قولُه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]؛ أي: قدَّم من أعماله، وأخَّر مِن آثاره.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ منصوب بعاملٍ مُضمَرٍ يُفسِّره: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، وقرئ: بالرفع على الابتداء[1].

﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني: اللوحَ المحفوظَ؛ لأنَّه أصلُ الكتبِ ومقتداها.

❊ ❊ ❊

(١٣ - ١٤) - ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾؛ أي: مثِّل لهم؛ مِن قولهم: عندي مِن هذا الضرب كذا؛ أي: مِن هذا المثال، هو يتعدَّى إلى مفعولين لتضمُّنه معنى الجَعل، وهما:

﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ على حذفِ مضافٍ، تقديره: اجعل لهم مَثَل أصحابِ القريةِ مَثلاً.

---

(١) نسبت لأبي السمال. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

ويجوز أنْ يُقتصر على مفعولٍ واحدٍ كالجعل، ويُجعل المقدَّرُ بدلاً مِن الملفوظ أو بياناً له؛ أي: اضْرِب لهم مَثَلاً مَثَلَ أصحابِ القريةِ.

والقريةُ: أَنطاكيةُ، عبَّر عنها هاهنا بالقرية، وفيما يأتي بالمدينة؛ رعايةً في كلٍّ مِن المقامَين ما يناسبه، وذلك أنَّ ما في أصلِ القريةِ مِن معنى الجمعِ يُناسبُ الأصحابَ، وما في أصِلِ المدينةِ مِن معنى الإطاعةِ يُناسِب غَرَضَ ذلك الرجلِ مِن كلامه، وهو الحثُّ على اتِّباع المرسلين.

وانتصابُ ﴿إِذْ﴾ بأنَّه بدلٌ مِن أصحابِ القريةِ ﴿جَآءَهَا﴾ عدلَ عن الظاهر ـ وهو إرجاعُ الضميرِ إلى الأصحابِ ـ لأنَّ المذكورَ أوفرُ فائدةً، حيث دلَّ على أنَّهم بلَّغوا الرسالةَ إليهم في مقرِّ عزِّهم ومركزِ شوكتهم.

﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ رُسُلُ اللهِ عليهم السلام، ذكره ابنُ عباسٍ وكعبٌ[1]، وهو الظاهر مِن قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ ومِن قولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

وقيل: رُسلُ عيسى عليه السلام، وإسنادُ الإرسالِ إليه تعالى لأنَّه فعلُ رسولِه وخليفتِه، وفيه تعظيمُه عليه السلام[2]، بعثهم دعاةً إلى الحقِّ وكانوا عبدةَ أوثانٍ، و(إذ) بدلٌ مِن (إذ) الأولى.

﴿اثْنَيْنِ﴾ هما: يوحنَّا وبولس[3]، وقيل غيرُهما.

---

(١) يعني: كعب الأحبار. ورواه عنهما وعن وهب بنِ مُنبِّه الطبريُّ (١٩/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

(٢) في (م): «تعظيم عيسى عليه السلام وإسناد الإرسال إليه تعالى».

(٣) في (ف) و(م): «يحيى ويونس»، وكذا وقع في بعض نسخ البيضاوي، فقال الشهاب: قوله: (يحيى ويونس) وقع في نسخة بدله: يوحنا وبولص، وهو الذي صححه الشريف في «شرح المفتاح». ثم أشار الشهاب إلى أن هذا الذي صححه الشريف يندفع به قول من قال: إن المرسل عيسى عليه السلام؛ لأنّ يونس عليه السلام لم يدرك زمن عيسى وإن أدركه يحيى كما فصل في التواريخ، كما =

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾: فقوَّينا[١] ﴿بِثَالِثٍ﴾ هو شمعون، وقرئ: مخفَّفاً[٢]؛ مِن عَزَّه: إذا غَلَبه، وإنَّما حذفَ المفعولُ لأنَّ المرادَ ذكرُ المعزَّز به وما لطف فيه مِن التدبير حتى عزَّ الحقُّ وذلَّ الباطل، وحقُّ الكلامِ المنصبِّ إلى غرضٍ تجريدُ سياقِه له؛ كأن[٣] ما سواه مرفوض.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ التأكيد بـ (إنَّ) سبَقَ الإنكارَ منهم بمضمون جملة الخبر بتكذيبهم الرسولَين، والمعتبر عِلْمُ المُخبِر بإنكارِ المخاطَب لا صدورُه منه، وهو حاصل أيضاً، فلا صحَّة لِمَا قيل: إنَّه ابتداءُ إخبار، والثاني جوابٌ عن إنكار.

* * *

(١٥) ـ ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾؛ أي: لا مزيَّة لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدَّعون، ورفع ﴿بَشَرٞ﴾؛ لانتقاض النفي المقتضي إعمال ﴿مَآ﴾ بـ ﴿إِلَّا﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾؛ أي: وحياً مِن السماء.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ فيما تدَّعون، وإنَّما أُوثرَ صيغةُ الفعلِ مع أنَّ صيغةَ الفاعلِ أبلغُ؛ اعتباراً لمعنى التجدُّد، فكأنَّه قيل: يُجدِّدونَ الكذبَ وقتاً بعد وقتٍ، ويستمرُّون على ذلك.

* * *

= أن القول المذكور ينافي كون يحيى ويونس عليهما الصلاة والسلام نبيين في نفسهما. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٣٤).

(١) في (ك): «فوقرنا».

(٢) قرأ بها شعبة عن عاصم. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٣).

(٣) في (ف): «لأن».

(١٦) ـ ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾.

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ لمَّا نَفوا الرسالةَ وبالغوا في ذلك، قابلوا إنكارهم في الجواب بمزيد التأكيد بقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾؛ لأنَّه استشهادٌ بعلمِ اللهِ تعالى جارٍ مجرى القَسَم في التوكيد، كما تقول: شَهِدَ اللهُ، وعَلِمَ الله، وبزيادة الَّلام، وبتقوية التأكيد، وتحسين الاستشهاد بقولهم:

(١٧) ـ ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾؛ أي: التبليغُ الظاهرُ المكشوفُ بالآيات الشاهدة لصحَّته، فإنَّ الاستشهادَ على الدعوى إنَّما يَحسُن ببيِّنة واضحة.

* * *

(١٨) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا ﴾: تشاءَمنا ﴿بِكُمْ ﴾ يعني: سمعنا منكم ما هو مِن جهة الفأل نذيرٌ بمكروهٍ يَلحقُنا[١] في أنفسنا أو في أهلينا أو في أموالنا، أو غير ذلك مِن أسبابنا وأمورنا، فكفُّوا عن هذا الكلام ولا تُعاودونا به[٢].

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ عمَّا نُهيتم عنه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾: لنرمينَّكم بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المَسُّ: إصابةٌ تتأثَّر منها البشرةُ.

* * *

(١٩) ـ ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

---

(١) في (ك): «يلحينا».

(٢) في (م): «ولا تعادونا».

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾؛ أي: سببُ شؤمكم ﴿مَّعَكُمۡۚ﴾ وهو سوءُ اعتقادِكم وفسادُ أعمالكم.

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ بهمزةِ الاستفهام وحرفِ الشرط، وقرئ: ﴿أَائـنْ﴾ بألف بينهما[1].

وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه؛ أي: أئن وُعِظتم تطيَّرتم وتوعَّدتم بالرجم والتعذيب، وقرئ: (أأن ذكرتم) بهمزة الاستفهام و(أنْ) الناصبة[2]؛ أي: أَتَطيْرتُم لأنْ ذكرتم.

وقرئ: (أنْ) و(إنْ) بغيرِ استفهامٍ بمعنى الإخبار[3]؛ أي: إنْ ذكِّرتم تطيَّرتم، أو تطيرتم لأنْ ذكِّرتم.

و: (أيْن ذُكِرْتم)[4]، بمعنى: شُؤْمُكم معكم حيث جَرَى ذِكْركم، وهو أبلغ؛ لأنَّه إذا شُئِمَ المكانُ بذِكْرهم، كان بحلولهم فيه أَشْأَمَ.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾: قومٌ عادتُكم الإسرافُ في العصيان، فمِن ثمَّة جاءَكم الشؤمُ، أو: أنتم مسرفونَ في غيِّكم وضلالِكم؛ حيث تشاءمتم بمَن يجب التبرُّكُ به مِن رسلِ اللهِ تعالى.

---

(١) قرأ بها هشام. انظر: «التيسير» (ص: ٣٢).

(٢) نسبت لزر بن حبيش. انظر: «البحر» (١٨/ ٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٩).

(٣) نسبت الأولى للماجشون يوسف بن يعقوب المدني، والثانية للحسن. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٠)، و«الكشاف» (٤/ ٩).

(٤) أي: (أين) بهمزة مفتوحة وياء ساكنة وفتح النون ظرف مكان (ذكرتم) بتخفيف الكاف على أن (أين) ظرف أداة شرط وجوابها محذوف لدلالة (طائركم) عليه، نسبت للحسن وقتادة والأعمش وغيرهم. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٠٥)، و«البحر» (١٨/ ٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٩).

(٢٠) ـ ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ هو: حبيبُ بنُ إسرائيل[1] النجّارُ؛ وكان يَنحتُ الأصنامَ.

﴿يَسْعَىٰ ﴾: يقصدُ وجهَ الله تعالى بالذَّبِّ عن رسله، وهو مِن قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء: ١٩]، والسعيُ في الأصل: المشيُ بسرعةٍ وخفَّةِ حركةٍ، ثم استُعير للجِدِّ في إصلاح أمرٍ وفسادٍ.

﴿قَالَ ﴾ استئنافٌ، على تقدير سؤالِ سائلٍ عمَّا قال عند ذلك: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ باحَ بإسلامِه ليشغل[2] القومَ عن الرسل، وقولُه: ﴿يَٰقَوْمِ ﴾ دلالةٌ وإظهارٌ منه أنَّه لا مباينةَ بيننا، ولا تهمَةَ في إرادةِ السوءِ بكم.

***

(٢١) ـ ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ كلمةٌ جامعةٌ في الترغيب؛ أي: لا تَخسرون معهم شيئاً مِن دنياكم، وتربحون صحَّة دينكم، فينتظِم لكم خيرُ الدنيا وخيرُ الآخرة، ورشَّحها وقوَّاها بإبراز مناصحتِهم في صورة المناصحة لنفسه؛ ليكون أَدخلَ في إمحاض النُّصْح؛ حيث أرادَ لهم ما أرادَ لنفسِه، وليتلطَّف بهم ويُداريهم حتى لا يتعصبوا[3] فيَقبلوا، فوضعَ قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ مكان قوله:

---

(١) في (ك): «أوس».

(٢) في (ك): «لشغل»، وفي (ع) و(م): «ليشتغل».

(٣) في (ع) و(م) و(ي): «يمتعصوا».

وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، وأومأ إلى المرادِ بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد، وإلَّا لقال: وإليه أَرجعُ، ثم عاد إلى المساق الأول فقال:

* * *

(٢٣) - ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ أي: أصناماً، دلَّ على أنَّهم كانوا عبدةَ أصنامٍ.

﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ نفى الشفاعة رأساً، كقوله:

ولا ترى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[1]

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾: ولا يقدرون على إنقاذي مِن ذلك الضرر؛ أي: لا نفعَ مِن جهتهم بالشفاعة ولا دفعَ بالقدرة.

* * *

(٢٤) - ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ تقريعٌ على تركِ عبادةِ خالقِهم إلى عبادة مَن يَضرُّ ولا ينفع، وقد برهنَ في أثناء كلامه على ضلالتهم؛ حيث ذكر أنَّ الله تعالى هو المبدئُ الفاطرُ، وإليه الرجوعُ، ومنه الرحمة العامَّة الشاملةُ، وله القدرة التامَّةُ

---

(١) عجز بيت تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، ومعناه: لا ضب ولا انجحار، وصدره:

لا تفزعُ الأرنبَ أهوالها

الكاملة، وهو الذي إذا أراد بأحدٍ شيئاً مِن الضَّرِّ والنفع فعَلَ، فإنْ تركتُ عبادتَه إلى عبادةِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ ولا تُغني شفاعته شيئاً، ولا يَقدر على إنقاذِ مَن ابتلاهُ اللهُ تعالى بالنُّصرة والمظاهرة، أو أَشرَكْتُه به في عبادته؛ فإني إذاً لفي ضلالٍ مبينٍ[1]، ولا يخفى على عاقل.

***

(٢٥) ـ ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾.

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾؛ أي[2]: فاتَّبعوني، السماعُ هنا مجازٌ عن الاتِّباع، إذ لا وجهَ للترتيب بينَ سماعِ القولِ منه وإيمانِه، قيل: رَجَموهُ وهو يقول: اللَّهمَّ اهْدِ قومي. وقبرُه في سوقِ أنطاكية، وباشتغالهم بقتله تخلَّص الرسل.

***

(٢٦) ـ ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ استئنافٌ؛ لأنَّ قصَّته مظنَّةُ السؤالِ عن حالِه، كأنَّ سائلاً سأل فقال: كيف كان لقاءُ ربِّه بعد ذلك التصلُّب في نصرةِ دينه، والتَّسخِّي بروحه، فقيل: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾، ولمَّا كان السؤالُ عن المقولِ سيقَ الجواب لبيانه، وجرِّد عمَّا لا حاجةَ إليه وهو بيانُ المقول له، مع كونه معلوماً.

وكذلك قوله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ استئنافٌ على تقدير سؤال سائلٍ عمَّا قال عند ذلك الفعل العظيم.

***

---

(١) في (م): «بين».

(٢) «أي»: ليست في (م).

(٢٧) ـ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ (ما) مصدريَّة؛ أي: بغفران ربِّي لي، أو موصولة؛ أي: بالذي غفرهُ لي مِن ذنبي، ويحتمل أن تكون استفهاميَّةً؛ أي: بأيِّ شيءٍ غفرَ لي ربِّي؟ على الأصل مع أنَّ الأكثرَ حذفُ الألف، تقول: قد علمتُ بما صنعتَ هذا؟ أي: بأيِّ شيءٍ صنعت، والأكثر: بِمَ صنعت؟

تمنَّى أنْ يَعلمَ قومُه بأنَّه غُفرَ له بإيمانه؛ فيَرغبوا في الإيمان، وهذا مرتبةُ أولياءِ اللهِ تعالى، يريدون الخير بمَن أراد بهم الشَّرَّ، ويتمنَّون أنْ لا يكون لله تعالى عاصياً.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بإعطاءِ المنزلةِ الرفيعةِ في الجنَّة، دلَّ ذلك[1] على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ، وعلى أنَّ القبرَ روضةٌ مِن رياضِها، أو حفرةٌ مِن حُفَرِ النيران.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: مِن بعد واقعته ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استحقارٌ لإهلاكهم، وإيماءٌ إلى تعظيمِ رسولِ الله ﷺ؛ أي: كُفينا أمرَ إهلاكهم بصيحةٍ واحدةٍ مِن مَلَكٍ، وما أَنزلنا عليهم جنداً مِن الجنود السماويَّة كما فَعَلنا يومَ بدرٍ والخندقِ.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حكمتنا أنْ نُنزل؛ لأنَّ إنزالَ جنودِ السماء مِن معظَّماتِ الأمور التي لا يُؤهَّل لها إلَّا مثلُك، وقد أهلكَ اللهُ تعالى كلَّ أمَّةٍ بسببٍ تقتضيه حكمته، ولم يُنزل جنودَ السماءِ لانتصارِ أحدٍ مِن الأنبياء عليهم السلام إلَّا لانتصارِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام؛ لكرامته عند اللهِ وتفضُّله على سائرِ الأنبياء، وإلَّا لكان يكفي في نصرته مَلَكٌ واحدٌ.

---

(١) «ذلك»: ليست في (م).

(٢٩) ـ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ كان القياسُ التذكيرَ؛ لأنَّ الأصلَ ما وقع شيءٌ إلَّا صيحةً واحدةً، ولكن طُوبِقت بها الصيحةُ لأنَّها في حكمِ فاعلِ الفعلِ، وعليها قراءةُ الحسنِ: ﴿فأَصبحوا لا تُرَى إلَّا مساكِنُهم﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ بتأنيث الفعلِ المبنيِّ للمفعول، ورفع (مساكنُهم).

وقرئ: ﴿إلَّا صيحةٌ﴾ بالرفع[1]؛ على (كان) التامَّة؛ أي: وما وقعت إلَّا صيحةٌ.

﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ بناءً على تشبيهِ الحرارةِ الغريزيةِ بحرارةِ النارِ، وانطفائِها بخمود النار، على الاستعارة بالكناية؛ أي: خمدوا كما تَخمد النارُ، وذلك أنَّ الروحَ عند الفَزَع الشديدِ تتحرَّك مع الدمِ إلى الباطنِ دفعةً دفعةً، فتختنق مِن شدَّة الانحصار والاجتماع، فتنطفئ.

* * *

(٣٠) ـ ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة هي بلوغُ النهايةِ في التلهُّف حتى يبقى القلبُ حَسيراً لا موضعَ فيه لزيادةِ التلهُّف، كالبصيرِ الحسير الذي لا قوَّةَ فيه للنظر، والبعيرِ الحسير الذي لا قوّة له على المسير، وهذا نداءٌ على الحسرة عليهم، كأنَّها قيل لها: تعالي يا حسرةُ فهذه من الأحوال[2] التي حقُّك أنْ تَحضُري فيها، وهي ما دلَّ عليه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٢) في (ف) و(ك): «الأفعال».

ويجوز أن يكون المعنى: أنَّهم متحسَّرٌ عليهم مِن الله تعالى، على سبيل الاستعارة، والمرادُ: تعظيمُ ما جَنَوهُ على أنفسِهم، وفرطُ إنكارِه له وتعجيبه منه، ويعضده قراءةُ مَن قرأ: (يا حسرتا)[١]؛ لأنَّ المعنى: يا حسرتي.

وقرئ: (يا حسرةَ العبادِ)[٢]؛ بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول؛ لاختصاصها بهم مِن حيث إنَّها موجَّهةٌ إليهم.

و: (يا حسرةَ على العبادِ)[٣]؛ على إجراء الوصل مجرى الوقف، والمعنى: أنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يُتحسَّر عليهم، أو هم متحسَّرٌ عليهم مِن جهةِ الملائكةِ والمؤمنين مِن الثَّقَلَيْن.

***

(٣١) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ معلَّق عن العمل في ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ لأنَّ (كم) لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبريةً؛ لأنَّها وُضعت لإنشاء التكثير، أو لأنَّ أصلَها الاستفهام، وإنَّما جاز تعليقُ فعلِ الرؤيةِ لأنَّه بمعنى: أَلَم يعلموا، إلا أنَّ معناه نافذٌ في الجملة كما نفذ في قولك: أَلَم يَروا إنَّ زيداً لمُنطلِقٌ، وإنْ لم يعمل في لفظه، ولهذا أبدل:

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ١٣)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٩٧).

(٢) نسبت لابن عباس وأُبي والحسن وعلي بن الحسين وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٨)، و«الكشاف» (٤/ ١٣)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٩٦).

(٣) نسبت لابن عباس. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و و«الكشاف» (٤/ ١٣)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٩٦).

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مِن ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى لا على اللفظ، تقديره: أَلَم يَرَوا كثرةَ إهلاكِنا القرونَ مِن قبلِهم كونَهم غيرَ راجعين إليهم.

وقيل: إنَّه بدلٌ مِن موضع ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وليس بدلاً مِن (كم) وحدَه؛ لأنَّ العاملَ فيه هو: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، ولا يصلح[1] عاملاً في البدل.

وقرئ بالكسر[2] على الاستئناف.

وقرئ: (أَلَم يَرَوا مَن أهلكنا)[3]، والبدل على هذه القراءة بدلُ اشتمال[4].

* * *

(٣٢) - ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَا جَمِيعٌ﴾ (إنْ) مخفَّفة مِن الثقيلة، واللام هي الفارقة، و(ما) مزيدةٌ للتأكيد، وقرئ: ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد[5]؛ على أنَّ (إنْ) نافية، و(لمَّا) بمعنى: (إلَّا).

و﴿كُلٌّ﴾ بمعنى الإحاطة، وأنْ لا ينفلتَ منهم أحدٌ، والجمع بمعنى الاجتماع، وأنَّ مجمعهم[6] المحشرُ، فالتنوين في ﴿كُلٌّ﴾ عوضٌ مِن المضافِ إليه؛ أي: كلُّهم محشورونَ مجموعونَ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب يوم القيامة، وقيل: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ في النار معذَّبون.

---

(١) في (م): «يصح».

(٢) أي: (إنَّهم)، ونسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥).

(٣) نسبت لابن مسعود. انظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٣٨)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٠١).

(٤) في (م): «الاشتمال».

(٥) قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة، وباقي السبعة بالتخفيف. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٩).

(٦) في (ك): «يجمعهم».

(٣٣) ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿آيةٌ لهم﴾.

و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئنافٌ لبيان كون الأرض الميتة آيةً لهم، ويجوز أن يكون صفةً لـ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾؛ لأنَّ المرادَ الجنسُ المطلقُ لا أرضٌ بعينِها، فجاز وصفُها بالنكرة.

وأن تكون ﴿آيةٌ﴾ مبتدأً، و﴿لَّهُمُ﴾ صفتَها، و﴿ٱلْأَرْضُ﴾ خبرَها.

وأن يكون ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبراً للأرض، والجملة خبر ﴿آيةٌ﴾ أو صفةٌ لها.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ المرادُ بالحَبِّ: الجنسُ، وتقديمُ الظرفِ في قوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ للدلالة على أنَّ الحبَّ معظمُ ما يؤكَل ويُعاشُ به، ويقومُ البدنُ بالارتزاقِ منه، ألَا ترى أنَّه إذا فُقِدَ حضر الهلاكُ بالقَحْط وعَمَّ البلاءُ؟

* * *

(٣٤) ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾: بساتينَ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾: مِن أنواعِ النَّخْلِ والعنبِ، ولذلك جمعهما دونَ الحبِّ؛ فإنَّ كونَه قوامُ البدنِ باعتبار جنسِه لا باعتبار تنوُّعِه.

وأمَّا ما قيل: إنَّ ذلك لأنَّ الدَّالَّ على الجنسِ مشعِرٌ بالاختلاف، ولا كذلك الدَّالُّ على الأنواعِ = خلافُ ما هو المشهور وعليه الجمهور، فإنَّهم قالوا: في العالَمين إشعارٌ بالاختلاف دون العالَم.

وذكرُ النخيل النخيل دونَ التمور ـ مع مطابقتها الحبَّ والأعنابَ ـ لاختصاص شجرِها بمزيد النفع وآثار الصُّنع.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرئ: بالتخفيف[١]؛ والفَجْر والتفجير كالفَتْح والتفتيح لفظاً ومعنًى، في أنَّ التشديدَ للمبالغة والتكثير.

﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ ﴿مِنَ﴾ زائدة عند الأخفش، وعند غيرِه المفعولُ محذوفٌ؛ أي: شيئاً مِن العيون.

* * *

(٣٥) ـ ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ الضميرُ للتفجير[٢]؛ أي: لينتفِعوا بفوائده[٣]، يقال: ثمرةُ التجارةِ الربحُ، وتخصيصُ الأكْلِ بالذِّكر لأنَّه معظمُ الفوائد.

وقرئ: بضمَّتين[٤]؛ وهو لغةٌ فيه، أو جمع: ثمار.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفٌ على الثمر، أو على موضع ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾، والمراد: ما يُتَّخذ منه كالعصير والدِّبْس والخَلِّ وكلِّ ما يُتَّخذ مِن التمر والعنب.

وقيل: (ما) نافيةٌ، والمراد أنَّ الثمرَ بخلقِ اللهِ تعالى لا بفعلهم، ويؤيِّد الأولَ قراءةُ: (وما عملت)[٥]؛ مِن غيرِ راجعٍ؛ لأنَّ حذفَ الراجعِ مِن الصلةِ أحسنُ مِن غيرها.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استبطاءٌ وحثٌّ على شُكر نعمه.

---

(١) نسبت لجناح بن حبيش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥).

(٢) في (ف) و(م): «للتعجيب».

(٣) في (م): «أي: لتبتغوا فوائده».

(٤) قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٠٥).

(٥) قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٤).

(٣٦) ـ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾: الأجناسَ والأصنافَ ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ مِن النَّخل والشجرِ والزرعِ والثمر.

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومِن أزواجٍ لم يُطلعهم اللهُ تعالى عليها، ولم يَجعل لهم طريقاً إلى معرفتِه.

* * *

(٣٧) ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ ﴾ فيه الوجهان المذكوران فيما تقدَّم من نظيره، وفي: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ الوجوهُ المذكورة في ﴿أحيينا﴾؛ مِن الاستئنافِ والصفةِ والخبريَّةِ.

والسَّلْخُ: الكَشْطُ، يقال: سَلَخَ جلدَ الشاةِ، إذا كَشَطَهُ، فاستُعيرَ لإزالة الضوءِ وكشفِه عن مكان الليل ومَلْقى ظلِّه(١).

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾: داخلون في الظلام.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾: لحدٍّ معيَّنٍ مِن فَلَكها ينتهي إليه دورُها في آخِرِ كلِّ سنةٍ.

---

(١) في هامش (ف) و(ي): «فالمستعار لفظ السلخ، والمستعار منه معنى الكشط، والمستعار له معنى الإزالة، ومن قال: مستعار من سلخ الجلد، لم يصب كما لا يخفى. منه».

وقيل: الوقت الذي تستقرُّ فيه وينقطع جريُها[١]، وهو يوم القيامة.

وقرئ: (إلى مستقرٍّ لها)، وقرئ: (لا مستقرَّ لها)[٢]؛ أي: لا استقرارَ إلَّا أنْ يُكوِّرها اللهُ تعالى يومَ القيامة، على أنَّ (لا) بمعنى (ليس).

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ذلك الجريُ على هذا التقدير العجيبِ ما هو إلَّا تقدير الغالبِ بقدرته على كلِّ مقدورٍ، المحيطُ علماً بكلِّ معلومٍ.

* * *

(٣٩) - ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾؛ أي: قدَّرنا مسيرَه ﴿مَنَازِلَ﴾ على حذف المضاف؛ وهي ثمانيةٌ وعشرونَ مَنزلاً؛ يَنزل كلَّ ليلةٍ في واحدةٍ منها لا يتخطَّاها ولا يَتقاصر عنه، على السَّواء إلى الثامنة والعشرين، فيَدِقُّ مستَقْوِساً[٣] كالعُرْجونِ القديمِ، ثم يَغيبُ ليلةً إذا نقص الشهرُ أو في ليلتين إذا تمَّ، وهذا ما ذكره[٤] بقوله:

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ العُرجون: العُودُ والعِذْقُ ما بين شماريخه إلى منبتِه مِن النخلة، قال[٥] الزجَّاج: هو فُعْلون مِن الانعراج، وهو الانعطاف[٦].

وقرئ: (العِرْجَون) بوزن الفِرْجَون[٧]، وهما لغتان، كالبِزْيَون والبُزْيُون.

---

(١) في (ك): «مدتها».

(٢) انظر القراءتين في «الكشاف» (٤/ ١٦)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٠٨).

(٣) في (ك): «مستقر». وفي (ف): «مستقره».

(٤) في (م): «ذكر».

(٥) في (م): «وقال».

(٦) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٨)، و«الكشاف» (٤/ ١٧) وعنه نقل المؤلف.

(٧) نسبت لسليمان التيمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥).

والقديـم: الـمُحْوِل، وإذا قَـدُمَ العرجـونُ دقَّ وانحنـى واصفـرَّ فشُـبِّه بـه مِن ثلاثـةِ أوجهٍ.

***

(٤٠) ـ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾؛ أي: لا يصحُّ ولا يَستقيم لها ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ وتجتمعَ معه وتُداخِله في سلطانه، فتطمسَ نورَهُ؛ لأنَّ التدبيرَ الإلهيَّ اقتضى المعاقبةَ.

وإيلاءُ الشمس حرفَ النفي للدِّلالة على أنَّها مسخَّرةٌ لم يتيسَّر لها إلَّا ما قدِّر لها مِن السير والطريق[1].

وإنَّما وَصَفها بالإدراك، ووَصَف القمرَ بالسَّبقِ ضمناً[2]؛ لسرعة سيره بالنسبة إليها، فإنَّه يَقطع بحركته في شهرٍ ما تقطعُ الشمس في سَنَةٍ مِن المسافة، فيناسبه السبقُ، ومِن هاهنا ظهر نسبةُ السبقِ إلى الليل دون النهار في قوله:

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: لا الليلُ يَسبقه فيزيلُ ضوءَه لذلك.

وقيل: المراد بهما آيتاهما[3]؛ وهي الشمس والقمر، فيكون عكسَ الأول،

---

(١) من حيث إن تقديم المسند إليه على الفعل وجعلَه بعد حرف النفي نحو: ما أنا قلت هذا، وما زيد سعى في حاجتك، يفيد التخصيص؛ أي: ما أنا قلت هذا بل غيري، وما زيد سعي في حاجتك بل غيره، على ما حققه علماء البلاغة. انظر: «روح المعاني» (٢٢/ ٣٤٨).

(٢) «ضمنا»: ليست في (م).

(٣) في (ك): «إثباتهما».

وذلك أنَّ صلاحَ النباتِ والحيوانِ وجميعَ الشؤونِ الإلهيَّةِ مبنيٌّ على تعاقبِهما، وأنْ يكون لكلٍّ منهما سلطانٌ على حياله[1]

وقرئ: (سابقُ النهارَ) بالتنوين ونصب (النهار)[2]؛ على الأصل.

﴿وَكُلٌّ﴾ التنوينُ عوضٌ مِن المضاف إليه؛ أي: كلُّ واحدٍ منهما.

﴿فِي فَلَكٍ﴾؛ أي: في فلكٍ غيرِ فلكِ الآخرِ، الجمهورُ على أنَّ الفلكَ موجٌ مكفوف تحت السماء تَجري فيه الشمسُ والقمرُ والنجومُ، وعلى هذا المراد مِن الفَلَكِ الجنسُ.

﴿يَسْبَحُونَ﴾: يسيرون فيه[3] بانبساطٍ، فإنَّ كلَّ ما انبسطَ في شيءٍ فقد سَبَحَ فيه، ومنه السباحة في الماء، وإنَّما جُمع جمعَ العقلاءِ للوصف بفعلهم.

* * *

(٤١) - ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾ لم يقل: وآيةٌ لهم الفلكُ، كما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾؛ لأنَّ العَجَبَ حملُهم على الفُلكِ، لا نفس الفلكِ فإنَّه بيتٌ مبنيٌّ مِن الخشب.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أولادَهم ومَن يَهمُّهم حملُه، وقيل: اسمُ الذريَّة يقع على النساءِ؛ لأنَّهنَّ مَزارعُها، وفي الحديث: أنَّه عليه السلام نَهى عن قَتْل الذَّراري[4]،

---

(١) في (ف) و(ك): «إحاله»، وفي (ي): «حيدته»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٥٠).

(٢) نسبت لعمارة بن عقيل. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥).

(٣) «فيه»: ليست في (م).

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ١٨)، و«الفائق» (٢/ ٧)، ورواه بنحوه النسائي في «الكبرى» (٨٥٧١) و(٨٥٧٢)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، من حديث رباح بن الربيع رضي الله عنه. ورواه النسائي في =

يعنـي: النسـاءَ، وتخصيـصُ الذريـات لأنَّه لا قدرة لهم على السـفر، فـكان الامتنانُ في حقِّهـم أظهرَ.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ قيل: المراد فُلْكُ نوحٍ عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، فعلى هذا يُراد بالذرية الأسلافُ؛ لأنَّه مِن الذَّرِّ، أو هو[1] الخَلْق فيَصلح الاسمُ للأصل والنَّسْل؛ لأنَّ بعضَهم خُلق مِن بعضٍ.

ويجوز أن يكون المعنى: أنَّه تعالى حمل آباءَهم الأقدمينَ وفي أصلابهم ذرياتُهم، وتخصيص الذرية لأنَّ الخطابَ للكفار، ولا فائدةَ في وجودهم، فلم يكن الحملُ حملاً لهم، بل كان حملاً لِمَا في أصلابهم مِن المؤمنين.

ولم يقل: على الفلك، مع أنَّه الأنسبُ للحمل؛ لأنَّ معنى الحفظِ المستفادِ مِن حرفِ الظرفِ أَدْخلُ في الامتنانِ وأنسبُ لِمَا قُصدَ مِن توصيفِ الفلكِ بقوله:

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ لمَّا كانت السفينةُ مملوءةً بأنواع المخاوف؛ مِن سباعِ البهائم وجوارحِ الطير وهوامِّ الدَّوابِّ، كان[2] حفظُ بني آدمَ فيما بينهم مِن آثارِ اللُّطف العظيمِ والقدرةِ الباهرة، ولولا[3] ذلك الاعتبارُ اللطيفُ لكان التوصيفُ بالمشحون بمعزلٍ عن مقامِ الغرابة المستفادةِ مِن عبارة الآية؛ لأنَّ القرارَ على الفُلْكِ المشحونِ الثقيلِ أهونُ مِن القرار على الفُلْكِ الخالي الخفيفِ، ولذلك لم يُوصَف الفُلْكُ به في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢].

* * *

= «الكبرى» (٨٥٧٣)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، من حديث حنظلة الكاتب رضي الله عنه.

(١) في (ك): (هذا).

(٢) في (م): «فكان».

(٣) في (م): «لولا».

(٤٢) ـ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: جنسِ الفُلكِ ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ مِن الإبل؛ فإنَّها سفائنُ البرِّ، أو: مِن مِثْلِ فلكِ نوحٍ عليه السلام مِن السُّفن والزَّوارق.

***

(٤٣) ـ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ والصريخُ والصارخُ بمعنى المستغيث، ويجيء بمعنى الإغاثة لأنَّ أصلَه مصدرٌ بمعنى الصراخ، وقد سبق تفسيره في السورة السابقة.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: لا يُخلَّصون بعد ذلك.

***

(٤٤) ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلَّا لرحمةٍ منَّا وتمتيعٍ بالحياةِ إلى زمانٍ قُدِّر لآجالهم.

***

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مِن الوقائعِ النازلةِ بالأُمم المكذِّبة قبلهم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِن الساعة وأهوالِها، أو نوازل السماء ونوائبِ الأرض، أو ما تقدَّم مِن ذنوبكم وما تأخَّر، أو فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: لتكونوا راجينَ رحمةَ الله تعالى.

***

(٤٦) ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ الأولى للتأكيد، وجواب (إذا) محذوفٌ مدلولٌ عليه بقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنَّه قال: وإذا قيلَ لهم: اتَّقوا، أَعرضوا، ثم قال: ودأْبهم الإعراضُ عند كلِّ آيةٍ وموعظةٍ، فهو تذييلٌ مؤكِّدٌ لِمَا سبق مِن حديث الإعراض.

***

(٤٧) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟﴾ لم يَذكُر المُنفَق عليه؛ لأنَّ إباءَهم[1] وإن كان عن الإنفاق وعلى المؤمنين خاصَّة، إلَّا أنَّ مُوجَبَ ما تعلَّلوا به سدُّ بابِ الإنفاقِ رأساً، وللإشعار إلى هذا تُركَ المُنفَقُ عليه.

﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ[2] إلى أنَّ البُخلَ به في غايةِ القُبح، فإنَّ أبخلَ البخلاءِ مَن يبخلُ بمالِ الغير.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالصانع تعالى، يعني: مُعطِّلةً كانوا بمكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تهكماً بهم، وذلك أنَّهم لمَّا سمعوا المؤمنين يعلِّقون الأمورَ بمشيئة اللهِ تعالى، يقولون: لو شاءَ اللهُ لكان كذا، وافترصوا[3] هذا الكلام فرصةً، واتَّخذوه هزواً يستهزئون بالمؤمنين، يُجيبون به عند أمرهم بالإنفاق.

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «إيباءهم» بياء قبل الباء، وكذا وقع في هذه النسخ الثلاث جميع ما سيأتي.

(٢) في (م): «الإشارة».

(٣) في (ع) و(ي): «وافترضوا».

والتصريحُ بالوصفين مِن الكفر والإيمان لبيان أنَّ المقولَ إليهم هم الكافرون، والقائلَ لهم[1] هم المؤمنون، وأنَّ كلَّ وصفٍ حاملٌ لصاحبه على ما صدرَ عنه، إذ:

كلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرشح[2]

وأيضاً لمَّا كان الغرضُ الرَّدَّ على المؤمنين لا الامتناعَ عن الإطعام[3] ـ لأنَّه ممَّا يفتخرون به ـ كان حقُّ المقام التصريحَ بوصف الإيمان في المقولِ له، ومِن هنا تبيَّن وجهٌ آخَرُ للعدول عن عبارة الإنفاق إلى عبارة الإطعام.

﴿أَنُطْعِمُ﴾ لـمَّا كان الإطعامُ أدنى وجوهِ الإنفاقِ وأعلى ما يفتخرونَ به، كان الإباءُ عنه إباءً عن الإنفاقِ رأساً.

﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ على زعمكم.

وقيل: نزلت في مشركي مكَّة حين استطعمهم فقراءُ المؤمنين مِن أموالهم التي جعلوها للهِ تعالى، فحرموهم وقالوا: لو شاءَ اللهُ لأطعمكم، مُوهمينَ أنَّ اللهَ قادرٌ على إطعامهم، ولا يشاءُ إطعامَهم، فنحن أحقُّ بذلك.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئةَ الله[4] تعالى.

---

(١) «لهم»: ليست في (م).

(٢) انظر: «البحر» (١٨/ ١١٨)، وهذا عجز بيت نسب لكشاجم كما في «محاضرات الأدباء» (١/ ٤٥٢)، وصدره:

ويأبى الذي في القلب إلا تبينا وكل إناء.................

(٣) في (م): «الطعام».

(٤) في (م): «مشيئته».

ويجوز أن لا يكون مِن تتمَّة كلامهم، ويكون جواباً مِن الله تعالى لهم، أو حكايةً لجواب المؤمنين لهم، بأنَّ ذلك مِن فرط ضلالتهم وجهالتهم؛ لأنَّ الله تعالى يُطعِم مَن يشاءُ بأسبابٍ بها، حيث منها حثُّ الأغنياءِ على إطعامِ الفقراءِ وتوفيقُهم له.

***

(٤٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: وعد البعث ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون، خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابِه.

***

(٤٩) ـ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون، أراد الانتظارَ المفهومَ مِن قولهم: ﴿مَتَىٰ﴾.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: عذاباً يَفْجَؤهم فيَستأْصلُهم، يقال: صاحَ بهم الزمانُ؛ أي: هلكوا، قال الشاعر:

صاحَ الزمانُ بآلِ جفنةَ صيحةً ... خرُّوا لشدَّتها على الأذقانِ[1]

وقيل: هي نفخةُ الإماتةِ.

ذكرَ في الصيحة أمورٌ تدلُّ على هولها وعِظَمها؛ أحدها: التنكير، وثانيها: ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ أي: لا يحتاج معها إلى الثانية، وثالثها: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أي: تعمُّهم بالأَخْذ، وتصلُ إلى مَن في أقطارِ الأرضِ، ومثلها لا يكون إلَّا عظيماً.

---

(١) البيت في «تفسير الرازي» (٢٣/ ٢٧٦)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٤٤٩).

وقولـه: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ أي: تأتيهـم بغتـةً وهـم فـي أمنهـم وغفلتهـم، يَتخاصمـون فـي متاجِرهـم ومعاملاتِهـم، لا يُخطـرون أمرَهـا ببالهـم، ممَّـا يَعظم به الأمـرُ؛ فـإنَّ العامـلَ المُقبـلَ علـى مُهِـمٍّ إذا صـاح به صائـحٌ يكـون ارتجافُـه أعظمَ، بخـلاف المُنتظِـر لهـا.

* * *

(٥٠) ـ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أنْ يوصـوا فـي شـيءٍ مِـن أمورهـم ﴿تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾: ولا أنْ يرجعـوا إلـى أهلِهـم ومنازلِهـم، بـل يموتـون حيـث تَبغتُهـم الصيحـةُ.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي نفخةُ البعثِ، وقد سبق في تفسيرِ سورةِ المؤمنين.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: مِـن القبـورِ، جمـع جَـدَثٍ، وقـرئ بالفـاء[1]، و(إذا) للمفاجـأة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ النَّسَل[2]: الإسراعُ في الخروج، ولفظ الرَّبِّ أصابَ المحزَّ؛ لأنَّ مَن أساءَ واضْطرَّ إلى التوجُّه إلى مَن أَحسنَ إليه، يكون ذلك أشدَّ ألماً وأكثرَ ندماً مِن غيره.

* * *

---

(١) أي: (الأجداف). انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٠)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٢١).

(٢) في (م): «النسول».

(٥٢) ـ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وقرئ: (مَن أهبَّنا)(١)؛ مِن هَبَّ مِن نومه، إذا انتبه، وأهبَّه غيرُه.

وقرئ: (مَن هبَّنا)(٢)؛ بمعنى: أهبَّنا.

وقرئ: (مِن بَعْثِنا)(٣)، و(مِن هَبِّنا)(٤)؛ على (من) الجارَّة والمصدرِ.

وعن مجاهد: للكفَّار هجعةٌ يجدون فيها طعمَ النوم، ولو استمرَّ عذابُ الكفارِ في قبورهم بالنار، لَمَا صحَّ منهم القولُ المذكورُ.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿مَا وَعَدَ﴾ خبرُه، و﴿مَا﴾ مصدرية، أو موصولة محذوفةُ الراجع، دلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: صَدَقَ فيه، ويجوز أن يكون اعتراضاً، أفاقوا عمَّا بهم وتنبَّهوا يتذكَّرون ما سمعوا مِن الرسل، فيجيبون به أنفسَهم أو بعضَهم بعضاً.

وقيل: هذا ليس مِن كلامِهم، بل جوابُ الملائكةِ أو المؤمنينَ لهم، لكن عُدل عن سَننه ومطابقته للسؤال لأغراضٍ:

منها: تنبيهُهم على أنَّ الذي يهمُّهم هو السؤالُ عن البعث لا عن الباعث.

---

(١) نسبت لابنِ مسعود. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢١٤).

(٢) نسبت لأبيٍّ. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢١٤).

(٣) نسبت لعلي بن أبي طالب. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢١٤).

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٠).

ومنها: تذكيرٌ[١] لكفرهم وتكذيبِهم الرسل، وتقريعهم على ذلك.

ومنها: نعيُهم إليهم أحوالَهم التي هم فيها، وإخبارُهم بوقوع ما أُنذوا به، كأنَّه قيل لهم: ليس هذا بالبعث الذي توهَّمتوه ـ وهو بعثُ النائمِ مِن مرقدِه ـ حتى يُهمَّكم السؤالُ عن الباعثِ، إنَّ هذا هو البعث الأكبر ذو الأفزاع والأهوال، الذي وَعَده اللهُ تعالى في كتبه المنزلةِ وأَخبر به على ألسنةِ رسلِه الصادقين.

* * *

(٥٣) ـ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ وقرئ بالرفع[٢] على (كان) التامَّة، والضمير في الناقصة للنفخة دلَّ عليها: ﴿وَنُفِخَ ﴾.

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ بمجرَّد تلك الصيحة، وفي ذلك تهوينُ أمرِ البعث والحشر، واستغناؤهما عن الأسبابِ التي يتوهَّمونها بالقياس على ما يشاهدونه.

* * *

(٥٤) ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ حكايةٌ لِمَا يُقال لهم حينئذٍ، وكذا ما بعده مِن وصفِ أهلِ الجنة؛ تصويراً للموعود، وتمكيناً له في النفوس، وترغيباً أو ترهيباً.

* * *

---

(١) في (ف): «تذكرهم»، وفي (ك) و(ي): «تذكيرهم».

(٢) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣). وفي (م): «وقرئت».

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾ عن ذِكْر أهلِ النار، ولو خَطَرَ ذلك ببالهم وفيها أحدٌ مِن أقارِبهم أو معارفهم، تنغَّص[1] عليهم ما هم فيه، والتنكير في ﴿شُغُلٍ﴾ للتعظيم والتنبيهِ على أنَّه أَعلى مِن أنْ تحيط به الأفهام، ويُعرِب عن كُنْهه الكلامُ.

والشغلُ: العارض الذي يُذهِل الإنسانَ عن أمرٍ لولا ذلك العارض لكان متوجِّهاً إليه.

﴿فَٰكِهُونَ﴾ وقرئ: ﴿فَكِهونَ﴾[2]؛ كـ: نَطِس، بناءً على أنَّه حالٌ، والخبر هو الظرف، والفاكِهُ والفَكِهُ: المُتنعِّمُ المتلذِّذُ، ومنه: الفاكهة؛ لأنَّها ممَّا يُتلذَّذ به.

* * *

(٥٦) ـ ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ، أو تأكيدٌ للضمير [في][3] ﴿فِي شُغُلٍ﴾، أو في ﴿فَٰكِهُونَ﴾ والمعنى على تقدير التأكيد: أنَّ أزواجَهم تُشاركهم في ذلك الشُّغل والتفكُّه[4] والاتِّكاء، والأزواج: جمع زوجة، وهي حرَّةُ الرجلِ التي يحلُّ له وطؤها.

﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾: جمع ظِلٍّ كشِعاب، أو ظُلَّةٍ كقِبابٍ، ويؤيِّده قراءةُ: ﴿في ظُلَلٍ﴾[5].

---

(١) في (ع) و(ي): «ينقص».

(٢) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٣) من «الكشاف» (٤/ ٢٢).

(٤) في (ك): «والتفكيه».

(٥) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٤).

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمع أريكة؛ وهي السريرُ في الحَجَلة، وقيل: الفراش فيها.

﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ خبرٌ، أو ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ خبرٌ، و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ مستأنفٌ، وقرئ: (متكئين)(١)؛ على الحال.

***

(٥٧) ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ عبَّر عن كلِّ ما يُرزقون فيها بالفاكهة؛ للتنبيه على أنَّهم مستغنون عن حفظِ الصحةِ بالأقوات، بأنَّهم أجسامٌ محكمةٌ مخلوقةٌ للأبد، فكلُّ ما يأكلونه على سبيل التلذُّذ.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يفتعِلُون مِن الدُّعاء؛ أي: يَدْعون به لأنفسِهم، كقولك: اشتَوَى واجتَمَل، إذا شوَى وجمَل لنفسه.

ويجوز أن يكون بمعنى: يتداعَوْنه، كقولك: ارتـمَوْه وترامَوْه.

وقيل: يتمنون؛ مِن قولهم: ادعُ عليَّ ما شئتَ، بمعنى: تمنَّه عليَّ، وفلانٌ في خيرِ ما ادَّعى؛ أي: في خيرِ ما تمنَّى، قال الزَّجاج: وهو(٢) مِن الدُّعاء؛ أي: ما يَدْعُونه أهلُ الجنة يأتيهم.

و(ما) موصولة أو موصوفة مرتفِعةٌ بالابتداء، و﴿لَهُمْ﴾ خبرها.

***

---

(١) نسبت لابن مسعود. انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٢)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٢٦).

(٢) في النسخ: «وقال الزجاج هو»، مما يوهم أنه قول جديد، في حين أنه مبني على معنى: يتمنون، كما هو واضح من «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٩٢)، و«الكشاف» (٤/ ٢٢) والكلام وما أثبت منه.

(٥٨) ـ ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾.

﴿ سَلَٰمٞ ﴾ بدلٌ منها أو صفةٌ أخرى[١].

﴿قَوۡلٗا﴾ مصدر مؤكِّد لقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ﴾؛ أي: عِدَةً ﴿مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ والأَوجهُ أنْ ينتصبَ على الاختصاص، وهو مِن محازِّه[٢]؛ أنَّ اللهَ تعالى يُسلِّم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة؛ مبالغةً في تعظيمهم، وذلك متمنَّاهم، ولهم ذلك لا يُمنَعونه، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: والملائكة يَدخلون عليهم بالتحية مِن ربِّ العالمين[٣].

***

(٥٩) ـ ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾.

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ يقال: مَازَهُ فانمازَ وامتاز بمعنًى: تمايز ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾؛ أي: انفرِدوا[٤] عن المتَّقين، والمراد مِن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يوم الحشر، قال الضحاك: تمتاز اليهودُ فرقةً، والنصارى فرقةً، والمجوسُ فرقةً، والصابئون وعبدةُ الأوثان فرقةً، ولكلِّ فرقةٍ في النار بيتٌ تَدخُل فيه ويُردُّ بابُه، فتكون فيه أبداً، لا يَرى ولا يُرى[٥].

ويُشكِل هذا بقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾

---

(١) قوله: «بدل منها»؛ أي: من ﴿مَّا﴾ على الوجهين، وقوله: «أو صفة» يعني: على كونها نكرة موصوفة، ولذا قال: «أخرى»؛ لأنه لا توصف المعرفة بالنكرة. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٤٨).

(٢) في (ف): «مجازه»، ومثله في مطبوع «الكشاف» (٤/ ٢٢)، والصواب المثبت.

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٢)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٢٧).

(٤) في (ك): «أي المبعودون».

(٥) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٥/ ٢٦).

[الحج: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

* * *

(٦٠) ـ ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ في خطابِ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ نوعُ إيماءٍ إلى أنَّ ذلك العهدَ كما كان في عهدِ آدمَ عليه السلام:

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ مِن جملة ما يقال لهم تقريعاً وإلزاماً للحجَّة، وعهدُ اللهِ تعالى إليهم ما رُكِزَ في عقولهم ونصبَ لهم مِن الحُجَج العقليَّة والأدلة السمعيَّة الآمرةِ بعبادتِه الناهيةِ عن عبادةِ غيرِه.

وعبادةُ الشيطانِ: طاعتُه فيما يُوسوِس به إليهم ويزيِّنه لهم.

والعهدُ: الوصيَّةُ، يقال: عَهِدَ إليه، إذا وصَّاه.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تعليل للمنع مِن عبادته.

* * *

(٦١) ـ ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾.

﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ عطفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ﴾.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ إشارةٌ إلى ما عهدَ إليهم مِن معصيةِ الشيطانِ وطاعةِ الرحمنِ، إذ لا صراطَ أقومُ منه، جملةٌ استئنافيةٌ لبيانِ[1] المقتضي للعهد بشقَّيه أو بالشقِّ الأخير، والتنكير في الصراطِ للتعظيمِ والمبالغةِ.

---

(١) بعدها في (ف) و(ك): «العهد».

(٦٢) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ رجوعٌ إلى بيانِ معاداةِ الشيطانِ مع ظهور عداوتِه ووضوحِ إضلالِه لمَن له أدنى عقلٍ وتمييزٍ، فقولُه: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ استفهامُ تقريعٍ على تركِهم الانتفاعَ بالعقل.

والجِبِلُّ: الخُلُق، وأصلُ الجِبِلِّ: الطبعُ، ومنه: الجَبَل؛ لأنَّه مطبوعٌ على الثبات.

* * *

(٦٣) ـ ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بها في دارِ التكليف.

* * *

(٦٤) ـ ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾: الزَمُوا العذابَ بها، وأصلُ الصَّلْي: اللزومُ، ومنه المُصَلِّي الذي في إِثْرِ السابقِ للُزومهِ أثره.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾: بسبب كفرِكم.

* * *

(٦٥) ـ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾؛ أي: نفعلُ بأفواههم ما لا يُمكنهم معه أن يتكلَّموا بألسنتهم.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ بإنطاقِ اللهِ تعالى إيَّاها على ما نطقَ به قولُه تعالى: ﴿قَالُوا

﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فلا مساغَ للتأويل بظهورِ آثارِ المعاصي عليهم ودلالتها على أفعالها.

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ أسندَ الختمَ إلى نفسِه دونَ الكلامِ والشهادةِ؛ دفعاً لوهم الإجبارِ، وإظهاراً لتوسُّط الاختيارِ بعد الإقدارِ على النطق والتكلُّم، ولمَّا كان كلامُ الأيدي إقراراً على الغيرِ المُنكِر، نُزِّل تصديقُ الأرجلِ إيَّاها منزلةَ الشهادةِ، فعبِّر عن تكلُّمها بالشهادة.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ إذ الكسبُ باليدِ أخصُّ، فيكون الإخبارُ منها إقراراً، ومِن الرجل[١] شهادةً؛ لأنَّها تحاضر وقلما تباشر، ولهذا خصَّ التكلُّم بمعنى الإقرار بالأيدي، والشهادة بالأرجل.

* * *

(٦٦) ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ الطَّمْسُ: محوُ الشيءِ حتى يذهبَ أثره، والطَّمْسُ على العينِ تَعفيةُ شقتها[٢] حتى تعودَ ممسوحةً.

﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾: فطلبوا الطريقَ الذي اعتادوا سلوكَه سابقينَ، وإنَّما اعتبرَ قيد السبقُ على طريقةِ التضمين؛ لأنَّ التعذُّرَ في سلوك الأعمى الطريقَ حينئذٍ أظهرُ.

ويجوز أن يكون مِن باب حذف الجارِّ وإيصال الفعل؛ أي: فاستبقوا إلى الصراطِ، أو نصباً على الظرف.

---

(١) في (ف): «الأرجل».

(٢) في (ف) و(ك): «تعفيتها»، والمثبت من باقي النسخ، وفي «الكشاف» (٤/ ٢٤): الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة.

﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ لم يَقدروا أنْ يَسلكوهُ، ولم يُبصروه، ولم يَعلموا جهةَ[1] سلوكه، فضلاً عن غيره.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بتبديلِ صورِهم وإبطالِ قُواهم وقُدَرهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: في مكانهم، المكانة والمكان كالمَقامة والمَقام، أو بإضمار (هم)[2].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾: ذهاباً ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾: ولا رجوعاً، فوضع الفعلُ موضعَه للفواصل؛ أي: إنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يُفعَل بهم ذلك، ولا عجز فينا، لكنَّا لم نفعل لشمول الرحمةِ واقتضاء الحكمة إمهالَهم، وقيل: ولا يرجعون عن تكذيبهم.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾: نُطِل عمرَهُ ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بالتشديد وبالتخفيف[3]؛.........

---

(١) في (ي): «حجة».

(٢) في (ك) و(م): «بإضمارهم».

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٦). وقرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة، وباقي السبعة بفتح النُّون الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مُخفَّفة. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٥). فهي ثلاث قراءات: اثنتان في المتواتر: ﴿نُنكِّسه﴾ و﴿نَنْكُسه﴾، وواحدة في غير المتواتر: (نُنْكِسه).

مِن التنكيس والإنكاس، وقرئ بفتح الكاف[١]؛ مِن النَّكْس.

﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾؛ أي: نقلِّبه فيه؛ فلا يزال يتزايد ضعفُه وانتقاصُ بنيتِه وقُواهُ، عكس ما أنشأناه عليه.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؛ أي[٢]: مَن قَدر على ذلك قَدر على الطَّمْس والمسخِ؛ فإنه مشتملٌ عليها وزيادةٌ، غيرَ أنَّه على تدرُّج.

***

(٦٩) ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾؛ أي: بتعليمِ القرآنِ، وهو ردٌّ لقولهم: إنَّ محمَّداً شاعرٌ، والمراد: أنَّ القرآنَ ليس بشعرٍ، وأين هو مِن الشعرِ؟ فإنَّ الشعرَ كلامٌ موزونٌ مُقفًّى مُنتَظِمٌ مِن المخيِّلات المرغِّبة والمنفِّرة.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾؛ أي: لا يليقُ به ولا يَصلُح له؛ لأنَّ الشعرَ يَدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظِ والوزن، فالشاعرُ يكون المعنى منه تبعاً للَّفظ، والشارع يكون اللفظُ منه تَبَعاً للمعنى، وقيل: لا يتأتَّى له إنْ أراد قرضَه.

وقوله: «أنا النبيُّ لا كَذِب أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِب»[٣]، قال بعضهم: إنَّما الرواية بالإعراب[٤]، وإذا كانت بالإعراب لم تكن شعراً.

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: بضم الكاف، وهي قراءة سبعية. انظر التعليق السابق.

(٢) في (ك): (إن).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، من حديث البراء رضي الله عنه.

(٤) يعني: بفتح الباء في كذب وخفض الباء في المطلب.

وأمَّا ما قيل: ليس هذا الوزنُ مِن الشعر؛ فمكابرةٌ؛ لأنَّ أشعارَ العرب على هذا قد رواها الخليلُ وغيرُه.

وأمَّا قوله:

هــل أنــتِ إلَّا إصبــعٌ دَمــيت   وفي ســبيلِ اللهِ مــا لَقيــت[1]

فلعلَّه قالها ساكنةَ التاءِ أو متحرِّكةً مِن غير إشباعٍ، ولا يكون شعراً إلَّا إذا كُسرت التاءُ بإشباعٍ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: موعظةٌ وتذكيرٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾: كتابٌ سماويٌّ، بيِّن كونه ليس مِن كلام البشر؛ لظهور إعجازه.

* * *

(٧٠) ـ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ أي: القرآنُ، أو الرسولُ، ويؤيِّده القراءةُ بالتاءِ الفوقانيَّة[2].

﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾: عاقلاً فَهِماً؛ فإنَّ الغافلَ كالميِّت، أو مؤمناً في علمِ الله تعالى، واختصاصُ الإنذار به لأنَّه هو المنتفعُ منه[3] دونَ غيرِه.

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ وتَجبَ كلمةُ العذاب ﴿عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾ المصرِّين على الكفر، وفي ذكرهم في مقابلة ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ تنزيلٌ لهم منزلةَ الأمواتِ؛ لحرمانهم عن ثمرةِ الحياة.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها نافع وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٥).

(٣) في (م): «به».

(٧١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: أيُشرِكون ولم يَروا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ ممَّا تولَّينا نحن إحداثَه، لا يَقدر على تولِّيه غيرُنا، وذِكْرُ الأيدي وإسنادُ العملِ إليها استعارةٌ مِن عملِ مَن يعمل بالأيدي؛ للمبالغة في الاختصاص والتفرُّد بإحداثها.

﴿أَنْعَامًا﴾ خصَّها بالذِّكر لِمَا فيها مِن بدائع الفطرةِ ولطائف الحكمةِ وكثرة المنافعِ؛ جمعاً بين إظهارِ القدرةِ والامتنان بتذكير النِّعمة المختصِّين به، ولهذا كمَّله بقوله:

﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾؛ أي: خلقناها لأجلهم، وملَّكناهم إيَّاها[1]، فهم فيها متصرِّفون تصرُّف المُلَّاك.

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ التذليلُ مِن جملة النِّعم الظاهرة، لولاها لَمَا قَدَرَ عليها أحدٌ، ولهذا أَلزمَ اللهُ تعالى الراكبَ أنْ يَشكُر[2] هذه النِّعمة ويُسبِّح[3] بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ هو ما يُركَب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: سخَّرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها[4].

---

(١) في (ع) و(ي): «خلقناهم لأجلهم وملكناهم إياهم».

(٢) في (م): «الراكب بشكر».

(٣) في (م): «هذه وسبح».

(٤) في (ك): «لكم لتركبوا ظهرها وتأكلوا لحمها».

(٧٣) ـ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ مجملٌ، مُفصَّله في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ الآية [النحل: ٨٠].

﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِن اللَّبنِ وما يُتَّخذ منه، جمع: مَشْرَب، وهو الشُّرب أو موضعُ الشُّرب، إنَّما لم يقل: ومنها يشربون؛ لأنَّ ابتداءَ الشُّرب ليس منها، بخلاف الأكل.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ لخالقِ هذه النِّعم، ورازق هذه النِّعم.

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ بعدما رَأَوا القدرةَ[1] الباهرةَ وآثارَها الظاهرةَ.

﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾: طمعاً في أنْ يَتقوَّوا بهم ويتعزَّزوا، كما قال: ﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، والأمرُ على عكسِ ما قدَّروا؛ لأنه:

(٧٥) ـ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: مُعدُّون لحفظهم يخدمونهم[2] ويذبُّون عنهم، والآلهةُ لا استطاعةَ بهم، ولا قدرةَ على النصرِ.

قيل: هم يوم القيامة محضرون[3] لعذابهم.

(١) في (م): «الآيات».

(٢) في (ك): «يحرسونهم».

(٣) «محضرون» من (ف) و(ك)، وسقطت من باقي النسخ.

ويَرِدُ عليه: أنَّ فيه زيادةَ تفكيكٍ في[١] الضمائر، فيتنافر النَّظْمُ الذي هو أمُّ[٢] إعجازِ القرآنِ، ومراعاتُه أهمُّ ما يجب على المفسِّر، وأيضاً المتبادِر من ﴿لَهُمْ﴾ النفعُ دون الضرر.

وقيل: محضرون إثرهم في النار.

ويأباه عبارةُ الجند؛ فإنَّه جمعٌ مُعَدٌّ للحرب.

* * *

(٧٦) ـ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ الفاء للسببية؛ أي: إذا علمتَ حالَهم ومآلَهم فتسلَّ[٣] ولا يَحزُنكَ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ فيكَ: إنَّك شاعرٌ وساحرٌ وكاهنٌ وكاذبٌ ـ وسائر وجوهِ الأذى بالقولِ ـ فإنَّا مجازُوهم.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تعليلٌ للنهي، وفيه وعيدٌ شديدٌ لهم، وزيادةُ تسليةٍ لرسولِ اللهِ عليه الصلاة والسلام.

فإنْ قلتَ: أَليسَ مقتضى البلاغة تقديم ﴿ما يعلنون﴾ حتى يكون نظمُ الكلام على أسلوب الترقِّي؟

قلتُ: ذلك مقتضاها بحسب جليلِ النَّظر، وأمَّا مقتضاها بحسب دقيقِه، فإنَّما هو تأخيرُه حتى يكونَ لكلٍّ مِن جُزْأي الكلامِ حظٌّ مِن الاهتمام، وذلك أنَّه حينئذٍ يكون للجزء الأول اهتمامُ التقديم، وللجزء الثاني اهتمامُ التصريح، بعد الانفهامِ

---

(١) «في»: ليست في (م).

(٢) «أم» من (ف) و(ك)، وسقطت من باقي النسخ.

(٣) في (ع) و(م) و(ي): (قيل).

بطريق الالتزام[1]، وعلى تقديرِ التقديمِ يفوتُ أحدُ الاهتمامين، كما لا يخفى على ذوي الأفهام.

***

(٧٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إيلاءُ الهمزةِ واوَ العطف للتقرير والتعجيب مِن حالِ الإنسان؛ أي: أَيُنكِر الإنسانُ البعثَ ولم يَرَ مبدأَ خلقِه وإبداعَ نشأتِه.

وفيه تسليةٌ أُخرى لرسولِ اللهِ عليه الصلاة والسلام بتهوينِ ما يقولونَ بالنسبةِ إلى إنكارهم للبعث، وتقبيحٌ بليغٌ لإنكارهم، لا يُرى أَبلغُ ولا أَفحشُ منه ولا أَعجب، ولا أدلُّ على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في[2] جحود النِّعم، حيث تقرَّر في عِلْمه أَنَّا خلقناهُ مِن شيءٍ قليلٍ، وبلَّغناهُ إلى قَدْرٍ جليلٍ.

وإنَّما لم يقل: مِن ماءٍ مهينٍ، مع ما فيه مِن المناسبة لقرينه؛ رعايةً لحَقِّ الكلامِ بتجرِيده لِمَا سِيقَ له مِن المرام، وذلك بحذف ما يخيِّل غَرضاً آخَرَ، وهو الامتنانُ بالإعزاز والإكرام.

ومَن لم يتنبَّه لهذا قال: أنَّا خلقناهُ مِن أمهنِ شيءٍ وأقذره، وهو مع مهانةِ أصله وخساسةِ عنصره[3]، يتصدَّى لمخاصمة الجبَّار؛ الذي شرَّفه بعد خسَّته، وكرَّمَه بعد ذلَّته، ويقول: مَن يحيي العظام؟!

---

(١) في (م): «الإلزام».

(٢) «وإفراطه في»، وقع في النسخ بدلا منه: «وإفراد»، والمثبت من «الكشاف» (٤/ ٣٠).

(٣) في (ك): «وخساسته».

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (إذا) للمفاجأة، والفاء فصيحةٌ للعطف على مقدَّر تفصيله: لمَّا بلغَ مَظِنَّة[1] إظهارِ الشكر والحمدِ على آثارِ قدرتنا، ففاجأَ بإعلانِ الكفران والجحد مُبالغاً[2] في الخصومة، مُعرِباً عمَّا في نفسه مِن الجناية، وحالُه أنَّ خِصامَه في أَلْزَم[3] وصف له، وأبلغِ حجَّةٍ عليه، وهو أنَّه مُنشَأٌ مِن مواتٍ، والإعادةُ أهونُ مِن الإبداءِ، فخِصامه محضُ مكابرةٍ وصِرفُ معاندة.

***

(٧٨) ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ إنَّما سمَّى قولَه مَثَلاً؛ لكونه أمراً عجيباً[4] وقصَّةً غريبةً كالمَثَل، حيث أنكر قدرةَ اللهِ تعالى على إنشاءِ المواتِ وقد أنشأهُ اللهُ تعالى مِن الموات.

﴿وَنَسِيَ﴾: ولا يتذكَّر ﴿خَلْقَهُۥ﴾ وهو أقربُ شيءٍ إليه.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ رويَ أنَّ أُبيَّ بنَ خَلَفٍ أَتَى النبيَّ عليه الصلاة والسلام بعظمٍ بالٍ تفتَّت بيده، فقال: أترى أن الله يحيي هذا بعدما رمَّ؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «نَعم ويَبعثُكَ ويُدخِلُك النارَ» فنزلت[5].

---

(١) في (ك): «فطنة».

(٢) في (م): «ففاجأ بإعلان للكفران والحجب مبالغة»، وفي (ع) و(ي): «فقد جاء بإعلان الكفران والحجب مبالغا».

(٣) في (ك): «الذم»، وفي (ي): (إلزام)، والمثبت من باقي النسخ، وعبارة «الكشاف» وعنه النسفي: (في ألزم وصف له وألصقه به).

(٤) في (ف): «عجبا».

(٥) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٤٦)، والطبري في «التفسير» (١٩/ ٤٨٦)، عن قتادة. وقال =

والرَّميم: اسمٌ لِمَا بَلِيَ؛ عظماً كان أو غيرَه، غيرُ صفةٍ كالرِّمَّة والرُّفات، لا فعيل بمعنى فاعلٍ ولا مفعولٍ، فلهذا لم يؤنَّث مع كونِه خبراً عن مؤنَّث.

وقيل: لأنَّه معدولٌ عن فاعل، وكلُّ ما كان معدولاً عن وجهِه ووزنِه، كان مصروفاً عن أخواته، كـ﴿بغِيًّا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، فإنَّها مصروفةٌ عن: باغية.

وفي ظاهره دلالةٌ على أنَّ في العظام حياةً، وأنَّها تَنجُس بالموت.

* * *

(٧٩) ـ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إنَّما قال: ﴿أَنشَأَهَا﴾ دون: أحياها؛ إشارة إلى الفرقِ بين الإحياءَين مِن حيث إنَّ الأولَ منهما إنشاءٌ، والثاني إعادةٌ، فلا جَرَمَ يكون أهونَ، ولا تغيير في جانب الفاعل.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يَعلمُ كيف يَخلُق، لا يَتعاظمُه شيءٌ مِن خلقِ المُنشَآتِ والمعاداتِ، وجمعِ أجزائها؛ جلائلها ودقائقها.

* * *

(٨٠) ـ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ وصف[1] ....

= ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٤١): وعليه المفسرون. وفي رواية سعيد بن جبير عند الطبري (١٩/ ٤٨٧) أنه العاص بن وائل السهمي، وكذا رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) في (ع) و(م) و(ي): «ووصف».

الشجرِ بالأخضر حملاً على اللفظ، وقرئ: (الخَضْراءِ)[(١)]؛ على المعنى.

﴿نَارًا﴾: نوعاً غريباً مِن النار؛ حيث يَحدُث ممَّا يقطر منه الماءُ، ومِن هنا ظهر وجهُ توصيفِ الشجرِ بالأخضرِ، نُقلَ عن أربابِ الحكمة: أنَّ النارَ على أربعةِ أنواعٍ:

نارٌ: تَأكلُ ولا تَشرب وهي النار المعهود.

ونارٌ: تَشرب ولا تَأكل وهي نار الشجر.

ونارٌ: تَأكل وتَشرب وهي نارُ المعدة.

ونارٌ: لا تَأكل ولا تَشرب وهي نارُ الحَجَر.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ لا تَشكُّون في أنَّها نارٌ تَخرج منه، استدلَّ بالنشأة الأولى على الثانية، ثم بانقداح النار مِن الشجر الأخضر، وهي مِن زناد الأعراب، وأكثرها مِن المَرخِ والعَفَارِ؛ يُقطع منهما غصنان مثل السَّواكين[(٢)]، وهما خضروانِ يَقطُر منهما الماءُ، فيُسحق المرخُ ـ وهو ذَكَرٌ ـ على العفارِ ـ وهو أنثى ـ فتنقدحُ النارُ بإذن الله تعالى، مع مضادَّة الماءِ النارَ وانطفائِها به، فمَن قدرَ على ذلك، كان على إعادةِ الغضاضةِ ـ فيما كان غضًّا فيبسَ وبَلِيَ ـ أقدرَ.

***

(٨١) ـ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣١)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٤٤).

(٢) في (ع) و(ي): «يقدح منهما عصيان مثل السواكب»، وفي (م): «يقطع منهما عصيتان مثل السواكب». والمثبت موافق لما في «الكشاف» (٤/ ٣١).

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ دليلٌ ثالثٌ، كأنَّه قال: أَبَعْدَ ما مرَّ مِن الدليلين لا يَقدر مَن خلَقهما مع كِبَرِ جِرْمهما وعِظَم شأنِهما على خَلْقِ مثلِهم مع صغرِهم وقماءتهم بالنسبة إليهما.

وقيل: على إعادتهم[1]؛ لأنَّ المعادَ مَثَلٌ للمبدأ في أصول البنية والذات والصفات.

ويردُّه: أنَّ المذهبَ خلافُ ذلك.

﴿بَلَىٰ﴾ جوابُ مِن الله تعالى مُشعِرٌ بأنَّ الجوابَ منحصرٌ في هذا، وهو الإثباتُ بعد النفي.

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ المبالغةُ في الخلقِ والعلمِ المستفادة مِن الصفتين المذكورتين، تناسب المقام.

* * *

(٨٢) ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾: قولُه، على ما مرَّ في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [الآية: ٤٠]، ومَن حملَ الأمرَ هنا على الشأنِ، فقد غفلَ عن ذلك البيانِ.

شبَّه تأثيرَ قدرته تعالى في مرادِه بأمرِ آمرٍ مطاعٍ وَرَدَ على مأمورٍ مطيعٍ لم يَلبث أنْ يمتثل، فقال: إنَّما أَمْره في إيجاد الأشياء ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: تكوينه ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾؛ أي: تكوَّنْ ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدثُ مِن غيرِ امتناعٍ عليه ولا توقُّفٍ

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «عادتهم».

في المأمور[١]، ولا افتقارٍ إلى الآلاتِ وحركاتٍ مِن الآمر؛ حسماً لمادَّة الشُّبهة في قياسِ قدرةِ اللهِ تعالى على قدرةِ الخَلْق، وهو مِن الاستعارةِ التمثيليَّة يقوم مقامَ تعليلٍ لقدرةِ اللهِ تعالى على إعادة الموتى؛ أي: مَن كان إيجادُه للأشياء بهذه المثابةِ، كيف يَعجز عن الإعادة؟!

وقرئ: ﴿فيكونَ﴾ بالنصب[٢]؛ عطفاً على ﴿يَقُولَ﴾، والرفع على تقديرِ جملةٍ اسميَّةٍ؛ أي: فهو يكونُ، معطوفةٍ على أُخرى مثلِها، وهي: إنَّما أمره... أنْ يقول.

* * *

(٨٣) ـ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تنزيهٌ له تعالى عمَّا وَصَفه[٣] به المشركون، وتعجيبٌ مِن أنْ يقولوا فيه ما قالوا، والفاء للسببية؛ أوردها تعليلاً بكونه المتصرِّف في مَلكوتِ كلِّ شيءٍ بمقتضى مشيئته وموجبِ حكمته، فكيف يَمتنع عليه شيءٌ؟

والملكوتُ مقابلُ الملك على ما ورد في الدُّعاء المأثور: سبحان ذي الملكِ والملكوت.

فإنَّ كلَّ شيءٍ له جسمانيَّة كثيفة وروحانيَّة لطيفة، فجسمانيتُه الظُّلمانيةُ مِن عالَم

---

(١) في (ف) و(ك): «من المأمور».

(٢) قرأ بها الكسائي وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٧).

(٣) في (م): «وصف».

الملك، وهو عالَم الخَلق وعالَم الشهادة، وروحانيتُه النورانيةُ مِن عالم الملكوت، وهو عالَم الأمر وعالَم الغيب.

ومعنى كون ملكوتِ كلِّ شيء بيده: أنَّ تصرُّفه فيه بالذات، لا بواسطة الأسبابِ العاديةِ، بخلاف ما في عالم الملك؛ فإنَّ تصرُّفه فيه بواسطة الأسبابِ والآلاتِ على مقتضى حكمته.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وعدٌ ووعيدٌ للمقرِّين والمُنكرين[1].

* * *

---

(١) في (م) زيادة: «والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب».

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ الواو للقسم، والصفُّ: ترتيب الجمع على خطٍّ واحد.

***

(٢) ـ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ ﴿صَفّٗا﴾ مصدر مؤكِّد، وكذلك ﴿زَجۡرٗا﴾، والفاء المتوسِّطة[١] بين الصِّفات إما لترتُّبهما[٢] مع اتحاد الموصوف، وإما لترتُّب الموصوفات، والأولُ إمَّا لترتبهما في الوجود وإما لترتُّبهما في بعض الوجوه بحسب التفاضل أو التناقض، وكذا الثاني: إما في الوجود وإما في الاعتبار.

ويُحتمل هنا اتحادُ الموصوفين وترتُّب الصفات: في التفاضل على أن الصفَّ طاعةٌ وكمال، والزجرَ تكميلٌ بالمنع عن الشر والسوقِ إلى الخير، والتلاوةَ إفاضةُ المعارف والحِكَم على الأنبياء عليهم السلام، أو في التناقض على أن الصفَّ هو الحضور بين يدي الله في مواطن القُرَب، والزجرَ زجرُ الشياطين، والتلاوةَ الذكرُ بالتسبيح والتحميد.

---

(١) في (م): «للتوسط».

(٢) في (ع): «لترتيبهما»، وفي (ف) و(ك): «لترتبها».

وكذا إذا أريد تعدُّدُ الطوائف وتثليثُها.

وقد[1] يترتَّب في[2] الفضل على أن الطوائفَ الصافاتِ[3] فضلاءُ، والطوائفَ الزاجراتِ أفضلُ، والتاليات أبهرُ، أو بالعكس[4].

* * *

(٣) ـ ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾.

﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾ أقسم الله تعالى بطوائف الملائكة الصافِّين في مراتب العبودية بحسب تفاوُت فيضان الأنوار الإلهية عليهم منتظرين لأوامره من قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥]، الزاجراتِ[5] للعباد عن المعاصي بإلهام الخير، أو الشياطينِ عن التعرُّض لهم بالإضلال، أو الأجرام العلوية والسفلية كالسحاب والرياح وغير ذلك بما أمروا من تدابيرها، التالياتِ[6] لآيات الله تعالى من الكتب المنزلة على أنبيائه عليهم السلام وغيرِها من التقديسات والتسبيحات وسائر الأذكار.

أو بنفوسِ العلماء العبَّاد[7] الصافَّاتِ أقدامَها في الصلوات وخصوصاً في

(١) في (ف) و(ك): «فقد».

(٢) في (ع) و(م) و(ي): «على».

(٣) في (ع) و(م) و(ي): «الصفات».

(٤) في (ع) و(ي): «وبالعكس».

(٥) قوله: «الزاجرات» صفة: «الملائكة»، وكان الأولى: (الزاجرين) لتوافق: «الصافين» وهو لفظ «تفسير البيضاوي»، أو: (الصافات) لتوافق التنزيل، وهو لفظ «الكشاف» (٤/ ٣٣).

(٦) عند البيضاوي: (التالين)، وانظر التعليق السابق.

(٧) «العباد» ليست في (ف) و(ك).

الجماعات، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات كلامَ الله تعالى وشرائعَه وحِكَمَه.

أو بنفوس الغزاة المجاهدين في سبيل الله تعالى، الصافِّين في صفوف الجهاد، والزاجرين[1] للخيل، الذاكرين مع ذلك للهِ تعالى، والتالِينَ[2] لآياته لا تشغلهم تلك الشواغل عنها، كما حُكي عن علي رضي الله عنه[3].

وقيل: الصافات: الطير من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[النور: ٤١]، والزاجرات: كلُّ ما زَجَر عن[4] معاصي اللهِ تعالى، والتاليات: كلُّ مَن تلا كتابَ الله تعالى.

وقرئت بإدغام التاءات الثلاثِ فيما يَليها لقُرب مخرجها من مخرج التاء[5].

***

(٤) ـ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم[6].

وفائدةُ الإقسام: تعظيم المقسَم وتأكيدُ المقسَم عليه، على ما هو الأصل في كلامهم.

---

(١) في (ف) و(ك): «الزاجرين».

(٢) في (م): «والتاليات»، وفي الهامش: «في نسخة: والتالين».

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٤).

(٤) في النسخ: «من»، وفي هامش(م): «لعله عن»، وعليه المثبت، وهو موافق لما في «الكشاف» (٤/ ٣٣).

(٥) هي قراءة حمزة وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ٢٢ ـ ٢٦) و(ص: ١٨٥ ـ ١٨٦)، و«النشر» (١/ ٢٨٦) و(٢/ ٣٥٦).

(٦) في (ف) و(ك): «القسم».

(٥) ـ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾.

وأما تحقيقُه بالبرهان فبقوله[1]: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإن انتظامهما على الوجه الأكمل دليلٌ على وحدة الصانع، على ما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٢].

﴿ رَّبُّ ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ على المدح؛ أي: هو ربُّ السماوات، ويجوز أن يكون بدلاً من (واحدٌ).

﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ يتناول أفعالَ العباد فيَدل على أنها من خَلقه تعالى.

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾: مشارقِ الشمس في السَّنة، قيل: وهي ثلاثُ مئةٍ وستون مَشْرقاً، في كلِّ يومٍ واحدٌ، وفيه نظر. ويَتبعها اختلافُ المغارب، ولذلك[2] اكتفى بذكرها، ولدلالتها عليها، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وأما كونُها أدلَّ على القدرة وأبلغَ في النعمة فلا يصلح وجهاً للاكتفاء المذكور، إنما يصلح وجهاً لتخصيص المشارق بالذكر على تقدير الاكتفاء بأحدهما.

* * *

(٦) ـ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ﴾: القُربى منكم.

﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ الزِّينةُ مصدر كالنِّسبة، أو اسم لِمَا يُزانُ به، كاللِّيْقَةِ اسمٌ لِمَا تُلاقُ به الدَّواةُ.

---

(١) في (م): «بقوله».

(٢) في (م): «ولذلك».

وإضافتها إلى المفعول إن جعلتها مصدراً؛ أي: بأنْ زانَ اللهُ تعالى الكواكبَ وحسَّنها؛ لأنَّها إنَّما زُيِّنَتِ السَّماءُ لحسنِها في أنفسِها، وأصلُه: ﴿بزينةٍ الكواكبَ﴾ بالتَّنوين ونصب ﴿الكواكبَ﴾، وقد قرئ كذلك(١).

أو إلى الفاعل؛ أي: بأنْ زانَتها الكواكبُ، وأصله: بزينةٍ الكواكبُ.

وإنْ جعلتَها اسماً فالإضافة للتَّبيينِ؛ فإنَّ الزِّينةَ مبهَمةٌ قد تكون بالكواكب وقد تكون بغيرها؛ أي: بزينةٍ مِنَ الكواكبِ، كقولِكَ: بابُ ساجٍ، أو بزينةٍ هي الكواكبُ، ويعضده القراءة بالتَّنوين وجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على الإبدال(٢).

ويجوز في النَّصب أيضاً الإبدال من محلِّ الجار والمجرور بهذا المعنى.

ويجوز على قراءة الجرِّ أنْ يرادَ بالزِّينةِ: ما زُيِّنَتْ به الكواكب مِن أضوائها وأوضاعها المختلفة؛ كشكل الثُّريَّا وبنات النَّعش والجوزاء وغير ذلك، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]؛ أي: بالأشكال.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾: بضوءِ الكواكبِ(٣).

واعلم أنَّ تقييدَ السَّماء بالدُّنيا يأبى عن حمل الزِّينة ـ على ما بحسب المفهوم ـ على(٤) الظُّهور في الحسِّ؛ لعدم التَّمايز(٥) بين العليا والدنيا في

---

(١) قرأ عاصم وحمزة ﴿بزينةٍ﴾ بالتنوين، والباقون من غير تنوين، وقرأ أبو بكر: ﴿الكواكبَ﴾ بالنصب والباقون بالخفض. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦).

(٢) وهي قراءة حفص عن عاصم، وحمزة. انظر التعليق السابق.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٥).

(٤) «المفهوم على» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٥) في (ف) و(ك): «تمايز».

ذلك، ففي التَّقييد المذكور قدحٌ لِمَا اشتَهَر مِن أنَّ ما عدا القمر مِن الكواكب ليس في السَّماءِ[1] الدُّنيا.

***

(٧) ـ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾.

﴿وَحِفْظًا﴾ عطفٌ على محلِّ قولِه: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على المعنى؛ لأن المعنى: إنَّا خلقنا الكواكبَ[2] زينةً للسَّماء وحفظاً مِن الشَّياطين[3]، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، أو منصوبٌ بفعلٍ مُقدَّر على المصدر؛ أي: وحفظناها حفظاً، أو على التَّعليلِ؛ أي: وحفظاً[4] زيَّنَّاها بالكواكب.

﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾: خارجٍ عن الطَّاعةِ.

***

(٨) ـ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ ابتداء الاقتصاص[5] لبيانِ حالِ مسترِقَةِ السَّمع، لا تعلُّقَ له بما قبلَه إلَّا مِن حيثُ المعنى.

---

(١) في (ف) و(ك): «سماء».

(٢) «على المعنى لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب» سقط من (ف) و(ك)، وفي (ي) و(ع): «على المعنى إنا خلقنا الكواكب»، والمثبت من (م).

(٣) في (ف) و(ك): «السماء».

(٤) في (م): «وحفظناها».

(٥) في (ع) و(م): «الاختصاص».

ورجوعُ الضَّمير فيه[١] إلى ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾: أمَّا مِن حيثُ اللَّفظُ فلا يجوزُ أن يكون صفةً لـ ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾؛ إذ لا معنى للحفظ من شياطين لا يسْمَعون، ولا استئنافاً؛ إذ لو سُئِلَ: لِمَ يحفظُ مِن الشَّياطين؟ لَمَا صحَّ الجوابُ: لأنهم لا يسمَعون[٢]، فبقي أن يكون منقطعاً.

ومَن زعم أنه تعليلٌ أصلُه: لئلا يسمَعون، فحُذِفَتْ اللَّام فبقيَ: أنْ لا يسْمَعوا، فحُذِفَتْ (أن) وأُهدِرَ عملُها = فقد ركِبَ شططاً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الحذفَيْن على الانفرادِ غيرُ منكَرٍ، وأمَّا جمعُهما فمِن المنكرات التي يجب صونُ القرآنِ عنها.

﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهم الملائكةُ لأنَّهم سكانُ السَّماء، والثَّقلان الملأُ الأسفلُ لأنَّهم سكان الأرض.

وقرئ: ﴿لا يَسمعون﴾ بالتَّخفيف وتشديد السِّين والميم[٣]، وأصله: يتسمَّعون، والتسمُّع: تطلُّبُ[٤] السَّماع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يتسمَّعون فلا يسمعون[٥].

وهذا ينصر التَّخفيفَ على التَّشديد.

---

(١) في «فيه» من (م) و(ع).

(٢) في (ف) و(ك): «بأنهم لا يسمعون»، وفي (م): «لأنهم يستمعون».

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦).

(٤) في (ف): «طلب».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٠٥). وكذا عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٧٩).

وعـدِّي ﴿يسـمعون﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ لتضمُّنـه الانتهـاء؛ أي: لا ينتهون بالسَّـمع أو التَّسـمُّع إلـى المـلأ الأعلـى، لا[1] لتضمُّنه معنـى الإصغـاء، إذ حينئذٍ لا يلـزم انتفاءُ السَّـمع أو التَّسـمُّع، إذ لا يلـزم من انتفـاء المجموع انتفـاءُ كلِّ جزءٍ منـه، فمَن وَهَمَ أنَّ فيـه المبالغـة فـي النَّفي فقـد وَهِم.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: يُرمَوْنَ بالشُّهبِ.

﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ مِن كلِّ جهةٍ يَصْعَدون إلى السَّماء منها للاستراق.

***

(٩) ـ ﴿ دُحُورًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.

﴿ دُحُورًاۖ ﴾ مفعولٌ له؛ أي: للدُّحور، وهو الطَّرد، أو حالٌ؛ أي: مدحوراً، أو مصدرٌ لأنَّ القذفَ والدُّحور متقاربان في المعنى، فكأنَّه قيل: يُدحرون دحوراً.

[وقرأ أبو عبد الرحمن السلميُّ بفتح الدال على: قذفاً دَحوراً طَروداً]، أو على أنَّه جاء مجيء القَبول والولوع[2].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: دائمٌ؛ أي: إنَّهم مَرجومون في الدُّنيا بالشُّهبِ، وقد أُعِدَّ لهم في الآخرة عذابٌ غيرُ منقطعٍ.

***

---

(١) «لا» سقطت من (ف) و(ك)، وهذا ابتداء تعقب على البيضاوي.

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٦)، وما بين معكوفتين منه. وقوله: «أو على أنَّه جاء مجيء القَبول والولوع»، معناه: أن يكون مصدراً، وفَعول في المصادر نادر، ولم يأت في كتب التصريف منه إلا أحرف معدودة منها المصدران المذكوران، وانظرها مجموعة في «روح المعاني» (٢٣/ ١٩).

(١٠) ـ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ﴿مَنْ﴾ مرفوع المحلِّ بدلٌ من الواو في ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾؛ أي: لا يَسمعُ الشَّياطين إلَّا الشَّيطانُ الذي خطفَ الخطفةَ.

وقرئ: (خِطِّفَ) بكسر الخاء والطَّاء وتشديدها[١].

و: (خَطِّفَ) بفتح الخاء وكسر الطَّاء وتشديدها[٢]، وأصلُها: اخْتَطفَ.

والخَطْفُ: الاستلابُ بسرعةٍ، والمراد: استلابُ كلامِ الملائكةِ مسارَقةً، ولذلك عرَّفَ ﴿الْخَطْفَةَ﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: لحقَه، وقرئ: (فَاتَّبَعَهُ) بالتَّشديد[٣]، وقد مرَّ التَّفصيل في تفسير (سورة طه).

﴿شِهَابٌ﴾ نجمُ رجمٍ؛ أي: هم مُقذفون بالشُّهب مدحورون عن ذلك إلَّا مَن أُمهِلَ[٤] ريثما خطفَ خطفةً فأتبعه شهاب[٥].

قيل: نجومُ الرُّجومِ غيرُ نجومِ الزِّينة، تلك ثابتةٌ وهذه سائرةٌ متَشتِّةٌ[٦].

---

(١) نسبت للحسن وقتادة وعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٧).

(٢) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٧).

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٧). وهي رواية عن أبي عمرو، والرواية المشهورة عنه مثل رواية الجماعة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢).

(٤) في (ي) و(ع): «أهمل».

(٥) في (م) و(ي): «فأتبع بشهاب».

(٦) سقطت من (ك)، وغير واضحة في (ف) و(م)، وفي (ع): «متشتمة»، والمثبت من (ي).

قال الشَّعبيُّ: لم يُقذَفْ بالرُّجوم[١] حتى بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ، فلمَّا قُذِفَ بها جعلَ النَّاس يسيِّبون أنعامَهم ويعتقون رقيقهم[٢]؛ يظنُّون أنَّها قيامة، فأتوا عبدياليل الثَّقفي وكان قد عمي، فأخبروه بما فعلوه، قال: لَمَّا قالوا[٣]: إنَّ النُّجومَ تهافتَتْ من السَّماء، فقال لهم: لا تعجلوا؛ فإنْ كان النُّجوم التي تُعرَف فهي عند قيام الساعة، وإن كانت نجوماً لا تُعرَف فهو أمرٌ حدثَ، فنظروا فإذا هي نجومٌ لا تُعرَف، قال: فما مكثوا إلَّا يسيراً[٤] حتى أتاهم خبر النبي عليه السلام[٥].

وفيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنَّ ذلك حدث بميلاد النَّبيِّ عليه السلام[٦].

وعلى كلا التَّقديرَيْنِ: الحادثُ قذفُ الشَّياطين بالشُّهبِ، لا الشُّهبُ نفسه، فلا قدحَ فيه؛ بدلالة أشعار الجاهليَّة على وجود الشُّهب قبلَه. ولا حاجة إلى أن يقال: إنَّ الحادث كثرتُها لا وجودها.

وأمَّا ما قيل: إنَّ أصلَ الشُّهبِ بخارٌ يصعدُ إلى الأثير فيشتعل= فيردُّه[٧] نصُّ الكتاب؛ لأنَّه صريحٌ في أنَّ الشُّهبَ الكواكبُ المشبَّهة بالمصابيح، وأنَّ انقضاضها واشتعالها لحكمة القَذْفِ، لا باقتضاء طبعها عند وصولها إلى الأثير.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «بالنجوم».

(٢) في (ف): «فيعتقون رقبتهم»، وفي (ك): «فيعتقدون رقبتهم».

(٣) «قالوا» من (ف) و(ك).

(٤) في (ف) و(ك): «قليلا».

(٥) روى نحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤١).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٣).

(٧) في (م): «فيبرز»، وفي (ي): «قيتوت»، وفي (ع): «فيبون»، وكله تحريف.

﴿ثَاقِبٌ﴾: الشَّديدُ الإضاءة، كأنَّه يَثقبُ بضوئِه.

* * *

(١١) ـ ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ لَمَّا كانت الهمزة في الأصل للاستفهام قيل: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾؛ أي: فاستخبرهم، ولم يقل: فقرِّرهم، وإنْ خرجت إلى معنى التَّقرير، والضَّمير لمشركي العرب[١]، أو لبني آدم عليه السلام.

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يحتمل: أقوى خلقاً وأصعبُ خلقاً[٢] وأشقُّه، على معنى الرَّد لإنكارهم البعثَ[٣] والنشأةَ الأخرى.

﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ المراد منه: ما ذُكِرَ مِن خلائقه؛ من الملائكة، والسَّماوات والأرض وما بينهما، والمشارقِ[٤] والكواكب، والشُّهب الثَّواقب، والشَّياطين المردة، وغلَّب أولي العقل على غيرهم فقال: ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾، ويدلُّ عليه إطلاقه ومجيئُه بعدَ ذلك، وقراءةُ مَن قرأ: (أمْ مَن عَددنا) بالتَّشديد والتَّخفيف[٥]، وقولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ﴾ فإنَّه الفارق بينهم وبينها، لا بينهم وبين مَن قبلهم كعاد وثمود، ولأن[٦] المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالتهم إيَّاه، والأمرُ فيه بالإضافة إليهم وإلى مَن قبلَهم سواءٌ.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «مكة».

(٢) «وأصعب خلقاً» من (م) و(ي) و(ع).

(٣) في (ف): «المبعث».

(٤) في (ف) و(ك): «وللمشارق»، وفي (ي): «ورب المشارق».

(٥) نسبت إلى ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٧).

(٦) في (ف) و(ك): «فلأن».

﴿لَّازِبٍۭ﴾: لازمٍ ما جاوره ملاصِقٍ به؛ أي: أصلُ خلقتهم هو(١) الطِّين اللَّازب، وليس إلَّا التُّرابَ والماء، وهو على حاله، فمن أين استنكروا ذلك؟!

***

(١٢) - ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ مِن إنكارِهم البعثَ ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ أي: وهم يسخرون منك ومِن تعجُّبِك وتقريرِك للبعث.

وقرئ: ﴿عَجِبْتُ﴾ بضم التَّاء(٢)، وحُمل الكلام على المجاز؛ فإنَّ العَجَب روعةٌ تعتري الإنسان عند استعظامه لشيء(٣)، وهو على الله تعالى محالٌ، فهو في حقِّه إمَّا لمجرد الاستعظام، وإمَّا على سبيل الفَرْض على معنى(٤): أنَّه عند الله بمنزلةٍ لو جازَ عليه العَجَبُ لعجب، أو التخييل من باب الاستعارة على ما مرَّ في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، وأن الأمر في نفسه(٥) متعجَّبٌ منه، وقد جاء في الحديث: «عجبَ ربكم من إلِّكُم وقنوطكم، وسرعة إجابته(٦) إيَّاكم»(٧).

---

(١) في (م): «وهو».

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦).

(٣) في (م) و(ك) و(ع): «بشيء». ولفظ «الكشاف»: «استعظامه الشيء».

(٤) «معنى» سقط من (م).

(٥) في (ف) و(ك): «في لعب».

(٦) في النسخ: «إجابتكم»، والتصويب من المصادر.

(٧) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١١٨) ط: الأميرية، و«الغريبين» (مادة: ألل)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٣٩٤)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧). قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٧٥): غريب، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث»: يروى عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة =

(١٣) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾: ودأبهم إذا وُعِظوا بشيءٍ لا يتَّعظون به[1].

* * *

(١٤) ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً ﴾ عظيمةً مِن آياتِ اللهِ تعالى كانشقاق القمر ونحوه.

﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾: يبالغون في السُّخرية كأنَّهم يطلبون من أنفسهم السُّخرية منها، ويَجهدون في ذلك، أو يستدعي[2] بعضُهم مِن بعضٍ أنْ يسخرَ منها.

* * *

(١٥) ـ ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾: ظاهرٌ سحريَّتُه.

* * *

(١٦) ـ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أصلـه: أَنُبعـث إذا متنـا، فبـدَّل الفعليَّـة بالاسـميَّة، وقـدَّم الظَّرف، وكـرَّر الهمزة؛ مبالغةً في الإنكار، وإشـعاراً بأنَّه مُسـتَنكَرٌ

= الماجشون عن محمد بن عمرو يرفعه. الإلُّ: شدَّة القنوط، ويجوز أن يكون من رفع الصوت بالبكاء. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (مادة: ألل).

(١) في (ف) و(ك): «لا يوعظون».

(٢) في (ف) و(ك): «ويستدعي».

في نفسِه، وفي هذه[١] الحال أشدُّ استنكاراً، فهو أبلغ من القراءة بطرح إحدى الهمزتَيْنِ[٢].

* * *

(١٧) ـ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، تقديره: مبعوثون، ويدلُّ عليه ما قبلَه، فإذا قلْتَ: أقام زيدٌ أم عمرٌو؟ فعمرٌو مبتدأ محذوفُ الخبر، ويجوز عطفه[٣] على محلِّ (إنَّ) واسمها على خلاف مذهب سيبويه؛ لأنَّه يقول: إنَّ (عَمراً) في قولِكَ: (إنَّ زيداً قائمٌ وعمرٌو) مرفوعٌ على الابتداء[٤].

وأما عطفه على الضمير في ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ فلا صحَّة له؛ لأنَّ همزة الاستفهام لا تدخل إلَّا[٥] على الجملِ، فعلى تقدير العطف على المفرد كان الفعل عاملاً فيه بواسطة[٦] حرف العطف، وهمزة الاستفهام لا يعملُ ما قبلها فيما بعدَها.

وإدخال الهمزة الإنكارية على الواو لزيادة الاستبعاد على معنى: أَنُبْعَثُ ويُبْعَثُ[٧] أيضاً آباؤنا؛ يعنون أنَّهم أقدم فبعثُهم أبعدُ.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «هذا».

(٢) قرأ ابن عامر بطرح الأولى، ونافع والكسائي بطرح الثانية. انظر: «التيسير» (ص: ٣٢)، و«النشر» (٢/ ٣٧٣).

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «عطف».

(٤) انظر: «الكتاب» (١/ ٩٥).

(٥) «إلا» سقط من (م) و(ي) و(ع). والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب.

(٦) في (ف): «بوساطة».

(٧) في (م) و(ي) و(ع): «معنى أيبعث أيضاً».

وقرئ: ﴿أوْ آباؤنا﴾ بـ(أو) الفاصلة[١]، قال صاحب «المطالع»: (أو) إذا كانت للتَّقرير أو التَّوبيخ أو الردِّ أو الإنكار أو الاستفهام كانت مفتوحة الواو، وإذا جاءت للشَّكِّ أو التَّقسيم أو الإبهام أو التَّورية أو التَّخيير أو بمعنى (بل) أو بمعنى (حتى) أو بمعنى (إلى) وكيف كانت عاطفةً، فهي ساكنة الواو[٢].

﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾: الأقدمون.

***

(١٨) ـ ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾.

﴿قُلۡ﴾ وقرئ: (قال)[٣]: ﴿نَعَمۡ﴾؛ أي: نعم تُبعثون، وإنما اكتفى به في الجواب لأنَّه سبق[٤] ما يدلُّ على جوازه، وأمَّا قيام المعجز على صدق المخبِر عن وقوعه فلا يجدي في حقِّ القائلين: إنَّه سحرٌ مبينٌ، والكلام معهم بعد ما أنكروا الإعجاز والرِّسالة.

﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾: صاغرون.

وقرئ: ﴿نَعِم﴾ بكسر العين[٥]، وهما لغتان.

***

(١) وهي قراءة قالون وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦).

(٢) انظر: «مطالع الأنوار» لابن قرقول (١/ ٣٤٧)، وكذلك «مشارق الأنوار» للقاضي عياض (١/ ٥٢).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٨).

(٤) في (م) و(ي) و(ع): «لسبق».

(٥) وهي قراءة الكسائي حيث وقع. انظر: «التيسير» (ص: ١١٠).

(١٩) ـ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ مبهمة لا ترجع إلى شيءٍ، موضحها خبرُها، ويجوز أن ترجع إلى البعثة الدَّال عليها ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾[١]، والفاءُ جوابُ شرطٍ مقدَّر، تقديره: إذا كان ذلك[٢] فما هي إلَّا:

﴿زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾؛ أي: صيحةٌ واحدةٌ، هي النَّفخة الثَّانية، مِن زجَرَ الرَّاعي غنمَه[٣]: إذا صاح عليها، وأمرُها بالإعادة[٤] كأمر (كن) في الإبداء، ولذلك رتَّب عليها قولَه:

﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾: أحياءٌ يبصرون، أو: ينتظرون ما يُفعل بهم.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا﴾ مرَّ تفسيره في (سورة يس).

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ كلام الكفرة.

* * *

(٢١) ـ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ كلام الملائكة جواباً لهم.

---

(١) في (ف) و(ك): «مبعوثون».

(٢) في (م) و(ي) و(ع): «كذلك».

(٣) «غنمه» سقط من (م)، وفي (ي) و(ع): «نعمه».

(٤) «بالإعادة» كذا في النسخ، وعند البيضاوي: «في الإعادة».

ويجوز أن يكون الأوَّلُ أيضاً من كلام الملائكة، وأن يكون الكلامُ الثَّاني من بعض كلام الكفرة لبعضهم؛ أي: هذا يوم الجزاء الذي ندان[١] فيه ونجازَى بأعمالنا، هذا يوم القضاء والفَرْق بين فِرَق الهدى والضَّلال.

﴿الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فيه دلالة على أنَّ الرُّسل عليهم السلام جدَّدوا الإنذار بعذاب النَّار سائرَ الأحوال[٢] في دار القرار، وهم أصرُّوا على الإنكار، واستمرُّوا على الإصرار.

***

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خطاب الله للملائكة، أو خطاب بعضهم لبعض بأمر الله[٣]، والحاجة إلى الحشر لأنهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر وفَراش مبثوث، والحشر: السَّوق إلى مجمَعٍ واحد من الجهات المختلفة.

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: قرناءهم من الشياطين، قال أبو سعيد الخدريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]: إذا بعث الكافر زوِّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه[٤].

---

(١) في (ف) و(ك): «يزان».

(٢) في (ف) و(ك): «الأهوال».

(٣) في (ف) و(ك): «أو خطاب بعضهم بأمر الله للملائكة»، وفي (م): «أو خطاب بعضهم بعضا بأمر الله».

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٣٥).

وقال عطاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧]: أي: قُرنت نفوس المؤمنين بحورِ العين ونفوس الكفار بالشياطين[(١)].

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلَّ هذا على أن المراد من الذين ظلموا المشركون، وقوله عليه السلام على وفق قوله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾: «بل هم عبدوا الشياطين الذين أمرتهم بذلك» في جواب ابن الزِّبَعْرَى[(٢)]= دل على أن (ما) على عمومه، وأن الأصنام ونحوها غير داخلة فيه، فالضمير[(٣)] في قوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ لمجموع[(٤)] المذكورين.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾: فعرِّفوهم طريق النار حتى يسلكوها، وفيه تهكُّمٌ بهم لِمَا مر في تفسير سورة الفاتحة أن الهداية دلالةٌ بلطف، وفي الصراط أيضاً نوعُ تهكُّمٍ لأنه طريقٌ مستوٍ لا التواء فيه ولا اعوجاج.

***

(٢٤) ـ ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾.

﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾: احبسوهم هذا الحبسَ عند مجيئهم النَّارَ، على ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ الآية [فصلت: ١٩ ـ ٢٠]، فالسؤال في قوله تعالى:

---

(١) انظر: «زاد المسير» (٩/ ٣٩).

(٢) في هامش (م): «على ما مر في تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام».

(٣) في (ف) و(ك): «فالمضمر».

(٤) في (م) و(ي): «بمجموع».

﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ ليس عن عقائدهم وأعمالهم، بل عمَّا كانوا يرجون منه الشَّفاعة والنُّصرة، بدلالة قوله تعالى:

(٢٥) ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ وقولُه تعالى في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] توبيخٌ لهم، وتهكُّم بهم بالعجز عن التَّناصر وتخليص بعضِهم لبعض بعدما كانوا متناصرين في الدُّنيا متعاضدين.

* * *

(٢٦) ـ ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: ليس أحدٌ يقدر على نصر أحدٍ، بل الكلُّ منقادون لِمَا يُرادُ بهم، وكلمة ﴿بَلْ﴾ حرف الابتداء، لا عاطفة[1].

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: الكفرةُ والشَّياطينُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: يتخاصمون.

* * *

(٢٨) ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: الكفرةُ للشَّياطين: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: عن القوَّة والغلبة[2] حتى تحملونا على الضَّلال وتَقْسرونا[3] عليه.

---

(١) في (ف) و(ك): «لا حرف عاطفة».

(٢) في (ف) زيادة: «والشياطين».

(٣) في (م): «وتقرونا».

(٢٩) ـ ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: الشَّياطينُ للكفرةِ: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ إضراب عن مُقدَّرٍ دلَّ عليه المساق؛ أي: ما أجبرناكم على الضَّلال، بل أنتم أعرضتم عن الإيمان، واخترتُم الكفر عليه بالاختيار.

***

(٣٠) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ مِن تسلُّطٍ يسلبكم التَّمكُّن ويقسركم[1].

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾: مختارين الطُّغيانَ، وهذا على وَفق[2] ما في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

***

(٣١) ـ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾؛ أي: إذا لم نقسركم[3] فلزمنا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾؛ أي: حُكْمُ ربِّنا بـ: إنَّا لذائقون لعذابه.

ولَمَّا أخبروا بذلك عن أنفسهم عدلوا عن الخطاب إلى لفظ المتكلِّم، فحكى الله تعالى قولَهم، ولو حكى وعيد الله كما هو لقال: (إنَّكم لذائقون).

***

---

(١) في (م) و(ع): «ويقركم».

(٢) في (م) و(ي) و(ع): «أوفق» بدل «على وفق».

(٣) في (م) و(ي): «لم نقركم».

(٣٢) ـ ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾: فدعوناكم إلى الغيِّ؛ لأنَّا كنَّا غاوين أحببنا أن تكونوا مثلنا، وما أحببنا لكم إلَّا ما أحببنا لأنفسنا، فَلِمَ استحسنْتُم[1] الغيَّ على الرُّشدِ؛ أي: غاية ما في الباب أنَّا دعوناكم فلمَ أجبتم[2] وقبلتم؟

فكأنَّه تقريرٌ لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾؛ أي: ليست غوايتكم[3] في الحقيقة منَّا[4]، ولو كان كلُّ غواية بإغواء غاوٍ فمَنْ أغوانا؟!

* * *

(٣٣) ـ ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: الأتباعَ والمتبوعين مِن الكفرة والشَّياطين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا في الغواية مشتركين.

* * *

(٣٤) ـ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعل الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾: بالمشركين، بدلالة السِّباق واللِّحاق، وفي الإطلاق ما لا يخفى من المبالغة في كون الإشراك جرماً حيثُ لم يُعدَّ سائرُ المعاصي جرماً نظراً إليه.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «استجبتم»، ولو قيل: (استحببتم) لكان لها وجه، وعبارة أبي السعود: (فدعوناكم إلى الغيِّ دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختيارِكم واستحبابِكم الغيَّ على الرُّشدِ).

(٢) في (م): «أحببتم».

(٣) في (ف) و(ك): «عقوبتكم».

(٤) في (م): «بنا».

(٣٥) ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإذعان والقَبول.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنون[1]: رسولَ اللهِ عليه السلام.

* * *

(٣٧) ـ ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ إضرابٌ عن مُقدَّرٍ دلَّ عليه السِّياقُ.

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إذ هو وَهُمْ عليهم السلام على طريقةٍ واحدةٍ في دعوى الأمم إلى التَّوحيد وتركِ عبادة غيره تعالى.

وفيه ردٌّ على المشركين بأنَّ ما جاءَ به من التَّوحيد حقٌّ يطابق عليه البرهانُ العقليُّ والبيان النَّقليُّ مِن المرسلين.

* * *

(٣٨) ـ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالإشراكِ وتكذيب الرُّسلِ[2]، وقرئ بنصب (العذابَ)[3]، على تقدير[4] النُّون، كقوله:

---

(١) في (ف) و(ك): «يعني».

(٢) في (ف) و(ك): «والتَّكذيب».

(٣) نسبت لأبي السمال. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨).

(٤) في (م): «ترك».

ولا ذاكـــــــــرَ اللهَ[١]

بتقدير التَّنوين.

وقرئ: (لذائقون العذابَ) على الأصل[٢].

وفي عبارة الذَّوق دلالةٌ على أنَّ لهم عذاباً جسمانيًّا.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إلَّا مثلَ ما عملتم، وإنَّما حذف المضاف للمبالغة في المماثلة، كما في التَّشبيه البليغ.

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لكن عباد الله المخلَصين ثوابُهم مضاعفٌ، وقيل: متَّصلٌ عن الضَّمير في ﴿تُجْزَوْنَ﴾ أو ﴿لَذَائِقُوا﴾ على أنَّها للعموم.

* * *

(٤١) ـ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾ تقديمه للتَّخصيص[٣].

---

(١) جزء من بيت لأبي الأسود الدؤلي كما في «ديوانه» (ص: ٥٤)، وتمامه:

فألفيتُه غيرَ مستعتبٍ ولا ذاكرَ اللهَ إلا قليلا

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤١).

(٣) في (ف) و(ك): «تقدمة» بدل: «تقديمه للتخصيص».

﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ خصائصُه من الدَّوام وتمحُّض اللَّذَّة[1]، ولذلك فسره بقوله:

(٤٢) ـ ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿فَوَاكِهُ﴾ فإنَّ الفاكهة ما يُتلذَّذ به ولا يُتقوَّتُ، وذلك لأنَّهم مستغنون عن التَّغذي؛ إذ لا تحلُّلَ[2] هناك، فيكون رزقُهم كلُّه للتفكُّه والتلذُّذ لا للتقوُّت.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى، لا يلحقهم هوانٌ، وذلك[3] مِن أعظم الثَّواب وأَلْيَقه بذوي الهِمَم.

* * *

(٤٣) ـ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: في جنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيم، ظرفٌ أو حالٌ مِن المستكنِّ في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾، وكذا:

(٤٤) ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمِل الحال والخبر، فإن جُعِلَ خبراً كان:

﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ حالاً مِن الضَّمير فيه، أو في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، ويجوز أنْ يتعلَّق بـ ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾، على أنَّ ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ حالٌ مِن ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.

* * *

---

(١) في (م): «اللذات».

(٢) في النسخ: «تحليل»، والصواب المثبت؛ والمراد: التَّحلل في البدن المحتاج لبدل. انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٦٩).

(٣) في (ف) و(ك): «في ذلك».

(٤٥) ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ الكأسُ: الزُّجاجة ما دامَتْ فيها الخمر، وقد يطلق على الخمر مجازاً كما في قوله:

وكأسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ[1]

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: مِن شرابٍ معينٍ، أو نهرٍ معينٍ.

والمعينُ: الماءُ الجاري على وجهِ الأرضِ، الظَّاهر للعيون، وإنَّما وُصِفَ بما يوصَفُ به الماء لأنَّها تجري في الجنَّة في أنهارٍ كما يجري الماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

* * *

(٤٦) ـ ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾.

﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ صفتان للكأس. و﴿لَذَّةٍ﴾ وصفٌ بالمصدر للمبالغة، كأنَّها نفسُ اللَّذَّة. أو تأنيث اللَّذِّ، يُقالُ: لَذَّ الشَّيءُ فهو لذيذٌ ولَذٌّ، ولَذَّةٌ تأنيث لَذٍّ، بوزن فَعْلٍ كجَلْدٍ وطَبٍّ[2]، قال:

ولَذٍّ كطعْمِ الصَّرخديِّ تَرَكْتُهُ[3]

---

(١) شطر بيت للأعشى كما في «ديوانه» (ص: ٢٢٣)، وعجزه:

وأخرى تداويْتُ منها بها

(٢) الطب: الطبيب الحاذق. انظر: «روح المعاني» (٢٣/ ٥٤). ووقع في (ف): «ورطب».

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢)، وعجزه فيه:

بأرض العِدَا مِنْ خَشْيَةِ الحَدَثَانِ

وهو في ديوان الراعي النميري (ص: ١٨٦) لكن بعجز آخر.

(٤٧) ـ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ أي: فسادٌ مِن أنواع المفاسد التي تكون في خمور الدُّنيا، مِن خُمار[١] وصُداعٍ واختلاطِ عقلٍ ولَغْوٍ وعَرْبَدةٍ وغير ذلك.

والغَوْلُ: الإهلاك والإفساد، ومنه الغُولُ.

وتقديم الظَّرف وإيلاؤه حرف النَّفي لا[٢] لإفادة نفي الغَولِ عنها وإثباتِه في غيرها، [لأنَّ إثباته في غيرها[٣] غيرُ مقصودٍ، بل لإفادة أنَّ الغَولَ[٤] المنفيَّ عنها ما هو الثَّابت في غيرها؛ أي: ليس فيها ما في خمور الدُّنيا مِن اغتيال العقل[٥].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ على البناء للمفعول، مِن نزفَ الشَّارِبُ: إذا ذهبَ عقلُه.

وقرئ[٦]: (يَنْزُفون) بضم الزَّاي[٧]، من نَزُفَ يَنْزُفُ: إذا سَكِر.

وإنَّما أُفرِز النَّزفُ من أنواع الغَولِ وأُفْرِدَ بالذِّكْرِ للدِّلالة على أنَّ السُّكْرَ مِن أعظم المفاسد، كأنَّه مفسدةٌ برأسِها، وجنسٌ آخر غيرُ داخلٍ تحتَ الغَوْلِ.

* * *

(١) بضم الخاء: صداع الخمر. انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ٢٧٠).

(٢) «لا» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٣) «لأنَّ إثباته في غيرها» سقط من (م).

(٤) «الغول» سقط من (م).

(٥) «من اغتيال العقل» زيادة من (م) و(ي) و(ع).

(٦) في (م) و(ي) و(ع): «قرئ».

(٧) نسبت لطلحة بن مصرف. انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٧٣).

(٤٨) ـ ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾.

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾: قَصَرْنَ[١] أبصارَهُنَّ على أزواجهنَّ، لا يمددْنَ طرفاً إلى غيرهم.

﴿عِينٌ ﴾ العِينُ: النُّجلُ العيون، جمع عيناءَ[٢].

* * *

(٤٩) ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ شُبِّهْنَ ببيضِ النَّعام المكنون في الأَداحِيِّ[٣]؛ فإنَّه مصونٌ عن الغبار في غاية الصَّفاء، ولونُها بياض به صفرةٌ حسنة، وهي أحسن ألوان الأبدان، وبها تشبِّه العرب مخدَّراتهم، وتسمِّيهِنَّ: بيضات الخدور.

وقيل: أراد به المصون عن الكسر؛ يعني: أنهنَّ عَذارى صحيحاتٌ، قال الفرزدقُ:

خَرَجْـنَ إلـيَّ لَـمْ يُطْمَـثْنَ قَبْـلِ ... وَهُنَّ أَصَـحُّ مِـنْ بَيْـضِ النَّعَـامِ[٤]

ويؤيـدُه ما في (سـورة الرحمـن): ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦].

قال في صفةِ الحور: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وفي صفة الولدان: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ

---

(١) في (م) و(ع): «قصرت».

(٢) وهي الواسعة العين في جمال.

(٣) جمع أُدْحيٍّ، وهو الموضع الذي تفرخ النعامة فيه. انظر: «الصحاح» (مادة: دحو).

(٤) انظر: «ديوان الفرزدق» (٢/ ٨٣٥).

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾، وأشار بذلك إلى أن الحور للصحبة دون الولدان؛ لأنَّ اللؤلؤ للنَّظر لا للذَّوق، والبيض لهما.

* * *

(٥٠) ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ عطفٌ على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: يتحادثون على الشَّراب، يسأل بعضُهم بعضاً عمَّا جرى له وعليه في الدُّنيا وعن رفقائه.

وتغيير النَّظم إلى الماضي للإخبار بتحقُّق وقوع تلك اللَّذَّة خاصَّة مِن بين سائرها، وهي التَّحادُثُ على الشَّرابِ كعادة الشَّرْبِ[1]، قال:

وما بقيَتْ مِن اللَّذَّاتِ إلَّا أحاديثُ الكِرامِ على المُدامِ[2]

* * *

(٥١) ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في[3] مكالمتهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: جليسٌ في الدُّنيا.

* * *

---

(١) بفتح الشين: جمع شارب.

(٢) عزي لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه. انظر: «يتيمة الدهر» (١/ ١٣٢) للثعالبي.

وعزي لأبي الحسن علي بن حريق. انظر: «المغرب في حلى المغرب» لأبي سعيد الأندلسي (٢/ ٣١٩).

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «من».

(٥٢) ـ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾.

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ قرئ بالتَّخفيف والتَّشديد(١)؛ أي: يوبِّخني على التَّصديق بالبعث، أو التَّصدُّق(٢).

* * *

(٥٣) ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ لا يقال: ذِكْرُ كونهم عظاماً بعد ذِكْرِ كونهم تراباً تنزُّلٌ مِن القويِّ إلى الضَّعيف في مقام الاستبعاد، بل في(٣) ذِكْرِ ذلك غنًى عن ذِكْرِ هذا، لأنَّا نقولُ: كونهم عظاماً محقَّقٌ حسًّا ومحقِّقٌ(٤) لكونهم تراباً عقلاً، فلا غُنيةَ ولا تنزُّلَ، فافهم هذه الدَّقيقةَ الأنيقةَ.

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾: لمجزيُّون، من الدِّين وهو الجزاء، أو لمَسُوسُون(٥)، مِن دانَه؛ أي: ساسَه، ومنه الحديث: «العاقل من دان نفسه»(٦).

---

(١) قرأ الجمهور بتخفيف الصاد، ونسبَتْ قراءة التشديد لبكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة. انظر: «زاد المسير» (٧/ ٥٩). ولعلي بن كِيسة عن سليم (وهو بن عيسى بن سليم الحنفي مولاهم الكوفي) عن حمزة. انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦). والمشهور عن حمزة كقراءة الجماعة.

(٢) في (م) و(ي) و(ع): «التصديق»، وهو تحريف. وقد روي في سبب نزولها على معنى التصدق قصة في «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٤٩) عن عطاء الخراساني.

(٣) «في» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٤) «حسًّا ومحقق» من (م)، وفي (ي) (ع): «حسًّا ومحققهم».

(٥) في (ف) و(ك): «مسوسون».

(٦) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه بلفظ: «الكيس من دان...». وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم الغساني، وهو ضعيف.

(٥٤) ـ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾؛ أي: ذلك القائلُ.

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى النَّار لأريكم ذلك القرين.

وقيل: القائل هو الله تعالى، وقيل: بعض الملائكة يقولُ لهم: هل تحبُّون أن تطَّلعوا.

وقرئ: (مُطْلِعون) بالتَّخفيف[1]، يقال: طلع علينا فلان واطَّلع، بمعنًى.

***

(٥٥) ـ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾.

﴿فَاطَّلَعَ﴾؛ أي: عرضَ لهم الاطِّلاعَ فقبلوا عرضَه فاطَّلع هو[2] بعد ذلك، هذا أيضاً قرئ بالتَّشديد على قراءة ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ مشدَّداً، وبالتَّخفيف على قراءة (مُطْلِعونَ) مخفَّفاً، كلاهما على لفظ[3] المضارع المنصوب جواباً للاستفهام[4].

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو من رواية الجعفي عنه، والمشهور عن أبي عمرو كقراءة الجماعة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨). ووقع بعدها في (م) و(ي) و(ع) زيادة: «والمعنى»، ولا معنى لذكرها.

(٢) «هو» من (ف) و(ك).

(٣) «لفظ» سقط من (م) و(ي) و(ع)، و«كلاهما» سقط من (ف) و(ك).

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٥). وقد لخص الزمخشري كعادته ما جاء هنا من قراءات بقوله: وقرئ (مطَّلعون) (فاطَّلَعَ) و(فأَطَّلِعَ) بالتشديد على لفظ الماضي والمضارع المنصوب، و(مُطْلِعون) (فأَطْلَعَ) و(فأَطْلُعَ) بالتخفيف، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب.

وقرئ: (مُطْلِعونِ) بكسر النون والتَّخفيف[١]، على إرادة: مُطْلعونَ إيَّايَ، فوضع المتَّصل موضع المنفصل، كقوله:

هــم الفاعلــونَ الخيــرَ والآمرونَــهُ[٢]

وقيل: شبَّه اسمَ الفاعل في ذلك بالمضارع لِمَا بينهما مِن التآخي، كأنَّه قال: تُطلعونِ.

وهو ضعيفٌ لا يقع إلا في الشِّعر.

وعلى قراءة المضارع معناه: هل أنتم مطَّلِعون إلى القرين فأَطَّلِعَ أيضاً[٣].

فإنْ[٤] جعلتَ الإطلاع مِن أَطْلعه غيرُه، فالمعنى أنَّه شرَط في إطلاعه إطلاعهم لرعاية أدب المجالسة، وهو أنْ لا يستبدَّ بشيء دون جلسائه، فإذا قبلوه فكأنَّهم مُطْلعوه.

وقيل: الخطاب على هذا للملائكة؛ أي: أطلعوني على قريني أيُّها الملائكة، فأُطلعَ أصحابي من أهل الجنَّة عليه.

﴿فَرَءَاهُ﴾؛ أي: قرينَه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: في وسطها.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥).

(٢) صدر بيت ذكره سيبويه في «الكتاب» (١/ ١٨٨»، والمبرد في «الكامل»: (١/ ٩٧)، وصاحب «الخزانة»: (٢/ ٤٥) الشاهد: (٩٥)، وذكروا أنه مصنوع. وعجزه:

إذَا مَا خَشُـوا مِنْ مُحْدَثِ الأمرِ مُعظَمَا

(٣) هكذا جاء في نسخة خطية مضبوطة من «الكشاف» بالتشديد، لكن معنى المشدد والمخفف واحد كما بيَّن الزمخشري عقب ما تقدم من قراءات التخفيف والتشديد وقبل هذه العبارة حيث قال: (يقال: طلع علينا فلان، واطَّلع، وأَطْلَع، بمعنى واحد).

(٤) في (م) و(ع): «وإن».

(٥٦) ـ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾: لتهلكني[1] بالإغواء. وقرئ: (لَتُغْوِيْنِ)[2].

(إنْ) مخفَّفة من الثَّقيلة، واللَّام هي الفارقة، كقوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

* * *

(٥٧) ـ ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾.

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ بالعصمة والهداية ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ في العذاب معك.

* * *

(٥٨) ـ ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾.

﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ الهمزة للتَّقرير والتَّوبيخ، دخلت على الفاء العاطفة ما بعدها على معطوفٍ محذوفٍ، تقديرُه: أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميِّتين؛ أي: بمن شأنُه الموت[3].

وقرئ: (بِمائِتِينَ)[4].

* * *

(١) في (م): «لتهلكن».

(٢) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥).

(٣) «بمن شأنه الموت» سقط من (ك)، و«بمن شأنه» سقط من (ف)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٥/ ١١)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) بلا نسبة في «الكشاف» (٤/ ٤٥)، ونسبها في «البحر المحيط» (١٨/ ١٧٩) إلى زيد بن علي.

(٥٩) ـ ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي في الدُّنيا، وهي متناولةٌ لِمَا في القبر بعد الإحياء للسُّؤال، ونصبها على المصدر من اسم الفاعل، وقيل: على الاستثناء المنقطع.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما وُعِدْنا.

والمعنى: أنَّ هذه حال المؤمنين وصفتهم فيما وعدَ الله تعالى لهم، بخلافِ حال الكفَّار فإنَّهم فيما يتمنَّون فيه الموت كلَّ ساعةٍ، وهذا تمام[1] كلامه لقرينه تقريعاً له.

ثم يقول معاوداً إلى مكالمة جلسائه بمَسْمَعٍ[2] من قرينه، تحدُّثاً بنعمة الله، واغتباطاً لحاله وحال رفقائه، وتبجُّحاً بها، وزيادةً في تقريع قرينه:

(٦٠) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: الذي نحنُ فيه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقيل: هو مِن قول الله تعالى، تقريراً لقوله، وتصديقاً له، وإشارةً إلى ما هم فيه من النِّعمة والخلود والأمن من العذاب.

وقرئ: (لهو الرِّزقُ العظيمُ)[3]؛ أي: ما رزقوه[4] من السَّعادة.

* * *

---

(١) في (م): «وهو إتمام»، وفي (ع) و(ي): «وهذا إتمام».

(٢) في (م): «بمستمع».

(٣) بلا نسبة في «الكشاف» (٤/ ٤٥).

(٤) في (ف) و(ك): «رزقوا».

(٦١) ـ ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾.

﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾ أي: لنيلِ مثل هذا إنْ عملوا عملاً ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ لا للحظوظِ الدُّنيويَّة المشوبة بالآلام السَّريعة الانصرام، وهذا معنى تقديم الغاية، وإيراد فاء السَّببية.

مِن عادة الله تعالى أن يَشفع الوعد بالوعيد، فلمَّا فرغ من بيان الرزق المعلوم ووصفِ أهل الجنَّة في تحادثهم وانسياقِ كلامهم إلى قصَّة المؤمن وقرينه، شرعَ في رزق الكافر ووصف أهل النَّار فقال[1]:

* * *

(٦٢) ـ ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

﴿أَذَٰلِكَ﴾؛ أي: أذلك الرِّزق المعلوم الموصوف ﴿خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ نصب على الحال.

والنُّزُل: الرِّزقُ الذي يُعَدُّ للنَّازلِ تكرمةً له، ويجوز حمله على المعنى الحاصل على أنَّه نصب على التَّمييز.

﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾: شجرةٌ صغيرة الورق مُنْتِنَةٌ مُرَّة حرِّيفة تَنبت بتِهامة، سمِّيت به الشَّجرة الموصوفة.

وفيه أنَّ الرِّزقَ المعلوم وما ذكر معه من النَّعيم لأهل الجنَّة بمنزلة ما يُقام للنَّازل، وما وراءه من اللَّذات بعد إقامتهم لا يدخل تحت الوصف، وكذلك شجرة الزَّقُّوم وما ذُكِرَ معه.

* * *

---

(١) «فقال» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٦٣) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾: محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاءً وامتحاناً لهم في الدُّنيا، حيث قالوا لَمَّا سمعوا أنَّها في النَّار: كيفَ يكون ذلك في النَّار، والنَّار[١] تحرق الشَّجر؟! ولم يعلموا أنَّ مَن قَدر على خلقِ حيوانٍ يعيشُ فيها ويلتذُّ[٢] بها كالسَّمندر[٣]، فهو قادر على خلق شجرٍ فيها وحفظه من إحراقها.

***

(٦٤) ـ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ وقرئ: (نابتة)[٤] مكان ﴿تَخْرُجُ﴾.

قيل: منبتها في قعر جهنَّم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

***

(٦٥) ـ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

﴿طَلْعُهَا﴾ الطَّلعُ: ما يطلع أوَّلاً من النَّخلة عند إثمارها، وهو كمام ثمرها.

﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ استُعيرَ الطَّلع من حمل النَّخلة لحمل شجرة الزَّقُّوم، وشُبِّهَ برؤوسِ الشَّياطينِ دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر؛ لأنَّ استقباح الشَّيطان وكراهة منظره أمرٌ راسخٌ في طباع النَّاس، وهذا تشبيهٌ تخييليٌّ.

---

(١) في (ك): «وهي».

(٢) في (م) و(ي) و(ع): «ويتلذذ».

(٣) انظر ما تقدم فيه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

(٤) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٧).

وقيل: الشَّيطانُ: حيَّةٌ عَرْفاء قبيحة المنظر هائلة جدًّا.

***

(٦٦) ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾: من الشَّجرة، أو[1] من طلعها.

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ إمَّا لغلبة الجوع الشَّديد واستيلائه عليهم، وإمَّا لأنَّهم مقسورون على أكلها تعذيباً.

***

(٦٧) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾: ثمَّ إذا شبعوا وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم وأحرق الزَّقُّوم بطونهم سُقوا شراباً من غسَّاقٍ أو صديد، شَوْبُه ـ أي: مزاجه ـ من حميم يشوي وجوههم ويقطِّع أمعاءهم.

وقرئ: (لَشُوباً) بالضَّم[2]، وهو اسمٌ لِمَا يُشاب به، ويجوز أن يكون مستعاراً لبُعد ما في شرابهم من مزيد البشاعة والكراهة من طعامهم.

***

(٦٨) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾؛ أي: لهم مقارٌّ ومنازلُ معيَّنة في دَرَكات الجحيم،

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «أي».

(٢) نسبت لشيبان النحوي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩).

إذا جاعوا جاؤوا إلى الزَّقُّوم(١)، فإذا عطشوا جاؤوا إلى الحميم(٢)، ثمَّ يرجعون إلى مقارِّهم ومنازلهم مِن دركات الجحيم، على ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤](٣).

وقرئ: (ثمَّ إنَّ منقلبَهم)(٤)، (ثم إنَّ مصيرهم)، (ثمَّ إنَّ منفذهم)(٥) لإلى الجحيم(٦).

* * *

(٦٩) - ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾؛ أي: صادفوا.

﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم الوقوع في تلك الشَّدائد كلِّها؛ يعني أنَّ ذلك بسبب تقليدهم آباءهم الضَّالِّين.

* * *

(٧٠) - ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ الإهراعُ: الإسراعُ الشَّديد كأنَّما يحثُّ صاحبه حثًّا.

---

(١) في (ك): «الحميم».

(٢) في (ف): «الجحيم».

(٣) «على ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٤) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٥٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٧).

(٥) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٧).

(٦) بعدها في (م) و(ي) و(ع) زيادة: «يطوفون بينها وبين حميم آن على ما أخبر الله تعالى قوله».

وقيل: إسراعٌ فيه تشبيه[١] بالرّعدة، وفيه إشعارٌ بأنَّهم بادروا إلى ذلك من غير توقُّف على تأمُّل ونظرٍ.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ قومِك قريش ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالتَّقليد وترك النَّظر.

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾: أنبياءَ عليهم السلام حذَّروهم العواقب، وإنَّما قال: ﴿فِيهِم﴾ دون (إليهم)؛ دلالةً على[٢] إمعانهم في الإنذار بقرارِهم فيما بينهم.

* * *

(٧٣) ـ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾: الذين أُنذِروا فكُذِّبوا فأهلكُوا جميعاً.

* * *

(٧٤) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: الذين آمنوا منهم، فأخلصوا دينهم لله تعالى؛ إذ أخلصهم الله تعالى لدينه على اختلاف القراءتَيْن[٣].

---

(١) في (م): «شبيه».

(٢) في (ك): «على أن».

(٣) قرأ الكوفيون ونافع بفتح اللاَّم والباقون بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨).

والخطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ، والمرادُ قومُه؛ لأنَّهم رأوا آثارهم وسمعوا أخبارهم.

ثمَّ شرع في تفصيل المنذِرين والمنذَرين فقال:

(٧٥) ـ ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ حينَ أيس مِن قومِه.

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ اللَّام جواب قسمٍ محذوفٍ، والمخصوصُ بالمدحَ محذوفٌ؛ أي: فوالله لنعم المجيبون نحن.

والجمعُ في ﴿نَادَىٰنَا﴾ و﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ دليلُ العظمة والكبرياء وإظهارهما؛ أي: ولقد دعانا فبحقِّنا وعظمتنا إنا أجبناه أحسنَ الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون.

* * *

(٧٦) ـ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: مِن الغمِّ الذي كان فيه مِن أذى قومِه؛ لأنَّه[1] بذلك دعا ربَّه فأجابه.

والكرب: الحزنُ الثَّقيلُ على القلبِ.

* * *

(٧٧) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ هم الذين بَقُوا وحدَهم دونَ غيرهم، ولا دلالة فيه على عدم بقاء ذريَّةِ غيره حتى يخالف ظاهرَ قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

---

(١) في (م): «لأن».

[الإسراء: ٣]؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة تتناول أولاد البنات، دلَّ عليه عَدُّ عيسى عليه السلام مِن ذريَّة نوح عليه السلام، على ما مرَّ في سورة الأنعام.

* * *

(٧٨) ـ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ من الأمم كلِّهم هذه الكلمة وهي:

(٧٩) ـ ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ على الحكايةِ، كقولك: (قرأْتُ: الحمدُ لله)؛ أي: يسلِّمون عليه تسليماً، ويدعون له بثبوتِ هذه التَّحيَّة في العالَمِيْنِ مِن الملائكة والثَّقلَين جميعاً، كأنَّه قيلَ: سَنَّ[1] اللهُ التَّسليمَ على نوحٍ وأدامَه في الكلِّ عن آخرِهم.

* * *

(٨٠) ـ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ علَّلَ مجازاتَه بتلكَ التَّكرمة[2] السَّنيَّة وعظَّمَها بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الجزاء العظيم، وهو تبقيةُ ذكرِه، وتسليمُ العالَمِين عليه أبداً بإحسانِه.

ثمَّ علَّلَ إحسانه بإيمانه، وأضافه إلى ذاته تعالى في زمرة[3] خواصِّه بقوله:

(٨١) ـ ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «ثبت».

(٢) في (ع) و(ي): «بتلك الكرامة»، وفي (م): «بتكرمة».

(٣) في (ع) و(م) و(ي): «زبدة».

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لاختصاصه به، كلُّ ذلك لجلالةِ قدر الإيمان وعلوِّ شأنه، وأنَّه الغايةُ القُصوى مِن صفات المدح والتَّعظيم؛ إذ جعلَه موجباً لكرامته واختصاصه مع كونه نبيًّا مختاراً؛ ترغيباً للعباد في الإيمان والازدياد فيه إلى الإيقان.

* * *

(٨٢) ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ثم أخبرَ تعالى أنَّه أغرقَ مَن لم يؤمنْ مِن قومِه.

* * *

(٨٣) ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممَّنْ شايعَ نوحاً عليه السلام في التَّوحيد وأصول الدِّين.

﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا يقدحُ في ذلك اختلاف الشرائع فإنَّها تختلفُ بحسب اختلاف الأمم، وكانَ بينَهما ألفان وستُّ مئة وأربعون سنة، وما كان بينهما من الأنبياء إلَّا هود وصالح عليهما السلام.

* * *

(٨٤) ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ منصوب بتقدير (اذكر)، لا بما في الشِّيعة مِن معنى المشايعة؛ لأنَّ فيه الفصلَ بين العامل والمعمول بأجنبيٍّ، وهو قوله: ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾، وأيضاً لام التَّأكيد تمنع أن يعملَ ما قبلَها فيما بعدَها، لو قلْتَ: إنَّ ضارباً لقادمٌ علينا زيداً، لم يجزْ.

﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِن جميعِ آفاتِ القلبِ كالشِّرك والشَّكِّ والغلِّ والغشِّ وغير ذلك، استعارَ المجيءَ به[1] للإخلاص والإعراضِ عمَّا سوى الحقِّ بالتَّوجُّه إليه.

* * *

(٨٥) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ بدل من ﴿إِذْ جَآءَ﴾: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤالُ توبيخٍ.

* * *

(٨٦) ـ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (إفكاً): مفعولٌ له؛ أي: أتريدون آلهة إفكاً، قَدَّمَ المفعول ـ وهو ﴿ءَالِهَةً﴾ ـ للعناية؛ لأنَّ الإنكار متوجِّه إليه، ثمَّ قدَّم المفعول له عليه؛ لأنَّ الأهم عندَه أن يكافحهم[2] بأنهم ليسوا على غرضٍ صحيحٍ، ويقرِّرَ عليهم أنَّهم على الباطل، ومبنَى أمرهم على الإفك.

أو مفعول به، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدل منه أو تفسيرٌ وبيان للمبالغة، جعِلَتْ أنفسُهم إفكاً، أو أريد[3] عبادتُهم على حذف المضاف؛ لدلالة ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ عليه.

أو حال بمعنى: أتريدون آلهةً مِن دون اللهِ آفكين.

والإفكُ: أشنعُ الكذبِ وأفظعُه، وأصلُه: قلبُ الشَّيء عن جهتِه[4] التي هي له.

* * *

---

(١) «به» من (م) و(ي) و(ع).

(٢) «يكافحهم» من (ي) و(ع)، وفي (م): «يكافئهم».

(٣) في (ف) و(ك): «وأريد»، والمثبت من باقي النسخ وهو الصواب.

(٤) في (م): «الجهة».

(٨٧) ـ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: بمَن هو الحقيقُ بالعبادة لكونه ربَّ العالمين، حتى تركتم عبادته إلى عبادةِ غيره، وهو كالحجَّة على ما قبلَه[1]، ومعنى إنكار الظَّنِّ: أنَّه لا يُقدَّرُ في وهمٍ ولا ظنٍّ ما يصدُّ عن عبادته إلى عبادةِ غيره، فضلاً عن القَطْعِ به.

أو: فما ظنُّكم به أنَّه أيُّ شيء هو حتى جعلتم الأصنام له أنداداً؟!

أو: فما ظنُّكم به أنَّه يَفعل بكم؛ أي: هل تظنُّون أنَّه كيف يعاقبكم على عبادة غيره؟!

* * *

(٨٨) ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ في أوصافها و[2]أوضاعها واتصالها، أو في كتابها، أو في علمها، يوهمهم الاستدلال على حاله، وكانوا[3] منجِّمين.

* * *

(٨٩) ـ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إنما قال ذلك لأنَّهم أرادوا أن يصحبهم إلى عيدهم، وكان أغلب أسقامهم الطَّاعون، فأوهمهم السَّقم فهربوا منه، على ما دل عليه قوله:

(١) في (ي): «فعله».

(٢) «أوصافها و» سقط من (م) و(ي) و(ع).

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «فكانوا».

﴿ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴾ [الصافات: ٩٠]، فأعرضوا عنه مولِّين الأدبارَ مخافةَ العدوى؛ لأنه مرض مُعْدٍ ففعل[١] بأصنامهم ما فعل.

وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ من معاريض[٢] الكلام وليس بكذب[٣]؛ [أي][٤]: إني سقيم القلب لكفركم، أو: مشارفٌ للسقم؛ لأن مَن كان بصدد الموت كان مستعدًّا[٥] للسقم، ولا يخلو صحيح من ذلك، فلم يكن كاذباً فيما أظهر من الكلام، فلم يلحقه به شيء من الملام؛ إذ كان في نفسه قصد كسر الأصنام، فاحتال لإظهار الحق وإبطال الباطل، فكان عملاً مبروراً وسعياً مشكوراً.

* * *

(٩١) ـ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

﴿ فَرَاغَ ﴾ فذهب في خُفيةٍ[٦]، من روغة الثعلب وأصله: الميل بحيلة.

﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ بناء على زعمهم؛ أي: إلى أصنامهم التي يزعمونها آلهة؛ كقوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ [القصص: ٧٤].

﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ أي: الطعامَ الذي عندكم.

* * *

---

(١) في (ف) و(ك): «بعدما فعل».

(٢) في (م): «معارض».

(٣) في (م): «بمكذب».

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) في (ع) و(م) و(ي): «مستعيراً».

(٦) في (ع): «خفته»، وفي (ي): «خيفة»، وفي (م): «حفية» وفوقها حرف (خ).

(٩٢) ـ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ بجوابي، استهزاءٌ وتهكُّم بها وبعبَدتها، وإيماءٌ إلى انحطاطها عنهم.

***

(٩٣) ـ ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأقبل عليهم مستخفياً ﴿ ضَرْبًا ﴾ نصب على الحال بمعنى: ضارباً، أو على المصدر من فعلٍ مقدَّر هو حالٌ؛ أي: فراغ عليهم يضربهم ضرباً[١]، أو من (راغ) لأنه في معنى: ضرب، كأنه قيل: فضربهم مُقبلاً عليهم ضربا.

وتقييده ﴿ بِالْيَمِينِ ﴾ للدلالة على قوته، فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل.

وقيل: معناه: بسبب الحَلِف، وهو قوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾.

***

(٩٤) ـ ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ أي: إلى إبراهيم عليه السلام.

﴿ يَزِفُّونَ ﴾: يسرعون، من زفيف النعام.

وقرئ: ﴿ يُزِفُّون ﴾[٢] من أَزَفَّ: إذا دخل في الزَّفيف، أو من أَزَفَّه: إذا حمله على الزَّفيف؛ أي: يُزِفُّ بعضُهم بعضاً.

و: (يُزَفُّون) على البناء للمفعول؛ أي: يُحمَلون على الزَّفيف.

---

(١) في (م): «بضربهم ضرباً»، وسقطت «ضربا» من (ف) و(ك).

(٢) قراءة حمزة. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦).

و: (يَزِفُون) من وَزَفَ يَزِفُ: إذا أَسْرعَ.

و: (يَزْفون) من زَفَاه: إذا حَدَاه؛ كأن بعضَهم يَزْفُون بعضاً لتَسارُعهم إليه[١].

* * *

(٩٥) ـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام بعد محاورات كانت بينهم ذكرها في سورة الأنبياء.

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ نحتُ الخشبة: بَرْيُها، يقول: أتعبدون أصناماً تعملونها أنتم.

* * *

(٩٦) ـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾: وخلق ما تعملونه من الأصنام، فإن جواهرها بخلقه، وأشكالُها وإن كانت بنحتهم ـ ولذلك نسب إليهم عملها ـ فإنها بإقداره تعالى إياهم عليها، وخَلقِه[٢] ما يتوقف عليه أعمالهم من الآلات والجوارح والدواعي.

* * *

(٩٧) ـ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾: في النار الشديدة الوُقود، من الجَحْمة وهي شدةُ التأجُّج.

---

(١) جميع هذه القراءات مع توجيهها منقول من «الكشاف» (٤/ ٥٠).

(٢) في (ف) و(ك): «وخلق».

(٩٨) ـ ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ صنعوا لإهلاكه حظيرةً مملوءة بالنار ومَنْجَنيقاً لرميه إليها من بعيدٍ؛ لأن شدة حَرِّها كانت مانعةً عن الحضور عندها، فلذلك عبّر عنه بالكيد المشتمِل على نوع من الحيلة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ لـمَّا غلبهم بالحجة أرادوا أن يهلكوه كيلَا يَظهر للعامة عجزُهم، فأبطل الله تعالى كيدهم وجعلهم الأذلِّينَ الأسفلين، وصار كيدهم حجةً أخرى له عليه السلام، ومعجزةً أخرى[1] بالتصديق[2] بأنه من عند الله تعالى.

والمراد من المعجزة في أمثال هذا المقام: الأمر الخارق للعادة مطلقاً، لا مصطلَحُ أهل الكلام.

***

(٩٩) ـ ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾: مهاجرٌ[3] إلى حيث يأمرني ربي وهو الشام، أو حيث أتجرد فيه للعبادة له تعالى.

﴿سَيَهْدِينِ﴾: سيرشدُني إلى ما فيه صلاحي واستقامةُ أمر ديني، وإنما بتَّ القولَ

---

(١) «له عليه السلام ومعجزة أخرى»، سقطت من (ف) و(ك). ولعل الصواب والأنسب: (ومعجزة أَحرى) بالحاء.

(٢) في (ع): «للتصديق».

(٣) في (ف) و(ك): «مهاجرا».

لأن الله تعالى وعده الهدايةَ، فبنَى الأمر على وعده لقوةِ يقينه، أو بناءً[١] على عادة الله تعالى معه[٢] في هدايته وإرشاده؛ لقوة توكُّله وتفويضِه الأمر إليه تعالى، ولم يبنه على الرجاء كما بنى موسى حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ لأنه كان في أمر الدنيا لا في أمر الدِّين، فلا دلالة فيه على قصور موسى عليه السلام في ذلك الباب، والله أعلم بالصواب.

***

(١٠٠) ـ ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بعضَ الصالحين أَستأنِسُ به في الغُربة، وتَنفرجُ به عني الكربة، أراد به الولدَ؛ لأن الهبة غالبةٌ فيه وإن جاءت في الأخ أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٣]، على أن الموهوب فيه نبوَّةُ هارون لا نفسُه عليه السلام، وأما البشارة بالغلام فلا تدل على إرادة الولد بخصوصه.

***

(١٠١) ـ ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾.

﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ الفاء لترتُّبه على ﴿هَبۡ لِي﴾ كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ولا كلمةَ أقلَّ لفظاً وأكثر معنًى من هذه؛ لاحتوائها على البشارة، وأنه ذَكَر، وأنه يبلغ[٣] أَوَانَ الحُلْم[٤] ....

---

(١) في (م): «بناه».

(٢) في (ي): «منه»، وليست في (ف) و(ك).

(٣) في (م): «بليغ».

(٤) قوله: «يبلغ أوان الحلم» بضمّ فسكون؛ أي: البلوغ بالسن المعروف، فإنه لازم لوصفه بالحليم؛ لأنه =

ـ لا لأن غيرَ البالغ لا يوصف بالحلم، بل لأن الغلام مَن طرَّ شاربُه ـ وبأنه يكون حليماً.

وقيل: ما نَعَت الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بأقلَّ مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده، وما نعت به[1] إلا إبراهيم وابنه عليهما السلام.

***

(١٠٢) ـ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ ﴿مَعَهُ﴾ متعلق بـ ﴿بَلَغَ﴾؛ أي: بلغ السعي مقارِناً له، وذلك لا يقتضي بلوغَهما معاً حدَّ السعي كما لم يقتضِ[2] قولُ بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل: ٤٤] أن يكون إسلامُهما معاً، وفي الحديث: «كنَّا نَحيضُ مع رسول الله عليه السلام» تمامُه في «صحيح البخاريِّ»[3].

ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ٱلسَّعْىَ﴾ فإن معمول المصدر إذا كان ظرفاً أو شبهَه يجوز تقديمُه عليه؛ لأن الظرف مما يكفيه رائحةُ من الفعل، فلا حاجة في العمل فيه إلى تأويل المصدر مع الفعل، على أنه ليس كلُّ مُؤوَّلٍ بشيء حكمُه حكمُ ما أُوِّل به.

= لازم لذلك السن بحسب العادة، إذ قلما يوجد في الصبيان سعة صدر وحسن صبر وإغضاء في كل أمر. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ٢٧٩).

(١) في (م): «وما نعت الله».

(٢) في (م) زيادة: «بلقيس أي».

(٣) رواه البخاري (٣٢١) من حديث عائشة رضي الله عنها. وجاء في هامش (ع) و(م) و(ي): «وفي حديث آخر: قتل معك في أحد، تمامه مذكور في بنات الصلب في شرح الفرائض».

والمراد باختصاص الأب بالسعي معه: بيانُ صغر سنِّه؛ أي: لم يَبْلُغ أن يسعى في الحوائج إلا مع أبيه لا مع غيره؛ لأن أباه أرفقُ الناس به وأعطفُهم عليه، لا يكلِّفه إلا ما سهل عليه، وغيرُه ربما عنَّف به في الاستسعاء فلا يحتمِله؛ لأنه لم تَستحكِم قوتُه، ولم يَصلُب عُودُه.

وفائدةُ ذلك البيانِ: إظهارُ أنه مع حداثة سنِّه وغضاضةِ غصنه[1]، بلغ مبلغاً من رصانة الحِلم[2] وكبر النفس[3] وفسحة الصدر ما سهَّل عليه احتمالَ تلك البليَّة العظيمة، ويسَّر له الإجابةَ بذلك الجواب الحكيم.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾؛ أي: بأمرٍ من الله تعالى، ويدلُّ عليه قوله: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ وذلك أن رؤيا الأنبياء وحيٌ كما في اليقظة، وإنما لم يقل: رأيت؛ لأنه رأى مرةً بعد أخرى، والأمر به إنما كان في المنام دون اليقظة؛ لتكون مبادرتُه عليه السلام إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص.

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ من الرأي، وإنما قال على وجه المشاورة ـ مع أنه حتمٌ من الله تعالى عليه ـ ليَعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى، فيثبِّتَ قدمه ويصبِّره إن جَزِع، ويأمَنَ عليه الزَّلَلَ إنْ صَبر، وليوطِّنَ نفسَه عليه، ويتلقى البلاء مستأنساً به، ويكتسبَ المثوبةَ بالانقياد لأمر الله تعالى.

وقرئ: ﴿ماذا تُري﴾ من الإراءة[4]؛ أي: ماذا تُبصِر من رأيك وتبديه.

(١) في (م): «عصبه»، وسقطت من (ع) و(ي).

(٢) في (م): «الحكم».

(٣) في (ف) و(ك): «السن».

(٤) قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٦ ـ ١٨٧).

و: (ماذا تُرَى) على البناء للمفعول[١]؛ أي: ماذا تُريكَ نفسُك من الرأي.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾؛ أي: ما تُؤمَرُه، حذفه وهو منصوب، وأصله: ما تأمر به، فحذف الجار كما حذف من قوله:

أمرتُـكَ الخيـرَ فافعَـلْ مـا أُمِـرْتَ بـه[٢]

واتَّصل الضمير منصوباً فجاز حذفُه.

أو: أَمْرَكَ، على إضافة المصدر إلى المفعول وتسميةِ المأمور به أمراً.

وقرئ: (ما تؤمر به) على الأصل[٣].

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، أو على ما قضى الله به.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ يقال: سلَّمَ لأمرِ الله وأَسلَمَ واستَسْلَمَ بمعنًى واحدٍ: إذا انقاد له وخضع، وقد قرئ بهنَّ جميعاً[٤]، وأصلها من قولك: سَلِمَ هذا لفلان: إذا خَلَص له، ومعناه: سَلِمَ من أن ينازَعَ فيه، وقولهم[٥]: سَلَّم لأمر الله وأَسلَمَ له منقولان منه،

---

(١) نسبت للأعمش والضحاك. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٢).

(٢) صدر بيت في «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٣١)، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة. وعجزه:

فقـد تركتُـكَ ذا مـالٍ وذا نَشَـبِ

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤).

(٤) انظر الثلاثة في «الكشاف» (٤/ ٥٥).

(٥) في (م): «فقولهم».

وحقيقة معناهما: أَخْلَص نفسَه لله وجعلها سالمةً له خالصةً، وكذلك معنى استسلم: استَخْلَص نفسَه لله.

وعن قتادة في ﴿أَسْلَمَا﴾ أسلم هذا ابنَه وهذا نفسَه[(١)].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: صرعه على شقِّه فوقع[(٢)] أحدُ جبينيه[(٣)] على الأرض تواضعاً على مباشرة الأمر بصبرٍ وجَلَد، ليُرْضِيا الرحمن ويُخزيا الشيطان.

وروي أن ذلك المكان عند الصخرة التي بمنًى.

وقيل: في الموضع المشرِف على مسجد منًى.

وقيل: في المنحَر الذي يُنحر فيه اليوم.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ في إيثار النداء على القول إشعارٌ بتمثيل حاله بحالِ مَن يحتاج في خطابه إلى رفع الصوت وإن كان الخطاب عن قريبٍ؛ زجراً له[(٤)] عما أقبل عليه وتوغَّل فيه.

* * *

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٥٥).

(٢) في (م): «فوضع»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٤/ ٥٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥) و«تفسير أبي السعود» (٧/ ٢٠١)، و«روح المعاني» (٢٣/ ١٣٩).

(٣) في (ف) و(ك): «شقيه»، وفي باقي النسخ: «جنبيه»، والمثبت من «الكشاف»، وهو الصواب؛ ويؤيده عبارة البيضاوي وأبي السعود والآلوسي: فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة.

(٤) «له» ليست في (ف) و(ك).

(١٠٥) ـ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ بصدقِ العزيمة والإتيانِ بما في وسعه من المقدِّمات؛ إذ[١] روي أنه أَمَرَّ السكين بقوَّته على حلقه فلم تقطَع.

وجواب (لـمَّا) محذوفٌ تقديره: كان ما كان مما تَنطِق به الحال ولا تسعُه العبارةُ[٢] والمقال، من استبشارهما، واغتباطهما، وحمدِهما لله[٣] تعالى، وشكرِهما على ما أَنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين النفس عليه من الثواب والرضوان والكرامة عند الله، والفوزِ بالدِّين[٤] الذي ليس وراءه مطلوب.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لتحويل ما خوَّلهما من الفرَج بعد الشدةِ والظَّفَرِ بالبُغية بعد اليأس.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾: الاختبار البيِّن الذي يتميز[٥] فيه المخلصون عن غيرهم، أو: المحنةُ البيِّنة الصعوبةِ التي لا محنةَ أصعب منها، وإنما قال:

(١٠٧) ـ ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) في (م): «و».

(٢) في (ع) و(م) و(ي): «ولا يحيط به الوصف».

(٣) في (م): «الله».

(٤) «بالدين» ليست في (ف) و(ك).

(٥) في (ف) و(ك): «يتبين».

﴿ وَفَدَيْنَهُ ﴾ والفادي بالحقيقة هو إبراهيمُ عليه السلام، واللهُ تعالى هو المفتدَى منه؛ لأنه تعالى هو الذي وَهب له الكبش، فكان هو الممكِّنَ من الفداء بِهِبَتِهِ، فأَسند إلى نفسه إسناداً إلى المسبِّب مجازاً.

﴿بِذِبْحٍ﴾ الذِّبح: اسم ما يذبح.

﴿عَظِيمٍ﴾: عظيم الجثة سمينٍ، وهي السُّنَّة[1] في الأضاحي.

وقيل: عظيمِ القَدْرِ؛ لأنه كان فداءً لنبيٍّ[2] من أنبياء الله، وهو إسماعيلُ في قول أبي بكرٍ وابن عباسٍ وابن عمر رضي الله عنهم وجماعةٍ من التابعين، وإسحاقُ عليه السلام فيما رُوي عن عليٍّ وابن مسعود والعباس رضي الله عنه وجماعةٍ من التابعين.

والأول أظهرُ:

لأنه الذي وُهب له إثر الهجرة.

ولأنَّ البشارة بإسحاق معطوفٌ على البشارة بهذا الغلام.

ولقوله عليه السلام: «أنا ابنُ الذبيحين»[3] فأحدُهما جدُّه إسماعيل عليه

---

(١) في (ع) و(م) و(ي): «سنة».

(٢) في (ع) و(م) و(ي): «نبي».

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٧) عن الصُّنَابحي قال: كنا عند معاوية ابن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدّ عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين؛ فضحك عليه الصلاة والسلام؛ فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أُمِر بحفر زمزم نذر لله لئن سَهُل عليه أمرها...) الخبر. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب جدا.

السلام، والآخَرُ أبوه عبدُ الله، فإن عبد المطلب نذر أن يَذبح ولداً إن سهَّل الله تعالى حفرَ زمزمَ أو بلغ بنوه عشراً، فلمَّا سُهِّل خرج السهم على عبد الله، ففداه من الإبل.

ولأنَّ ذلك كان بمكة.

ولأنَّ قرني الكبش كانا معلَّقين بالكعبة في يد أسباطِ إسماعيل عليه السلام حتى احترق البيت.

ولأنَّ البشارة بإسحاق عليه السلام كانت مقرونةً بالإخبار عن ولادة يعقوب عليه السلام منه، فلا يناسبها الأمرُ بذبحه مراهقاً.

وأمَّا ما رُوي عنه عليه السلام[1] أنه إسحاقُ عليه السلام فأخبارٌ لم تَثبت صحتُها.

***

(١٠٨ ـ ١٠٩) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناءً حسناً، ولا وقف عليه لأن: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعولُ ﴿تركْنا﴾.

***

(١١٠) ـ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لم يذكر هاهنا ﴿إِنَّا﴾ مع ذكرها في[2] أواخر القصص كلِّها؛ لأنه قد[3] سبق فيها مرة فاكتفى به إيجازاً.

---

(١) «عنه عليه السلام» ليست في (ف) و(ك).

(٢) «في» ليست في (ف) و(ك).

(٣) في (م): «فيما».

(١١١) - ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قد سبق بيانه في هذه السورة.

* * *

(١١٢) - ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالان مقدَّران[1] كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي: بشَّرناه بإسحاق عليه السلام مقدَّراً كونُه نبيّاً مقضيًّا[2] كونه من الصالحين، ولا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ كما قيل، فإن تقدير الحال لا يُوجب وجودَ ذي الحال بل تقدير وجوده.

وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه.

* * *

(١١٣) - ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾: على إبراهيم عليه السلام ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأنْ أخرجنا من نسلهما أنبياء، وأَفَضْنا عليهما بركات الدِّين والدنيا.

وتكرير الجارِّ[3]، وإظهارُ ﴿إِسْحَٰقَ﴾ عليه السلام؛ للإشعار بأنَّ التبريك عليه بالأصالة والاستقلال لا بالتبعية؛ لكونه نبيًّا وأباً لأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، وغيرِهم كأيوبَ وشعيبٍ.

---

(١) في (ف) و(ك): «مقدرتان».

(٢) في (م): «مقتضياً».

(٣) في (ف) و(ك): «الحال».

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله بالإيمان والطاعة.

﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعصية.

﴿مُبِينٌ﴾: ظاهرٌ ظلمُه، وفيه تنبيه على أن النَّسب لا يؤثِّر في الهدى والضلال، وأن الظلم في الأعقاب لا يعود[1] بعيب ولا نقيصةٍ على الأسلاف، وأن المدح والذم إنما يترتبان على كسب المرء، وحُسنِ عمله وقُبحه، وصلاحه وفساده في نفسه، لا على عمل الأصول والفروع.

وأمَّا أنه لا تأثير للعِرْق الطيِّب والخبيث أصلاً حتى يلزمَ أن ينهدم أمر[2] الطبائع والعناصر بالكلية[3]، فينافي ما هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] ومن قوله عليه السلام: «لا يدخلُ الجنةَ ولدُ الزِّنا ولا ولدُه ولا ولدُ ولدِه»[4] بعد ذلك من أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها فلا دلالة فيما ذكر عليه[5].

* * *

(١) في (ف) و(ك): «في أعقابهما لا يعود إليهما».

(٢) «أمر» ليس في (ف) و(ك).

(٣) «بالكلية» ليس في (ف) و(ك).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده أبو إسرائيل الملائي وهو ضعيف، وروي بنحوه من طرق أخرى أعلها جميعا ابن عراق ثم قال: وأيضاً فهو مُخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ولقوله: «ولد الزِّنا ليس عليه من إثْم أبويه شيء»، أخرجه الطَّبراني من حديث عائشة، قال السخاوي: وسنده جيد، والله أعلم. انظر: «تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٢٨).

(٥) في (ف) و(ك): «فيه».

(١١٤) ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا ﴾: أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ بالنُّبوَّة وغيرها مِن المنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

* * *

(١١٥) ـ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا ﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ مِن استعلاءِ[1] فرعونَ وقومِه وظلمِهم، أو من الغرقِ.

* * *

(١١٦) ـ ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾ الضَّمير لهما مع القوم ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون وقومه.

* * *

(١١٧) ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾: البليغ في بيانه، وهو التَّوراة.

* * *

(١١٨) ـ ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: الطَّريق الموصل إلى الحقِّ.

* * *

---

(١) في (ف) و(ك): «استيلاء».

(١١٩) ـ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مرَّ تفسيره في هذه السُّورة.

* * *

(١٢٣) ـ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قيل: إنَّ إلياس كان إدريس، رُفِعَ قبلَ الطُّوفانِ إلى السَّماء ونزلَ بعدَه ببعلبكَّ، ويعضده قراءة ابنِ مسعود: (وإن إدريس) في موضع ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾[1]، وقرأ: (إدراسين)[2].

وقيل: هو إلياس بن ياسين من سبط[3] هارون أخي موسى عليه السلام.

* * *

(١٢٤) ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾: ألا تخافون اللهَ تعالى.

* * *

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨). ووقع في (ف) و(ك) و(ع) و(م): «إدراس»، وقرئ بها أيضا. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٤).

(٣) في (ك): «سبطه»، وفي (ي) و(ع): «بسط».

(١٢٥) ـ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾: أتعبدونه. وهو عَلَمُ صنمٍ كان لهم[١] يعظِّمونه غايةَ التَّعظيم، وأخدموه أربعَ مئةِ سادنٍ، يتلقَّون شرائع الضَّلالات من الشَّيطانِ، ويقولون: إنَّ بعلاً أمر بكذا، ونهى عن كذا.

وكان اسمُ مدينتهم: بَكَّ، وهو من بلاد الشَّام، فنُسِبَتْ إليه ورُكِّبَ اسمُها باسمه، وسُمِّيَتْ: بَعْلَبَكُّ.

وقيل: البَعلُ: الرَّبُّ بلغة اليمن، يُقال: مَن بعلُ هذه الدَّار؟ أي: مَن ربُّها؟ والمعنى: أتعبدون بعض البعول.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ تتركون عبادةَ اللهِ تعالى، لم[٢] يقلْ: وتَدَعون، مع ما فيه من صنعة التَّجنيس، لا لأنَّه مذمومٌ، فإنه إذا كان براءً عن التَّصنُّع[٣] يكون ممدوحاً، واقعاً في كلام الله وكلام الرَّسول عليه السلام، بل لأنَّ في (دع) أمراً زائداً على التَّركِ لا يناسبُ المقامَ، وهو معنى الحفظ، ومنه: الوديعة.

***

(١٢٦) ـ ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

---

(١) «كان لهم» زيادة من (م) و(ي) و(ع).

(٢) في (م): «ولم».

(٣) في (ف) و(م): «الصنع».

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قرئ بالرَّفع على الابتداء، وبالنَّصب على البدل[1]، وكان حمزةُ إذا وصلَ نصبَ وإذا وقفَ رفع[2].

(١٢٧) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: في العذاب، وإنَّما أطلقه اكتفاءً بالقرينة، أو لاختصاص الإحضار المطلق بالشَّرِّ عرفاً.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من واو ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أو من (المحضرين)، ولا فسادَ فيه؛ لأنَّ استثناءهم من القوم المحضرين لعدم تكذيبهم، على ما دلَّ عليه التَّوصيف بـ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، لا من المكذِّبين، فمآل المعنى واحدٌ[3].

* * *

(١٢٩ ـ ١٣٢) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بالنصب، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠)، وعنه الرازي (٢٦/ ١٦٢)، والقرطبي (١٨/ ٨٨)، و«البحر المحيط» (١٨/ ٢٠٧).

(٣) ورد بأن ضمير محضرين للقوم كضمير كذبوا. انظر: «روح المعاني» (٢٣/ ١٦٤).

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[١]: لغة في إلياس، وقرئ: ﴿عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ بالوصل[٢]، على أنَّه جمعٌ يُرادُ به إلياس وقومه، كقولهم: الخُبَيْبيونَ والـمُهَلَّبون.

ولا يجوز حملُه على الجمع إذا قرئ بالقطع؛ إذ لا بُدَّ للجمع مِن التَّعريف بالألف واللَّام.

وأمَّا قراءة: ﴿آل ياسين﴾ فعلى أنَّ ﴿يَاسِينَ﴾ اسم أبي إلياس، أضيف إليه الآل.

***

(١٣٢ ـ ١٣٦) ـ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ سبق بيانُه.

***

(١٣٧) ـ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ في متاجركم إلى الشَّام؛ فإنَّ سدوم في طريقه.

﴿عَلَيْهِم﴾: على منازِلهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: داخلين في الصَّباحِ.

***

---

(١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادة من (م).

(٢) قرأ نافع وابن عامر: ﴿عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ منفصلاً، مثل آل محمد، والباقون بكسر الهمزة وإسكان اللاَّم متَّصلاً. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٨).

(١٣٨) ـ ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾؛ أي: مساءً؛ أي: يتكرَّرُ مرورُهم عليها باللَّيل والنَّهار، وهو الدَّاعي إلى الاعتبار.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: أبعدَ هذه المعاينة ما لكم عقولٌ تعتبرون بها.

***

(١٣٩) ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قرئ: (يونس) عليه السلام بضمِّ النُّون وكسره[١].

(١٤٠) ـ ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾.

﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ الإباقُ: فرارُ العبد إلى حيث لا يهتدي إليه طالبُه[٢].

وكانَ يونسُ عليه السلام هربَ مِن قومِه بغير إذنِ ربِّه إلى حيث طلبوه ولم يجدوه، على ما مرَّ في تفسير سورة يونس، فاستعير الإباق[٣] لهربه باعتبار هذا القيد، لا باعتبار القيد الأوَّل فقط[٤].

﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: المملوءِ.

***

(١) بالضم قراءة الجمهور، ونسبت القراءة بكسر النون للحسن. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٥٠). وهي رواية ابن جماز عن نافع. انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٦).

(٢) في (ف) و(ك): «صاحبه».

(٣) في (م): «الآبق».

(٤) «فقط» زيادة من (م) و(ي) و(ع).

(١٤١) ـ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾.

﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: قارعَ أهلَ الفُلْكِ بإلقاء السِّهام.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: مِن الـمَغْلُوبين، وحقيقتُه: من الـمُزْلَقين؛ أي: عن مقام الظَّفر في الإسهام.

رُويَ أنَّه عليه السلام لَمَّا وُعِدَ بعذاب قومِه خرجَ مِن بينهم هارباً قبل أن يأمره[1] اللهُ تعالى به، فركب في السَّفينة فوقفَتْ، فقالوا: هاهنا آبقٌ، وفيما يزعم البحارون[2] أنَّ السَّفينة إذا كان فيها آبق لم تَجْرِ[3]، فاقترعوا فخرجَتِ القرعةُ على يونس عليه السلام، فقال: أنا الآبق وزجَّ نفسَه.

(١٤٢) ـ ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾: ابتلعَه، ومنه اللُّقمة.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامة، وآتٍ بما يُلام عليه، أو: مُليمُ نفسِه، واللَّومُ: العَتَبُ.

وقرئ بالفتح مِن لِيْمَ[4]، كما جاء مَشِيْبٍ في مَشُوبٍ.

***

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «يأمر».

(٢) في (ف) و(ك): «التجار»، وفي (ي): «التجارون».

(٣) في (ي) و(ع): «تجز».

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ٦١). وشرحه: أنه لما قلبت الواو ياء في المجهول جعل كالأصل فحمل الوصف عليه. انظر: «روح المعاني» (٢٣/ ١٦٩).

(١٤٣) ـ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾: مِن الذَّاكرين الله كثيراً بالتَّسبيح والتَّقديس مدَّةَ عمرِه.

وقيل: في بطن الحوتِ، وهو قولُه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقيل: من المصلِّين.

* * *

(١٤٤) ـ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ عبارةُ اللَّبْثِ دلَّتْ على الحياة، فالمعنى: لكان محبوساً في بطن الحوت إلى يوم القيامة.

ويُفهَم منه أن لا يعمَّ الهلاك عند النَّفخة الأولى الحيواناتِ البحريَّةَ.

وفيه حَثٌّ على إكثار الذِّكر، وتنبيهٌ على أنَّ مَن أقبل إليه تعالى في السَّرَّاء أخذ بيده عند الضَّرَّاء.

واختلفَ في مُدَّةِ لبثه في بطن الحوت، ولا طائلَ تحتَ ذِكْرِه.

* * *

(١٤٥) ـ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأنْ حملنا الحوتَ على لفظِه.

﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾: بالمكان الخالي عمَّا يغطِّيه مِن شجرٍ ونجمٍ[١].

وما روي أنَّ الحوتَ سارَ مع السَّفينة رافعاً رأسَه يتنفَّس فيه يونسُ عليه السلام، ويسبح حتى انتهوا إلى البرِّ، فلفظُه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على ما مرَّ بيانه[٢] في سورة الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾: مُعتلٌّ بما حلَّ به، ورُويَ أنَّ بدَنه عادَ كبدن الصَّبيِّ حين يُولَدُ.

***

(١٤٦) ـ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ أي: فوقَه مُظلَّةً ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ اليقطينُ: ما ينبسطُ على وجه الأرض من الشَّجر ولا يقوم على ساقٍ، كشجرة[٣] الدُّبَّاء والبطيخ والقثَّاء والحنظل، وهو يَفعيلٌ مِن قَطَنَ بالمكان: إذا قام به.

والأكثر على أنَّها كانت الدُّبَّاء، وفائدة الدُّبَّاء: أنَّ الذُّبابَ ينفرُ منها، وهي أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً، ويدلُّ عليه أنَّه قيل لرسول الله ﷺ: إنَّك لتحبُّ القرع؟ قال: «أجل هي شجرة أخي يونس»[٤].

---

(١) «ونجم» زيادة من (م) و(ي) و(ع). والنجم من النبات: ما نجم من غير ساق.

(٢) «بيانه» سقط من (م).

(٣) في (م): «كشجر».

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٦٢). وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٤١): لم نقف عليه مسنداً.

وفي البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١) من حديث أنس رضي الله عنه، وكذا في السنن بألفاظ مختلفة أنه ﷺ كان يحبُّ القرع ويتتبَّع الدُّباء.

(١٤٧) ـ ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.

﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ ﴾ هو إمَّا الإرسال إلى قومٍ أُخر، وإمَّا إرسالٌ ثانٍ إلى قومِه الذين خرج من بينهم، وجُوِّزَ أن يكون المراد الإرسالَ السابق؛ لأنَّ الواو لا تدلُّ على التَّرتيب، ويأباه الفاء في قوله: ﴿فَـَٔامَنُواْ ﴾ لأنَّها تدل على التَّعقيب بلا مهلة.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ باعتبارٍ آخر، وذلك أنَّ المكلَّفين منهم كانوا مئة ألفٍ، وإذا ضُمَّ إليهم مَن بصددِ التَّكليف كانوا أكثر، ومن هاهنا[1] ظهر وجه التَّعبير بصيغة التَّجدُّد دون الثَّبات.

وأما على ما قيل: إن المعنى في مرأى النَّظر؛ أي: إذا نظر إليهم قال: هم مئة ألف أو أكثر؛ فلا يظهرُ وجهُ العدول عن الظَّاهر.

وقرئ بالواو[2].

(١٤٨) ـ ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

﴿فَـَٔامَنُواْ ﴾: فصدَّقوه، أو: فجدَّدوا الإيمان بمحضره.

﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾: إلى أجلٍ مسمًّى، وقرئ: (حتى حينٍ)[3].

* * *

---

(١) في (ف) و(ك): «ومن هنا».

(٢) نسبت لجعفر بن محمد. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٧). ونسبت لأبيّ بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبي المتوكل، وأبي عمران الجوني. انظر: «زاد المسير» (٣/ ٥٥٣).

(٣) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٣).

(١٤٩) ـ ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾.

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ معطوف على ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾ في أول السُّورة وإن تباعدت بينهما المسافة لأمرٍ مّا، أَمَرَ رسولَ الله ﷺ أوَّلاً باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث، وساق[١] الكلام جارًّا لِمَا يلائمه[٢] مِن القَصص موصولاً بعضُه ببعضٍ، ثمَّ أمرَه باستفتائهم عن وجه القسمة الضِّيزى، حيث جعلوا لله تعالى الإناث ولأنفسهم الذُّكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتِهم الشَّديدة لهنَّ، واستنكافهم من[٣] ذكرهنَّ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ [النحل: ٥٨].

ولقد زادوا بذلك على الشِّرك ضلالاتٍ أُخَر: التَّجسيم، وتجويزَ الفناء على الواجب الوجود تعالى شأنه؛ لأن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة، وتفضيلَ أنفسهم عليه تعالى حيث جعلوا أوضع الجنسينِ له وأرفعَهما[٤] لأنفسهم، واستهانتَهم بالنُّورانيِّين المقرَّبين، حيث أنَّثوهم.

ولذا[٥] كرَّر الله تعالى إنكار ذلك في كتابه العزيز مرَّاتٍ، وبيَّن فظاعتها في

---

(١) في (م): «وسياق».

(٢) في (ف) و(م): «جار بما يلائمه»، وفي (ك): «جار لما يلائمه»، وفي (ي): «جاريا بما يلائمه»، وكذا في (ع) لكن سقطت منها: «بما»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩). وعبارة «الكشاف»: (ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض).

(٣) في (م): «عن».

(٤) في (ف) و(ك): «أوضع الجنس له وأرفعه».

(٥) في (م) و(ي) و(ع): «ولهذا».

آيـاتٍ، وجعلـه ممَّـا تكاد السَّـماوات يتفطـرْنَ منه، وتنشـقُّ الأرضُ، وتخـرُّ الجبال هدًّا.

وخـصَّ الإنـكار هنـا بأمرَيـنِ، هما[1] أقـربُ إلـى فهـم العامَّة وأقطـع عندهم بمقتضـى العـادة: التَّقسـيم المذكـور، وتأنيـث الملائكـة، حيـث جعـل المعـادل للاسـتفهام:

(١٥٠) ـ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ وإنَّما خصَّ عِلْم المشاهدة؛ لأنَّ الأنوثة ليست من لوازم ذواتهم حتى يمكنَ للعقل طريق إلى معرفة ذلك، ولم يَنزل به كتاب، فلا طريق إلى علم أمثال ذلك إلَّا بالمشاهدة، مع ما فيه من الاستهزاء بهم والتَّسفيه لرأيهم، حيث يبتُّون به القول كأنَّهم شاهدوا خلقَهم.

والتَّخصيص بتقديم الظَّرف في ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ و﴿وَلَهُمُ﴾، وإيلاؤه حرف الإنكار؛ لزيادة التَّشنيع وتفظيع قولهم.

* * *

(١٥١) ـ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ الإفـكُ: الـكلامُ المصـروف مِـن الحـقِّ إلـى الباطـل، والولـدُ فَعَـلٌ بمعنـى المفعـول، يقـع علـى الواحـد والجمـع، والمذكَّـر والمؤنَّـث.

---

(١) في (ف) و(ك): «منتهاهما» بدل «هما».

بالَغَ في الإنكار بـ (ألا) و(إنَّ) واللَّام وتقديمِ ﴿مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾؛ لظهور استحالته، ووضوح حجَّة التَّوحيد.

* * *

(١٥٣) - ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾.

﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ. والاصطفاءُ: أخذُ صفوةِ الشَّيء.

وقرئ بكسر الهمزة[1]، وجوِّز أن يكون على الإخبار بإضمار القول، متعلِّقاً بقوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: لكاذبون في قولهم: اِصطفى البنات، أو إبدالِهِ من قولهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ على أنَّه مِن كلام الكفرة، وبدون ذلك تلك القراءة ضعيفة جدًّا؛ لكون هذه الجملة مكتنَفةٌ بالإنكار من جانبيها[2]، واقتضاءِ المقام اختصاصَها بزيادة الإنكار؛ لأنَّه بالغَ في إنكار الولادة، فاقتضى الحال أن يقول: خصوصاً الإناث، فمَن جعلها للإثبات أوقعها دخيلةً بين نسيبين[3]، ونَثَرَ[4] نظمَ الكلام.

---

(١) قرأ أبو جعفر بوصل الهمزة على لفظ الخبر، فيبتدئ بهمزة مكسورة. واختلف عن ورش، فروى الأصبهاني عنه كذلك، وهي رواية إسماعيل بن جعفر بن نافع، وروى عنه الأزرق بقطع الهمزة على لفظ الاستفهام، وكذلك قرأ الباقون. انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٠).

(٢) في النسخ: «من جانبها»، والمثبت من «الكشاف» (٤/ ٦٤)، وبيَّن الجانبين بقوله: وذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾.

(٣) يعني: قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كلام الله تعالى على سبيل الإنكار، فلو جعل ﴿اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ إخباريا لكان من كلام الكفار فيختل النظم. انظر: «فتوح الغيب» (١٣/ ٢٠٩).

(٤) في (م): «ويزين»، زسقطت من (ف)، والمثبت من باقي النسخ، وقد استدركت في (ك) على =

والجملةُ الاعتراضية التَّأكيديَّة ـ أعني: وإنهم لكاذبون ـ تزيدها ضعفاً؛ لأَنَّها مقرِّرة لنفي الولد عن أصله، مؤكِّدةٌ لذلك، فإذا وجَّهتها إلى هذه خرجت عن كونها مبيِّنة للإفك، وصارت كأنَّها مجوِّزةٌ للولادة المذكورة، مُطرقةٌ لصدقهم[1] لو قالوا بها، وكذا الالتفاتُ في قوله:

(١٥٤) ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بما لا يرتضيه عقل يأباه[2].

* * *

(١٥٥) ـ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّه منزَّهٌ عن ذلك.

وقرئ: (تَذْكُرون)[3] مِن ذَكَرَ.

والأَولى أن يقال: إنَّ تلك القراءة على حذفِ حرف الاستفهام؛ لوضوح دلالة قرائنه، وشهادة مُعادله في قوله:

(١٥٦) ـ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾: حجَّةٌ نزلَتْ عليكم[4] من السَّماء، أو مِن خبرٍ مِن

= الهامش وعليها علامة التصحيح.

(١) في (م): «بصدقهم».

(٢) «يأباه» سقط من (ك).

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٨).

(٤) «عليكم» سقط من (م).

نبيٍّ بأنَّ الملائكة بنات الله؛ أي: لا يجوِّزه عقلٌ، ولا نزل به نقلٌ، فإنَّ كلَّ شيءٍ مِن ذلك.

***

(١٥٧) ـ ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ ﴾ الذي ينطق بذلك، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

وهذه الآيات واردة على سخطٍ عظيمٍ، واستبعادٍ لأقاويلهم شديدٍ، وما الأساليب التي وردَتْ عليها والتَّراكيبُ التي انتظمَتْ بها إلَّا ناطقة بتسفيه أحلامِهم، وتجهيل نفوسِهم، واستركاكِ عقولهم، مع استهزاءٍ وتهكُّم وتعجيبٍ[١] مِن أن يُخْطِرَ مُخْطِرٌ مثلَ ذلك على باله[٢]، ويحدِّثَ به نفساً، فضلاً أن يجعله معتقَداً، ويتظاهر به مذهباً.

***

(١٥٨) ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ ﴾؛ أي: بينَ اللهِ تعالى ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ يعني: الملائكة عليهم السلام، ذكَرَهم باسم الجنس وضعاً لهم، وتقصيراً بهم أن يبلغوا حد المناسبة التي أثبتوها لهم ـ وإن كانوا في أنفسهم مكرَّمين معظَّمين ـ لاقتضاء المقام التَّحقير.

---

(١) في (ف) و(ك): «وتعجب» وسقطت من (ع) و(ي).

(٢) في (م): «بال».

﴿نَسَبًا﴾ وهو زعمُهم أنَّهم بناتُه تعالى، والمعنى: وجعلوا بما قالوا نسبةً بين الله تعالى وبينهم، وأثبتوا له بذلك جنسيَّةً جامعةً له وللملائكة.

والجِنَّةُ جنسٌ يشمل(١) كلَّ مَن يُجنُّ(٢) ولا يُؤْنَس، لكن مَن صفا ذاتُه وتنوَّر ونسكَ وطهرَ وكان خيراً كان ملَكاً، ومَن(٣) تكدَّر جوهرُه وأظلمَ وخبث ومردَ وكان شرًّا كان شيطاناً.

وقيل: قالوا: إن الله تعالى صاهر الجنَّ.

وقيل: قالوا: إن الله تعالى والشَّيطان أخوان، فعلى هذا لا يتناول اللَّفظُ الملائكة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾؛ أي(٤): الكفرةَ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النَّار، ومُعذَّبون بما يقولون.

وإنَّما نسبَ العلم إلى الذين ادَّعوا لهم تلك النِّسبة وعظَّموهم(٥)، ووضع (محضرون) موضع (كاذبون)؛ للمبالغة في التَّكذيب؛ أي: إنَّ الذين فخَّموهم بهذا النَّسب وشرَّفوهم يعلمون أنَّهم في ذلك كاذبون، مفترون(٦) بما يقولون، فيعذَّبون به.

وقيل: إنْ فُسِّرَتِ ﴿الْجِنَّةُ﴾ بالشَّياطين جازَ أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ لهم؛

---

(١) في (م) و(ع): «يشتمل».

(٢) في (م): «كل يجتن»، وفي (ي): «كل تحت» وفي (ع): «كل من يجتن».

(٣) في (ف) و(ك): «ومتى».

(٤) في (ف) و(ك): «إن».

(٥) في (م): «وعظموا لهم».

(٦) في (ف) و(ك): «مقرُّون».

أي: ولقد علمَتِ الشَّياطين أنَّ الله تعالى يعذِّبهم ويحضرهم النَّار، ولو كانوا مناسبين له تعالى لَمَا عذَّبهم.

وفيه: أنَّ علم الشَّياطين بذلك غير معلومٍ لا بشهادة العقل ولا بشهادة النَّقل، على أنَّ نسبة العلم إليهم قليلة[1] الجدوى.

***

(١٥٩) ـ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِن الولد والنَّسب.

***

(١٦٠) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطِع مِن ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: ولكنَّ المخلَصين ناجون، أو من واو ﴿يَصِفُونَ﴾؛ أي: ولكنَّ المخلصين برآء من أن يصفوه به.

ولاستعظام ذنبهم أوقعَ التَّنزيه معترضاً بين الاستثناء والمستثنى منه.

***

(١٦١ ـ ١٦٢) ـ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عودٌ إلى خطابهم ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله تعالى ﴿بِفَاتِنِينَ﴾: مفسدين النَّاسَ بالإغواء، يُقال: فتَنَ فلانٌ على فلانٍ امرأته: إذ أفسدها عليه.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «قليل».

و﴿أَنتُمْ﴾ ضمير لهم ولآلهتهم، غلِّبَ فيه المخاطَبُ على الغائب، والفاء في ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ للسَّببية من الاستثناء؛ أي: إذا كان المخلَصون برآءَ[1] من ذلك فلا تفتِنون أنتم وما تعبدون إلَّا مَن هو مِن أهل النَّار.

ويجوز أن تكون الواو بمعنى (مع)، و﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ سادٌّ مسدَّ الخبر، كقولك: كلُّ رجل وضيعتُه؛ أي: فإنكم مع ما تعبدون، بمعنى: فإنكم قرناؤهم وأصحابهم[2] لا تزالون تعبدونها، ثمَّ قال: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ما تعبدون ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بباعثين، أو حاملين[3] على طريق الفتنة والضَّلال إلَّا مَن هو ضالٌّ مثلُكم صالِ النَّار، فهو كلامٌ مبتدأٌ.

* * *

(١٦٣) ـ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بكسر اللَّام؛ أي: لستُم تضلُّون[4] أحداً إلَّا أصحابَ النَّار، الذين سبق في علمه تعالى أنَّهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يَصْلوها.

وقرئ: (صالُ)[5] بضمِّ اللَّام[6]، على الجمع والتقاء السَّاكنين، بمعنى: صالوا، محمولاً على معنى ﴿مَنْ﴾، والتَّوحيدُ في ﴿هُوَ﴾ على لفظه، أو على حذف لامه

---

(١) في (ف): «برؤوا».

(٢) «وأصحابهم» سقط من (ي).

(٣) في (م): «مائلين».

(٤) في (م): «تفتنون».

(٥) «صال» سقط من (م).

(٦) نسبت للحسن وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩).

وإجراء الإعراب على عينه، كما حذفت من قولهم: ما باليْتُ به بالةً، وأصله: بالية مِن بالى، كعافية مِن عافى، أو على القلب حتى يصير: صائل، ثم يقال: صال، في صائل، كما يقال: شاكٍ، في شائك.

* * *

(١٦٤) ـ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ أي: رتبةٌ معلومةٌ عندَ اللهِ تعالى معيَّنة لا يتجاوزها، وهو حكاية اعتراف الملائكة بالعبوديَّة، ردًّا على عَبَدتِهم، والوجه أن يكون هو وما قبله من قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ من كلامِهم متَّصلاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾، كأنَّه قال: ولقد علم الملائكة أنَّ المشركين معذَّبون بذلك، وقالوا: سبحان الله تنزيهاً، ثم استثنوا المخلصين تبرئةً لهم، ثم خاطبوا الكفرة بـ [أنَّ] الافتتان بذلك للشقاوة المقدَّرة، ثم اعترفوا بالعبوديَّة وتفاوُت مراتبهم فيه، لا يتجاوزونها[1].

وليس هذا من حذف الموصوف وإقامة الصِّفة مقامَه كما قيل؛ لأنَّ (أحد) المحذوف مبتدأ، و﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ خبرُه.

* * *

(١) في (ف): «لا يتجاوزهم»، وفي (ك): «فلا يتجاوزهم»، وفي (م): «لا يتجاوزه ولا يتجاوزوه»، وفي (ع) و(ي): «لا يتجاوزه». والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٠)، وما بين معكوفتين منه. وزاد في آخر الكلام: (فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه). فما سيأتي رد عليه.

(١٦٥) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أقدامَنا، أو[١] أجنحَتنا، في[٢] أداء الطَّاعة ومنازل الخدمة.

***

(١٦٦) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: المنزِّهون ربَّنا عمَّا لا يليقُ بشأنه، والأوَّل إشارة إلى درجاتهم في الطَّاعة، وهذا في المعارف، وما في (إنَّ)[٣]، واللَّام، وتوسيطِ الفصل، وتعريفِ الخبر في جملتي آخرِ كلام الملائكة من التَّأكيد والاختصاص؛ لأنَّهم المواظبون على ذلك دائماً مِن غيرِ فترةٍ دون غيرهم.

***

(١٦٧) ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ (إنْ) هي المخفَّفة من الثَّقيلة، واللَّام هي الفارقة؛ أي: وإنهم كانوا يقولون؛ أي: مشركو[٤] قريش:

(١٦٨) ـ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: كتاباً مِن كتبِ الأوَّلين.

***

---

(١) في (ف) و(ك): «و».

(٢) في (ف) و(ك): «من».

(٣) في النسخ: «إنما»، والصواب المثبت. انظر: «روح المعاني» (٢٣/ ١٩٣).

(٤) في (ف) و(ك): «مشركي».

(١٦٩) ـ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: لأخلصنا العبادةَ للهِ تعالى، ولَمَا كذَّبنا وخالفنا كما كذَّبوا وخالفوا.

* * *

(١٧٠) ـ ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: لَمَّا جاءهم الذِّكْرُ الذي هو أشرفُ الأذكار والكتابُ الذي هو معجِزٌ مِن بين الكتب كفروا به.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كفرِهم إذا حلَّ بهم الانتقام.

* * *

(١٧١) ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: حكمُنا، أو: وعدنا لهم بالنُّصرة[1] والغَلَبة، وهو قوله:

(١٧٢) ـ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وهي باعتبار الغالب والمقتضي بالذَّات، لا باعتبار كلِّ مرَّة، وإنَّما سُمِّيَتْ (كلمةً) وهي كلماتٌ؛ لانتظامِها في معنًى واحد، فهي في حكم كلمةٍ واحدةٍ.

وقرئ: (كلماتنا)[2]، وقرئ: (على عبادنا)[3] على تضمين ﴿سَبَقَتْ﴾ معنى: حقَّتْ.

---

(١) في (م) و(ي) و(ع): «بالنصر».

(٢) نسبت للضحاك. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٠).

(٣) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٥)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٦٥٧).

(١٧٤) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: فأَعرِضْ عنهم، وأغضِ[١] على أذاهم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى مُدَّةٍ يسيرةٍ هي الموعد لنصرهم[٢]، قيل: هو يوم بدرٍ، وقيل: هو يوم الفتح.

***

(١٧٥) ـ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما يصيبهم حينئذٍ مِن القتلِ والأسرِ، وفي مجيئه على صيغة الأمر تنبيهٌ على أنَّه كائنٌ لا محالةَ، قريبٌ كأنَّه قدَّامك. وفيه تسليةٌ له عليه السلام وتنفيسٌ عنه.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾: يبصرونك على ما ينالُك ممَّا قضينا لك من النُّصرة والغَلَبة. و(سوف) للتَّأكيد في الوعيد لا للتَّبعيد.

روي أنَّه لَمَّا نزلَ: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا: متى هذا؟ فنزلَ:

(١٧٦ ـ ١٧٧) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ﴾؛ أي: العذاب، وقرئ على البناء للمفعول مسنداً إلى الجارِّ والمجرور[٣]، كقولك: ذُهِبَ بزيدٍ، وقرئ: (نُزِّل) مشدَّداً[٤].

---

(١) في (ف): «واصبر».

(٢) الصواب: لنصرك عليهم.

(٣) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٩).

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ٦٨).

﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾: بفِنائِهم.

﴿فَسَآءَ﴾ وقرئ: (فبئس)[1].

﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: المخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ؛ أي: فساءَ صباحُ المنذرين صباحُهم.

واللَّام للجنس لاقتضاء فعل الذَّمِّ ذلك.

والصَّباحُ: الغارةُ، ولَمَّا كان عادةُ مغاويرهم أن يُغِيروا صباحاً سُمِّيَتِ الغارة به أيَّ وقتٍ وقعَتْ ولو عِشاءً.

شبَّهه[2] بجيش هجم[3] فأناخ بفنائهم بغتةً، فهو مِن باب التَّمثيل.

وقيل: هو نزولُ رسول الله ﷺ خيبرَ وكانوا خارجين إلى مزارِعِهم ومعهم المساحي، قالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم، فقال عليه السلام: «الله أكبر، خربت خيبر[4]، إنا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ[5] فساءَ صباحَ المنذرين»[6].

* * *

(١٧٨) - ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) نسبت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ٦٨).

(٢) في (م): «شبهت».

(٣) في (م): «بجيش هجمهم»، وفي (ع): «هجيس هجمهم»، وفي (ي): «هجيش هجهم».

(٤) في (م) و(ي) و(ع): «خرب خيبر».

(٥) في (ف) و(ك): «بقوم» بدل «بساحة قوم».

(٦) رواه البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ في تكريرِه تأكيدٌ لوقوع الميعاد على تأكيدٍ، وتسليةٌ بعدَ تسليةٍ.

وأُطلق الفعلان في الثَّاني بعد تقييد الفعل الأوَّل[1] بالمفعول؛ لزيادة المبالغة في عذابِهم كما بولغ في نصرته؛ أي: إنَّه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيطُ به الوصف من أنواع المسرَّة وأصناف المساءة، أو أريد بالأوَّل: عذابَ الدُّنيا، وبالثَّاني: عذابَ الآخرة.

***

(١٨٠) ـ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عمَّا قال المشركون فيه، وإضافة الرَّبِّ إلى العزَّةِ لاختصاصِها به؛ إذ لا عزَّةَ إلَّا له، ولِمَن يُعزُّه[2].

وقد أدرجَ فيه جملةَ صفاته الثُّبوتيَّة والسَّلبيَّة مع الإشعار بالتَّوحيد.

***

(١٨١) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرُّسل بالتَّسليم بعد[3] تخصيص بعضهم به.

***

(١) «الأول» زيادة من (م).

(٢) في (م) و(ي) و(ع): «يعز».

(٣) في (م) و(ي) و(ع): «مع».

(١٨٢) ـ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى مَن تبِعَهم من النِّعَم وحُسن العاقبة[1]، ولذلك أخَّره عن التَّسليم.

ولَمَّا كانَ مدارُ الكلام في هذه السُّورة على مقالة المشركين في الله بنسبة الولد والشَّريك إليه تعالى، ومقالة الرُّسل معهم، ومقاساتهم إيَّاهم، وما مُنِحوا مِن التَّأييد والنُّصرة عليهم = ختمَها على وَفقِ ما ضُمِّنَتْ بالتَّنزيه عمَّا يصفونه، والتَّسليم على المرسلين[2] بما تحمَّلوا مِن أعباء الرِّسالة وأذى المرسَل إليهم، والتَّحميد على ما أنعمَ به عليهم من النُّصرة في العواقب وإعزاز الدِّين وإعلاء كلمته[3].

* * *

(١) في (م): «العافية».

(٢) في (م): «الرسل»، وفي (ي) و(ع): «المرسل».

(٣) في (م) زيادة: «والله أعلم بالحقيقة والصواب وإليه المرجع والمآب».

وجاء في خاتمة النسخة (ف): «تم الكتاب بعون الملك الوهاب في صبيحة الاثنين العاشر من شهر شوال من شهور سنة اثنين وتسعين وتسع مئة، أحسن الله ختامها بمحمد وآله وصحبه».

وجاء في خاتمة النسخة (ع): «والمشهور في تفسير المرحوم لابن كمال الوزير تحريره إلى هنا».

وجاء في النسخة (ي): «قوبل وصُحح عن نسخة المصنف بقدر الوسع والإمكان، ثم نظر فيه».